

قشور جنبية
٢١٥

المجتمع الإنكلسي في العصر الأموي

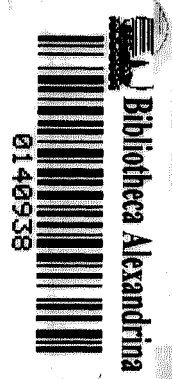
« ١٣٨٠ هـ / ٧٥٥ - ١٠٣٠ م »

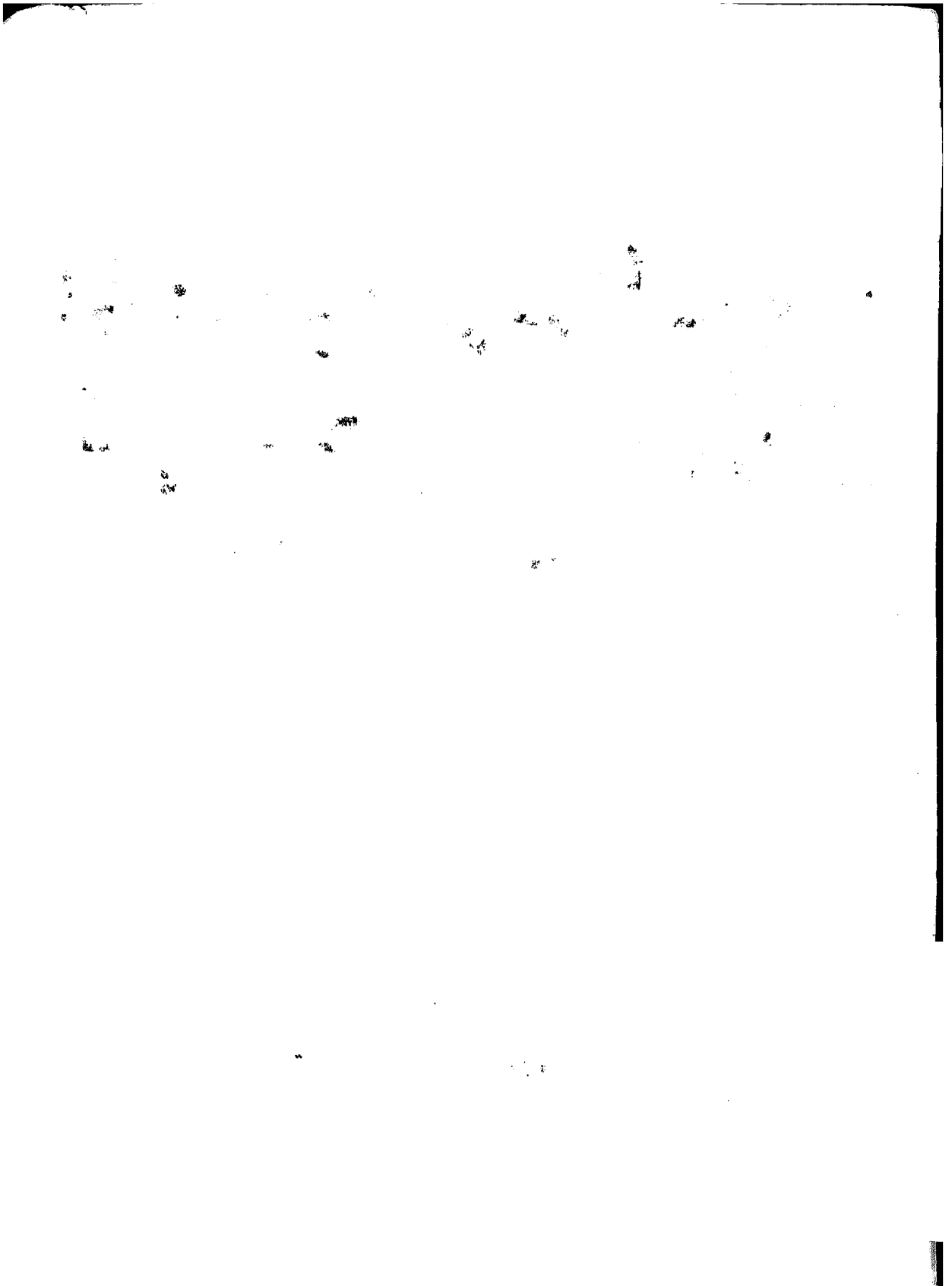
تأليف

الدكتور

حسين يوسف دويدار

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
جامعة الأزهر





١٥٥٧٩

المجتمع الأنرلسى فى العصر الأمرى

(١٣٨١ - ١٤٢٢ هـ / ٧٥٥ - ١٠٣٠ م)

المعهد العامة لكتابة الاسكندرية

رقم الكتاب: ٩٤٦.٨

٣٠٤٢

رقم التسجيل: ١٥.٥١

تأليف

الدكتور

حسین یوسف وزیر

استاذ مساعد بقسم التاريخ والحضارة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر



الطبعة الأولى
The Alexandria Library
Bibliotheca Alexandrina

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

مطبعة الحسين الإسلامية
٢٥ حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر
تليفون ٥١٠٦٧٢٤

[Faint, illegible handwriting]

<i>[Faint handwriting]</i>
<i>[Faint handwriting]</i>
<i>[Faint handwriting]</i>

[Faint, illegible handwriting]

[Faint, illegible handwriting]

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة
للعالمين ، سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله
وصحبه أجمعين . وبعد ...

فلا زالت الأندلس (الفردوس المفقود) — رغم كثرة ما كتب عنها
فى نواحى شتى — تحتاج إلى المزيد من البحوث والدراسات التى تعالج
مختلف مظاهر الحياة فيها .

وربما كان من أشد ما تفتقر إليه المكتبة العربية عن الأندلس تلك
الدراسات الشمولية التى تنظر إلى هذه البلاد وحضارتها فى العمر
الإسلامى ككل متماسك ، ولا تكتفى بمجرد السرد الوصفى على نحو
ما تفعل معظم كتب التاريخ ، وبخاصة فى النواحى السياسية
والحربية وإنما تحاول تحليل تلك الحضارة على ضوء نظريات فلسفه
التاريخ أو نظريات الثقافة أو البناء الاجتماعى .

وإذا كانت الحضارة الإسلامية فى المشرق والمغرب لا تزال فى حاجة
إلى مثل هذه الدراسات ، فإن الحاجة أشد بالنسبة للأندلس
باعتبارها حالة فريدة فى تاريخ الإسلام تمثل قيام حضارة متميزة
هى مزيج من ثقافة الإسلام والثقافة الأسيبانية الأوربية ازدهرت
ازدهارا هائلا بحيث تركت بصماتها على كل التاريخ الإسلامى بل
والعالمى أيضا ، ثم أخذت فى الضعف والتدهور والتراجع نتيجة
لما حل بالمسلمين فى الأندلس ، وإن تركت ورائها الكثير من الآثار التى
لا يزال بعضها باقيا فى المجتمع الأسيباني حتى الوقت الحاضر .

ولم تكن حضارة الأندلس حضارة بسيطة التركيب ، وإنما كانت

تتألف من عناصر متعددة ومتباينة أشد التباين فى أصولها البشرية والثقافية ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر قوة تلك الحضارة وراثتها ، وعاملا من أهم عوامل تلك القوة وذلك الثراء . غير أنه فى نفس الوقت كان يحمل بذور الضعف وأسباب التدهور والانتسام . وربما كان تعدد العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى هو العامل الأكثر أهمية فى ذلك التنوع الحضارى والثقافى ، والمركيزة الأساسية التى قام عليها فى الوقت ذاته .

ويتمثل هذا التنوع العرقى فى وجود الكثير من العناصر كالعنصر العربى والبربرى والإسبانى والصقلبى والميهودى إلى غير ذلك من أجناس .

والتاريخ الأندلسى له طبيعة خاصة ، فمعظمه بحروب ونزاعات قامت بين العناصر البشرية التى سكنت الأندلس سواء بين المسلمين وبعضهم ، أو بين المسلمين والمسيحيين الأسبان الذى جعل الأسبان يخصصون تاريخهم الوسيط فى أنه تاريخ (حركة الاسترداد) *La Recon Quista* . وهو ما يعبر عنه فى بعض الأحيان (بمعركة القرون الثمانية) *La Batalla de Ocho* هذه الطبيعة السياسية والحربية لتاريخ الأندلس جعلت المصادر — حتى فى حال توافرها — تغفل الجوانب الاجتماعية أو تشير إليها إشارات مقتضبة من بعيد .

ولا شك أن دراسة التاريخ اليوم أصبحت تعنى بالحضارة والتطور الاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى المقام الأول . ولا شك أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية تعتبر مؤشرا لحضارة أى مجتمع من المجتمعات ، ومن هنا كانت دراستها أمرا مهما لأنها فى النهاية تعبر عن حضارة هذا المجتمع ومدى تقدمه وازدهاره . ومن هنا فقد وقع اختيارى على دراسة المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة حيث اهتم الكثيرون بدراسة هذا العصر من النواحي

السياسية والحربية بينما كان الاهتمام قليلا بدراسة هذا العصر من الناحية الاجتماعية بصفة خاصة والتي هي نتاج ما يسمى بالحضارة . لأن هذا العصر قد شهد تأسيس الحضارة الإسلامية فى الأندلس وازدهارها ومن هنا كانت أهمية الموضوع .

ودراسة التاريخ ليست مجرد سرد للأحداث السياسية ، أو تصوير للمعارك الحربية أو ذكر لسير الملوك والخلفاء والسلطين فقط . وإنما أصبحت ذات نظرة فلسفية شمولية عامة يمكن الحكم بها على الدول والعصور ومدى تحضرها وتقدمها .

وهذا الموضوع الذى نحن بصدده - وهو المجتمع الأندلسى فى العصر الأموى - موضوع متشعب الجوانب متصل الحلقات يأخذ بعضه ببعض لأن دراسة الحياة الاجتماعية فيه هى النتاج النهائى لجميع أنواع الحياة فيه أو بعبارة أخرى نتاج ما يسمى بالحضارة .

ولذا فإن هذه الدراسة لا تتعرض لكل التفاصيل الجزئية الدقيقة ولكنها توضح لنا ملامح عامة لصورة هذا المجتمع من هذه النواحي التى أغفلها كثير من المؤرخين ولم يهتموا بها كثيرا ولم يوردوا عنها إلا نثقا وشذرات كان لا بد من البحث والتنقيب عنها كثيرا حتى يظفر الإنسان منها بشيء . وهذا خلافا لدارسى الحياة السياسية والحربية وسير الملوك والسلطين حيث يجدون مادة خصبة ثرية .

ولست ادعى أنني قد جمعت فأوعيت ، وأنتى قد الممت بكل دقيقة من دقائق الموضوع ، لأنه كما قلت متشعب الجوانب . ولكننى حاولت قدر جهدى وطاقتى أن أبلوره فى صورة يمكن أن تحظى بالقبول .

وقد قسمته إلى فصول ستة : تحدثت فى الفصل الأول عن عناصر السكان فى المجتمع الأندلسى وأهم مميزاتهم ، وتحدثت فى الفصل

الثانى عن العلاقات بين هذه العناصر بصفة عامة ، وخاصة بين العرب والبربر والإسبان ، وفى الفصل الثالث تحدثت عن حالة المجتمع الأندلسى من الناحية الدينية لما لها من تأثير كبير على الحياة الاجتماعية.

وأما الفصل الرابع فقد تحدثت فيه عن مظاهر الحياة الاجتماعية من ميدان وعماثر ، وطعام وشراب ، وملابس وأزياء ، وزينة وحفلات ، والعباب وغير ذلك .

وأما الفصل الخامس فقد تحدثت فيه عن الحالة الاقتصادية وأثرها على الحياة الاجتماعية .

وفى الفصل السادس والأخير تحدثت عن حالة المجتمع من الناحية العلمية والثقافية .

وقد حاولت قدر جهدى وطاقتى فى هذا الموضوع المتشعب الطويل ، والله وحده يعلم كم عانيت فيه من جهد ومشقة ، وإذا كان فى عملى شىء من النقص أو القصور ، فإننى أتمس سعة الصدر والتوجيه فيما عسى أن يكون ماثرا للنقد أو الاعتراض . والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والسداد والهدى والرشاد ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

مدينة نصر/يناير سنة ١٩٩٤ م .

د. حسين يوسف تويدار

مقدمة

(1) هذا الكتاب من تأليف الأستاذ الدكتور محمد عبد الحليم عبد الله

وهو من أهم المؤلفات التي تناولت موضوع السكّان في الأنديز، حيث تناول المؤلف في هذا الكتاب دراسة تحليلية عميقة لظاهرة السكّان في الأنديز، من حيث التوزيع الجغرافي، والتركيب السكاني، والديناميكية السكانية، والعوامل المؤثرة في نمو السكّان، والمشاكل التي تواجهها المجتمعات السكانية في الأنديز.

وهذا الكتاب من شأنه أن يساهم في إثراء المعرفة العلمية في مجال السكّان في الأنديز، كما أنه من شأنه أن يكون مرجعاً هاماً للباحثين والدارسين في هذا المجال.

الفصل الأول

عناصر السكّان في الأنديز

يهدف هذا الفصل إلى التعرف على العناصر الأساسية للسكّان في الأنديز، من حيث التوزيع الجغرافي، والتركيب السكاني، والديناميكية السكانية، والعوامل المؤثرة في نمو السكّان، والمشاكل التي تواجهها المجتمعات السكانية في الأنديز.

ويبدأ المؤلف في هذا الفصل بتناول التوزيع الجغرافي للسكّان في الأنديز، حيث يلاحظ أن السكّان في الأنديز يتركز في المناطق المنخفضة، وخاصة في المناطق الساحلية، بينما تكون الكثافة السكانية منخفضة في المناطق الجبلية والمرتفعة.

ويشير المؤلف إلى أن التوزيع الجغرافي للسكّان في الأنديز يتأثر بالعوامل الطبيعية، وخاصة التضاريس، والمناخ، والموارد الطبيعية، كما يتأثر بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية، وخاصة النشاط الزراعي، والتجارة، والعمالة.

تهيد

عناصر السكان فى الأندلس (1)

كان المجتمع الأندلسى يتكون من عناصر شتى تنوعت أصولها البشرية وعقائدها وثقافتها ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر وموالى ، وفيه الموالى المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، وفيه الماليك الجلوبون من بلدان عديدة .

أما أهل البلاد فهم الذين أطلق عليهم (عجم الأندلس) وكانوا فى أكثريتهم من الأسبان الذين دخلوا فى الإسلام فسماوا بالمسالمة ، ومن الذين بقوا على ديانتهم من الأسبان والرومان والقوط ، واليهود وغيرهم وأصبحوا أهل ذمة .

وأما الوافدون فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، كما كان منهم البربر الذين قدموا من شمال أفريقيا . وكان أوائلهم يمثلون الجيش الفاتح للبلاد بقيادة طارق بن زياد . ولم يلبث هؤلاء الفاتحون الجدد أن اختلطوا بأهل البلاد وتزوجوا منهم ، وكان من ثمار هذا الاختلاط ظهور عنصر جديد هو عنصر المولدين .

(1) الأندلس : لم تعرف هذه البلاد بهذا الاسم إلا بعد فتح المسلمين لها ، وهذا اللفظ الذى أطلق على الأقاليم التى خضعت لسultan المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا لا يقتصر مدلوله على المعنى الجغرافى ، بل يشمل مختلف العناصر التى استطلت بظل المسلمين سواء أسلمت أم لم تسلم . ويعبر ياقوت الحموى عن هذه التسمية فيقول « هى كلمة أعجمية لم تستعملها العرب فى القديم وإنما عرفتھا فى الإسلام » .

(معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٣ دار صادر بيروت) ، وباستثناء الإشارات المعارضة والقليلة التي وردت في كتب الرحالة والمؤرخين والجغرافيين الأندلسيين ، فإن المصادر العربية القديمة لا تعرف كذلك كلمة (إسبانيا) . والمصادر العربية عدا القليل منها تقول بلاد الأندلس .

وقد كان المستشرق الهولندي (دوزى ت سنة ١٨٨٣ م) أول من بحث هذه المسألة ، ثم جاء المستشرق (سيبولد) فتوسع فيها ، وسار على رأى دوزى في أن كلمة أندلس أخذت من لفظ (فانداليسيا Wandalacia) أو فنداليسيا . الذي كان يطلق على إقليم باطقة الذي احتلته قبائل الوندال الجرمانية (أو الفاندال) ما يقرب من عشرين عاما منذ سنة ٤٠٩ م . وكان نصارى الأسبان يطلقون على هذا الإقليم اسم إشبانية أو شبانية باسم رجل يقال له إشبان بن طيطس أو اشبانس (د . الطاهر مكى : دراسات أندلسية ص ١٣) أو نسبة إلى مدينة إشبيلية التي كانت تعرف في العصر الروماني باسم (إشباليس : Hispalis) .

وكان العرب يطلقون أول الأمر هذا الاسم على هذا الإقليم الجنوبي بالذات ، ثم عمموا على شبه الجزيرة كلها . وعندما بدأ سلطان المسلمين في التقلص أصبح هذا الاسم يطلق على الأراضى الباقية في أيديهم حتى اقتصر على آخر مملكة لهم بالأندلس وهي غرناطة (انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة أندلس ج ٣ ص ٣٥ ، دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب رقم ٦١ ص ٣) .

وهذا التدرج في التسمية تؤيده رواية الحميري عن البكري التي يقول فيها « إن اسم شبه الجزيرة في القديم كان إياريه (أيبيريا) ، ثم سميت بعد ذلك باطقية ثم سميت إشبانيا باسم رجل ملكها في القديم ، أو الإشبان الذين ملكوها في الأول من الزمان ، ثم أطلق عليها الأندلس أخذا من اسم الأندليش الذين سكنوها » يقصد بهم قبائل الوندال .

(الروض المعطار ص ٣٢ ، البكري : المسالك والممالك ص ٥٨) .

وعلى هذا فإن لفظ الأندلس معرب من الوندال Vandalus

(الفاندال أو الفاندالموس) وهي القبائل الجرمانية التي غزت شبه

الجزيرة في القرن الخامس الميلادي . فلما جاء المسلمون بعد

الفتح عربوا هذا الاسم من (وندلس) بعسد همز الصوت الأول

إلى أندلس : (انظر : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٤ ،

د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩) .

وتد ذكر بعض المؤرخين المسلمين عدة تعليقات لهذه

التسمية تبعد عن التحقيق التاريخي ، وتقرب من الروايات السماعية

شبه الأسطورية . فقد ذكر المقرئ عن ابن سعيد المغربي : أن

هذه البلاد سميت باسم الأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح

عليه السلام لأنه أول من نزلها .

وذكر ابن الأثير : أنها سميت باسم أندلس بن يافث بن نوح

لأنه أول من سكنها وعمرها .

كما ذكر ابن عسار وابن الأثير أيضا : أن أول من سكن

هذه البلاد قوم يعرفون باسم الأندلس بالشين المعجمة فسمى
البلد بهم ثم عرب بعد ذلك بسين مهلة . والمعروف أن هؤلاء
لم يكونوا أول من سكن هذه البلاد ، بل سبقتهم أجناس أخرى
كالغنيقيين واليونان والرومان . وثبته بهذه التعليقات ما ذكره
البعض في إطلاق لفظ إسبانيا على هذه البلاد :

هل هو نسبة إلى إشبان بن طيطش الذي كان اسمه أصبهان
ثم تحول في لسان المعجم إلى إشبان ، وأنه تقابل مع الخضر
عليه السلام ، وبشره الخضر بالملك العظيم والاستيلاء على بيت
القدس في عسارات مسجوعة كسجع الكهان أوردها المقسري
في (نفع الطيب ج ١ ص ١٣٤) ومنها « يا إشبان إنك لذو شأن ،
وسوف يحظيك زمان ، ويعليك سلطان ... الخ » .

أو نسبة إلى رجل صلب في هذه البلاد يسمى إشبانس
إلى غير ذلك (انظر : نفع الطيب ج ١ ص ١٣٠ وبعدها ، الكامل
ج ٤ ص ٥٥٦ وبعدها ، البيان المغرب ج ٢ ص ١ - ٢) .

والرأى الراجح أن هذه التسمية قد أطلقها الفينيقيون - عندما
عزوا هذه البلاد في القرن العاشر قبل الميلاد - على الشاطى الذي
نزلوا عليه Ischepan- im أى شاطىء الأرانب حيث وجودا
أسرابا كثيرة منها عليه . ثم حرف هذا الاسم بعد ذلك إلى
Hespania أو إسبانيا . (انظر : د. أحمد هيكل : الأدب
الأندلسي ص ٥ ، د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس

وأما الماليك فكان يؤتى بهم من أماكن شتى في أوروبا وخاصة من المناطق السلافية . وكان تجار الرقيق من الجرمان واليهود وغيرهم يسبونهم صفارا ، ثم يبيعونهم في أسواق إسبانيا ، وقد عرف هؤلاء باسم الصقالبة . ثم غلب هذا الاسم على كل الرقيق الأبيض حتى ولو لم يكن سلافيا .

وكان من الطبيعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض وتتلاقى - سواء بالمصاهرة أو العشرة أو الجوار أو التعامل - وأن يأخذ بعضها من بعض مما كان له أثره في إثراء الحضارة الأندلسية وازدهارها .

والحق أنه رغم تعدد العناصر السكانية في الأندلس ، ورغم الاختلاف فيما بينها في نواحي شتى ، إلا أن الروابط القوية وبخاصة روابط الإسلام والعروبة كانت تشد أغلبها في كثير من الأحيان ، وتطبعها بالطابع الأندلسي المميز حتى من لم يدخل منهم فيه . فقد كانت هناك

ص ٩) . هذا وقد ظل اسم الأندلس الذي أطلقه المسلمون على شبه جزيرة إيبيريا (إيبيرية) مدة طويلة ولم ينته بخروجهم منها ، وإن أخذ مدلوله يتناقص تبعا للوضع السياسي للمسلمين حتى صار في آخر الأمر يطلق على مملكة غرناطة ، وأصبح في اللغة الإسبانية أندلثيا أو أندلوسيا (Andalusia) ويطلق الآن على ثمانية أقاليم في جنوب إسبانيا : وهي المرية ، وغرناطة ، وجيان ، ومرطبة ، ومالقة ، وقادش ، ووابة ، وإشبيلية . انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٢٩ ، د. أحمد هيكل الأدب الأندلسي ص ٤ ، الخزرجي : بين الإسلام والمسيحية ص ٧ - ٨ تحقيق د. محمد شامة) .

دائما البيئة المشتركة ، والثقافة المشتركة ، وكانت هناك غالبا الحكومة الواحدة ، والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك الحضارة التي صبغت هذه العناصر على اختلافها بصبغتها الواضحة .

وكان لكل من هذه العناصر اثره في تلك الحضارة التي لم ينطفئ شعاعها بزوال سلطان المسلمين ، بل ظلت متقدة في نفوس صانعيها والمتأثرين بها قرونا عديدة ، وما زالت بعض شواهدنا وآثارها باقية في إسبانيا حتى اليوم .

فالحضارة الإسلامية في الأندلس هي نتاج ذلك التفاعل والتبادل بين كل هذه العناصر البشرية التي عاشت على أرضها وانصهرت غالبا في بوتقتها حتى أصبح لها شخصية مميزة شملت مختلف العناصر هي الشخصية الأندلسية (٢) .



(٢) انظر د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسي ص ٢٢ .

د. لطفى عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ١٧ .

د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٢٢ - ٢٣ ،

د. العبادي : الإسلام في أرض الأندلس ، مجلة المختار من عالم

الفكر ص ٩٤ سنة ١٩٨٤ .

أولا : العنصر العربي

مثل العنصر العربي أهم سكان الأندلس ، وأبرز عناصر المجتمع ، حيث كان العنصر القائد والمسيطر على هذه البلاد منذ البداية ، وكانت طليعة هذا العنصر قد جاءت مع موسى بن نصير سنة ٩٣هـ واستقرت بعد الفتح ، وسماوا بالبياديين ، وبلغ عددهم ثمانية عشر ألفا جلهم من العرب والموالي وعرفاء البربر كما تقول بعض الروايات (١) .

وقد سبقت هذه الطليعة أعداد قليلة كانت في الجيش الفاتح بقيادة طارق بن زياد (٢) . يقول صاحب أخبار مجموعة « فدعا موسى مولى له كان على مقدمته يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين جلهم

(١) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ . وليس كما ذكر د. السيد عبد العزيز سالم بأن الثمانية عشر ألفا كانوا من العرب . (انظر مجلة عالم الفكر ص ١٢٩ عدد ٣ سنة ١٩٨٤) .

(٢) وقيل طارق ابن عمرو (انظر جذوة المقتبس ص ٢٤٨ ، بغية المتلمس ص ٣٢٨) . وقد اختلف في أصله : فذهب البعض إلى أنه بربري من قبيلة نفزة (نفزاوة) ، وقيل من زناتة (المقرى : نفع الطيب ج ١ ص ١٥٢) ، وذهب البعض الآخر إلى أنه كان مولى لموسى بن نصير من أصل فارسي من همذان . وقيل أنه ليس لموسى وإنما هو لرجل من صدف ، وقيل مولى لهم .

وذكر ابن عذاري نسبه هكذا : « طارق بن زياد بن عبد الله ابن رنهو بن ورفجوم بن نيرغاس بن ولهاص بن يطوفت بن تفزاو » (البيان المغرب ج ٢ ص ٦) ، وقيل إنه من سبى البربر . والراجح أنه بربري من نفزة . (انظر أخبار مجموعة ص ٦ ، نزهة المشتاق ص ١٧٩) .

من البربر والموالي ليس فيهم حرب إلا قليل» (٢) ، ثم طالعة الحبر
ابن عبد الرحمن الثقفي (توفي ذى الحجة ٩٧ هـ) : حيث قدم واليها على
الاندلس ومعه « أربعمائة رجل من إفريقية فمنهم أول طوابع الاندلس
المعدودين » .
ثم تعاقبت أفواج العرب بعد ذلك ، ومن أشهرها الفوج الذي
قدم إلى الاندلس مع بلج بن بشير القشيري سنة ١٢٤ هـ ، والذي
أطلق عليه (طالعة بلج) ، وأصبح هؤلاء يلقبون بالشاميين تمييزا
لهم عن الطلائع الأولى التي كانت في الفتح وبعده مباشرة واستقرت
وسميت (بالبلديين) . وكانت هذه الطالعة تبلغ نحو عشرة آلاف منها
ثمانية آلاف من العرب والغان من الموالي (٤) .

كما وفد عدد من العرب الشاميين مع أبي الخضر اليمنى سنة ١٢٥ هـ
الذى ولى الاندلس لفض النزاع الذى دار بين البلديين والشاميين ، وإقرار
الأمن والنظام بالاندلس ، وسمى هؤلاء (بالطلعة الثانية) (٥) .

كما قدمت موجة جديدة من القبائل العربية من الأمويين وأنصارهم
خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالاندلس بقيادة عبد الرحمن الداخل

(١) أنظر عنسان : دولة الإسلام في الاندلس هامش ٢ ص ٣٩ .

د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٣١٢ ، د. أحمد
الشعراوي : دراسات في تاريخ أسبانيا ص ٤٩ - ٥٠ .

(٢) مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الاندلس ص ٦ ، وأنظر كذلك
الروض المعطار ص ٩ ، نصح الطيب ص ٢٣١ ، البيان المغرب
ج ٢ ص ٦ .

(٤) أخبار مجموعة ص ٢٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح
الاندلس ص ١٥ .

(٥) يذكر ابن القوطية أنهم كانوا ثلاثين رجلا ولكننا نعتقد أن تبعهم
كثيرون حيث سماوا بالطلعة الثمانية (تاريخ افتتاح الاندلس
ص ١٩) .

(صقر قريش) نظرا لاضطهاد العباسيين للامويين وانصارهم بالشرق ، وترحيب عبد الرحمن بهم ، فضلا عما سمعوه من خصب هذه البلاد وغناها . وتتابع اندفاع القبائل العربية من قيس وكنانة واليمن إلى الأندلس للاستقرار بها والإقامة فيها ، وقد كان هناك عدد كبير من التابعين في هؤلاء الداخلين إلى الأندلس فضلا عن أحد الصحابة أشارت إليه بعض المصادر وهو المنذر الأسلمي الذي دخل الأندلس مع موسى ابن نصير وكان قبل ذلك قد نزل إفريقية ، وذكر أنه حدث عن رسول الله ﷺ بحديث ذكره ابن الأثير والمقري وهو « من قال إذا أصبح رضيته بأبي ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً فأنا الزعيم لأخذن بيده حتى أدخله الجنة » (٦) .

وقد ذكر القيرواني : أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفتقون أهل إفريقية (٧) وأن ثلاثة منهم دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير وهم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المعافري الأنصاري ، وحيان بن أبي جبلة القرشي ، وأبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي .

كما ذكر المقري وغيره (٨) أسماء آخرين من التابعين الذين دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير أو بعده ومنهم : أبو راشد حنش ابن عبد الله الصنعاني ، وحيوة بن رجاء التميمي وزيد بن قاصد السكسكي ، وعبد الجبار بن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهري وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي — قائد المسلمين في بلاط الشهداء — ،

(٦) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٢ ص ٤١٧ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٩ .
(٧) طبقات علماء إفريقية وتونس ص ٨٤ .
(٨) انظر : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٨ ، ص ٢٨٨ ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ . وقد وضع ابن بشكوال كتاباً لا يعرف له وجود حتى الآن عن التابعين الذين دخلوا الأندلس أشار إليه المقري وهو بعنوان (التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين) وهو نفع الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ٦٠ .

والمغيرة بن أبى بردة الكناني ، وعلي بن رباح بن نصير اللخمي ، وعياض
ابن عقبة بن نافع الفهري ، ومحمد بن أوس ابن ثابت الأنصاري ،
ومنصور بن حزام ، وعبد الله بن المغيرة بن أبى بردة الكناني .

وقد أورد المقرئ أنساب العرب ومنازلهم بالاندلس نقلا عن
ابن غالب وابن حزم فذكر أنه « لما استقرت قدم الإسلام بالاندلس ،
وتقام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب همهم إلى الحلول بها ،
فنزل بها من جرائيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم .

فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش ، وأما بنو هاشم من
قريش فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين
ابن علي بن أبى طالب ، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد
انتشار ملك بنى أمية ، وأما بنو أمية فمنهم خلفاء الأندلس ، وكانوا يعرفون
أيضا بالقرشيين ، وأما بنو زهرة فمنهم بإشبيلية أعيان متميزون .

وفى الأندلس من ينسب إلى جمح وبنى بنى عبد الدار ، وكثير من
قريش المعروفون بالفهريين من بنى محارب بن فهر وهم من قريش الطواهر ،
ومنهم عبد الملك بن قطن سلطان الأندلس ، ومن وأده بنو القاسم الأبراء
الفضلاء ، وبنو الجند الأعيان العلماء ، ومن بنى محارب بن فهر
يوسف بن عبد الرحمن الفهري سلطان الأندلس الذى غلبه عليها
عبد الرحمن الأموي الداخل وجد يوسف عقبة بن نافع الفهري صاحب
الفتوح بإفريقية ، ولهم فى الأندلس عدد وثروة .

وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير وجلهم فى طليطلة وأعمالها ،
وإليهم ينسب الوثعشيون الكنانيون الأعيان الفضلاء الذين منهم القاضى
أبو الوليد والوزير أبو جعفر ، ومنهم أبو الحسين بن جبير العالم صاحب
الرحلة . وأما هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر فمنزلهم بجهة أريولة
من كورة تدمير ، وأما تميم بن مرة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر فخلق

كثير ، وهؤلاء خندق من العدنانية . وأما قيس عيلان بن إلياس بن مضر من العدنانية غنى الأندلس كثير منهم ينتسبون إلى العموم ، ومن قيس من ينتسب إلى هوازن بن منصور بن عكرمة وهم باشبيلية كثير ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن هوازن ، ولهم منزل بجوفى بلنسية على ثلاثة أميال منها ، وبإشبيلية وغيرها منهم كثير ، ومنهم من ينتسب إلى سعد ابن بكر بن هوازن ومنهم كثير بفرناطة .

ومن ثقيف بالأندلس جماعة وإليهم ينتسب الحر بن عبد الرحمن الثقفي وإلى الأندلس .

وأما ربيعة بن نزار فمنهم من ينتسب إلى أسد بن ربيعة بن نزار ، وإقليم هؤلاء مشهور باسمهم بجوفى مدينة وادي آش ، ومنهم من ينتسب إلى محارب بن عمرو ومنهم بنو عطية أعيان فرناطة ، ومنهم من ينتسب إلى النمر بن قاسط كبنى عبد البر الذين منهم الحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، ومنهم من ينتسب إلى تغلب بن وائل كبنى حمديس أعيان قرطبة ، ومنهم من ينتسب إلى بكر بن وائل كالبكريين .

وأما أياد بن نزار فينتسب إليهم بنو زهرة المشهورون بإشبيلية وغيرهم .

وكان القحطانية وهم المعروفون باليمانية الأكثر بالأندلس ، والمسلك فيهم أرسخ إلا ما كان من خلفاء بني أمية فإن القرشية تسدمتهم على الفرقتين . وكثيرا ما كان يقع بينهم وبين المضرية وسائر العدنانية الحروب بالأندلس كما كان يقع بالشرق « (٩) » .

(٩) المقزى : نفع الطيب ج ١ ص ١٣٦ وبعدها . الطبعة الأزهرية . سنة ١٣٠٢ هـ .

ومن القبائل الشهيرة التي نزلت بعض بيوتها بالأندلس قبيلة الخزرج التي يتصل بها نسب بني نصر (بنى الأحمر) ملوك غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس .

ويذكر المقرئ نقلاً عن الرازي : أنه دخل الأندلس من ذرية سعد ابن عبادة الخزرجي الصحابي الجليل سيد الخزرج رجلان أحدهما نزل أرض تاكرونا (تاكرنا) ، والآخر نزل قرية من قرى سقرسطونة عرفت بقرية الخزرج (١٠) .

وقد ذكر ابن حزم : أنه كان لسعد بن عبادة رضى الله عنه ولدان قيس وسعيد وقال : « ولسعيد هذا عقب بالأندلس بقرية ويقال لها قريلان من عمل سقرسطنة من قبل الحسن بن سعيد بن سعد بن عبادة ، وبشذونة بنو عرمم بن جميل بن عصام بن قتادة بن وتاد بن قيس ابن سعد بن عبادة » (١١) .

وقد ظل العرب بالأندلس يحفظون أنسابهم ويفتخرون بها وبالصفة التي تربطهم بالقبائل العربية حتى بعد اختلاطهم بغيرهم من العناصر الأخرى في الأندلس وشكلوا نواة الإستقرارية والبرجوازية في المدن (١٢) .

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ج ٢ ص ٦٠ ط ١ الطبى سنة ١٣١٩ هـ .

(١١) جبهة أنساب العرب ص ٣٤٦ طبع دار المعارف بدمر سنة ١٩٤٨ م

(١٢) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية في اسبانيا ص ١٨ ترجمة د. الطاهر مكي ط ١ دار المعارف سنة ١٩٧٩ م .

وكانوا يتميزون بالعشائر والافخاذ والتبائل إلى أن قطع ذلك المنصور ابن أبي عامر ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم ، وتمصبهم في الاعتزاء ، وقدم القواد على الأجناد ، وجعل في جند القائد الواحد عدة فرق من كل قبيلة وذلك للقضاء على العصبية العربية ليسهل عليه السيطرة على مقاليد الأمور في الأندلس . وكان لذلك أثره الواضح في انحسار مادة الفتن والثورات الداخلية كثيرا عن ذي قبل ، وفي إضعاف نفوذ العنصر العربي (١٣) .

ثانيا : العنصر البربري

البربر هم سكان شمال إفريقيا أو ما يعرف ببلاد المغرب التي تمتد من حدود مصر الغربية حتى ساحل المحيط الأطلسي . وقد قسم الجغرافيون العرب هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام بعد الفتح الإسلامي لها بحسب القرب أو البعد عن مقر الخلافة في المشرق وهي :

المغرب الأدنى (إفريقيا) وقاعدته القيروان ، والمغرب الأوسط وقاعدته تلمسان . والمغرب الأقصى وقاعدته فاس (١) . وكان العرب يستعملون لفظ إفريقيا ليشمل المغرب الأدنى والأوسط (٢) .

(١) أنظر ابن خلدون المقدمة ص ٥٩ - ٦٠ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٩١ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ص ٢٩٤ هامش ٢١ .

وقد اختلف المؤرخون والكتاب في تسمية البربر بهذا الاسم . فقد ذكر ابن خلدون أن أحد ملوك التباغة في اليمن ويدعى إفريقش بن قيس ابن صيفى غزا بلاد المغرب فبنى بها المدن والأحصار فسماها باسمه ، وأنه سمع السكان يتكلمون بلغة غير مفهومة فقال : ما بربرتمك فسماها بالبربر (العبر ح ٦ ص ١٠٦) . وذكر النفيروز بادى : أن البريرة هي كثرة الكلام والجلبة والصياح والفعل بربر (ترتيب القاموس المحيط ص ٤٤٠) . وذكر البعض أنهم ينسبون إلى مهاجر عربي من حبير يسمى (بر بن قيس) وأنه عندما هاجر إلى بلاد المغرب لم يفهم لغة أهلها فسماها بريرة وسماهم البربر (انظر د . حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣) . وسار بعض الكتاب المعاصرين على ذلك فقال : إن

كلمة بربر أطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم يتكلمون بلغة غير مفهومة ، والعرب يطلقون هذه الكلمة على الأصوات المتجمعة غير المفهومة لهم .

(انظر تاريخ الفتح العربي للبيبا ص ٦) . وعلى هذا فإن تسمية البربر بهذا الإسم لا علاقة له بلون البشرة أو الجنس وإنما باللغة فلما كانت لغة هؤلاء السكان غير عربية غدت في نظر العرب غير مفهومة ، فأطلقوا عليها بريرة ، كما أطلقوا كلمة عجمية أو أعجمية على لغة الأعاجم . بينما ذهب آخرون إلى أن هذا اللفظ إفريقي كان اليونان يطلقونه على كل من لايتكلم الإغريقية فكانوا يسمونهم (بارباروى)

ثم جاء الرومان فأطلقوا هذا الإسم على سكان شمال إفريقية (المغرب) Barbari (بربري) بمعنى غير متحضر لأنهم كانوا يعتبرونهم غرباء على حضارتهم ، وعربه المسلمون إلى بربر أو برابر ،

كما أطلق الرومان على سكان إقليم مورطانية إسم مور Maures وما لبث هذا الإسم أن عمم على ساثر البربر ، أو أن هذا الإسم مشتق من سكان بريرة على ساحل البحر الأحمر الذين كانوا أصل سكان إفريقية . (انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٨ ، د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ٤٩ هامش ٢٧ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول ص ١٣ هامش ٢) .

وقد استعمل الفرنجة هذه الكلمة وقصدوا بها معنى آخر أشار

ويحاول بعض المؤرخين والكتاب العرب إرجاع نسب البربر إلى أصول عربية. فيذكر الفيروزيارى : أن البربر عرب أصلا وهم من ولد قيس عيلان ، أو بطنان من حمير وهما صنهاجة وكتامة ساروا إلى المغرب أيام فتح إفريقيش بن قيس بن صيفى لها (٣) .

ويؤكد ابن خلدون ذلك فيروى عن البكرى : انه كان لضر ولدان هما قيس ودهبان ، وأن البربر يقتسبون إلى قيس بن عيلان من حمير ولذلك يفتخر أحد شعراء البربر بقوله : *أنا من بني قيس بن عيلان*

أيها المسائل عنا أصلنا قيس عيلان بنو العز الأول

إن قيسا قيس عيلان هم مفسد الحق على الخير نال

ولذا يرى بعض علماء النسب من العرب : أن لواته من حمير ، وهوارة من كندة ، وزتاته من التباينة أو العمالقة ، وأن زواوة ومكلائه من حمير أيضا (٥) .

كما يرى بعض المستشرقين هذا الرأي فيقول : إن عددا من سكان

إليه الأب لويس معلوف بقوله « وفي الجاز البربرى هو المتوحش والهيجى » (المنجد فى اللغة والأعلام ص ٣١) .

والحققة أن البربر لا يسمون أنفسهم بهذه التسمية ويرونها تعبيرا مستهجنا وإنما يسمون أنفسهم بأسماء قبائلهم وشعوبهم كالمصادة والزواوة وصنهاجة وكتامة . (انظر د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ح ١ ص ١٢٦) .

(٣) ترتيب القاموس المحيط ج ١ ص ٢٢٨ ، ص ٢٧٩ .

(٤) العبر ج ٦ ص ٦٥ .

(٥) الطاهر الزاوى : تاريخ الفتح العربى لليبيا ص ٧ .

تشبه الجزيرة العربية قد هاجروا إلى شمال إفريقية عن طريق الساحل الغربي من الجزيرة ، وأنه سلك هذا الطريق نحو إفريقية مهاجرين ساميون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م واستقروا هناك (٦) .
والحقيقة أن مسألة أصل البربر العربي هذه لا يمكن الجزم فيها برأي قاطع بهذه السهولة نظرا لتطاول القرون وتعاقب الأجيال وهجرات القبائل والشعوب من مكان إلى آخر تبعا لظروف البيئة والمناخ والحاجة والغزو والحروب وغير ذلك ، ونظرا لتشعب الآراء وتعددتها في هذه المسألة (٧) .

حدث يذكر البعض أن البرانس هم أصل البربر وأنهم سكنوا هذه البلاد منذ القديم ، وأنهم ينتمون إلى سكان حوض البحر المتوسط حيث يشبهون سكان جزر البحر المتوسط وسكان الأندلس من حيث بياض اللون وشقرة الشعور وزرقة العيون ، وأن البتر هم جدد نسبيا على بلاد المغرب قدموا في الغالب من جنوب غرب القارة الإفريقية ، ونزلوا ببرقة أولا ، ثم انتشروا غربا ، وأنهم جنس إفريقي أسمر البشرة اختلط بالسكان الأصليين من البرانس ، ومن اختلاط هذين العنصرين نشأ العنصر البربري الذي استعرب بعد ذلك باختلاطه بالعرب بعد فتح بلاد المغرب (٨) .

(٦) فيليب حتى : تاريخ العرب ج ١ ص ١٠ ، ١٤ .

(٧) يقول ابن حزم : قال قوم : إنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، وادعت طوائف منهم إلى اليمن وإلى حمير ، وبعضهم إلى قيس عيلان . وهذا باطل لا شك فيه وما علم النسابةون لقيس عيلان ابننا اسمه بر أصلا ، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن (جبهة أنساب العرب ص ٤٩٥) .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣ ، ٢٤ .

كما يذهب البعض الآخر إلى أنهم ينتمون في أصلهم إلى الجنس الحامى وإن كانوا من نفس العنصر الليبي القديم الذى عرفه الفراعنة (٩).

ومهما يكن من اصل البربر فيبدو أن العرب قد عرفوا الطريق إلى شمال إفريقيا منذ زمن طويل حيث ذكر ابن خلدون : أن ملوك اليبين من التبابعة قد غزوا شمال إفريقيا عدة مرات فاستكان لغلبهم السكان ، ودانوا بدينهم وإن كان فى هذا شىء من التجوز والتعميم .
ومن المتعارف عليه أن البربر ينقسمون إلى قسمين كبيرين أو جذيين عظيمين هما البتر والبرانس ، وربما كانوا من أصل واحد كما ذهب ابن خلدون (١٠) .

أو أنهما جذيين يهذين الإسمين ، أو نسبة لنوع الحياة وأسلوب المعيشة والطابع الحضارى لكل منهما . فالبرانس : هم الذين يعيشون فى السواحل والريف ولهم الحواضر ، والبتر : هم الذين يعيشون فى طور البداوة ويتخذون بيوتهم من الشعر ، وينتجعون المراعى بين الجبال والوديان والصحارى (١١) .

(٩) د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢ ص ٤٩ هامش ٧

(١٠) العبر : ج ٦ ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ . حيث ذكر أن العرب لما دخلوا بلاد المغرب ، بعد الفتح تأثروا بانقسامهم إلى قحطانيين وعدنانيين فقسموا قبائل البربر إلى قسمين كذلك قسم نسبوه إلى ماذغيس بن بر المثقب بالأبتر فسموا الأبتر ، وقسم نسبوه إلى برنس بن بر فسموا بالبرانس .

(١١) د. حسين مؤنس : المرجع السابق ص ٢٣ ، د. العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .

وقد فسّر البعض هذين الإسمين بأنها نسبة إلى الزى الذى يلبسونه فالبرانس هم الذين يلبسون البرنس — وهو الزى الذى لا يزال المغاربة يلبسونه إلى الآن — والبتر هم الذين لا يلبسونه .

والحقيقة أن هذا التفسير اللغوى لا يقوم على أساس متين فليس من الضرورى على كل برانسى أن يكون مرتديا للبرنس كما أنه ليس بلازم أن يكون البترى عاريا منه .

أما تقسيم البربر بحسب البداوة والحضارة فهو تقسيم لا يمكن الأخذ به أيضا على إطلاقة مقبولة فزناة البترية الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمرانا ولذلك جعلها فرعا مستقلا عن سائر البربر ، كما أن البرانس المتحضرون كانوا قلة بالنسبة للبتر البدو الذين يشكلون السواد الأعظم من السكان (١٣) .

وعلى أى الأحوال فقد كان البربر فى معظمهم فى طور البداوة عند الفتح العربى لبلادهم يعيشون فى شعوب وقبائل أكثر من أن تحصى كما يقول ابن خلدون ، وأغلبهم على الوثنية يؤمنون بالسحر والكهانة ، وقليل منهم دان باليهودية أو المسيحية أو الجوسية (١٤) .

وذلك فإن العرب عندما دخلوا بلاد المغرب وجدوا صورا مشابهة للحياة فى شبه جزيرتهم من الناحية الاجتماعية والقبلية ، فاندمجوا مع البربر واختلطوا بهم — بالرغم من شدة المقاومة التى لقوها منهم بالتزاوج وتبادل منهم موقف الحاكم المنعزل عن الحكوميين بل امتزجوا معهم بالتزاوج وتبادل العادات والتقاليد ، وكان للإسلام ولغة القرآن أثر كبير فى ذلك .

(١٢) د. العبادى : الجبل فى تاريخ الأندلس ص ٣٢ .

(١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ١٩ .

(١٤) العبر : ج ٦ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

مما ساعد على انتشار العروبة بينهم . ولذا فإن ما يذكره بعض الكتاب
الليبيين من أن القبائل العربية التي نزلت بشمال إفريقيا قد تبرزت بطول
الزمن فى زيتها ولغتها وعاداتها لا يمكن قبوله (١٥) .

والمقبول أن البربر هم الذين تعربوا أو تعرب الكثيرون منهم بكثرة
الهجرات العربية إلى بلادهم منذ القديم ، وطول اختلاطهم بالفرس
وبخاصة بعد الفتح الإسلامى لبلادهم حيث أصبح الإسلام والعروبة هما
الطابع العام السائد فيها ولا زال إلى الآن بالرغم من محاولات الاستعمار
الفرنسى التى قام بها زمن الاحتلال لإثارة العصبية بين العرب والبربر
والتمييز بينهم وإحياء اللغة البربرية .

وكما كان للعرب صفات وأخلاق اشتهروا بها فقد كان للبربر صفات
وأخلاق اشتهروا بها كذلك — وتقترب من صفات العرب — وقد ذكر ابن
خلدون هذه الصفات فى وصف لا يدع زيادة لمستزيد فقد وصفهم
« بعز الجوار وحماية النزيل ، ورعى الأئمة والوسائل ، والوفاء بالقول
والعهد ، والصبر على المكاره ، والثبات فى الشدائد ، وحسن الكلمة
والإغضاء عن العيوب ، والتجافى عن الانتقام ، والرحمة بالمسكين ، وبر
الكبير ، وتوقير أهل العلم ، وحمل الكل ، وتبينة الكسب للمعدوم ، وقرى
الضيف ، والإعانة على النوائب ، وعلو الهمة ، وإياء الضيم ، ومقارعة
الخطوب ، وغلاب الملك وبيسغ النفوس من الله فى نصر دينسه ، فلهم فى
ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف ، لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون
أسوة لتبعيه من الأمم ، وحسبك ما اكتسبوه من حميدها واتصفوا به
من شريفها أن قادتهم إلى مراقى العز ، وأوفت بهم على ثنايا الملك ،

حتى غلبت على الأيدي أيديهم ، ومضت في الخلق بالقبض والبسط
أحكامهم» (١٦) .

وقد اشتهر البربر إلى جانب هذه الصفات التي عددها
ابن خلدون بأنهم أهل خيال واعتقاد بالسحر والكهانة والتنجيم . ولا ننسى
مقاومتهم الشديدة للعرب الفاتحين تحت قيادة امرأة تدعى الكاهنة ،
ولا يزالون إلى الآن في الأعم الأغلب يعتقدون في قراءة الكف وفتح الكتاب
وإدعاء معرفة الغيب (١٧) .

كما ظهر منهم نسبة نظمو أنساب قبائلهم في شجرات شبيهة
بشجرات الأنساب العربية وإن كان لا يوثق في هذه الشجرات
كثيراً (١٨) .

هذا وقد كان البربر من أسبق العناصر البشرية التي دخلت
إلى الأندلس فقد كان الجيش الفاتح لها بقيادة واحد منهم وهو
طارق بن زياد (١٩) ، كما أن معظم هذا الجيش كان منهم حيث كانوا سبعة

(١٦) العبر : ص ٦ ج ١٠٤ . وذكر ابن عذارى أن سليمان
ابن عبد الملك قال لموسى بن نصير فأخبرني عن البربر قال « هم
أشبه العجم بالمرب لقاء ونجدة وصبرا وفروسية ، غير أنهم
أقدر الناس لا وفاء لهم ولا عهد » وهذا يناقض ما ذكره ابن
خلدون عنهم من الوفاء بالقول والعهد (البيان المغرب ج ٢
ص ٢١) وهذا دليل على اختلاف وجهات نظر المؤرخين والكتّاب
في وصف الأقاليم أو الأشخاص لأسباب عديدة .

(١٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩ .

(١٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٥ .

(١٩) انظر عن نسبه : البيان المغرب ج ٢ ص ٦ ، نصح الطبيب ج ١

آلاف فى البداية ثم ما لبثوا أن زيدوا بعد ذلك إلى اثنى عشر ألفاً (١٢٠) .
وقد كان قرب بلادهم من الأندلس مما سهل من توالى هجراتهم إليها ،
واستقرارهم فيها بعد الفتح ، وكانوا ينزلون بصفة خاصة فى المناطق
الجنوبية والغربية من الأندلس نظراً لتشبهها بيئتهم فى المغرب .

وكانت منطقة روندة وإقليم تاكرنا بالذات منزلاً لجماعات البربر التى
استوطنته بعد استقرار عملية الفتوح الأولى (١٢٢) .

وقد عدد ابن حزم فى الجمهرة بيوتات البربر فى الأندلس
تفصيلاً . . . وذكر منهم بنو دليم الفقهاء من وزداجة ، وعوسجة بشنت
برية من ملزوزة ، ومنهم بنو إلياس من مغيرة ، وبنو زوال من مغيرة أيضاً ،
وبنو وانسوس رهط الوزير سليمان بن وانسوس من مكناسة ، وبنو
الخروبى من زناتة وكذلك بنو عزون الأمراء بشنت برية من زناتة أيضاً ،
ومنهم الأمراء بالثغر وبنو هذيل من مديونة ، وبنو عبدوس من سرتة ،
وبنو رزين بالسهلة وبنو ذو النون بوبدة ، وكان لهم ضلع فى الفتن التى
أفضت إلى سقوط الخلافة الأموية ، واستأثر جماعة منهم بالأقاليم
الجنوبية من الأندلس على عهد ملوك الطوائف (٢١) .

(٢٠) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٧ . وليس كما ذهب د. السيد
سالم إلى أن الجيش كله كان من البربر (تاريخ المسلمين ص ١٢٢) .
(٢١) د. أحمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ أسبانيا ج ١ ص ١١٣
هامش ٢ دار النهضة العربية سنة ١٩٧٣ م ، الأمويون أمراء
الأندلس الأول ص ٣٠٦ .

(٢٢) انظر جمهرة أنساب العرب ص ٤٩٨ - ٥٠٣ سلسلة ذخائر العرب
٢ دار المعارف بمصر ط ٤ تحقيق هارون .

ثالثا : الموالي

جاء عدد كبير من الموالي إلى الأندلس مع جيش موسى بن نصير سنة ٩٧هـ وفي طاعة بلج بن بشر القشيري سنة ١٢٤هـ وكانت هذه الطالعة أو هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف من العرب والفين من الموالي (١) . وكان أغلب هؤلاء الموالي من أهل المغرب من البربر الذين دخلوا في طاعة بنى أمية ومنهم بنو الخليع وبنو وانسوس ، أما الباقون فكانوا من أهل الشام والعراق وبلاد الفرس . وقد ازداد عدد الموالي في الأندلس بهؤلاء الذين دخلوا في هذه الطالعة حيث انضموا إلى من كان بالأندلس قبيل ذلك من موالي بنى أمية وأصبحوا يؤلفون حزبا هاما وطائفة قوية تعرف بالأمويين (٢) نظرا لمواليتهم لبنى أمية .

وقد استطاع عبد الرحمن الداخل بفضل مناصرة هؤلاء الموالي تأسيس دولة لبني أمية في الأندلس بعد أن سقطت في المشرق على يد العباسيين وأنصارهم .

ومنهم بنو بسيل وهم بيت من أكبر بيوتات الموالي الأمويين من أهل الشام . وكان أول من دخل الأندلس منهم عبد السلام بن بسيل الرومي وكان أبوه بسيل مولى لبني أمية ويتضح من نسبه أنه من أصل رومي . وقد دخل عبد السلام الأندلس أيام عبد الرحمن الداخل مع ابنه عبد الواحد ويحيى فاستعمله عبد الرحمن على إشبيلية وشذونة ومورور والجزيرة الخضراء وغيرها ، وولاه الوزارة ، كما تولى ابنه يحيى بعض الولايات كجيان في عهد عبد الرحمن الأوسط ، كما تولى أخوه

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ .

(٢) ورد هذا الاسم عند خروج بلج من قرطبة لمقابلة جيوش عبد الرحمن .

الكتابة والخيل وغيرها ، كما كان يوسف بن بسيل واليا على طليطلة سنة ٢٣٤ هـ وأصبح من كبار رجال الدولة في عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، وكان له دور في تأييده للاستيلاء على مقاليد الحكم بعد والده ، وقد ولى شذونة في عهده . وقد اشتهر من هذا البيت كثيرون تولوا مناصب كبرى في الدولة . كما دخل في عداد الموالي بالاندلس عدد كبير من الاسبان الذين دخلوا في ولاء بنى أمية بعد الفتح امثال : بنو قسى ، وبنو بارون ، وبنو غومس بن قارلة ، وبنو مرتين واصبحوا موالى اصطناع لهم يلتمسون حمايتهم(٣) . ويذكر ابن حزم قطعة من نسب بنى قسى المولدين بالثغر فيقول : « كان قسى قومس(٤) الثغر في ايام القوط ، فلما افتتح المسلمون الاندلس لحق بالشام ، واسلم على يدي الوليد بن عبد الملك ، فكان ينتمى إلى ولائه ، ولذلك كان بنو قسى في اول أمرهم إذا وقعت العصبية بين المضرية واليمانية يكونون في جملة

=

ابن علقمة ، ومن معه من أعداء الشاميين ، وكان معه (عشرة آلاف من الامويين والشاميين) تاريخ افتتاح الاندلس ص ٨٦ .

(٣) د. حسين مؤنس : فجر الاندلس ص ٤٠٣ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٧ . مولى الاصطناع : هو مولى الموالة أو الحليف وهو من ينحس الخليفة شرف الانتساب إليه ، ويستخدمه في شئونه ويجرى عليه الأرزاق فيصير مولى له (أنظر مقدمة ابن خلدون ص ٩٦) .

(٤) كلمة Comes كلمة لاتينية ، وهى فى الأصل تعنى مرافق الملك ونديمه ، ثم أصبحت تطلق فى اسبانيا زمن القوط على ولاة الكور ، ومنها اشتق اللفظ الإسبانى Corde والفرنسى Conte وتذكرها بعض المصادر العربية قمط بدلا من قومس . وتقابلها كوند Conde بالإسبانية الحديثة وكونت Cont بالانجليزية .

المصرية ، فولد قسى مرتون وأبو ثور وأبو سلامة ويونس ويحيى « ثم أخذ:

يعدد بعد ذلك ذرية كل واحد منهم (٥) .

وقد لعب الموالى دورا هاما فى تاريخ الأندلس حيث اعتمد عليهم

بنو أمية كثيرا وقلدوهم أهم المناصب فى دولتهم لتفانيهم فى الإخلاص

لها ، فكان منهم الوزراء والكتاب والقواد والقضاة . وقد نجح

الموالى فى كورة البيرة فى تأسيس دويلة لهم بزعامة عبد الوهاب بن جريح

زمن الفتنة الأولى أو عصر الاضمحلال الأول ، أو دويلات الطوائف الأولى

التي تمزقت فيها وحدة الأندلس وقام الثوار فى سائر الأنحاء بشق

عصا الطاعة على بنى أمية (٦) .

وقد كان هؤلاء الموالى يحسبون أنفسهم عربا ، ويدعون أرومات

عربية ينسبون أنفسهم إليها ، ويقتبسونها من أصول ساداتهم وحتى

اولئك الذين كانوا من أصول إسبانية منهم ادعوا أصولا عربية بمرور

الزمن (٧) .

وسواء صحت هذه الأنساب أم لم تصح فإنها كانت عاملا

أساسيا وفعالا فى حياتهم ، فهم جميعا يتصرفون كما لو كانوا عربا

يتميزون عن غيرهم ولهم حق الحكم والسيادة (٨) .

وقد ذكر ابن حيان أن جماعة من موالى الخلفاء الأمويين تسماوا

(٥) ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ٥٠٢ — ٥٠٣ .

(٦) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٤٣

وبعدها .

(٧) أنظر : المقتبس ص ٢٤٢ — ٢٤٣ ، نصح الطبيب ج ٤ ص ٤٥ ،

تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٠ .

(٨) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٦ .

باسماء العرب فانكر عبد الرحمن الأوسط عليهم ذلك بفضل أنفته ، ونهى عنه ، وكان له مولى من عناقته أبيه يسمى محمد وولد له ولد سماه مسرور سمى به على جد الأمير فحسنت نثأته وتفقه وتعبد واشتهر فضله ، حتى ولاه عبد الرحمن القضاء بقرطبة . فتوفى بعد عام فى سنة ٢٠٨ هـ (٨) .

ولا يعرف على وجه التحديد ماذا يقصد راوى الخبر الذى ذكره ابن حيان بهذا فلننا نعرف للعرب أسماء اختصوا بها دون الموالى . ولو استعرضنا أسماء بيوت موالى بنى أمية وغيرهم بالاندلس وأسماء ذراريهم فلننا لا نجد فروقا جوهرية بينها وبين أسماء العرب الخالص التى أورد لنا ابن حزم مئات النماذج منها فى الجمهرة .

كما اننا لا نجد فى المصادر الأندلسية ما يدل على أن أمراء وخلفاء بنى أمية قد ضاقوا ذرعا بذلك فيها عدا هذا الخبر الذى ساقه ابن حيان وما أكثر ما نجد حتى فى الأسر الأسبانية الأصل التى أسلمت من يتسمون بأسماء إسلامية كمحمد وأبى بكر وغيرها دون أن يكون ذلك غريبا أو مستغربا . إلا إذا كان المقصود أن هؤلاء الموالى الذين تسبوا بأسماء عربية قد ادموا نسبا عربيا كما حدث من بعض الموالى وخاصة الفرس فى المشرق فى العصر العباسى الأول ووجد ذلك مقاومة عنيفة من العرب . مثل أبى مسلم الأخراسانى الذى ادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس (١٠) .

(٩) ابن حيان : المقتبس ص ١٨٧ .

(١٠) تاريخ الطبرى ج ٩ ص ١٩٧ .

رابعاً : العنصر الإسباني

يذهب الكثيرون إلى أن الأصول القديمة لسكان إسبانيا تعود إلى مزيج من عنصرى السلط (الكلت) ، والإيبيريين (١) . فقد توالى على هذه البلاد الكثير من الغزاة . حيث غزاها الفينيقيون فى القرن العاشر ق.م ، وأطلقوا على الشاطىء الذى نزلوا عليه اسم Ischepan- im (إسبانيا) أو شاطىء الأرانب . وأسسوا عدة مستعمرات ومدن ، من أشهرها مدينة قادس التى لا تزال إلى اليوم هناك كما غزاها اليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وأطلقوا على سواحلها اسم إيبيريا .

ثم ما لبث أن أطلق هذا الاسم على شبه الجزيرة كلها . كما خضعت هذه البلاد فى هذا القرن أيضا للقرطاجنيين الذين أسسوا فيها مدينة (كرتا جونونا) أى قرطاجنة الجديدة التى اتخذوها عاصمة لهم . وهكذا شهدت هذه البلاد منذ سنة ٥٣٥ ق.م وحتى سنة ٢٠٥ ق.م تأثيرين : أحدها أوربى عن طريق العنصر السلتي واليونانى والآخر آسيوى إفريقي أو سامى عن طريق العنصر القرطاجنى .

ثم تحول هذا التأثير إلى تأثير لاتينى أوربى عند مجىء الرومان سنة ٢٠٥ ق.م ، حيث أستولوا على البلاد من القرطاجنيين وأسسوا مدينة Italica (طائقة) والتى تسمى بأطقة . وهو اسم مشتق

(١) يذكر د. العبادى : أن العناصر السلتيية Celts جاءت من أوربا وأن العناصر الأيبيرية Iberos جاءت من المغرب .

(انظر مجلة عالم الفكر ص ٣٤٣ العدد الثانى المجلد

العاشر سنة ١٩٧٩ م ، المختار من عالم الفكر ص ٩٣) .

من كلمة إيطاليا . ولما ضعفت الدولة الرومانية الغربية عانت إسبانيا — كغيرها من ولايات الدولة الرومانية — من آثار الغزوات الجرمانية المدمرة التي تدفقت عليها منذ سنة ٤٠٩ م حيث اجتاحتها قبائل الآلان ، والسويف (السوابيون) والوندال الذين كانوا أكثر العناصر الجرمانية تخريبا ، فاستقر السويف وقسم من الوندال في جليقية وأشتوريش ، ونزل الآلان في لشدانية (البرتغال حاليا) ، وأقام معظم الوندال في باطقة وجزء من شرق الأندلس . ثم جاء القسوط الغربيون بزعامة آطاوولف فانتزعوا برشلونة من الوندال سنة ٤١٤ م واتخذوها مقرا لهم ، واضطروا الوندال إلى العبور للمغرب سنة ٤٢٩ م ، وظلوا يحكمون هذه البلاد إلى أن كان آخر ملوكهم غيطشة Witiza (٧٠٠ م) الذي اغتصب رودريك (لذريق) حاكم باطقة الملك منه ، مما أدى ببناؤه إلى الاستعانة بالعرب عن طريق جولييان (يليان) حاكم سبته وحثهم على فتح الأندلس (٢) .

وقد أسلم عدد كبير من الإسبان بعد الفتح ، وكان لسياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون أثر كبير في ذلك ، بالإضافة إلى

(٢) انظر بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ص ٩٣ ترجمة أمين تكلال القاهرة سنة ١٩٤٨ م ، دائرة معارف الشعب كتاب الشعب ٦١ ص ٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين في الأندلس ص ٥١ — ٥٦ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٥ وبعدها . د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ج ٢ ص ١٩٨ — ١٩٩ ، على إسلام : إسبانيا والأندلس ص ١٨ . د. إبراهيم طرخان : دولة القسوط الغربيين ص ٢١ القاهرة سنة ١٩٥٨ . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٦ .

ما وجدته هؤلاء من مبادئ وقيم نبيلة فى الإسلام دفعتهم إلى اعتناقه من إيمان ، كما دخل بعضهم فيه لمصالح شخصية . وقد أطلق العرب على هؤلاء اسم المسألة أو الأسألة . أما الذين بقوا منهم على دينهم فقد عرفوا باسم العجم (٣) .

وقد اعتبروا أهل ذمة عليهم دفع الجزية للمسلمين فى مقابل حمايتهم والدفاع عنهم داخل دولة المسلمين بالأندلس فقد أمنهم موسى ابن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية (٤) وكان لهم رئيس يلقب بالقومس . وكان أول من تولى هذا المنصب فى عهد عبد الرحمن الداخل رجل يسمى أرطباس . وكان كما ذكر ابن القوطية « من عقلاء الرجال وله جملة صالحة من الأخبار » ، كما كان هناك قمامسة محليون ينتخبهم النصارى لكل مدينة ، كما كان لهم قاضى يعرف بقاضى العجم أو النصارى يفصل فى منازعتهم ، وكان أول قاضى لهم حفص ابن عبد المر وكان يتبع القوانين القوطية فى الحكم بينهم (٥) .

وقد أطلق على النصارى الإسيبان الذين عاشروا المسلمين ، واختلطوا بهم ، وتعلموا العربية دون أن يدخلوا فى الإسلام اسم (المستعربين) وكانوا يشكلون غالبية سكان البلاد فى السنوات الأولى من الفتح

وقد أنكر د. مؤنس إتصال أبناء غيطشة بالعرب وحثهم على غزو الأندلس فى ص ٥٦ ثم عاد بعد ذلك فى ص ٦٤ ورجح اتصالهم . (انظر : فجر الأندلس ص ٥٦ ، ٦٤) .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٢ ، د. العبادى : مجلة المختار من عالم الفكر ص ٩٦ .

(٤) الرسالة الشريفة ص ١٩٩ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٠ .

(٥) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ ، ٣٨ ، ص ٥ .

غير أن أعدادهم أخذت في التناقص بدخول الكثيرين منهم في الإسلام حتى أصبحوا أقلية بالنسبة للمسالمة . وقد تمتع أهل الذممة بحريتهم الدينية ، وعاشوا إلى جوار المسلمين في حرية وأمان وسلام في أحياء خاصة (٦) .

والكتاب الذي كتبه عبد العزيز بن موسى بن نصير لصاحب أريولة بعد فتحها سنة ٩٤ هـ خير شاهد على ذلك ونصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش أنه نزل على الصلح ، وأن له عهد الله ودمته وذمة نبيه ﷺ إلا يقدم له ولا أحد من أصحابه ولا يؤخر ، ولا ينزع عن ملكه ، وأنهم لا يقتلون ، ولا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ولا نسائهم ، ولا يكرهون عن دينهم ولا تحرق كنائسهم ولا ينزع عن ملكه ما تعبد ونصح وأدى الذي اشترطنا عليه . . . الخ » (٧) .

وقد طبق المسلمون سياسة التسامح معهم فتركوا لهم أرضهم يزرعونها ويدفعون خراجها وتركوا لهم كنائسهم ، ولم يستولوا عليها ما عدا الكنائس التي قسموها بينهم وبين النصارى ليقبوا فيها مساجد جامعة . مثل مسجد رفينة الذي أقيم في جزء من كنيسة سانتا رفينة . وذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير أقام فيها ذلك غير صحيح . والحقيقة أنه أقام داره بجوارها وابنتى على بابها المسجد الذي قتل فيه .

(٦) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس : ص ١٣٠ .

(٧) الحميري : صفة جزيرة الأندلس ص ٦٢ - ٦٣ ، بغية المتوسم

ص ٢٧٤ ، فجر الأندلس . ج ١ ص ٥٥ - ٥٦ ، د. لطفى

عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ص ٢٢ - ٢٣ . وهناك اختلاف

طفيف في بعض الفاظ هذه المعاهدة لدى بعض المصادر .

ومثل جامع قرطبة الذي اقيم في شطرنج بن كنيسة سنت بنجنت ، وكان للنصارى اديرتهم مثل دير ارملاط في الطريق بين قرطبة وإشبيلية ، ودير سان خوان دي لابنيا الذي اقامه الراهبان فوتو وفيلكس في عهد عقبه بن الحجاج السلولى شمال إسبانيا ، وكانت إشبيلية في العصر الاموى مركزا اسقفيا هاما . وكان اول من تولى رئاسة اسقفية إشبيلية المطران المنذ بن غيطشة (٨) ، وكانت اصوات اجراس الكنائس تترع جنبا إلى جنب مع اصوات المؤذنين في المساجد . مما يدل على مدى تسامح المسلمين ، وتركهم النصارى يمارسون شعائرهم بحرية تامة .

وقد وصف الشاعر ابو عامر بن شهيد إحدى الكنائس بقرطبة وقد بات فيها ليلة مع بعض اصحابه فقال : « وقد فرشت بأضغاث آس وعرشيت بسرور واستيناس وقر النواقيس بيهج سبعة ، وبرق الحميا يسرج لعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحا بالزنابير ابدع توشيح . » (٩). كما نظم ابن حزم آياتا جاء فيها :

انبتى وهلال الجو مطلع قبيل قرع النصارى للنواقيس (١٠)

وقد ظل النصارى الإسبان يتمتعون بحريتهم الدينية حتى جاء المرابطون إلى الأندلس وأخذوا يحدون منها : فمنعوا قرع النواقيس ،

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٣ ص ٧١ وبعدها ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤ ، ٣٧ نفع الطيب ج ١ ص ٢٨١ . فجر الأندلس ص ١٣٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين في الأندلس ص ١٣١ .

(٩) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ .

(١٠) طوق الحمامة ص ٣٤٧ .

والزموهم بارتداء ثياب معينة لتمييزوا عن المسلمين ، والا يركب أحد منهم فرسا ، والا يشتري مسلم منهم رداء إرتدوه . (١١)

ويبدو ان ذلك قد كان بسبب اشتداد حركة الغزو المسيحي (الاسترداد أو الاستعادة) كما يسميها الإسبان ، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم ومعاونة الدول المسيحية فى شمال إسبانيا ضد المسلمين . فهو رد فعل للدفاع عن النفس وتأمين البلاد . ولذلك فقد نفى الموحدون كثيرا منهم إلى المغرب ليكونوا بعبيدين عن مناصرة الممالك المسيحية ضد المسلمين ، وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور هو أشد خلفاء الموحدين وطأة عليهم .

ورغم ذلك فان أحوال أهل الذمة بصفة عامة تحت حكم المسلمين لا تقارن بما أصاب المسلمين بعد ذلك على يد الأسبان المسيحيين بعد ان اخذت دولة الإسلام فى الأندلس فى الاضمحلال والسقوط ويكفى ذكر محاكم التفتيش وويلاتها كدليل على ذلك .

وبشهادة الكثير من المستشرقين فان المسلمين كانوا اكثر تسامحا مع غيرهم من أصحاب الديانات الأخرى يقول المستشرق الروسى بارتولد « ومهما يكن من شىء فإن النصارى الذين عاشوا فى ظل حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين فى إسبانيا من الظلم والعدوان » (١٢) . هذا وقد برز من هؤلاء المستعربين الإسبان الذين شغفوا باللفة العربية وتسموا بأسماء عربية شخصيات كان لها دور هام بالأندلس ،

(١١) ابن عبدون : آداب الحسبة ص ١١٢ - ١١٣ .

المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ طبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٢) تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٢٧ - ترجمة حمزة طاهر - ط ٥ دار المعارف بمصر د.ت .

مثل الأسقف ربيع بن زيد المعروف فى المدونات الإسبانية باسمه
(ريسموندو) ، ومطران طليطلة عبيد الله بن قاسم ، وأسقف قرطبة
أصبغ بن عبد الله بن نبيل (١٣) ، كما نبغ منهم عدد من المترجمين قاموا
بترجمة كثير من الكتب القشتالية (الإسبانية) إلى العربية والعكس.
بفضل إجادتهم للغة العربية واللاتينية ، وكانوا بذلك حلقة اتصال بين
الثقافة العربية والأوربية ومن هؤلاء القاضى جيزون قاضى النصرى-
بقرطبة فى خلافة الحكم المستنصر ، وكان يقوم فى بعض الأحيان بدور
المترجم بين الخليفة وكبار الإسبان . (١٤)

وكما لعب المستعربون دورا ثقافيا فقد لعبوا دورا سياسيا هاما
بمخالفتهم للمولدين ضد العرب فى عصر الأمير عبد الله . كما تجلّى فى
ثورة عمر بن حفصون (١٥) .



-
- (١٣) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٣٢
(١٤) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٣٠
(١٥) انظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٥٩ ، ٢٦٥

خامسا : عنصر المولدين

ويقصد بهذا العنصر الجيل الذى ولد من آباء مسلمين سواء كانوا عربا أو بربر ، وأمهات اعجميات سواء كن إسبانيات أو غير ذلك ، ونشأ على الإسلام . فقد أقبل الفاتحون من العرب والبربر على مصاهرة أهل البلاد ، فتزوج الكثيرون منهم من الإسبانيات ، وعاشروا أهل البلاد واختلطوا بهم ، وعن طريق ذلك انتشر الإسلام ولفته فى الأندلس ، وامتزجت دماء الفاتحين من عرب وبربر بدماء أهل البلاد الأصليين ونشأ من ذلك جيل المولدين . (١)

(١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٢٨ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٤ .

اتصل بالعناصر العربية والبربرية فى الأندلس عنصران آخران هما بوهما المولدون ، والصقالبة . ومن المولدين من اندمج فى المجتمع الأندلسى المسلم اندماجا جعل بعضهم يبتدعون أنسابا عربية ومن هؤلاء أسرة بنى مغيث الرومى الأضل ، وكان منهم من خدم الثقافة العربية ومنهم بقى بن مخذ وابن حزم وابن سراج القرطبى . وكما كان للمولدين فضل فى خدمة الثقافة العربية فقد كان للصقالبة فضل أيضا واشتهر منهم كثيرون مثل جوزر مولى الحكم المستنصر ، وفاتن مولى المنصور بن أبى عامر الذى ناظر صاعدا اللعوى وانتصر عليه . ويذكر جولدزيهر أن العرب كانوا يتعاملون عليهم مما دعا بعضهم إلى تأليف كتاب فى ذكر مفاخرهم وهو كتاب (الإستظهار والمغالبة على من أنكروا فضل الصقالبة) .

ولعل هذا الكتاب يعد أول محاولة للتدليل فى دائرة الشعوبية وإن لم يكن فى صميمها حيث دافع فيه مؤلفه عن بنى جنسه دون التهمج

نوادير المخطوطات

على غيرهم . . (نوادر المخطوطات ج ٣ ص ٢٤١) .

أما الميل الحقيقي للشعوبية فقد أخذ طابعه الكامل في محيط المولدين .
ولكن يتميز هذا الميل بحرصه على الإنسجام مع الإسلام ، على العكس
من شعوبية المشرق حيث نرى الشعوبيين فيه من الملاحدة والزنادقة في
أغلب الأمر .

ويعد محمد بن سليمان العامري من أقطاب الشعوبيين في الأندلس . .
ومنهم أبو محمد عبد الله بن الحسن المتوفى سنة ٣٣٥ هـ وكان معروفاً
بشدة تعصبه للعجم والغض من شأن العرب . ويلاحظ أن كلمة العجم
عند شعوبيي المشرق تعنى الفرس في القديمان الأول أما عند شعوبيي
الأندلس فتعنى الإسبان والروم . .

ويبدو أنه لم يكن هناك نتاج أدبي للشعوبيين في الأندلس إلا بعد
زوال الخلافة الأموية حيث انقسمت إلى دويلات صغيرة استطاع فيها
المولدون والصلتالية أن يستأثروا بعدة ولايات ، ومن ثم أصبحنا نسمع
صوت الشعوبية قويا .

ومن أقوى هذه الأصوات صوت أبي عامر بن غرسية الذي عاش
في بلاط مجاهد الصقلبي ملك دانية ، والف رسالة في تفضيل العجم
على العرب وصوت ابن سيدة العالم اللغوي صاحب المخصص الذي
يقول عنه الذهبي « وكان شعوبيا يفضل العجم على العرب » . . . وكان
متقطعا إلى الأمير مجاهد العامري .

(انظر الرسالة والرد عليها في نوادر المخطوطات القسم الثالث .

وقد كان هذا الجيل يشكل على عهد أمراء بني أمية الكثرة الغالبة من السكان ، ومنهم تكونت جماهير الأندلس وأهل البيوتات منهم ، وكان فيهم من يدعى نسبا في المشرق يرى فيه تعظيما لشأنه مثل ابن حزم ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس « أنه كان من غرائب إنتماؤه في فارس ، وإتباع أهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر » (٢) كما احتفظ كثير منهم بأسمائهم الإسبانية القديمة مثل : بنو أنجلين ، وبنو التبطرنة وبنو ردف ، وبنو مردنيش ، وبنو غرسية ، وبنو فرتون أصحاب تطيلة والثغر الأعلى . (٣)

وفى كتب التراجم الأندلسية كثير من هذه الأسماء والكنى . ومن مشاهير المؤرخين المولدين أبو بكر بن التوطية صاحب كتاب (تاريخ افتتاح الأندلس) .

وقد كان جل أمراء الأندلس وخلفائها من أصل مولد تجرى في عروقهم دماء غير عربية وبخاصة الدم الإسباني من جهة الأمهات أو الجدات ، فقد كان عبد الرحمن الداخل من أم ولد بربرية تسمى راج أو رداح ، وكان ابنه هشام من أم ولد تسمى حلال أو حوراء ، وكان الحكم بن هشام من أم ولد تسمى زخرف ، وكان عبد الرحمن الناصر من أم ولد تسمى مونة ، وكان هشام المؤيد بن الحكم المستنصر من أم ولد بشكنسية تدعى صبح ، وغير هؤلاء كثيرون (٤) .

(٢) ياقوت : معجم الأديب ج ١٢ ص ٢٥٠ ، نشر أحمد فريد رفاعى .

(٣) انظر في ذلك ابن حيان : المتبسى في تاريخ رجال الأندلس ص ١٦ وبعدها نشر ملثور أنطونيه ، باريس سنة ١٩٣٧ ، وجبهة أنساب

العرب ص ٤٦٧ .

(٤) انظر المقرئ : نوح الطيب ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٠ ، المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ١١ - ٢٨ الضبى : بغية المتبسى

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يعتنقون الإسلام ، ويعيشون حياة المسلمين الوافدين على الأندلس ، إلا أن الكثيرين منهم كانوا يتعصبون لأصولهم الإسبانية الأولى ويتحالفون مع بنى جلدتهم من العجم أو النصارى ضد العرب والبربر معاً (٥) .

ولقد تألفت منهم جماعات كبيرة عاشت في المدن الهامة مثل طليطلة التي كانت تضم أكبر طائفة منهم ، وكانت مركزاً من أهم مراكز عصبيتهم ، وقد ظهر ذلك في الحركات الثورية المتعددة التي قاموا بها ضد الأمويين وميلهم للانفصال عن سلطان قرطبة .

وكذلك كانت إشبيلية معقلاً هاما من معقلهم . حيث كانوا يمثلون أكبر طائفة من سكانها ، وكانوا يعملون بالإدارة والتجارة وظهر منهم الكثير من الأغنياء (٦) .

وقد انتهر هؤلاء المولدون فرصة ضعف دولة بنى أمية في عهد الأمير عبد الله فثاروا في عدة نواحي من الأندلس ضد السلطة المركزية وكان من أخطر ثوراتهم ثورة عمر بن حفصون الذي تغلب على ببشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان الذي عرف بابن الجليقي - نسبة إلى جليقية - « وكانت دعوته عصبية للمولدين على العرب » (٧) كما ارتأى يحيى بن بكر بن ردف في شنت مرية بأشكونية (٨) .

(٥) عنان : دولة الإسلام - العصر الأول القسم الثاني ص ٢٧ هامش ١

(٦) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٧) ابن حيان : المقتبس ص ١٥ - ١٦ .

(٨) أنظر المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ٤١٧ ، ابن حزم : جمهرة انساب

وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد إنتشار اللغة العجمية أو اللطينية - كما يسميها المؤرخون العرب - بين الأندلسيين من عرب وبربر ، وهى ما يطلق عليها اسم اللغة الرومانثية (الإسبانية الحديثة أو العامية) واختلاطها باللغة العربية (٩) .

وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانثية تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات والأزجال (١٠) .



(٩) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٢٥ ، د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٧٧ ، البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٣١ - ٣٢ .

(١٠) عن الموشحات والأزجال راجع : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٤٥ وبعدها ، د. عبد العزيز الأهوانى ، الزجل فى الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧م د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة عدد ٢١ ، صهيل ستيرن : الموشح الأندلسى ترجمة د. عبد الحميد شححة . دار الآداب بالقاهرة سنة ١٩٩٠م .

سادسا : اليهود

شكل اليهود عنصرا من عناصر السكان فى المجتمع الإيبانى قبل الفتح الإسلامى ، وقد عانوا كثيرا من اضطهاد الرومان لهم بدخول المسيحية إيبانيا ، وخاصة بعد القرارات التى إتخذها المجلس الكنسى فى مدينة البيره سنة ٣٠٣ - ٣٠٤ م ، ثم ازداد اضطهادهم بعد المجلس الكنسى الذى عقد فى طليطلة سنة ٥٨٩م وقدم فيه الملك (ريكاردو) الذى كان يكره اليهود عدة اقتراحات للمجلس تتلخص فى : منع استخدام اليهود للمسيحيين فى أى عمل ، وعق أى عبد مسيحي مملوك ليهودى ، ومنع زواج المسيحيات من اليهود ، ومنع الختان الذى كان يفرضه اليهود على عبيدهم ومعاقبة من يصنع ذلك بمصادرة أملاكه ، وطرد اليهود من مناصبهم فى الحكومة ، وعدم تعيينهم مستقبلا ، وإلزامهم بتعليق شارة مميزة لهم فى مكان ظاهر حتى يعرفهم الجميع .

وقد وافق المجلس على هذه المقترحات وبدأ تنفيذها ، ثم جاء الملك (سيسبت ت ٦٢١ م) فضيق الخناق عليهم أكثر وأكثر وخاصة فى إقامة شعائرهم الدينية وأعطاهم مهلة سنة لاعتناق المسيحية أو الرحيل عن إيبانيا ، فهاجر الكثير منهم وبقى البعض متظاهرا باعتناقه المسيحية حرصا على نفسه وأملاكه .

ولكنهم كانوا يمارسون شعائرهم المسيحية سرا . وكان هؤلاء يسمون باليهود المستترون *Judaizantes* . ثم جاء عهد الملك (سيرونتالا) فتنفس اليهود الصعداء حيث لم يكن متعصبا للمسيحية كسلفه ، فانتهز اليهود الفرصة وعاد الكثير منهم إلى اليهودية علنا . ولكن بعد موته جاء الملك (سيسناند) الذى طلب من المجلس الكنسى تجديد

القرارات السابقة الخاصة باليهود . وفى سنة ٦٢٣ م جدد المجلس قراراته السابقة وأضاف إليها قرارات أخرى منها :

- ١ - إلزام اليهود بتسليم أبنائهم الذين بلغوا سن السابعة للكنيسة لتعميدهم وتربيتهم تربية مسيحية .
- ٢ - تسليم اليهودى ، إذا ارتد عن المسيحية إلى أحد المسيحيين ليصير عبدا له .

وفى عهد الملك (كانتيلا) قرر المجلس الكنسى بطليطلة طرد اليهود من البلاد فسارعوا إلى التعهد بأنهم سيخلصون للمسيحية ولن يعودوا لدينهم مرة أخرى ، وظلوا محافظين على ذلك طوال عهد هذا الملك فلما مات واعتلى الملك (سوانيد) عاد كثير منهم إلى اليهودية مرة أخرى وكانوا يقيمون شعائرها علنا . ثم أرغم اليهود فى عهد الملك (إرفيج) على التنصر وأصدر أمرا - عن طريق المجلس الكنسى بطليطلة - بتحريم كتب اليهود المعادية للمسيحية وتحريم الختان ، ثم أصدر الملك (إخيكا) صهر إرفيج أمرا بتسليم كل اليهود للمسيحيين ليكونوا عبيدا عندهم ، ومصادرة جميع أملاكهم وتوزيعها على المسيحيين ومعاقبة من يعتق يهوديا من المسيحيين وفصل أولادهم عنهم بالقوة وتنصيرهم . (١)

وقد كان هذا التعسف وذلك الاضطهاد الذى لقيه اليهود طوال عهد الرومان والقوط راجعا بالإضافة إلى العداوة التقيدى بين اليهودية والمسيحية إلى المؤامرات والدسائس والاستغلال الذى قام به اليهود ومارسوه فى المجتمع الإسباني وغيره من مجتمعات أوربا . ولذلك ذكر انهم اتصلوا بيهود المغرب وطلبوا منهم إغراء العرب على فتح الأندلس ، وبالرغم من أنه لا توجد دلائل على ذلك إلا أنه من غير المستبعد

(١) انظر د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ١٢ - ١٧

أن يكون ذلك قد حدث فقد عامل العرب اليهود معاملة طيبة عند دخولهم الأندلس ، وعهدوا إليهم بحراسة بعض المدن التي فتحوها تحت إمرة المسلمين . ولا يستبعد أيضا أن يكون اليهود قد آزروا المسلمين عند الفتح لتخليصهم من ظلم القوط واضطهادهم وخاصة بعد ما سمعوا عن تسامحهم (٢) .

ولما استقر المسلمون في الأندلس تخلص اليهود من ظلم واضطهاد الحكام الذين سبقوهم فقد منحهم المسلمون حريات لم يكونوا يحظون بها منها حرية العمل والتنقل والتملك بالإضافة إلى الحرية الدينية . وكان لذلك أثره في هجرة الكثير من يهود أوروبا إلى الأندلس بعد فتح المسلمين لها .

وكان اليهود يتجمعون في عدة مدن بالأندلس وعلى رأسها غرناطة التي كانت تزخر بأكثر جالية يهودية ولذلك سميت (أغرناطة اليهود) ، ومنها مدينة اليسانة التي تقع جنوب قرطبة ويقول عنها الإدريسي : إن سكانها كانوا من اليهود فقط ، وأهلها أغنياء مياسير أكثر غنى من اليهود الذين بسائر بلاد المسلمين فقط ولا يداخلهم فيها مسلم البيت (٤) ، ومنها أيضا قرطبة وطليطلة وإشبيلية وسرقسطة والبيرة ومالقة . وقد كانوا يحتكرون بعض المهن والحرف التي تدر عليهم أموالا طائلة كتجارة الرقيق والخصيان والحرير والتوابل . وكانوا لثرائم يرسلون بعض أموالهم إلى إخوانهم من يهود المغرب والمشرق وأوروبا (٥) .

(٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٣٣ ،

د. لطفى عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ص ٣٣

(٣) السيد سالم : المرجع السابق ص ١٣٣ ، د. الطاهر مكي : دراسات أندلسية ص ٥٥

(٤) وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق ص ٢٠٥ . ط. ليدن سنة ١٨٦٦ م .

(٥) المقرئ : فنجح الطيب ج ١ ص ١٧١ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٢ د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٤٨٢ .

ولذلك لعب اليهود دورا هاما في الأندلس في الحياة الاقتصادية وكذلك في الحركة العلمية حيث كان منهم المترجمون ومنهم الأطباء والفلاسفة والشعراء مثل حسداى بن شسفروط (شبروط) طبيب الخليفة الناصر الذى كان رسوله في استقبال الكثير من سفراء الدول والممالك الأجنبية ، وقام بدور هام في السفارة التي أوفدها مستنظنين السابع إلى الأندلس سنة ٣٣٨ هـ ، كما أسند إليه الناصر مهمة دبلوماسية لدى ملكة نافار .

هذا وقد لعب اليهود دورا مهما في الحياة السياسية في زمن ملوك الطوائف وخاصة في مملكة غرناطة حيث وصل واحد منهم وهو ابن النفريلة إلى مرتبة الوزارة في دولة بنى زيرى الصنهاجيين ، وغدا له من النفوذ والسلطان ما جعل الكثير من اليهود يسيطرون على الكثير من مناصب الدولة نظرا لتقريبه لهم مثل إسحاق بن إسحاق بن إبراهيم الذى أصبح صاحب الشرطة في أيباه ، كما وصل أبو الفضل بن حسداى ابن شبروط إلى مرتبة الوزارة في مملكة سرقسطة (٦) .

وقد كان لليهود - مثل النصارى - نظام إدارى خاص بهم في الأندلس حيث كان لهم رئيس يتولى شؤونهم يسمى (الناجد) أو الحاخام

(٦) د. محمد عبد المجيد : اليهود في الأندلس ص ٢٢ - ٢٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم ص ١٢٢ د. الطاهر مكى : دراسات أندلسية ص ٥٤ وبعدها ، على محمد راضى : الأندلس والناصر ص ٧٦ . وابن النفريلة : يدعى صهيول هاليفى ويسمى في المصادر الأندلسية إسماعيل أو أشموال وهو من أهل ماردة ، ولسد في قرطبة ، وتتلذ في الدراسات اليهودية على يد أبى حنوك ابن موسى رئيس الطائفة اليهودية بالأندلس ، ودرس الفلسفة على يحيى بن داود وتعلم العبرية واللاتينية والعربية ، واستطاع

الأكبر . وكان من أشهرهم في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حسداى
ابن شبروط (٧) .

ولم يكن لليهود حضارة أو ثقافة تذكر بالاندلس قبل الإسلام ،
ومن نبغ منهم فإنما كان ذلك في ظل الإسلام وتسامحه وتحت رايته .
بدليل أنهم في أسبانيا القوطية لم يكن لهم مثلما كان في الاندلس
الإسلامية ، فتراثهم بالاندلس يعد ثمرة من ثمرات الاختلاط بالثقافة
العربية التى نهلوا منها ، ولذلك عندما أخذ حكم المسلمين فى الزوال
من الاندلس نصبت العقائيات اليهودية ، ولم يظهر لهم تراث مماثل
إلا خلال عصر النهضة فى أوربا (٨) .

لقد تمتع اليهود فى هذا العصر الأموى بكثير من الوان التسامح
لم يظفروا به خلال حكم القوط ، ولا غيروا فقد غدوا عنصرا هاما
فى الإدارة والتجارة والصيرفة كما استندت إلى الكثير منهم مناصب هامة
فى الدولة ، وأصبحت بعض الحرف تكاد تكون مقصورة عليهم (٩) .

أن يسيطر هو وابنه يوسف بن بعده فى دولة بنى زيرى
فى غرناطة فتولى بيت المال والوزارة ، كما تولى ابنه مرتبة
الوزارة أيضا ولابن النفريلة كتاب طعن فيه فى الإسلام والقرآن
الكريم وقد رد عليه ابن حزم الاندلس فى رسالة نشرها فى
القاهرة د . احسان عباس سنة ١٩٦٠ م بعنوان (رسالة فى الرد
على ابن النفريلة اليهودى) .

(٧) اليهود فى الاندلس ص ٢٤ .

(٨) اليهود فى الاندلس ص ٤٤ ، ٥٢ .

(٩) الإسلام فى أسبانيا ص ٣٤ .

المعروف بالقبائل الجرمانية في أواخر القرن الخامس عشر

سابعاً : الصقالبة (١)

كان لفظ صقلبي يطلق في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) بالأندلس على الرقيق المجلوب من أوربا ، وكذلك من المناطق الشمالية في إسبانيا . فقد ذكر ابن حوقل الذي زار الأندلس في هذا القرن أن الصقالبة كانوا يجلبون من سواحل البحر الأسود ، ومن إيطاليا ،

(١) يرجع الصقالبة في أصلهم إلى الجنس الآري : (أو الهندو أوربي) . والمعروف أنهم نزحوا من آسيا ، واستمروا يتوسعون في أوربا حتى القرن العاشر الميلادي حيث ظهرت قوتهم ، وظل مستواهم الحضاري ضعيفا بالنسبة للشعوب التي اصطدموا بها . وقد انقسموا إلى شعوب عديدة سكنت بلدانا مختلفة مثل بولندا وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا وروسيا ويمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام :

١ - السلاف الجنوبيون : (اليوجسلاف) في الجنوب والوسط ويشملون البلغار والصرب والكروات والسلوفينيين (سكان سلوفينيا) .

٢ - السلاف الغربيون : في بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا وبوهيميا ومورافيا وسلوفاكيا .

٣ - السلاف الشرقيون : أو الروس وينقسمون إلى الروس الكبار في الوسط والشمال ، والروس الصغار في الجنوب ، والروس البيض في الغرب (انظر : محمد دياب : تاريخ العرب في إسبانيا ج ١ ص ٢٧٨ ، د. سهام أبو زيد : تاريخ الصقالبة في مصر الإسلامية ص ١٤٤ مجلة كلية الدراسات الإنسانية العدد التاسع سنة

ومن قطلونيه وجليقية فى شمال إسبانيا(٢) .

وقد أطلق الجغرافيون العرب هذا الاسم فى العصور الوسطى على سكان البلاد المتاخمة لبحر الخزر بين القسطنطينية وبلاد البلغار أو بعبارة أخرى سكان البلاد الممتدة من بحر قزوين شرقا إلى البحر الإدرياتي غربا(٣) . فيشير المسعودى إلى أن الصقالبة أجناس متعددة من الروس والبلغار والصرب والسلاف من أصول آسيوية كانت تسكن القوقاز حول البحر الأسود(٤) .

ولقد دابت القبائل الجرمانية المتبربرة والقراصنة على سبب الكثير من أفراد تلك الشعوب ، وبيعها إلى المسلمين فى الأندلس ، ولهذا سموا بالسلاف بمعنى الرقيق أو العبيد ، ثم حور اللفظ فى العربية إلى

١٩٩١ م) ، د. أحمد العبادى : الإسلام فى أرض الأندلس ص ١٢٥
مجلة المختار من عالم الفكر الكويت سنة ١٩٨٤ م) .

وقد غاب على هذه الشعوب اسم السلاف وتنطق سكلف
Slaves فعربها العرب إلى صقلبي التي ترادف عبيد Slave
وقد أصبح هذا اللفظ يطلق على الرقيق من هذه الشعوب حتى
أن الإفرنج قد استخدموه بنفس هذا المعنى فى لغاتهم Sklave
بالانجليزية ، Esclave بالفرنسية Slavery بالالمانية

(جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ج ٥ ص ٣٣ - ٣٤) .

(٢) ابن حوقل صورة الأرض ص ٣٣٣ ، المختار من عالم الفكر ص ١٢٥ .

(٣) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ٣٥ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٠٥ وبعدها ، التنبيه والإشراف

صقالبة وتوسع في استعماله فأصبح يطلق على كل الرقيق الأبيض
المجلوب من أية أمة مسيحية (٥).

٥ - كل لفظ في اللغة ياتي من لغات : عربية ، فارسية ، يونانية ، رومانية ، رالية شيم

وكان أغلبهم يؤتى بهم أطفالاً من حوض نهر الدانوب وبلاد
الفرنجة ويربون تربية عسكرية ، ويدربون على الخدمة في القصور ،
والانخراط في سلك الجندي ليكونوا جنوداً في الحرس أو الجيش . وكان
المستخدمون منهم في القصور يتم خصاؤهم للقيام بخدمة الحریم ،
وكان معظم تجار الرقيق من اليهود ، ولهم معامل خاصة للخصاء
في أوربا - وخاصة في فرنسا - ومن أشهر معاملهم فيها معمل فردان
بمنطقة اللورين ، وكذلك في الأندلس - وخاصة في مدينة خلف بجانة
وهي شينا القديمة عاصمة إقليم البيرة - وكان معظم أهلها
من اليهود (٦) . وعليهم تقع تبعه هذه العملية الشنيعة التي يحرمها
الإسلام . ولذلك فقد كان الخصيان يباعون بأثمان مرتفعة عن غيرهم
من الرقيق . يقول ابن حوقل « وجميع من على وجه الأرض من الصقالبة
الخصيان من جلب الأندلس لأنهم عند تربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم

(٥) د. سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى ج ١ ص ٦٣١ ، ليفي
بروفنسال : الحضارة العربية في إسبانيا ص ١١٠ عنان : دولة
الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٤٦٦ .

(٦) آدم متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٥٣ ، د. لطفى عبد البديع :
الإسلام في إسبانيا ص ٣٦ . ومن المتعارف عليه أن الروم
البيزنطيين كانوا أول من قام بعملية الخساء . (الحيوان ج ١
ص ١٢٥) ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٢ .

تجار اليهود» (٧) .

و قد تميز الخصيان من الصقالبة بمعدة صفات منها ما ذكره الجاحظ حيث قال : « والخصى أجود خدمة ، وأظن لأبواب العطاء والمنولة ، وهو بها أنفق ، ولها اليق ، ونجده أيضا أذكى عقلا عند مخاطبة . » والصقلبي سلس القياد لبراعته من وعمورة العصبية « ويبدو أن الجاحظ قد حكم في ذلك على من شاهده في بغداد منهم حيث كانوا قلة غير متعصبة بخلافهم في الأندلس حيث كثروا وظهرت عصبيتهم وشعوبيتهم واضحة ضد العرب وخاصة في الجزائر الشرقية التي استقل بها الأمويين . مجاهد العامري بعد سقوط الخلافة الأموية وكان معظم سكانها منهم . كما أنهم مشهورون بالصبر مع طول الركوب ، حتى فاتوا الترك في ذلك ، كما أنهم يجيدون الرمي بالنشاب إجابة تامة . »

كما وصفهم الجاحظ بأنهم لا يهتمون من الصناعات إلا صغارها ، ويجيدون الضرب على الأوتار . ولكن هذا الرأي لا يمكن تعميمه على كل الصقالبة ولا يمكن الأخذ به كتقاعدة عامة بدون استثناء . وشبههم أيضا بالحمام الأبيض وشبه الزنج بالحمام الأسود (٨) .

وقد اشتهروا بحسن الخدمة كما يستدل على ذلك من قول الخوارزمي « ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي » (٩) . كما اشتهروا بالشدّة والمراس في الحروب يقول ابن عبدون :

(٧) صورة الأرض من ١٠٥ - ١٠٦ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣

ص ٨٥ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦ .

(٨) الحيوان ج ١ ص ١١٦ - ١١٧ ، المحاسن والمساوي ج ١ ص ٣٩٦ .

(٩) يتيمة الدهر ج ٤ ص ١١٦ .

« ومن أراد العبيد لحفظ النفوس والأموال فالهند والنوبة ، ومن أرادهم للكثير والخدمة فالزنج والأرمن ، ومن أرادهم للحرب والشجاعة فالترك والصقالبة » (١٠) .

وقد كان الأمير الحكم بن هشام أول من استكثر منهم واتخذ منهم حرسا خاصا له فجلب منهم خمسة آلاف وأطلق عليهم اسم الخرس لعجتهم (١١) . ثم أخذت أعدادهم في الازدياد وخاصة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث ذكر أن عددهم وصل في قرطبة وحدها في عهده نحو ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين (١٢) .

وقد نبغ عدد كبير منهم ، ووصل الكثيرون إلى مناصب هامة في الإدارة والجيش وخاصة في عهد الناصر مثل نجدة الصقلي قائد الجيش ، والدرى صاحب الشرطة ، وأفلح صاحب الخيل ، وخلف مدير الطراز سنة ٣١٣ هـ ، وعند حاكم طليطلة سنة ٣٣٦ هـ (١٣) .

(١٠) رسالة نافعة في شرى الرقيق (نوادر المخطوطات (٤) ص ٣٥٢) .
(١١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٧ . أطلقت عليهم عدة أسماء أخرى مثل الأبناء ، والفتيان ، والطفاء ، والعلوج ، والمجائب ، والماليك إلى جانب الخرس ، والصقالبة .

(١٢) د. لطفى عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ٣٦ . وهذا الرقم مختلف في تقديره فبعضهم يصل به إلى خمسة عشر ألفا أو يزيد ، وعلى كل فليس هناك تقدير دقيق لأعدادهم إلا أن ذلك يدل على ظهور عنصر جديد في المجتمع الأندلسي كان له دور واثق مماثل أو مشابه للعنصر التركي في المشرق .

(١٣) د. العبادي : الإسلام في أرض الأندلس . مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ ، تاريخ العرب في إسبانيا ص ٣١٢ .

كما استكثر الحكيم المستنصر منهم فاشتدت شوكتهم ، وكثروا في البلاط ووصل الكثير منهم إلى النفوذ والسلطان وعلى رأسهم فائق وجوذر اللذين كان لهما دور كبير في عهد المستنصر وابنه هشام .
وقد نبغت طائفة منهم في العلم والأدب إلى جانب الحرب والسياسة ومن هؤلاء خازن مكتبة المستنصر ويسمى تليد .
وقد خصهم واحد منهم وهو ابن حبيب الصقلبي بكتاب ذكر فيه مآثرهم وسماه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقلابة) (١٤) .

وقد ذهب الكثيرون إلى أن الهدف من اعتماد الأمويين على هذا العنصر كان هو الحد من نفوذ العنصر العربي والبربري ، وإضعاف سيطرتها على الجيش حتى لا يكون لهما نفوذ وسلطان وقوة يستخدمونها في الثورات ضد الأمويين .

ويبدو أن الأمويين كانوا قد ملوا من كثرة الفتن والثورات والصراعات التي قام بها العرب والبربر ضدهم ، وكذلك الصراعات بين العنصرين العربي والبربري فأرادوا الاعتماد على عنصر آخر جديد يتميز بالقوة والفتوة ليكون سندا لهم كما اعتمد العباسيون منذ عصر المعتصم بخاصة على العنصر التركي بعد أن ملوا من كثرة التناحر والصراع بين العنصرين العربي والفارسي .

إلا أن ذلك قد أدى إلى ازدياد المنافسة والعصبية بين عناصر المجتمع فبدلاً من أن يكون الصراع بين عنصرين أساسيين هما العرب والبربر أصبح بين عناصر ثلاثة مما كان له أثره في المجتمع الأندلسي من نواحي شتى .

(١٤) د ، لطفى عبد البديع : الإسلام في إسبانيا ص ٤٧ .

ومثال ذلك انه عندما ولى الناصر مملوكه نجدة الصقلبي قيادة الجيش. المتوجه لقتال ملك ليون (راميرو الثاني) سنة ٣٢٧ هـ في موقعة الخندق. عند مدينة سيمانته هزم الجيش هزيمة شديدة وقتل نجدة ، وفر الناصر بنحو خمسين فارسا فقط بعد ان نجا باعجوبة ، حيث قيل ان سبب الهزيمة هو تغير نفوس العرب الذين كانوا في الجيش لتولى قيادته صقلبي ، وتقديسه الصقالبة عليهم مما جعلهم يتركونه وحده فأدى ذلك إلى هزيمته . ويقول صاحب أخبار مجموعة عن هذه الموقعة « إن عبد الرحمن لم يكن له بعدها غزوة بنفسه » (١٥) .

وقد لعب الصقالبة دورا هاما في الحياة السياسية بالأندلس في هذا العصر حيث تدخلوا في تولية الأمراء وعزلهم ، وشاركوا مثل البربر في غمار الفتن والمؤامرات التي اندلعت في قرطبة وغيرها . وكان من أشهر زعمائهم فيها خيران الصقلبي .

كما كان لهم دور أيضا في الحياة العلمية حيث برز من بينهم بعض العلماء والأدباء والشعراء مثل فاتن الصقلبي الذي برع في الأدب وناظر صاعدا العالم اللغوي عند المنصور بن أبي عامر فأفهمه وأعجب به المنصور ، ويذكر أنه وجد في تركته بعد وفاته دفاتر أدبية حسنة الضبط . كما ألف الأمير مجاهد الصقلبي صاحب دانية كتابا في العربية يدل على قوته فيها(١٦) ويذكر ابن الأبار أن حبيبا الصقلبي ألف زمن هشام

(١٥) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ١٤٥ - ١٤٦ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣١٩ ، تاريخ العرب في إسبانيا ص ٣٨٠ .
(١٦) الضبى : بغية المتمس ص ٤ .

المؤيد كتابه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) يتعصب فيه لقومه . وذكر ابن بسام انه اطلع على هذا الكتاب الذى احتوى على جملة من أخبارهم ونواديرهم وأشعارهم ولكنه اعتذر عن عدم ذكر شىء منها فى كتابه الذخيرة حيث قال « وشعرهم خارج عن شرطنا وليس من جمعنا » (١٧) .

كما كان لهؤلاء الصقالبة اثر أيضا فى الحياة الاجتماعية حيث جلبوا معهم من بلادهم الكثير من عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم ، وقد اثارناطروشى إلى اختصاصهم بأنواع من الألحان والرقصات الشعبية نسبت إليهم مثل اللحن الصقالبي والرقص الصقالبي الذى يذكرنا بشىء منه الرقص الإسباني الحديث (الفلامنجو) (١٨) .

ولذلك يرى المستشرق الإسباني خوليان ريبيرا : أن الصقالبة كانوا يمثلون العنصر الأوربي فى المجتمع الأندلسى ، وعن طريقتهم انتقلت بعض الصور الشعرية التى شاعت فى الأندلس إلى البيئات الأوربية وأثرت فيها (١٩) .

ويبدو أن الصقالبة كانوا يعتبرون أنفسهم عنصرا متميزا ولذلك فإنهم لم يختلطوا كثيرا بالعناصر الأخرى ، وحاولوا المحافظة على كياناتهم الخاص مما بعث فيهم النزعة العنصرية أكثر من غيرهم ، ولذلك فإنهم كانوا أساس الحركة الشعبية فى الأندلس تلك الحركة التى انبعثت من الإمارات الصقالبية فى عصر ملوك الطوائف ، حيث استطاع الصقالبة

(١٧) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ج ١ ق ١ ص ٢١٠ .

(١٨) الحواد شوالبدع ص ٧٨ تحقيق محمد الطالبي تونس سنة ١٩٥٩ م .

(١٩) الإسلام فى إسبانيا ص ٣٨ .

أن يستأثروا بنصيب من تركة الخلافة الأموية فكونوا لهم ممالك فى شرق
الأندلس وخاصة فى بلنسية ، وطرطوشة ، ودانية ، والمرية ، ومرسية .
وكانت هذه الممالك الصقلبية تجمعها رابطة تحالف وولاء عنصرى .
وتسمى بالدولة العامرية الصقلبية تمييزا لها عن الدولة العامرية التى
أسسها المنصور بن أبى عامر . لأن أصحابها كانوا من مماليك
العامريين (٢٠) .

ومما يدلنا على نزعة الصقلبية الشعبوية ضد العرب كتاب
ابن حبيب السابق ذكره والذى اعتبره البعض البداية الأولى للشعبوية
فى الأندلس ، وكذلك تلك الوثيقة المحفوظة حتى اليوم وهى رسالة
أبى عامر بن غرسية (٢١) إلى الشاعر أبى عبد الله الحداد أو أبى جعفر
الخرزاز التى يفضل فيها العجم على العرب (٢٢) .
ويبدو أن السبب فى هذه النزعة الشعبوية بين الصقلبية
بخاصة أن معظم أهالى الإمارات الصقلبية التى أنتشرت فيها هذه النزعة

(٢٠) المختار من عالم الفكر ص ١٢٦ — ١٢٧ .

(٢١) غرسية تعريب جارسيا Garcia ومعناه فى الإسبانية
صاحب الحيلة أو الثعلب أو الماكر كما ورد فى معجم الجمع العلمى
الإسبانى ، وهو اسم شائع فى أسبانيا تسمى به كثير من الملوك
والأمراء ومنهم غرسية ملك البشكنش ، كما تسمى به بعض المحدثين
ومنهم المستشرق الإسبانى إميليو جارسيا جوميز (نوادير المخطوطات
ص ٢٣١) .

(٢٢) اختلف فيمن أرسل إليه ابن غرسية هذه الرسالة فذهب الكثيرون
إلى أنه أبو جعفر بن الخراز ، وذكر البعض أنه أبو عبد الله
ابن الحداد أو أبو بكر بن الحداد .

كانوا من الموالي من الصقلية والإفرنجسة والبشكنس الذين رحب بهم الصقلية في ولاياتهم كما ذكر ابن حيان « بينما زهدوا في الأمراء من العرب وأبنائهم ممن طرا عليهم فلم يواستوهم » (٢٢) .

* * *

والأرجح أنه (أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن سهل الأنصاري المعروف بابن الخراز) . كما نص على ذلك ابن سعيد في ترجمته لابن غرسية (المغرب ج ٧ ص ٣٣٥ - ٣٣٦) ، لأنه ترجم لابن الحداد في موضع آخر إذن فهما شخصان مختلفان ، ويبدو أن الاختلاف جاء من تصحيف بعض النسخ لقرب كلمتي الحداد والخراز من بعضهما (انظر نوار المخطوطات ص ٢٣٥ - ٢٣٦) . وقد نشر الأستاذ عبد السلام هارون هذه الرسالة في نواذر المخطوطات (ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٥٤) والردود عليها من المعاصرين لابن غرسية من العرب ، وغير المعاصرين .

وابن غرسية من أصل مسيحي بشكنسي أسلم وأتقن العربية وآدابها حتى لقب بالشاعر والكاتب عاش في مملكة دانية الصقلية وخدم في بلاط مجاهد العامري الصقلبي وابنه على ولذلك تعصب ضد العرب فكتب رسالته هذه . (انظر : نواذر المخطوطات ج ٣ ص ٢٣٢) .

(٢٣) ابن بسام : الذخيرة القسم الثالث ورقة ٣ نقلًا عن المختار من عالم الفكر ص ١٢٩ .

(١٧) هـ ٣٢٣ ق.م

ثامنا : النورمان (الفايكنج)

يعني (رملانيا) بصياغة قديمة رملانيا في راسها منقسمه الى
نصفين وهناك عنصر آخر فرض نفسه على الأندلس منذ عهد عبد الرحمن
الأوسط بغاراته البحرية على شواطئها في فترات عديدة من العصر
الأموي . ويسمى هذا العنصر في المصادر العربية باسم (النورمانيين ،
والأردمانيين ، والمجوس) وهو تحريف للكلمة الانجليزية Norsemen
أو الإسبانية Normandes وتطلق على أهل الشمال من الدول
الاسكندنافية أو سكان اسكندناوه (١) .

ولا تزال توجد في فرنسا حتى اليوم ولاية أو مقاطعة تحتفظ
باسمهم وهي نورماندى أو نورمانديا حيث استقروا بها في أوائل القرن
العاشر الميلادي بموجب معاهدة بين ملكهم رواو وملك فرنسا شارل
الثالث الملقب بالابله نتيجة لكثرة غزواتهم المدمرة على سواحل فرنسا
كما اقامت جماعة منهم في جنوب إيطاليا ، واستخدمتهم الكنيسة في
محاربة المسلمين في الأندلس وصقلية ، فقد هاجموا الأندلس سنة ١٠٤٦هـ
واستباحوا مدينة بربشتر شمال شرق سرقسطة، وهاجموا صقلية بعد ذلك

(١) المختار من عالم الفكر ص ١٣٠ . وتسمية معظم المصادر العربية لهم
بالمجوس لا تعنى أنهم من جنسهم الفارسي ، وإنما إعتقادا منهم بأنهم
كانوا يعبدون النار وهو اعتقاد خاطيء ، حيث كانوا إذا ما نزلوا
في مكان خربوه ونهبوه وأشعلوا النار فيه مثل القراصنة ، كما
كانوا يحرقون جثث موتاهم فظن هؤلاء المؤرخون أنهم يعبدون النار
مثل المجوس ، ولعلمهم قصدوا من هذه التسمية أنهم وثنيون حيث
كانوا يعبدون النجوم ومظاهر الطبيعة وقد ذكر أ. أحمد أمين أنهم
سموا بذلك لأنهم كانوا مجوسا قبل أن ينتصروا (ظهر الإسلام
ج ٣ ص ١٠٨) . ولكن ليست هناك أدلة على ذلك .

سنة ٤٦٤ هـ (٢) .

وكان موطنهم الأصلي في المناطق المحيطة بالبحر البلطى (بحر البلطيق) ، وقد انقسموا إلى ثلاث مجموعات : السويديون والنرويجيون والدنماركيون (سكان دنماركة أو دنمارشة) وهؤلاء هم الذين هاجموا سواحل الأندلس وسواحل المغرب أيضا .

وكانت بداية غاراتهم البحرية على الأندلس في سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٤ م في عهد الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) . وكانوا يتميزون بتحركاتهم السريعة الخاطفة ، والأسهم النارية التى يطلقونها ، والأشعة السوداء التى تميز سفنهم وشبهها بعض المؤرخين بالطير الجون (٣) .

وقد استطاعوا فى أولى غاراتهم هذه التى استمرت أكثر من ثلاثة شهور أن يحتلوا مدينة إشبيلية عدة أيام ، بعد أن هاجموا أشبونة (لشبونة بالبرتغال حاليا) ، واستطاع أهلها ردهم بعد معارك عنيفة حتى

وأما تسميتهم بالفايكنج فأتىها مشتقة من كلمة Vik النرويجية . وتعنى ساكن الخلجان .

ولهذا أطلق هذا الإسم على سكان شبه جزيرة إسكنديناوة لكثرة خلجانها ، وورد فى المعاجم الإسبانية أن كلمة Vikings تعنى المحاربين ولا تعارض فهم سكان شبه الجزيرة المحاربين (الامويون أمراء الأندلس ص ٣١٨) .

(٢) د. سعيد عاشور : أوربا فى العصور الوسطى حاص ٣٢٧ - ٣٢٩ ، الدنى : المسلمون فى صقلية وإيطاليا ص ٣٠ - ٣١ ، د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣٠٨ .

(٣) إين عذارى : البيان المغرب ح ٢ ص ١٣٠ ، د. عاشور : أوربا فى العصور الوسطى ج ١ ص ٢١٠ وبعدها ، د. الحجى : المرجع السابق ص ٣٢٧ .

استطاع الأسطول الأندلسى الناشئ الوصول إليهم ومحاربتهم عند طليطلة وإشبيلية وردهم على أعقابهم . وقد قاموا بعد ذلك بعدة غارات على الأندلس فى سنة ٢٤٥ هـ ، سنة ٢٤٧ هـ ، سنة ٣٥٥ هـ ، سنة ٣٦٠ هـ ، سنة ٣٦١ هـ (٤) .

غير أن عددا كبيرا منهم لم يتمكنوا من اللحاق بإخوانهم أثناء الإنسحاب ، فوقعوا أسرى فى يد المسلمين ، فخيروهم بين الإسلام أو القتل فقبلوا الإسلام ، وسكنوا ضواحي إشبيلية ، وأختلطوا بأهلها ، واشتغلوا بالزراعة وتربية الحيوانات ، وصناعة الأجبان — التى يشتهر بها الدانمركيون إلى اليوم . (٤)

فوجدنا المقرئ نقلا عن المؤرخ الحجارى — نسبة إلى وادى الحجارة — « أن مدينة شريس — وهى بنت إشبيلية وواديها — وابن واديها — اقتصت بإحسان الصنعة فى المجينات وطيب جبنها يعين على ذلك ، ويقول أهل الأندلس من دخل شريس ولم يأكل بها المجينات فهو محروم » . (٥)

هذا وقد كان لغارات النورمان آثار هامة من النواحي السياسية والحربية ، فضلا عن النواحي الاقتصادية والاجتماعية إن أقام منهم بالأندلس .

فقد لفتت هذه الغارات نظر الأمويين فى الأندلس إلى أهمية

(٤) د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٢٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٣١ ، د. الشعراوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول ص ٢٢٠
(٥) نفع الطيب ج ١ ص ١٨٤ والمجينات : نوع من القطائف المحشوة بالجبن تقلى بالزيت . (د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٢٣٣ هامش ١) .

إقامة علاقات سلمية بينهم وبين هؤلاء النورمان ، فأرسل الأمير عبدالرحمن الأوسط سفارة إلى ملك الدانمارك (هوريك) سنة ٢٣٠ هـ برئاسة الشاعر يحيى الغزال . (٦)

كما أن هذه الغارات قد لفتت الأنظار ونبهت الأذهان إلى ضرورة تحصين سواحل الأندلس ، وبناء أسطول قوى يستطيع حمايتها من المعتدين ، ولذلك فقد بدأ الأمير عبد الرحمن الأوسط عقب الهجوم الأول مباشرة فى تحصين مدينة إشبيلية بأسوار عالية ، وأقام نقاطا للحراسة على طول الساحل الغربى للأندلس عرفت بالرباطات كان يقيم فيها المرابطون من المجاهدين ، واهتم بإنشاء دور لصناعة السفن تم فيها بناء الكثير من المراكب والسفن وتزويدها بالآلات والأسلحة والمنجنيقات والحراقات . وكان هذا ميلادا للبحرية الأندلسية التى استطاعت فيما بعد أن تسيطر على غرب البحر المتوسط (٧) .

كما تأثر الأندلسيون بفن صناعة السفن عند النورمان فقد ذكر ابن عذارى أن الخليفة المستنصر أمر بصنع مراكب على هيئة مراكبهم ووضعها

(٦) تحدثت عن هذه السفارة بالتفصيل فى بحثى عن السفارات بين الأندلس والدول الأجنبية ص ١٩ - ٢٠

(٧) إين القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٦٧ . يرجح أن يكون البيزنطيون هم الذين توصلوا إلى إستخدام الحراقات أو النار الإغريقية أو كرات النفط المشتعلة التى ترمى سنة ٥١٦ م ، ثم أدخلوا عليها تحسينات على يد رجل يدعى (كالينكوس) وكان من أصل سورى ثم أقام فى القسطنطينية واستخدم هذا التركيب المحسن لأول مرة أثناء حصار المسلمين لها سنة ٦٠ هـ فى عهد يزيد بن معاوية ، ونتج عنه إنسحاب الأسطول العربى عن المدينة (راجع

في نهر الوادي الكبير استعدادا لقتالهم بها على نفس طريقتهم وكان يطلق عليها اسم القراقير (٨) .

ولا يبعد أن يكون الذين أقاموا منهم في إشبيلية واستقروا قد ساهموا بخبراتهم في صناعة هذه السفن أو المراكب الجديدة .

وقد جاء في كتاب الجغرافية - المنسوب إلى أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر الزهري حوالى منتصف القرن السادس الهجري - « أنه كانت تخرج من البحر مراكب عظام كان أهل الأندلس يسمونها القراقير وهي مراكب كبار بقلوع مربعة ، تجرى إلى أمهاتها وإلى خلفها ، وكان يخرج فيها أقوام يعرفون بالمجوس كانت لهم شدة وبأس وقوة وجلد على ركوب البحر ، وكانوا متى ما خرجوا خلت سواحل البحر مخافة منهم ، وكانوا أقل ما يخرجون في أربعين مركبا ، وربما بلغوا المائة مركب ويغلبون كل من لقوه في البحر ويسبونهم ويأسرونهم » . (٩)

كما أن أحداث هذه الغارات قد تركت آثارا في النواحي الأدبية والتاريخية فقد تحدث عنها الكثير من الأدباء والمؤرخين ، وظل صداها مسموعا في الأدب والتاريخ الأندلسي زينا طويلا .

لويس ارشيبالد : القوى العربية والتجارية في حوض البحر المتوسط (ص ٢١٤) . وكان هذا السلاح مكونا من مركب كيميائي من النفط والكبريت والقار تقذف به المراكب فتشتعل ولا ينطفئ بالماء بل يزداد اشتعالا . (د. إبراهيم العسدي : الأميون والبيزنطيون ص ١٧٦ ، العالم الإسلامي في العصر الأموي ص ٢٥٢) .

(٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥٦ والقراقير جمع قرقر وهو السفينة الطويلة العظيمة (المعجم الوسيط ج ٢ ص ٧٣٦) .

(٩) كتاب الجغرافية ص ٢١٥ رقم ٢٤٠ نقلا عن د. الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٢٢٨ .

10-11-1964

Dear Mr. [Name],

I have your letter of [Date] regarding [Subject].

[Detailed body text, mostly illegible due to low contrast]

Sincerely,
[Signature]

الفصل الثاني

العلاقات بين عناصر السكان

1000

أولا : الاختلاط بين الأجناس

كان فتح العرب للأندلس - كغيرها من البلدان الأجنبية - سببا مهما في حدوث عملية اختلاط وامتزاج كبيرة بينهم وبين سكانها من الإسبان وغيرهم ، إختلاط في الأنساب والدماء ، واقتباس في النظم والعادات والتقاليد ، وامتزاج في العقيدة الدينية ، وامتزاج في اللغة ، حيث دخل كثير من هؤلاء السكان في الإسلام وتعلموا اللغة العربية ، كما تعلمها كثير ممن لم يدخل في الإسلام لأنها لغة العلم والثقافة ، وسُمى هؤلاء بالمستعربين .

Losmozarebes

وقد ساعدت عدة عوامل على حدوث هذه العملية من أهمها :
التعاليم السمحة والقيم النبيلة التي جاء بها الإسلام ، وأدت إلى دخول الكثيرين فيه ، ثم الاختلاط بين العرب وبين أهل هذه البلاد في السكنى والجوار ، والتعامل فيما بينهم في كثير من نواحي الحياة . (1)

وقد أدت الفتوحات التي قام بها المسلمون في الأندلس إلى دخول الكثير من العبيد والإماء في ملكهم بعد أن أصبحوا أسرى لهم ، وبذلك أصبح لكل جندي منهم عددا من الرقيق يستخدمهم في قضاء حوائجه ، ويستولد الإماء منهم فيصرن أمهات أولاد ، ونتج عن ذلك جيل مولد له صفات مختلفة تجمع بين الجنسين ، وحدثت بعد ذلك عملية اختلاط بشرية واسعة النطاق ، نظرا لأن المسلمين عندما دخلوا الأندلس لم

(1) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٨٥ ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية
سنة ١٩٧٨ م .

يصطحبوا معهم زوجاتهم أو عائلاتهم (٢) ، وكان منهم الكثير من غير المتزوجين ، ولذا فانهم اضطروا إلى الارتباط بعلاقات المصاهرة مع أهل هذه البلاد وخاصة الإسبان ، هذا بالإضافة إلى حسن معاملة الإسلام لأهل الذمة مما أدى إلى ازدياد الصلات بينهم وبين المسلمين الفاتحين .

ولعل ما يروى من قصص حول زواج بعض القادة المسلمين بالإسبانيات — وإن كان يبدو في بعضها مسحة من المبالغة أو الخيال — يعطينا فكرة واضحة عن هذه الظاهرة الإجتماعية الهامة التي كان لها أثرها الكبير في نواحي شتى .

ويذكر أن عبد العزيز بن موسى بن نصير كان أول من تزوج من الإسبانيات ، فقد تزوج من (إخلونا) أرملة لذريق آخر ملوك القوط والتي تسميها المصادر العربية إليه وتكنيها بأم عاصم (٣) .

وحذا حذوه الكثير من العرب مثل زياد بن النابغة التميمي الذي تزوج من إحدى أميرات إسبانيا (٤) ، وعيسى بن مزاحم الذي تزوج من سارة القوطية بنت المنذر بن غيطشة في دمشق عندما ذهبت تشكو للخليفة هشام بن عبد الملك عمها أربطاش ، ثم قدمت معه إلى الأندلس .

(٢) هناك حالات فردية شذت عن هذه القاعدة ، مثل طارق بن زياد الذي ذكر أنه اصطحب معه زوجته أم حكيم وتركها في الجزيرة الخضراء فسميت بعد ذلك باسمها ، وموسى بن نصير الذي اصطحب معه زوجاته وبناته كما يفهم من كلام صاحب الإمامة والسياسة (ح ١ ص ٨١) .

(٣) تذكر بعض المصادر أخرى أنها كانت أينة لذريق (انظر البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤ ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٨٥) .

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣ ، أخبار مجموعة ص ٢٠ .

بعد زواجهما وسكنا إشبيلية وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق (٥) . ويعتبر عيسى هذا جد المؤرخ الأندلسي المشهور بابن القوطية وهو (أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ت ٣٦٧ هـ) . وقد روى ذلك في كتابه (تاريخ إفتتاح الأندلس) .

وبعد وفاة عيسى بن مزاحم سنة ١٢٨ هـ تزوجت سارة من عمير ابن سعيد فولدت له ولدا يدعى حبيب وهو جد بني سعيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجزر وهم أشراف ولد عمير بإشبيلية (٦) . كما تزوج القائد البربري (مونوسه) — الذي كان حاكما على شرطانية شمال إسبانيا واشترك مع القائد العربي عبد الرحمن الغافقي في الفتح جنوب فرنسا — من ابنة الدوق (أودو) حاكم إقليم أكتانيا وتدعى (لامبجييه أو مينيين) (٧) .

كما تزوج الأمير الأموي عبد الله بن محمد والي قرطبة من الأميرة البشكنسية ونقه أو (أنيجا) المعروفة باسم در — ابنة ملك نافار (فرتون ابن غرسيه) المعروف بالانقر — والذي وقع في أسر المسلمين ، وظل في قرطبة نحو اثنين وعشرين عاما — وأنجب منها ابنه محمد والد عبدالرحمن الناصر ، كما تزوج الشاعر تمام بن عامر بن علقمة (ت ٢٨٣ هـ) — الذي تولى الوزارة للأمير محمد ولولديه المنذر وعبد الله — من ابنة رومانوس قومنس جنوب أسبانيا زمن القوط وتكثرت المصادر العربية بأمر الوليد

(٥) ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٦ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٧ .

(٦) تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٣٠ — ٣٢ ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

(٧) انظر : تاريخ غزوات العرب ص ٨٨ ، فجر الأندلس ص ٢٥٢ .

بنت خلف بن روفان النصرانية فكان من نسله الكثير من الكتاب والعلماء والقضاة ومنهم الوزير الكاتب عيسى بن فطيس وابنه عبد الرحمن ابن عيسى المحدث وقاضى الجماعة بقرطبة ٣٩٤ - ٣٩٥ هـ (٨) .

ولذا كان الناصر - كأكثر بنى أمية من المولدين بالاندلس - يتصف ببياض اللون وشقرة الشعر وزرقة العينين ، ولذلك لقبوا فى الملاحم الفرنسية بالملوك الشقر (٩) .

كما تزوج الخليفة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر من بشكنسية تدعى (أورورا) وتعرف بصبح فى المصادر العربية ، وهى التى ولدت له ابنه هشام المؤيد الذى تقلب عليه المنصور بن أبى عامر ، واستطاع أن يصل عن طريقها إلى السلطان والنفوذ (١٠) .

كما تزوج المنصور بن أبى عامر من ابنة ملك نافار (سانشو غرسية) المعروف بشانجة ، وقد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم (عبده) ، وأنجب منها المنصور ولده عبد الرحمن الذى عرف باسم شنجول فى المصادر العربية . حيث أطلقت عليه والدته اسم (سانشويو) أى سانشو الصغير تكريما لذكرى والدها (١١) .

وتزوج مطرف بن موسى القسوى حاكم الثغر الأعلى (سرقسطة

(٨) ابن حبان المتببس ج ٢ ص ٧٦ ، ١٨٢ ، بالنيشيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٠٣ ترجمة د. حسين مؤنس ، الصلة ص ٣٠٩ ، ترتيب المدارك ص ٢ - ٤ ، ص ٦٧١ .

(٩) البيان المغرب ج ٢ ص ١٥١ ، د. لطفي عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ٢٤ - ٢٥ ، مجلة عالم الفكر ص ٩٧ .

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، مجلة عالم الفكر ص ٦٧ .

(١١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨ ، أعمال الأعلام ج ٢ ص ٦٦ .

وما حولها) من الأميرة (فلشكيطة) بنت سانشو ملك نافار كما تزوج
أخوه موسى من أوربه بنت غرسية ابن وثقه ملك نافار أيضا (١٢) .

وإذا كانت المصادر قد حفظت لنا هذه الأمثلة للأبراء والخلفاء
والقادة ، فلا شك أن الكثيرين من العامة والجنود قد فعلوا ذلك ،
فالناس على دين ملوكهم كما يقولون .

ومما يدل على مدى انتشار هذا الزواج المخلط وكثرته ،

ما ذكره المراكشي حين قال : « وماذا المنصور بن أبي عامر الأندلس غنائم
وسبيا من بنات الروم ، وأولادهم ونسائهم . وفي أيامه تغالى الناس
بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى وذلك لرخص الثمان
بنات الروم ، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به ، ولولا
ذلك لم يتزوج أحد . بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم
بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع فلم تساو أكثر من عشرين دينار
عامرية » (١٣) .

وفى هذا المعنى أيضا يذكر ابن عذارى : أنه عقب وفاة المنصور
خرج الناس صائحين (مات الجلاب ، مات الجلاب) (١٤) وهى كلمة
كانت تطلق على بائع الدواب أو النخاس (بائع الرقيق) ، واستعملت

(١٢) انظر عن نسب أسرة بنى قسى جبهة أنساب العرب ص ٥٠٢
تحقيق عبد السلام هارون ط ٤ دار المعارف بمصر ، المختار من عالم
الفكر ص ٩٧ .

(١٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ مطبعة السعادة بمصر
سنة ١٣٢٤ هـ .

(١٤) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣ .

هنا بمعنى المدح للمنصور والترحم على أيامه لكثرة السبايا فى غزواته .
وقد حبيب العرب والبربر فى هذا الزواج ما عرف عن الإسبانيات
من جمال وبياض بشرة ، وصفرة شعر وزرقة عيون وهى صفات
أحبوها كثيرا لأنها كانت جديدة عليهم» (٩) .

وقد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيل من المولدين نشأ
على الإسلام ، وتعلم العربية ، وأصبح يؤلف على عهد بنى أمية
الكثرة الغالبة من السكان ، وبهنة تكونت جماهير الأندلسيين (١٠) .

وقد اشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة : منها : الجمال
والذكاء والشجاعة ، وكان له أثره الكبير فى تاريخ الأندلس وحضارتها .

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢ ط ٤ مكتبة النهضة سنة ١٩٦٦ م .
(١٠) فى بعض الأحيان القليلة أو النادرة كانت تحدث زيجات عكسية ،
حيث يتزوج بعض الملوك أو الأمراء الأسبان بزوجات لبعض
المسلمين ، مثل زواج وثقة بن وثقة ملك نافارا من أرملة موسى
ابن فرتون بن قسى أمير الثغر الأعلى بعد وفاته ، وزواج
أحد حكام جليقية من جميلة أخت محمود بن عبد الجبار
المصمودى البربرى الذى أعلن الثورة فى ماردة سنة ٢١٣ هـ على
الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واضطر بعد هزيمته إلى اللجوء
إلى جليقية وبقيت أسرته هناك ، وقد أنجب منها ولدا صار
أسقفا على مدينة شانت ياثب (سانت يعقوب) (أنظر : المختار
من عالم الفكر ص ٩٧) .

ونظرا لأنه لا يجوز لمسلمة أن تكون زوجة لغير مسلم فلا بد
وأن أمثال هؤلاء الزوجات كن على ديانتهم النصرانية بعد
زواجهن بالمسلمين ، أو أنهن أجبرن على التنصر ، أو تحولن
إلى المسيحية .

وقد احتفظ كثير من أبناء هذا الجيل من المولدين بأسمائهم الإسبانية القديمة وعرفوا بها بعد تعريبها مثل بنو أنجلين ومنهم محمد بن عمر بن خطاب بن أنجلين أحد زعماء المولدين بإشبيلية فى عهد الأمير عبد الله (١١) وبنو شبرقة ومنهم على بن حسن المعروف بابن شبرقة (ت حوالى ٣٠٠ هـ) وكان من أهل بطليوس وبنى بها مسجدا على نفقته (١٢) . وبنو يليان (جوليان) حاكم سبته أيام الفتح ، ومنهم أبو عمر أحمد بن سليمان بن أيوب بن سليمان بن حكم بن عبد الله بن اليلكاش ابن البيان القوطى (ت ٣٨٨ هـ) وكان من مشاهير علماء قرطبة (١٣) ، وكذلك بنو الجريج (جورج) وبنو لنتق ، وبنو القبطرنة (كابتورنو) أى الرأس المستدير ، وبنو مردنيش (مارتيز) ، وبنو غرسية ملوك البشكنس الذين ينسب إليهم ابن غرسية الثيموبى الأندلسى المشهور ، وبنو ردف (رودلف) ، وبنو موسى بن فرتون القسوى أصحاب تطيلة والثغر الأعلى (سرقسطة) فى عهد بنى أمية ، وكان جداهم فرتون قومس الثغر فى عهد القوط (١٤) .

وهناك الكثير من المولدين ممن ينتسبون إلى أسر شهيرة ذات

(١١) ابن حيان : المقتبس ص ٧٤ نشر ملثور أنطونية باريس سنة ١٩٣٧ م .

(١٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢١٢ ترجمة رقم ٩١٨ .

(١٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٨٨ — ١٨٩ ترجمة رقم ٥٦٦ ، أعمال الأعلام ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) انظر ابن حيان : المقتبس ص ١٦ ، ٧٤ .

أصول إسبانية نذكر منهم : أبا الفتح نصر بن أبي الشمول (ت ٢٣٧ هـ)

الذي تنسب إليه منية نصر وكان أبوه من نصارى قرمونة (١٥) .

وأبواب بن عبد ربه البرقسطي الأصل وكان من المسالمة المولدين

قولى قضاء أشبيلية (١٦) ، وعبد السلام بن بسيل الرومي وكان أحد

مشاوري ووزراء عبد الرحمن الداخل . والعلامة الحافظ بقي بن مخلد

(ت ٢٧٦ هـ) الذي يرجع إلي أصل إسباني كذلك (١٧) . والأقشطين

محمد بن عاصم (ت ٣٠٧ هـ) وهو أول من ألف في طبقات الكتاب

بالأندلس ، والفقهاء أبو محمد الأصيلي (ت ٣٩٢ هـ) ، وكان جده

من مسالمة أهل الذمة وعمل أبوه وراقا للحكم المستنصر ، وأصله من

شذونة أو من الجزيرة الخضراء (١٨) . وكذلك أحمد بن عبد الله

القرطبي ، وهو ابن أخي قومس كاتب الأمير محمد وقومس هو

ابن أنتينان بن يلبانة النصرانية ، أسلم بعد سنة ٢٤٦ هـ

واشتهر بكثرة العبادة حتى سُمي بالسجاد العبادة حماسة

المسجد (مسجد قرطبية الجامع) (١٩) . وكان له ابن يسمى عمر

ابن قومس الكاتب ت ٢٩٨ هـ (٢٠) .

وكذلك محمد بن يحيى بن عمر بن لبابة (ت ٣٣٠ هـ) المعروف

بالبرجون وهو من أسرة قرطبية شهيرة ظهر منها العديد من العلماء الأعلام

(١٥) جهرة أنساب العرب ص ٩٦ .

(١٦) التكملة ج ١ ص ١٩٨ ترجمة ٥٢٣ .

(١٧) نفع الطيب ج ٢ ص ٤٧ ، ٥١٨ ، ج ٣ ص ١٦٨ ، بغية المتمس

ص ٢٤٥ - ٢٤٦ ترجمة ٥٨٤ .

(١٨) ترتيب المدارك ص ٣ - ٤ ، ص ٦٤٤ ، ٦٤٣ .

(١٩) أفضل : تاريخ علماء الأندلس ص ٩ ترجمة ١١١٣ ، الخشني :

قضاة قرطبة ص ٧٦ .

كمحمد هذا وأخيه أحمد وعمر (٢١) ، وأبو المطرف بن فورتشي (٢٨٦)
الذى تولى قضاء سرقسطة وكان منها ، وأبو وهب منتيل بن عفيف
(ت ٣١٧ هـ) ، وكان من أهل وثقة ، وأبو عمر بن قزليان القرطبي
(٣٧٧ هـ) . وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت بهم كتب التراجم الأندلسية .
وحسبنا أن نتصفح هذه الكتب لنجد العديد من أسماء الأبرار والقادة
والفقهاء والكتاب التى تدل على أصل أسباني .

وقد كان من شأن كثرة أبناء هذا الجيل المولد انتشار اللغة
الرومانشية (اللاتينية الحديثة) بين الأندلسيين ويسمىها المؤرخون
العرب العجمية أو اللطينية . وعن طريقهم تداخلت العربية والرومانشية
تداخلا كان من مظاهره نشأة فن الموشحات (٢٢) .

ومع أن هؤلاء المولدين كانوا يدينون بالاسلام ، ويتحدثون العربية ،
ويتخذون غالبا نمط الحياة التى يتخذها المسلمون الوافدون على
الأندلس ، فإنهم لم يفقدوا شخصيتهم تماما باعتبارهم منحدرين من أصول
اسبانية فى الأصل ولم يتناسوا ثقافتهم الوطنية ، ولذلك فقد تعصب كثير
منهم لأصلهم الأسباني رغم إسلامهم ، وتحالفوا مع إخوانهم من النصارى
ضد العرب ، واستغلوا فترات ضعف الدولة الأموية وبخاصة أيام الأمير
عبد الله ، وثار بعضهم فى عدة أماكن من الأندلس مثل ثورة عمر بن حفصون
فى بيشتر ، وثورة عبد الرحمن بن مروان المعروف بابن الجطى فى ماردة
وبطليوس الذى « كانت دعوته عصبية للمولدين على العرب » وثورة يحيى

(٢١) أنظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٣٧ ، ج ٢ ص ٥١ ج ٢ ص ٣٥
تراجم رقم ١١٥ ، ١٣٣١ ، ١١٨٩ ، وجذوة المقتبس ص ٩٨ ، ٤٧ .
(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، لطفى عبد البديع :
(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٤٣ ، الإسلام فى إسبانيا
ص ٢٥ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٥٠ .

ابن بكر بن ردف (رودلف) فى سنت مربة باشكونية(٢٣) .

وتقد تألفت منهم جماعات كبيرة فى مدن الأندلس الهامة مثل
طليطلة التى كانت من أهم مراكز تجمعهم — لأنها كانت عاصمة إسبانيا
القديمة — إلى جانب النصارى ولذلك شهدت هذه المدينة الكثير من
الثورات ومحاولات الانفصال عن سلطان الدولة الاموية فى قرطبة . ومن
اخطر هذه الثورات تلك الثورة التى قامت فيها فى عهد الحكم الربضى
سنة ١٨٩ هـ (٢٤) وكان يتولى امرها امراء مولدين مثل عمروس الوشقى
ولب بن طريشة . وكذلك كانت إشبيلية معتلا هاما من معانهم ، وكان
المولدون فيها يعملون غالبا بالتجارة فجنوا ارباحا طائلة ، وكان كثير
منهم من الأثرياء الذين انفوا من العصبية العربية فتعصبوا ضد العرب
لبنى جنسهم(٢٥) .

* * *

-
- (٢٣) ابن حيان المقتبس ص ١٥ — ١٦ ، د. السيد سالم : تاريخ
المسلمين وآثارهم ص ١٢٩ .
(٢٤) عنها راجع د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٢٢ ، د. محمد
زيتون : المسلمين فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٩٢ وبمدها .
(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٢٩ .

ثانيا : الامتزاج بين الثقافات

انتشار اللغة العربية بين الاسبان :

وإذا كان هناك امتزاج جسمى عن طريق الزواج المختلط فقد وجد هناك تلاقح بين اللغات والثقافات فى الأندلس وتأثير متبادل بينها ، واحتكاك ثقافى أدى إلى ظهور الحضارة الأندلسية بخصائصها المتميزة .

فقد انتشر الإسلام بين الكثيرين من سكان شبه الجزيرة الإيبيرية الذين سموا (بالمسالمة) ، وكانوا أغلبية بالنسبة لغير المسلمين من الاسبان الذين عاشوا بجوار المسلمين ، وأخذوا بالكثير من العادات والأساليب الإسلامية ، وتعلموا اللغة العربية وسموا (بالمستعربين) ، فقد لبسوا الملابس العربية واستعملوا الختان ، وامتنعوا عن أكل لحم الخنزير ، واتخذ الكثير منهم أسماء عربية إلى جانب أسمائهم الإسبانية . كما اتقن الكثيرون منهم اللغة العربية .

وليس أدل على ذلك من تلك الصيحة التى أطلقها القسيس الفارو القرطبى سنة ٨٥٤/٥٢٤م حيث كتب رسالة سماها (الدليل المنير) ينتقد فيها بمرارة ذلك الاتجاه من الاسبان فى الإقبال على دراسة اللغة العربية وآدابها والمذاهب الدينية للمسلمين وفيها يقول : « إن إخوانى فى المدن يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وقصصهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا .

وأين تجد الآن واحدا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة

إن المهوسيين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا اللغة العربية وآدابها ... الخ» (١) .

ويقول (دوزى) : هجر أهل إسبانيا اللاتينية ، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها ، حتى أن أحد العلماء المشهورين منهم شكوا من ذلك (يقصد الفارو القرطبي) .

ويقول نيكلسون : فى أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هى لغة الوثائق الرسمية ، وفى هذا الوقت ترجم قسيس من أهل إشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه فغضب منه زميل له واتهمه بالعمل على نشر اللغة العربية ، ودافع القسيس عن نفسه بأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لتعليم التلاميذ ، وقد دامت هذه الحال زمنا طويلا فى قرطبة وطليطلة حتى بعد أن استولى الفرنسيو السادس عليها سنة ١٠٦٥ م .

ويقول توماس أرنولد : إن اللغة اللاتينية بلغت فى بعض أجزاء إسبانيا درجة كبيرة من الانحطاط حتى لقد أصبح من الضرورى أن تترجم قوانين الكنيسة الأسبانية القديمة والإنجيل إلى اللغة العربية ليسهل استعمالها على المسيحيين ، وأقبل الناس على دراسة الآداب العربية التى ازدهرت فى ذلك العصر فى حماسة وشغف (٢) .

(١) انظر : د. الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٧٠ — ١٧١ ، أندلسيات ج ٢ ص ٥٩ . د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٢ — ٣٣ ، بالنتيها : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٨٥ — ٤٨٦ .

وقد كان هذا القسيس من النصارى المتعصبين الذين أسهموا فى إثارة الفتنة المسيحية ضد الإسلام فى خلافة عبد الرحمن الأوسط والتي سميت بحركة الاستشهاد أو الانتحار .

(٢) أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٩ — ٩٠ ، توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ١٦٢ .

وهكذا زحزحت اللغة العربية اللاتينية عن عرشها الأول كما زحزح الإسلام المسيحية وصارت اللغة العربية هي اللغة الرسمية ولغة العلم والثقافة كما صار الإسلام هو الدين الرسمي كذلك .

وإذا كان للإسلام أثر كبير في انتشار اللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم ، فقد كان لظاهرة التزاوج بين المسلمين والأسبان دور في ذلك أيضا . وإلى جانب اللغة العربية الفصحى كانت هناك لغة عامية تستخدم في الحياة اليومية بعيدا عن العلم والأدب : فقد ذكر ابن بسام في حديثه عن الموشحات أن مقدم بن معافى القبرى (أواخر القرن الثالث) الذي يقال إنه اخترعها « كان يأخذ اللفظ العلى والعجى ويسيه المركز ويضع عليه الموشحة » (٣) .

كما ذكر ابن سعيد المغربى (القرن السابع الهجرى) أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والموام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية . حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوين المشار إليه بعلم النحو وهو يقرئ تلاميذه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه « (٤) » .

وهذا دليل على أن الأندلسيين حتى العلماء منهم كانوا يتحدثون بالعامية المنحرفة عن العربية الفصحى .

وكما كانت الفصحى الأندلسية بمرور الزمن وبحكم البيئة وباحتكاك العناصر المختلفة ذات خصائص محلية ميزتها عن فصحى بلاد المشرق العربى ، فكذا كانت العلامة الأندلسية ذات سمات محلية حتى غدت عميرة الفهم على الكثيرين (٥) .

-
- (٣) ابن بسام : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ ، ابن خلدون : المقدمة ص ٥٨٤ .
(٤) المقرئ : فصح الطيب ج ١ ص ١٠٣ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٦ .
(٥) من هذه السمات أنظر : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٣٣ - ٣٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ - ٧١ .
(م ٦ - المجتمع الأندلسى)

انتشار الإسبانية بين مسلمى الأندلس :

وتد كان من الطبيعي نتيجة هذا الاختلاط الكبير بين العرب والإسبان أن يتأثر جيل المولدين بأماتهم الإسبانية فى لغتهم وعاداتهم وطرائق معيشتهم ، وإذا كانت اللغة العربية قد انتشرت بين الأسبان مسلمين وغير مسلمين فإن اللغة الإسبانية العامية بصفة خاصة قد أخذت تنتشر بين المسلمين أيضا وهى التى يسميها العلماء « الرومانشية (Romance) » وهى لهجة لاتينية كان يستخدمها الرومان فنسبت إليهم ، ويسمونها العرب الأعجمية أو اللطينية (٦) .

ومما يدل على انتشار هذه اللغة على نطاق واسع ما ذكره ابن حزم عند حديثه بنى بلجى بالأندلس . حيث قال وكأنه يتعجب « وهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط رجالهم ونساؤهم » (٧) . وهذا دليل على محافظتهم على لغتهم العربية وعاداتهم العربية .

كما يذكر الخشنى : أن أحد القضاة شكاه بعض العلماء إلى الأمير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) فطلب الشهود عليه وكان هناك شيخ أعجمى اللسان يسمى (ينير) مقدا مقبول الشهادة فسئل عن القاضى فقال بالأعجمية : ما أعرفه إلا أن سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء (باللفظ العجمى) فلما سمع قوله الأمير عجب من لفظه وقال : ما أخرج مثل هذه الكثرة من هذا الرجل إلا الصدق وعزل القاضى عن القضاء (٨) .

(٦) د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسى ص ٣٩ - ٤٠ ، مجلة

المختار من عالم الفكر ص ١٠٠ .

(٧) جبهة أنساب العرب ص ٤٤٣ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ .

(٨) قضاة قرطبة ص ٩٦ . ومن مظاهر تأثير اللغة الإسبانية على الأسماء العربية فى الأندلس إضافة المقطع الأخير المكون من الواو والنون بالأسبانية On . للأسماء للدلالة على التنخيم والتعظيم مثل حفص وحنصون ، وخالد وخلدون ... الخ .

ويذكر المقدسي : انه التقى في موسم الحج ببعض الاندلسيين فوجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ولغة اخرى اعجمية (٩) .
ويروي ابن هشام اللخمي : انه نبت سن لاحد ابناء الأمير عبد الرحمن بن الحكم فوصفوا له طعاما يتناوله الاطفال عند ذلك فقال لوزرائه : هذا الذي يسميه الناس بالاعجمية (الذنتينية) هل روى عن العرب فيها شيئا ؟ (١٠) .

ويذكر ابن عذارى ان الوزير الشاعر ابا القاسم لب هجا الوزير عبد الملك بن جهور بأبيات امام الخليفة عبد الرحمن الناصر قال فيها :

قال امين الله في خلقه

لي لحيه ازرى بها الطول

لولا حيائي من إمام الهدى

نخست بالبخس شوقول

وكان ابو القاسم عندما وصل إلى قوله شو سكت فقال له الناصر قول فأتتها على نحو ما اضمر وقال له : أنت هجوته يا مولاي - كانه كان يقصد ذلك - فضحك الناصر وأمر له بصلته (١١) .

وهذا يدل على انتشار هذه اللفظة العمامية الإسبانية (الرومانسية) بين الكثيرين سواء من علية القزوم أو العامة .

وفي الشعر الأندلسي كثيرا ما نجد الفاظا إسبانية وما يقابلها

(٩) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٤٠ .

(١٠) د. الأهواني : الفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن

العمامة مجلة معهد المخطوطات المجلد الثالث سنة ١٩٥٧ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٧ وكلمة شوقول هي ترجمة للكلمة

الإسبانية Su - Culo ومعناها الإلية أو أسفل الظهر .

(المختار من عالم الفكر ص ١٠١) .

بالعربية إما بطريق مباشر أو بطريق الاستعارة والكناية بصورة تدل على
تمكن الشاعر من اللغة الأسبانية مثال ذلك قول ابن دراج القسطلي
في مدح عبد الملك بن المظفر بن المنصور بن ابي عامر حينما افتتح حصن
لونة في شمال أسبانيا ومعناه البدر :

وأنت الذي أوردت لونة قاهرا
خيولا سماء الأرض فيها نحورها
ويا ليت قوطا حين شاد بناءه
رآه وقد خرت إليك جوانبه
ويا ليت إذ سماه بدرا معظما
رآه في كف العجاج مغاربه

وحيث يتحدث عن أحد قادة الأسبان وأسمه لوبث (لوبيز)
ومعناه الذئب يقول :

كم من سمي له فيها وذى نسب
لم يدخر نابه عنه ولا ظفره (١٢)

وتعتبر الموشحات والأزجال من أهم مظاهر انتشار اللفتين العربية
والأسبانية بين الأندلسيين ، وهي ما يسمى بالشعر الشعبي . وقد
استخدمت فيه ألفاظ عامية عربية وأخرى رومانسية ، ويعتبر هذا الفن
من الشعر ثورة في عالم الشعر العربي ، وحركة من حركات التجديد
فيه حررته من كثير من قواعد العروض . حيث لم يلتزم فيه القافية
الواحدة كالقصيدة ، وإنما اشتمل على قواف متمعددة
وليس وحدته البيت الشعري ، وإنما المتطوعة الشعرية

(١٢) ديوان ابن دراج القسطلي ص ١٩ ، ٢١ ، ٤١٨ المكتب الإسلامي
بيروت ١٣٨٩ هـ .

التي تتكون من غصن وقفل . أى أن الموشحة عبارة عن أغصان
واقفال ويسمى القفل الأخير منها بالخرجة .

ومن شروط هذه الخرجة أن تكون بالعامية الدارجة أو بالأعجمية
أى الإسبانية وأن تكون حارة محرقة ، حادة منفجة كما قال ابن سناء
الملك المصرى .

كما جرت العادة على أن تكون هذه الخرجة على لسان فتاة
تتغزل فى الفتى على عكس القصيدة العربية التي نجد الرجل فيها هو
المحب وهو الذى يتغزل .

كما أن الموشحة تبدأ من آخرها حيث تؤخذ العبارة العامية
أو الإسبانية لتكون المركز أو الخرجة ثم تبنى عليها البقية . على
عكس القصيدة الشعرية التي تهتم بمطلعها ومثال ذلك الغصن الأخير
من الموشحة بما فيه الخرجة :

ليل طويل

ولا معين

يا قلب بعض الناس

لا تلبين

انا قول قوقو

ليس بالله تذوقو

والخرجة هنا إسبانية (قوقو CuCo ومعناها الماكر)

فالوشاح سمع من محبوبته هذه العبارة : انا أقول أنت مكار ولن
تذوق طعم قبائى ، فاهتز لها وجعلها مركزا أو خرجة لموشحته (١٣) .

(١٣) د. عبد العزيز الأهوانى : الأغنية الشعبية أصل التوشيح . مجلة

المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧م ، د. العبادى : الإسلام فى

أرض الأندلس مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٣ — ١٠٤ .

ثالثا : النزاع بين عناصر السكان

لم يكن المجتمع الأندلسي بعد الفتح مجتمعا بسيط التركيب ، وإنما كان يتألف من عدة عناصر متباينة في أصولها الجنسية والثقافية كما ذكرنا . وكان هذا التباين وهذا التعدد في وقت من الأوقات مظهرا من مظاهر القوة والثراء ، ولكنه كان يحمل في نفس الوقت بذور الضعف وأسباب التفكك والاضمحلال .

وربما كان تعدد الجماعات العرقية وتنوع العناصر البشرية في المجتمع الأندلسي هو العامل الأول والأكثر أهمية في ثراء ذلك المجتمع وازدهار حضارته ، والركيزة التي قام عليه في الوقت نفسه .

ويتمثل هذا التنوع العرقي في وجود الجماعات العربية والبربرية التي فتحت الأندلس ، وعاشت إلى جانب العناصر الوطنية أو الجماعات التي كانت تستوطن البلاد قبل الفتح . ورغم وحدة الدين والعقيدة لدى العرب والبربر فقد كان لكل من الفئتين ثقافته الخاصة المتميزة في أصولها وعناصرها .

وقد اختلف هؤلاء الفاتحون من عرب وبربر بالسكان الأصليين الذين كانوا يعيشون في الأندلس قبل الفتح من قوط وإسبان ورومان ويهود وغيرهم .

عن نشأة الموشحات والأزجال وتطورها في الأندلس راجع :
د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسي ص ١٤٥ وبعدها .
د. الأهواني : الأزجال في الأندلس القاهرة سنة ١٩٥٧ م
د. محمد عناني : الموشحات الأندلسية عالم المعرفة رقم ٢١ .
الفرق بين الموشحة والأزجال : أن الموشحة عربية ما عدا الجزء الأخير المسمى بالخرجة فهو عامي أو إسباني ، أما الأزجال فبلغته عامية دارجة كلها تتخلها كلمات وعبارات أعجمية .

وبالرغم من ذلك فلم يكن هناك اندماج تمام وامتزاج كامل بين العناصر التي وفدت إلى الأندلس . فالعصية العربية التي كانت ظاهرة في المشرق ما لبثت أن انتقلت إلى الأندلس وعلت عملها في تفتيت وحدة العرب ، وتفريقهم إلى شيع وأحزاب . ما بين مضرين ويمنيين يتنازعون على الملك والرئاسة ، وما بين بلديين وشاميين يتنازعون على خيرات البلاد ومن هو أحق بها (١) .

وكذلك لم يكن البربر وحدة واحدة فيما بينهم ، ووقع نزاع شديد بينهم وبين العرب وكذلك كان الأمر بالنسبة للعناصر الأخرى فكل منها طابع وأهداف واتجاهات .

ويمكن القول : إن الفتن والاضطرابات والحروب بين هذه العناصر بعضها والبعض بدأ مبكرا واستمر استمرارا يكاد يكون متصلا ، ولم تكن تهدأ إلا تحت ضغط القوة ، وما تكاد تهدأ حتى تبدأ من جديد عندما تضعف هذه القوة . بحيث يمكن القول : إن هذه الفتن والاضطرابات والحروب قد صحبت تاريخ المسلمين في الأندلس من بدايته إلى نهايته إلا في عهود بسيطة شهدت فترات من الاستقرار طالت أو قصرت فأدى ذلك إلى ازدهار الحضارة والثقافة والعمران .

ولقد تميزت الأندلس من بين الأقطار التي فتحها المسلمون بعوامل خاصة كانت مثار الاضطرابات والفتن والقتال من حين لآخر . وقد ظلت هذه العوامل تثور حيناً فتسبب التفكك والانحلال ، وتكبح حيناً فتعود الأندلس إلى وحدتها وقوتها ، ولكنها اشتدت وتجمعت في النهاية لتؤدي إلى غروب شمس الإسلام من الأندلس (٢) .

(١) أنظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس من ٢٤٢

وبعدها ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١ .

(٢) د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٣٧ .

ويمكن أن نلخص هذه العوامل فيما يلي :

١ - عامل جغرافى : يتمثل فى بعيد الأندلس عن بلاد المسلمين فى المشرق مما جعلها تحمل وحدها عبء الدفاع عن كيانها إلا ما كان من دول شمال إفريقية عند الاستنجاد بها فى مرحلة الخطر . ولذلك كان من رأى عمر بن عبد العزيز أن يعود المسلمون منها لانقطاعهم من وراء البحر عن اخوانهم (٣) . فالعامل الجغرافى كان بعيد الأثر فى غربه الإسلام بشبه الجزيرة الأندلسية .

٢ - عامل قومى : فالمسلمون فى الأندلس كانوا بإزاء أمة مقاتلة تعتبر من أكثر شعوب أوروبا تعصبا للمسيحية وهم الأسبان الذين سيطر عليها هدف واحد هو إخراج المسلمين من الأندلس بأى وسيلة والثأر لهزائمهم منهم (٤) .

٣ - عامل دينى : وهو خشية الأوربيين من الزحف الإسلامى حتى لا يسيطر على بقية أوروبا فوقفوا يؤيدون الأسبان بكل قوة للدفاع عن المسيحية من ناحية وحراسة أوروبا من المسلمين الفزاة من ناحية أخرى ، كما فعلوا بعد ذلك مع الأتراك العثمانيين (٥) .

٤ - الخلاف والصراع والتنافس بين عناصر المسلمين فى الأندلس وبخاصة بين العرب وبعضهم وبين العرب والبربر .

٥ - كثرة الفتن والثورات منذ بداية الفتح والتى اشاعت الفوضى فى البلاد وراح ضحيتها الكثيرون ، وقادها زعماء كثيرون من مختلف العناصر . ومثال ذلك أن أسرة بربرية واحدة هى أسرة فرتون بن موسى ثار منها ثمانية فى مدينة واحدة هى سرقسطة (٦) .

(٣) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٦٠ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٣ .

(٤) د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى إسبانيا ص ١٣ .

(٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٩ .

(٦) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٣٨ .

٦ — الخلاف على ولاية العهد بين أبناء الأمراء والخلفاء والذي بدأ مبكرا منذ وفاة عبد الرحمن الداخل واستمر ينخر في جسم الدولة الإسلامية حتى عهدها الأخير .

٧ — استعانة المسلمين التحاريريين في الأندلس بأعدائهم من المسيحيين الأسبان والأوربيين لقتال إخوانهم ، مما جعلهم يفنون بعضهم بعضا وعدوهم ينتهز الفرص للإجهاز عليهم . وقد أصاب ابن الشباط حين قال : إن المسلمين بالأندلس لم يقصدهم عدو إلا هزم وانصرف مغلوبا وإنما خذلهم التحاسد وفرط الخلاف والتباغض وتقله الإنصاف (٧) .

وكذلك الحجارى حين ذكر أن شارل مارتل لما شكك إليه قومه وقوف العرب على أبواب بلادهم قال : « لا تواجهوهم فى إقبال أمرهم فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة وحصانة ضد الهزائم فلتصبروا حتى تهدأ أمورهم ، وبأخذوا فى التنافس على الرياسة والملك والمال ، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم فتمكنون منهم بأيسر مجهود ، ويعقب المقرى على ذلك فيقول : فكان والله ذلك (٨) .

٨ — يضاف إلى ذلك أن هذه العناصر السكانية فى الأندلس كانت تميل غالبا إلى العيش والتكتل فى مناطق خاصة بها ، فمثلا كان العنصر العربى الغالب على قرطبة ، والعنصر البيرى الغالب على غرناطة ومالقة وقرمونة ، وعنصر المولدين الغالب على طليطلة وإشبيلية وكان لهذا أثره البالغ فى الميل إلى الاستقلال والخروج مما كان

(٧) تاريخ الأندلس ص ٧٤ ، موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٣٧ .

(٨) نفع الطيب ج ١ ص ١٣٠ ، المجلد فى تاريخ الأندلس ص ٦٤ .

يستلزم استعمال القوة العسكرية كوسيلة للحفاظ على الوحدة السياسية للبلاد (٩) .

ويرى د. حسين مؤنس : أن الأندلسيين كانت تعوزهم روح الترابط والوحدة بسبب تفرقتهم فى شبه الجزيرة ، وأن هذا قد أدى إلى تمزق البلاد بسهولة (١٠) .

والحقيقة أن تفرق السكان لا دخل له بالوحدة السياسية لأنها تتوقف على قوة الحكومة المركزية أو ضعفها وكل ما فى الأمر أن طبيعة البلاد الجغرافية (الجبلية) قد جعلت هناك حواجز طبيعية من الصعب اجتيازها مما قسم الأندلس إلى أقاليم شبه منفصلة ، وساعد على الميل إلى النزعة الانفصالية فى كثير من الأقاليم التى كانت تسكنها عناصر غير عربية تغذيها عوامل قومية فى كثير من الأحيان .

وامام هذا الخليط العجيب من الأجناس تكثرت العناصر العربية وولفت نوعا من العصبية وظهرت آثار ذلك فى صراع العرب مع البربر من جهة ومع المولدين من جهة أخرى .



(٩) د. السيد مسالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٤ .

(١٠) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٢ .

النزاع بين المغرب وبعضهم

لم يمض وقت طويل على استقرار المسلمين في الأندلس بعد فتحها ، حتى ظهرت آثار العصبية القبلية التي أدت إلى النزاع بين القبائل العربية من قيسية ويمينية .

وقد لعبت سياسة بعض الولاة في الأندلس دورا كبيرا في إذكاء نيران هذه العصبية عن طريق ميلهم إلى فريق دون آخر وتقديمه عليه . فكان إذا ما تولى شخص من القيسية قدم قومه وأثرهم على اليمينية مما يؤدي إلى إثارة النزاع والقتال والفتن وعلى سبيل المثال : فقد تعصب كل من عنيسة بن سحيم الكلبي ، وعذرة بن عبد الله الفهري ، ويحيى بن سلامة العاملي خلال مدة ولايتهم التي استمرت سبع سنوات (شوال ١٠٣ هـ - ربيع الأول ١١٠ هـ) لليمينية مما أوغر صدر القيسية (١) ، وامتألت نفوسهم الما وأصبحوا ينتظرون الفرصة المواتية ، ولما تولى أمر الأندلس ولاة منهم مثل : حذيفة بن الأحوص القيسي وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، والهيثم بن عبيد الله الكناني ،

(١) كانت موقعة مرج راهط سنة ٦٤ هـ بين جيوش الأمويين بقيادة مروان بن الحكم وجيوش عبد الله بن الزبير بقيادة الضحاک بن قيس الفهري من أهم أسباب اشتداد العصبية بين اليمينية أنصار الأمويين وبين القيسية أنصار ابن الزبير ، حيث دارت الدائرة على جيش ابن الزبير وقتل قائده ومعه نحو سبعين ألفا من قيس وقبائلها ، مما أوغر صدور القيسية ، فكانوا ينتظرون الفرصة لتسوية حسابهم القديم مع اليمينية .

(المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٥٠ هامش ٢ ، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة ص ٣٤٠ هامش ٢) .

ومحمد بن عبد الله الأشجعي لقي اليمينيون خلال عهودهم بلاء شديدا .
وقد اشدت الهيثم مع اليمينية شدة اثارهم ودفعتهم إلى العصيان
علانية ، وبلغ من شدته أن أنكر عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ذلك
— رغم أنه قيسى — وعزله وعاقبه عقابا صارما . وبدأت منذ عهد
الهيثم خصومة القيسية واليمينية صريحة ، وإن لم تظهر آثارها الخطرة
نظرا لانشغال المسلمين حينئذ بالفتوح فيما وراء جبال البيرنيه
(البرانس) .

وقد تجلت حروب العصبيات والصراع المرير بين الفريقين فى ولاية
عقبة بن الحجاج السلولى وظلت تخفت حينما عندما ينشغل المسلمون
فى الفتوح تلبية لداعى الجهاد فيتناس العرب ما بينهم من عصبيات ، وتشتد
أحيانا أخرى عندما يبدأون فى الاستقرار (٢) .

وقد أدى ذلك بالضرورة إلى عدم استقرار الأوضاع بصفة
عامة ، ودليل ذلك انه تولى الأندلس خلال ما يسمى بعصر الولاة
(٩٥ — ١٣٨ هـ) عشرون واليا فى فترة تقل عن نصف قرن ، منهم من
مكث نحو عدة أشهر ومنهم من استمر بضع سنوات ، وبعبارة أخرى فإن
متوسط حكم الوالى منهم كان نحو سنتين ، وهذا وحده يعطينا

(٢) أنظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارها ، د. محمد زيتون :
المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ١٩١ ويعندها . د. منى
حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٥ ويعندها .

(٣) اصطلاح معظم المؤرخين المحدثين على تحديد بداية هذا العصر
بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير فى ذى القعدة سنة ٩٥ هـ .
بينما ذهب البعض إلى اعتبارها تبدا بولاية طارق بن زياد منذ الفتوح
(د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠) . غير
أننا نعتبر أن طارق وموسى هم فاتحو الأندلس وأن أول الولاة هو
عبد العزيز الذى أسند إليه أبوه ولاية الأندلس قبل عودته
إلى المشرق .

عكرة عن الاضطراب وعدم الاستقرار الذين سادا الأندلس في هذه الفترة إذا ما استثنينا فترات قليلة حاول فيها بعض الولاة إيساعة الأمن والاستقرار (٤) .

ولكن ليس معنى ذلك أن المسلمين لم يبذلوا جهودا في مواصلة الفتوحات كما يعتقد البعض ، وأن كل ما بينهم كان نزاعا على السلطة والنفوذ أو صراعا على المصالح فهناك جهود بذلت ، وهناك محاولات لنشر الأمن والاستقرار وال عمران . إلا أن هذه النزاعات قد استغرقت كثيرا من الجهد والوقت ولو أنها وجهت ضد أعداء المسلمين ، وفي الفتح ونشر الإسلام لكان ذلك أجدى وأنفع ، ولكنها جذبت الكثيرين في تيارها مما كان لها آثارها السيئة والخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين في الأندلس . ولا نستغرق في تفصيلات هذا النزاع الذي حدث في عصر الولاة وإنما نوجز الحديث عنه في خلال حكم بنى أمية .

لقد استغل عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) هذا الأوضاع السائدة من العصبية والاضطرابات حتى يصل إلى هدفه في إعادة دولة آبائه وأجداده مرة أخرى في الأندلس بعد أن سقطت في المشرق (٣) فأخذ في مراسلة موالى الأمويين بالأندلس الذين نشطوا لذلك وحاولوا استمالة الصميل بن حاتم زعيم القيسية لنصرة عبد الرحمن ،

(٤) أنظر نصح الطيب ج ١ ص ١٥٥ - ١٥٦ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٠ وبعدها ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٢٩ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣ ص ٥ .
(٥) يرى ابن عذارى رأيا فريدا حين يذكر أن دولة بنى أمية لم تنقطع وأن دولتهم في المشرق اتصلت بدولتهم في المغرب حتى سنة

ولكنه أبدى ترددا فلما يئسوا من مناصرة ربيعة ومضر ، عملوا على جذب اليمينية لمناصرته .

وقد وجدها اليمينيون فرصة سانحة للأخذ بثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم فى موقعة شتندة جنوبى قرطبة سنة ١٣٠ هـ (٦) . ولاسترداد مكائنتهم التى فقدوها .

٤٥٤ هـ ويبنى رأيه على أن عبد الرحمن بن حبيب والى إفريقية من قبل بنى أمية قد وصل عهد منه إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والى الأندلس الذى دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس فى عهده . ويعلق على ذلك بأنه نكتة غريبة ورائدة عجيبة (البيان المغرب ج ٢ ص ٣٩) ، وكان من الممكن أن يعتد بهذا الراى لو أن يوسف تنازل لعبد الرحمن وسلم إليه إمارة الأندلس ، ولكن الحرب التى قامت بينهما تدل على أن الدولة الاموية قد انتهت بالشرق وأن عبد الرحمن هو الذى استطاع بجهوده إعادتها بعد ست سنوات من السقوط (١٣٢ - ١٣٨ هـ) . (المسلمون فى المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٤٠) .

(٦) يروى المؤرخون فى سبب هذه المعركة أن رجلين اختصما عند أبى الخطار اليمنى والى الأندلس أحدهما يمنى والآخر مضرى ، ففضى أبو الخطار لليمنى ، فاعتبر المضرى أن ذلك الحكم غير عادل فثسكا إلى زعيم المضرية الصميل بن حاتم فذهب ليكلم أبا الخطار فى شأن الرجل واشتد الجدل بينهما حتى أغلظ أبو الخطار للصميل فى القول وأمر جنده بأخراجه وضربه فخرج من مجلسه وقد مالت عمالته فلما سأله البعض : أبا حوشب ما بال عمائمك مائلة ؟ قال : إن كان لى قوم فيسقيهمونها .

وكان ذلك سببا فى قيام المضرية بالثأر لزعيمهم فى تلك المعركة التى كان من نتائجها عزل أبى الخطار وتولية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى مكانه . (الكامل فى التاريخ ج ٥ ص ٢٨٦ ، الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٨١ ، المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٢٢) .

يقول ابن عذارى (وكانوا قوما قد وغرت صدورهم يتمنون
شيئا يجدون به سبيلا إلى طلب ثارهم) (٧) .

فأبدوا استعدادهم لمناصرته بزعامة أبى الصباح اليحصبى شيخ
اليمنية فى غرب الأندلس وعلقة الجذامى ، وأبى علاقة الجذامى ،
وزياد بن عمر الجذامى ، وغيرهم من زعماء اليمنية ولم ينضم إلى
عبد الرحمن من المضرية سوى الحصين بن الدجن العقيلى لما كان بينه
وبين الصميل بن حاتم المضرى من خصومة وتباعد (٨) .

وقدم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس واستطاع بمساعدة
اليمنية وموالى الأمويين أن ينتصر على يوسف الفهرى فى موقعة
المصاراة سنة ١٣٨هـ ويتولى مقاليد الأمور فى الأندلس واعتبر اليمنية هذه
الموقعة هزيمة للقيسية .

وإذا كان يوم المصاراة فاتحة الانتصار لعبد الرحمن ، فقد كان
بداية لسيرته الطويلة فى الكفاح والنضال فى سبيل بناء دولته وتوطيد

=

وكان زعيم اليمنية فى هذه المعركة يحيى بن حريث ، وكان
زعيماً المضرية يوسف بن عبد الرحمن الفهرى والصميل بن حاتم .
ويصف صاحب أخبار مجموعة هذه المعركة بأنها « أول حرب
كانت فى الإسلام بهذه الدعوة — ربما يقصد فى الأندلس —
لم تكن حرب قبل هذه الوقعة وهى الفتنة العظمى التى بها
يخاف بوار بالأندلس إلا أن أن يحفظه الله » . (أخبار مجموعة
فى فتح الأندلس ص ٥٩) ، كما يصفها ابن عذارى بأنها « لم يعهد
حرب مثلها فى المسلمين بعد حرب الجمل وصفين » (البيان
المغرب ج ٢ ص ٥٣) .

(٧) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٥ .

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٥ ، د. محمد زيتون :
المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

أركانها حيث كانت الأندلس تروج بالفتن والعصبيات التي لم تكن قاصرة على مضر واليمن فقط بل شملت كل قبيلة وكل بطن التفتت حول زعاماتها ، وكانت لها مصالحها الخاصة ، وتمسكت باستقلالها ، وأبت الخضوع لاية سلطة عامة ، وشملت كذلك البلديين والشاميين (٩) . كما شملت البربر الذين حرصوا على الاحتفاظ بما حصلوا عليه خلال الفتن من أراض وضياع .

وكان هناك ما هو أشد من ذلك خطرا وهو المسالك النصرانية في الشمال التي تخطت سريعا مرحلة الهزيمة وبدأت تستعد لحرب المسلمين ، وكذلك مملكة الفرنجة التي تمكنت من انتزاع ما فتحه المسلمون خلف جبال البيرنيه (البرانس) (١٠) .

قامت دولة عبد الرحمن الداخل على عون كبير من العرب اليمنيين ، الذين تصوروا أن الكلمة أصبحت لهم (١١) — معتقدين أنهم

(٩) يقصد بالبلديين العرب والبربر الذين قدموا إلى الأندلس مع الفتح أو في أثنائه وكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الفتح ، ولهم نصيب السبق ولذلك ينبغي ألا ينازعهم أحد فيه .

ويقصد بالشاميين العرب الذين قدموا في طائفة بلج بن بشر سنة ١٢٤ هـ ورفضوا الخروج من الأندلس لما راوه من خيراتها و ثرواتها وتم توزيعهم على كور الأندلس المختلفة . (انظر الحلة السبراء ج ١ ص ٦١ — ٦٣ ، المقتبس ص ٣٠٨ تحقيق د. محمود مكي ، د. حسين مؤنس فجر الأندلس ص ٣٦ ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس هامش ١٣ ص ٢٥٦ .

(١٠) د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٥٤ ، د. منى محمود : المسلمون الأندلس ص ٥٧ .

(١١) يذكر ابن القوطية : أن أبا الصباح اليحصبي زعيم اليمنية قال لثعلبة الجذامي وكان من وجوه جند فلسطين بعد موقعة المصارة « يا ثعلبة هل لك رأى في فتحين في فتح ؟ قال له وكيف ذلك ؟

لا يزالون في عصر الولاة ، ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد يحاول ان يزيل آثار ما سبق ويجعل الجميع وحدة واحدة تخضع لسلطان واحد في مواجهة الأخطار الخارجية . فاعتبروا ذلك إنكارا لجهودهم ولذلك قاموا بثورات عديدة ضد من ساعدوه بالأمس في الجزيرة الخضراء ، وفي إشبيلية وطليطلة وباجة وغيرها . وانضم الكثير منهم إلى ثورة العلاء بن مغيث التي قامت في باجة سنة ١٤٦ هـ وكان يدعو إلى طاعة أبي جعفر المنصور وخلع عبد الرحمن بن معاوية (١٢) ولكن عبد الرحمن استطاع بعد جهود كبيرة القضاء على هذه الثورات (١٣) .

وبالأسف الشديد فقد تعاون بعض الزعماء العرب مع شارلمان للاستيلاء على الثغر الأعلى (سرقطة وما حولها) مثل سليمان بن يقظان الكلبي (ابن الأعرابي) وإلى برسلونة والحسين بن يحيى الأنصاري وإلى سرقطة انتقاما من عبد الرحمن الداخل ، وهان عليهم تعريض الإسلام والعروبة في الأندلس للخطر في سبيل أهواء وأحقاد ومطامع

قال : قد استرحنا من يوسف ، فاسترح بنا من هذا — يقصد عبد الرحمن الداخل — وتكون الأندلس تحطانية . ولكن ثعلبة أخير عبد الرحمن بذلك ، فاحتاط وضم مواليه إليه ، وجعلهم حراسه ، ولما رأى اليمنية ذلك عدلوا عن خطتهم . وهذا يدل على تطلعهم للملك والسلطان (أخبار مجموعة ص ٣١) .

(١٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٣ ، أخبار مجموعة ص ١٠٢ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ .

(١٣) عنها أنظر د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٩٩ وبمسدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٢ وبمسدها ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٥٩ وبمسدها .

شخصية . لولا أن اخفت هذه المحاولات بفضل تماسك جمهور المسلمين تحت راية عبد الرحمن . وكانت مؤامرة المغيرة بن الوليد ابن معاوية سنة ١٦٨ هـ من سلسلة المؤامرات التي دبرت ضد عبد الرحمن — وكان ابن اخته — وساعده فيها هذيل بن الصميل بن حاتم زعيم المضربة ولكن تم اكتشافها ، وكذلك مؤامرة محمد بن يوسف الفهرى الذى أعلن الثورة فى قسطنطونة شرق الأندلس وكان مصيره الهزيمة فى ربيع الأول سنة ١٦٩ هـ (١٤) .

وفى عهد ابنه هشام ثار سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصارى ومعه عدد كبير من اليمانيين وتمكن من الاستيلاء على طرطشونة فهزمه موسى بن فرتون القومس والى الثغر الأعلى واستطاع أن يستردها ، كما ثار مطروح بن سليمان الأعرابى بعد مقتل أبيه واستطاع أن يستولى على سرقسطة ووشقة والثغر الأعلى كله (١٥) .

ثم جاء الحكم بن هشام بالربرى الذى تعتبر إمارته بداية النهاية لعصر القلاقل والاضطرابات التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الأموية ، وكان كثير من زعمائهم حتى ذلك الوقت لا يسلمون بالطاعة والانتقياد لها ، ولا تزال نفوسهم تطمح إلى العودة لعصر العصبية والفوضى . وكان لقوة الحكم وشدته وشجاعته أثر كبير فى القضاء على الكثير من الثورات التى قامت فى عهده .

ثم جاء عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الذى كان على العكس

(١٤) د. سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، د. زيتسون : المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الأول ص ٢٢١ د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢١٤ : د. زيتون : المرجع السابق ص ٢٧٣ .

من أبيه لين الجانب هادىء الطباع فعادت العصبية العربية من جديد بين المضرية واليمنية فى كسورة تدمير لسبب تافه (١٦) أدى إلى قيام حرب بين الفريقين استمرت نحو سبع سنوات (٢٠٧ — ٢١٣ هـ) وقد اضطر عبد الرحمن إلى إرسال جيش بقيادة يحيى بن عبد الله بن خلف فأوقع بهم فى موقعة المصاراة بلورقة وهزمهم وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف . وفى سنة ٢٠٩ هـ أرسل قائده أمية بن معاوية بن هشام إلى تدمير فاشتيتك مع اليمنية بقيادة أبى الأشماخ محمد بن إبراهيم الذى ظل عدة سنوات يتصدى سلطان الإمارة ولم تهدأ حركته إلا بعد طلبه الأمان وعودته للطاعة سنة ٢١٣ هـ . وكان ذلك سببا فى أمر عبد الرحمن بهدم حاضرة تدمير (مدينة آلة) سنة ٢١٠ هـ وبناء مدينة مرسية مكانها سنة ٢١٦ هـ (١٧) .



(١٦) يذكر ابن عذران أن السبب كان قيام أحد المضريين بنزع ورقة دالية من جنان يمانى فقتله (البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤) ، بينما ذكر الحميرى العكس وهو أن رجلا من اليمنية أخذ ورقة من كرم رجل مضرى ليغطفى بها قلة فأنكر ذلك المضرى ، واعتقد أنه فعل ذلك استخفافا به (الروض المعطار ص ١٨١) . بينما يذكر د . حسين مؤنس : أن معظم جند تدمير (مرسية بعد ذلك) كانوا من اليمنية ، ولكن المضرية كانوا يحاولون السيطرة عليها رغم قتلهم ، ومن هنا كانت الفتنة . وهذا ما نميل إليه لأنه السبب الأقوى من وجهة نظرنا . (أنظر معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٠) .

(١٧) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢١٤ .

التزاع بين العرب والبربر

كثرت انتفاضات البربر وثوراتهم ضد العرب فى بلاد المغرب ، وكان من أخطر هذه الثورات التى لها أثر فى ثورات البربر بالاندلس ثورة ميسرة المدغرى (١) الذى اعتنق مذهب الخوارج ، ونصب نفسه إماما وتسمى بالخلافة والتف حوله الكثير من البربر الذين تشبهوا بالخوارج الأزارقة وأهل النهروان من أصحاب الله بن وهب الراسبى فحلقوا رؤوسهم (٢) .

وقد انتهز ميسرة فرصة خروج حبيب بن أبى عبدة بجيش من العرب فى حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ونقض طاعة عبيد الله ابن الحباب والى إفريقية فى طنجة وأقاليمها ، وتداعى البربر فى المغرب بأسره وثاروا فى المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ .

ووثب ميسرة على عمر بن عبد الله المرادى والى طنجة فقتله ، وولى مكانه عبد الأعلى بن حديج ، وزحف إلى إسماعيل بن عبيد الله ابن الحباب فى منطقة السوس فقتله أيضا .

وهكذا أصبح موقف عبيد الله حرجا وساء موقف العرب ، فغضب لقتل ابنه وعامله على طنجة ، وكتب إلى قائده حبيب يأمره بالعودة حتى يتمكن من مواجهة هذه الثورة الخطيرة ، والتقى الفريقان بالقرب من طنجة ، وتحقق النصر للعرب فى البداية ، وتراجع ميسرة ، مما أدى إلى ثورة البربر عليه وقتله وتولية ابن حميد الزناتى مكانه الذى استطاع أن يحول الهزيمة إلى انتصار كبير فى موقعة عرغتا بغزوة

(١) يسمى أيضا المطغرى ويلقب بالحقير بائع الماء بسوق القيروان

(ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤) .

(٢) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ص ٣٢ .

الإشراف حيث قتل فيها « حماة العرب وفرساتها وكلماتها وأبطالها »
كما يقول ابن عذارى (٣) .

وكان لهذه الهزيمة القاسية وقعها الأليم في نفوس العرب بالمغرب
فانتشر الذعر الشديد بينهم ، وانتقضت البلاد عليهم وعمت فيها
الفوضى ، وبلغ خبر هذه الثورة بلاد الأندلس فوثب أهلها على أميرهم
عقبة بن الحجاج السلولى ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهرى . ولما بلغ
ذلك الخليفة هشام عزل عبيد الله عن إفريقية سنة ١٢٣ هـ وقال « والله
لاغضبني لهم غضبة عربية ، ولابعثن لهم جيشا أوله عندهم وآخره
عندي » (٤) .

وبعث بجيش تعداده سبعة وعشرون ألفا من أهل الشام
وانضم إليه ثلاثة آلاف من مصر وجعل على قيادته كثوم بن عياض
القشيري الذي ولي المغرب بدلا من عبيد الله وجعل الأمر من بعده
لابن أخيه بلج بن بشر القشيري إن أصيب ومن بعده لثعلبة بن سلامة
العاملى وكان من غلاة القيسية وانضم عرب إفريقية الذين استوطنوا
بعد الفتح إلى هذا الجيش فأصبح عدده نحو سبعين ألفا (٥) ،
ولكن هذا الجيش لقي هزيمة أخرى قاسية عند بلدة بقدورة على
وادي سبو سنة ١٢٤ هـ قتل فيها عدد كبير على رأسهم كثوم وحبيب
ولم ينج منه إلا نحو عشرة آلاف على رأسهم بلج بن بشر لاذوا بمدينة
سبته وتحصنوا بها ، وحاصرهم البربر حصارا شديدا حتى أشرفوا
على الهلاك . واضطر بلج إلى الاستعانة بعبد الملك بن قطن الفهرى

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٥٢ .

(٤) ابن القوطية تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٤ .

(٥) أخبار مجموعة ص ٣١ .

والى الأندلس (١٢١ - ١٢٥ هـ) وطلب منه السماح باللجوء إلى الأندلس . له ولن معه خشية الاستئصال والهلاك ولكن عبد الملك تقاعس عن نصرتهم خشية على سلطانه خاصة وأنه كان فهريا من عرب الحجاز الذين شهدوا موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ وما حدث فيها من جند الشام بالمدينة . ولما رأى عرب الأندلس إشراف إخوانهم على الهلاك أمدوهم بقاربين من شعير وأدم ولكن لم يكن ذلك كافيا (٦) .

وتغير الموقف فجأة عندما ثار البربر فى الأندلس بعد أن علموا بانتصار إخوانهم فى المغرب « حيث انقضوا على عرب جليقية وقتلواهم » وأخرجوا عرب أسترقة والمدنيين التى خلف الدروب « وكان البربر اكثرية بهذه المناطق .

وأحس عبد الملك بالخطر الداهم عندما وجد أن البربر يتقدمون نحو قرطبة بقيادة ابن هدين الذى يقال له (ابن زقطرتق) (٧) .

(٦) أخبار مجموعة ص ٣٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢ .
(٧) أخبار مجموعة ص ٣٩ لا تذكر لنا المصادر شيئا واضحا عن أسباب ثورة البربر على العرب فى الأندلس - رغم أنهم قد اشتركوا سويا فى الفتح - وكل ما نفهمه أنها يمكن أن تكون امتدادا طبيعيا وصدى لثورتهم فى إفريقية التى كانت بسبب استبداد بعض الولاة وسوء معاملتهم للبربر . وقد ذهب الكثيرون إلى أن هذه الثورة كانت بسبب سوء معاملة العرب للبربر ، واختصاصهم أنفسهم بأجود الأراضى والمناطق الخصبة تاركين للبربر المناطق الجبلية القاحلة . وذلك غير صحيح لأن جماعات كثيرة من البربر استقرت فى مناطق خصبة من الأندلس فى الجنوب والشرق والغرب ، بل كانت هناك أماكن تكاد تكون مقصورة عليهم مثل الجزيرة الخضراء ، ومن هذه

فخشي على مصيره ومصير بني جنسه خاصة بعد هزيمة جيوشه التي أخرجها لقتال البربر مما جعله مضطرا إلى مد يد العون لبليج وجنده المحاصرين في سبته للتعاون في القضاء على هذا الخطر الداهم . فأرسل إليهم السفن للعبور إلى الأندلس ، واشترط عليهم العودة إلى سبته مرة أخرى بعد القضاء على ثورة البربر ، وأخذ بعض الرهائن تنفيذا لذلك وأنزلهم بالجزيرة الخضراء (٨) .

والتقى الفريثان العرب البلديون وجند الشام من ناحية والبربر من ناحية أخرى على وادي سليط في حوز طليطلة فهزم البربر هزيمة فكرياء .

الأماكن الخصبة التي نزل بها البربر مع غيرهم من العرب كورة فحس الباطنة شمال قرطبة ، وكورة السهلة وكانت من أخصب المناطق في الأندلس ونزلها بنو رزين من البرانس فنسبت إليهم واستقروا بها في عصر ملوك الطوائف . والعرب لم يكونوا من الكثرة بحيث ينفردون بكل المناطق الخصبة في بلد واسع كالأندلس . وكان البربر يتفوقون عليهم في العدد نظرا لقرب بلادهم وكثرة هجراتهم .

ويبدو أن سكنى الكثير من البربر في المناطق الجبلية كان بناء على رغبتهم بحسب ما اعتادوا عليه في بلادهم ، وكان العرب والبربر بعد الفتح ينزلون في المناطق المناسبة لهم وبحسب اختيارهم دون ضغط أو إكراه أو تحديد لأماكن معينة ينزل بها هؤلاء أو هؤلاء فسكنوا سويبا في مناطق ومنفردين في أخرى . انظر : د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١٢٨ ، ٣٨٨ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسي ص ١٣٧ - ١٣٨) .

(٨) يذكر البعض أنه اشترط عليهم أن يعودوا بعد سنة واحدة (د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٨) .

ولما انتهت الثورة طلب عبد الملك من بلج وأصحابه مغادرة الأندلس ،
فسألوه أن يهيئ لهم السفن التي تقلهم إلى تونس من ساحل البيرة
وتدمير ، فاعتذر عن ذلك بوجود السفن في الجزيرة الخضراء لنقلهم
إلى سبتة ، فقالوا له : اتريد أن تعرضنا لبربر طنجة ، ولما رأوا
ما يراد بهم وثبوا عليه وأخرجوه من قصره وبايعوا بلجا مكانه
في أول ذي القعدة سنة ١٢٥ هـ (٩) .

ويبدو أن الشاميين كانوا يبيتون النية للبقاء في الأندلس والإقامة
فيها بعد ما حدث لهم في إفريقية خاصة وأنهم سمعوا عن خيراتها
وهحاسنها ، ولم يجدوا وهم في موقفهم الحرج أثناء حصارهم في سبتة
إلا أن يوافقوا على شروط عبد الملك . ثم أخذوا يبحثون عن ذريعة
تمكنهم من البقاء حتى وجدوا ذلك في اتهامه بقتل رجل غساني
من أشرافهم كان ضمن الرهائن في الجزيرة الخضراء ، وأدى ذلك
إلى قتلهم له ، بالرغم من محاولة بلج أن يردهم عنه ولكنه لم يستطع
خشية من تفرق كلمتهم وانفصاضهم من حوله (١٠) .

وقد أدى مقتل عبد الملك بن قطن إلى تحول النزاع بين البلديين
والشاميين إلى صراع بين القيسية واليمينية . حيث أثار موجة من الغضب
واتحد العرب البلديون — بقيادة ولدي عبد الملك قطن وأميمة — مع
البربر الذين كانوا يتلحفون للأخذ بثأرهم من أهل الشام ، والتقى
هؤلاء مع جيش الشام بقيادة بلج في موضع يقال له (أقسوة
برطورة) وانتهت الموقعة بوزيمة البلديين وكان معظمهم من اليمينية
وقتل بلج فتولى مكانه ثعلبة بن سلامة العاملي ، ولما علم الخليفة

(٩) أخبار مجموعة ص ٤٠ — ٤١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٣ — ٤٤ .

(١٠) أخبار مجموعة ص ٤٢ .

هشام بن عبد الملك بذلك نصحه العباس بن الوليد بن عبد الملك بتولية
أحد اليمانيين على الأندلس فولى أبا الخطار بن ضرار الكلبى بعد
أن كتب إليه بأبيات يقول فيها :

افاتم بنى مروان قيسا نماعنا

وفى الله إن لم تنصفوا حكم عدل

كانكم لم تشهدوا مرج راهط

ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

وقيناكم حر الوغى بصدورنا

وليست لكم خيل تعد ولا رجل

فلما رايتم واقد الحرب قد خبا

وطاب لكم منها المشارب والاكل

تفانفتم عنا كان لم يكن لنا

بلاء وانتم ما قد علمنا لها فعل

فلا تجزعوا إن غضت الحرب مرة

وزلت عن المرقاة بالقدم النعل

تصرم حبل الوصل وانقطع الهوى

الا ربما يالوى فينقطع الحبل (١١)

وفد أبو الخطار إلى الأندلس في رجب سنة ١٢٥ هـ ومعه سجل
الولاية من وإلى إفريقية (حنظلة بن صفوان) وبرفته ثلاثون رجلا هم
الطائفة الثانية من العرب الشاميين . وكانت الحرب ما تزال ناشئة
بين الشاميين والبلديين ، فبعد مقتل بلج تولى تعبئة العاملى وقام
بمحرابة العرب البلديين والبربر في ماردة وهزمهم وسبى كثيرا منهم (نحو

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ — ١٩ .
ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٦٤ مع بعض الاختلاف في
الاشاط .

عشرة آلاف (١٠) ، وأخذ في بيع شيوخ البلديين من العرب لمن ينقص من أئمتهم حتى قيل إنه باع أحمد رجال عرب المدينة بكتاب (١٢) . وإن كنا نشك في ذلك لما فيه من بهالغة شديدة . فلما أقبل أبو الخطار أمر بإطلاق سراح الأسرى والسبي منتمى عسكره لذلك عسكر العافية (١٣) . ونظر في توزيع جنود الشام على كور الأندلس بدلا من تجمهم في قرطبة حتى يتضى على عوامل الاضطراب فأنزل جنود دمشق بالبيرة وسمماها دمشق ، وأنزل جنود الأردن بكورة ربة ، وجند فلسطين بشذونه ، وجند حمص بإشبيلية ، وجند قنسرين بجيان وجند مصر بباجنة وتدمير (مرسية) ، وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم من أرض ونعم ، ولم يمس غنائم البلديين من العرب والبربر بنقص (١٤) .

وفي عهد عبد الرحمن الداخل قامت ثورة خطيرة للبربر في شمال شرق الأندلس سنة ٢٥٠ هـ وكان زعيمها فقيها بربريا يعلم الصبيان ويدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة ، وقد ادعى أنه من ولد الحسن ابن علي ، وكانت أمه تسمى فاطمة فادعى أنه فاطمي تسمى بعبد الله ابن حيد ، وذاعت دعواته بين البربر في هذه الناحية نظرا لكونهم أكثرية فيها ، واستطاع بهم أن يستولى على شنت بربره جنوب غرب طليطلة وجعلها مقرا له ، ثم استولى على ماردة وقورية ومدلين ، وعظم خطره وتمكن من هزيمة الجند الذين أرسلهم إليه حاكم

(١٢) أخبار مجموعة ص ٤٥ .

(١٣) أخبار مجموعة ص ٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٤٩ .

(١٤) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٦١ - ٦٣ . فتح الطيب ج ١

ص ٢٢١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٦١ - ١٦٢ (

د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

طليلة بقيادة سليمان بن عثمان مما أدى إلى اتساع دعوته واستفحال حركته ، فسار إليه عبد الرحمن بنفسه سنة ١٥٢هـ فالتجأ الثائر بمن معه إلى الجبال المحيطة بالمنطقة مما اضطر عبد الرحمن إلى العودة إلى قرطبة ، ثم أرسل مولاة بدرًا لمقاتلته سنة ١٥٤هـ فامتنع بالجبال حتى لا يلتقى بالجيش الأموي ، ثم عاد عبد الرحمن لمقاتلته سنة ١٥٥هـ بجيش جعل عليه هلال المديوني كبير البربر في شرق الأندلس — بعد أن استماله وأقره على ما في يده وعهد إليه بولاية الأندلس التي تغلب عليها شقنا بعد استخلاصها منه — وكان لذلك أثره في بث الخلاف في صفوف البربر ، فانفض عن شقنا كثير من أنصاره — واضطر إلى الانسحاب للاعتصام بالجبال مرة أخرى . وكانت المشاكل التي واجهت عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا الثائر مما جعل ثورته مستمرة قرابة عشر سنوات ، كما كان لاعتصامه بالجبال وتجنب اللقاء المباشر أثر في هذا الاستمرار .

وإذ ذلك لم يتهكن عبد الرحمن من القضاء عليه إلا بمؤامرة دبرها له اثنان من أصحابه بمساعدة هلال المديوني حيث قتلاه وحملوا رأسه إلى قرطبة وبذلك انفضت جموع البربر من حوله ، وخبث ثورته بعد أن ظلت نحو عشر سنوات تهدد سلطان عبد الرحمن ، وبذلك حققت المؤامرة في لحظات ما لم تحققه الحملات والجيوش المتعاقبة في سنوات (١٥) .

وفي عهد هشام بن عبد الرحمن قامت ثورة للبربر سنة ١٧٨ هـ في تاركنا من إقليم رندة ، وكانوا كثرة في هذا الإقليم ، فخرجوا على

(١٥) انظر أخبار مبهومة ص ١٠٧ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٥٤ — ٥٥ ، ابن خلدون : السير ج ٢ ص ١٢٣ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٧ .

الطاعة ، وقتلوا كثيرا من السكان العرب فأرسل إليهم هشام جيشا استطاع هزيمتهم ، وفروا من تاكرنا التي ظلت خالية طوال سبع سنوات إلى طلبيرة وترجيلة (١٦) .

كما قامت ثورة أخرى للبربر في ماردة سنة ١٩٠ هـ بقيادة أصبغ بن عبد الله بن وائسوس بسبب وقعة قام بها بعض خصومه فخشى أصبغ من الحكم وشدته فدخل ماردة وثار بها والتف حوله البربر ، فخرج إليه الحكم بنفسه وحاصره ، ولكنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة إلى قرطبة بسبب فتنة قامت فيها ، ثم تابع حملاته بعد ذلك سبع سنوات ولكنه لم يستطع القضاء على هذه الثورة ، وأخيرا استطاع استمالة جماعة من أهل ماردة من ثقاته أصبغ ففارقوه مما دعاه إلى طلب الأمان فأمنه الحكم وخرج من ماردة وأقام بقرطبة (١٧) .

وفي سنة ٢١١ هـ ثار طوريل البربري بتاكرنا في عهد عبد الرحمن ابن الحكم (الأوسط) فأرسل إليه قائده عبد الرحمن بن معاوية بن غانم فظفر به وقطع عاديه (١٨) .

وفي سنة ٢١٣ هـ قامت ثورة للبربر في ماردة أيضا وتزعّمها رجل بربري يدعى محمود بن عبد الجبار ، وانضم إليه أحد المولدين ويدعى

(١٦) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٦ ، ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ١٤٤ .

(١٧) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٠١ ، ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٠ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٣٤ ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ج ١ ص ٢٧٩ .

(١٨) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ .

سليمان بن مرتين ويلقب (بقعب) ، وشقيا عصا الطاعة على الأمير عبد الرحمن وقتلا حاكم المدينة مروان الجليقي ، فأرسل فرقة حاصرت المدينة سنة ٢١٤ هـ إلا أنها لم تحقق نصرا يذكر ، فسار عبد الرحمن في السنة التالية وحاصرها حصارا شديدا ولكنه لم يتمكن من فتحها إلا في سنة ٢١٩ هـ . بعد أن فر منها الثائران حيث قتل سليمان سنة ٢٢٠ هـ ، وقتل محمود سنة ٢٢٥ هـ . وقد سجل عبد الرحمن إخضاعه لهذه الثورة ببناء قصبته التي تعرف لدى العامة إلى اليوم باسم الدبر وبها نقش عربي محفوظ إلى اليوم بمتحف القصبية في ماردة يحل تاريخ ٢٢٠هـ (١٩٠) .

وفي سنة ٢٣٦ هـ ثار أحد البربر ويدعى حبيب البرنسي بجبال الجزيرة الخضراء والتف حوله جماعة من المفسدين فأخرج له الأمير عبد الرحمن الأجناد ففرقوا جموفه وقتلوا عددا كبيرا من رجاله (٢٠) .

وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط كثرت الفتن والثورات كثرة بالغة من العرب والبربر والمولدين . ومن أشهر الثوار البربر في هذا العهد الذين حاولوا الاستقلال بنو موسى بن ذى النون وكان أول من ثار منهم الفتح ومطرف اللذين ثارا في ثمنت بربه واتخذاهما حاضرة لهما ، وأقاما فيها الكثير من المنازل والقرى والمعازل والحصون فعمرت وكثرت فيها المرافق ، وقد استقل مطرف

-
- (١٩) انظر : ابن القوطية : تاريخ إفتتاح الأندلس ص ٨٣ ، ابن الأثير : الكاهل ج ٦ ص ٤١٠ ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٢٨ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ - ٢٣٢ ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .
- (٢٠) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٣١ .

بحصن وبدة ، ويحيى بحصن ولسة وكان أكبر الحصون ، وبنى الفتح
حصن إليلش ومصره وعمره . وقد قتل الفتح سنة ٣٠٣ هـ ، ودخل
أخوه يحيى فى خدمة الخليفة الناصر وتوفى أثناء غزوة سرقسطة سنة
٣٢٥ هـ ، أما مطرف فقد خدم الناصر أيضا واشترك معه فى بعض
غزواته فولاه مدينة الفرج من الشجر الأوسط (٢١) .

وكذلك ثار عمر بن مضم الهترولى المعروف بالملاحى ، وكان من بربر
قرية الملاح من كورة جيان ، وكان مجرد جندى من جنود عاملها فوثب عليه
وقتله واستطاع الاستيلاء على قصبتها ، واستنقل امره وأخذ يعيث
مسادا فيما جاورها من بلدان ، فأرسل إليه الأمير عبد الله جيشا بقيادة
أحمد بن محمد بن أبى عبدة فتمكن من هزيمته والقبض عليه والقُدوم به
إلى قرطبة .

وكذلك ثار زعال بن يعيش بن فرائك النفاوى وكان من بربر نفزة
وخرج على الأمير عبد الله ، فى حصن أم جعفر فى باردة واستطاع
أن يستقل بهذا الحصن استقلالاً جزئياً حيث ظل متمسكا بطاعة الأمير
ولو اسمياً ولما مات خلفه ابن عمه عبد الله بن عيسى بن قوطى
حتى استنزل بن الحصن أيام عبد الرحمن بن محمد (٢٢) .
كما ثار خليل وسعيد ابنا مهلب بكورة البيرة واستطاعا الاستيلاء
على حصن قرذيرة واشبرغرة ورغم ثورتها إلا أنها كانا يدينان بالطاعة
للأمير عبد الله فولاهما على ما فى أيديهما حتى كانت أيام الأمير عبد الرحمن
ابن محمد فاستنزل سعيد — بعد موت أخيه — ضمن من استنزل
من الثوار من حصونهم (٢٣) .

(٢١) ابن حبان : المقتبس ص ١٩ تحقيق منشور أنطونية .

(٢٢) د. السيد سالم : مرجع سابق ص ٢٥٦ — ٢٥ .

(٢٣) ابن حبان : المقتبس ص ٣٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢
ص ٢٠٨ .

ثم جاء عهد المنصور بن أبى عامر الحاجب فازداد نفوذ البربر زيادة كبيرة حيث استكثر منهم واعتمد عليهم وجعلته شيعته وأنصاره فى مواجهة خصومه ومنافسيه من الأماويين والعرب الذين كانوا يحقدون عليه لاستبداده وسيطرته على الخليفة الأماوى هشام المؤيد ودليل ذلك يتجلى من خلال وصيته لابنه عبد الملك الذى تولى الحجابة بعده سنة ٣٩٢ هـ حيث يقول له « ولا تنظر بك وأصحابك السلامة فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة » (٢٤) .

وقد أدى ذلك إلى مزيد من التنافس بين العنصرين . حيث قدم المنصور البربر وآخر العرب وأسقطهم عن مراتبهم . وإذا كان ابن خلدون يرى أن سبب ذلك هو ضعف عصبية العرب مما أدى لاعتماده على البربر (٢٥) فإننا نرى أن ذلك هو الذى أدى إلى ضعف عصبية العرب ونفوذهم ، وكان سببا من أسباب انهيار دولة بنى أمية بالأندلس .

وقام صراع عنيف بين العنصرين تجلّى بصفة خاصة فيما يعرف بالفتنة العظمى أو البربرية التى استمرت نحو عشرين عاما وبدأت فى مستهل سنة ٤٠٠ هـ . وقام البربر فيها بالكثير مما أدى إلى تخريب الكثير من مظاهر الحضارة والعمران فى الأندلس وخاصة فى قرطبة ومدينة الزاهرة ، وإشاعة الكثير من مظاهر الفوضى والانحلال فى المجتمع مما كان له أثره فى سقوط الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ (٢٦) .

(٢٤) ابن بسام الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ٥٧ .

(٢٥) المقدمة ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٢٦) عن هذه الفتنة بالتفصيل انظر : بهجة المجالس ج ١ ص ١٠ ،

ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ٢٥ ، ابن حبان : المقتبس ص ١١٥

وبعدها ، البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ السيد سالم : تاريخ المسلمين

ص ٣٤٧ وبعدها ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٧٩ وبعدها .

الفتن بين العرب والمولدين في الأندلس

كثرت الفتن والثورات في كل ناحية من نواحي الأندلس في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ) ، ولم تقتصر على المناطق الجبلية فقط بل امتدت إلى القواعد والمدن الكبيرة مثل إشبيلية وبطليوس وجيان ولورقة ومرسية وغيرها ، ولم تقتصر هذه الثورات على عنصر بعينه وإنما شملت الكثير من العناصر ، فشارك فيها المولدون والعرب والبربر ونشبت معارك عنيفة بين العرب والمولدين ، وبين العرب والبربر فضلا عن المعارك التي دارت بين العرب أنفسهم ، واستطاع الكثير من هؤلاء أن يستقلوا بأماكن كثيرة ، حتى لم يبق لحكومة قرطبة سلطان حقيقي إلا في العاصمة وأحوازها فقط (١) .

ويلخص لنا ابن الأثير الأوضاع في عهد الأمير عبد الله فيقول « وفي أيامه امتلأت الأندلس بالفتن ، وصار في كل جهة متغلب ، ولم تزل كذلك طول ولايته » (٢) .

والحقيقة أن هذا الأمير لم يقعد عن مواجهة هذه الثورات ، وإنما بذل قصارى جهده للقضاء عليها ، وظل يكافح طوال مدة حكمه دون هوادة لانقاذ دولة آبائه واجداده من الانهيار ، واستنفذ ذلك منه الكثير من موارد الدولة ، حتى ذكر ابن خلدون : أن خراج الأندلس قبله كان ثلاثمائة ألف دينار مائة ألف منها للجيش ومائة ألف للنفقة في النوائب . وما يعرض من الخطوب ، ومائة ألف ذخيرة ووفر

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٣١ ، د . محيد زيتون : المسلمون

في المغرب والأندلس ج ١ ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ٧ ص ٤٣٥ ، المعبر ج ٤ ص ١٣٣ .

مناقض الوفر في تلك السنين وتسل الخراج (٣) .
ويبين لنا الوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب اسباب انتشار
الثورات والفتن في هذا العهد فيقول : « والسبب في كثرة الشوار
بالاندلس يومئذ ثلاثة وجوه :

الأول : منعمة البلاد وحصانة المعامل وبأس أهلها بمقارنتهم بعدو
الدين فلم شوكة وحد بخلاف سواهم .

والثاني : علو الهمم وشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطامة ،
إذ كان من يحصل بالاندلس من العرب والبرابرة اشراف يأنف بعضهم
من الأذعان لبعض .

والثالث : الاستناد عند الضيقة أو الاضطراب إلى الجبل الأثمن
والمعتل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم
بعض .

وقد كانت السياسة التي جرى عليها بنو أمية في الاندلس منذ
بداية أمرهم في اصطفاء الموالي قد أخذت تحدث أثرها في نفوس
القبائل العربية التي أصبحت ترى في هذه السياسة نوعا من المهانة
لها ، ولما ثار ضرام الفتنة على يد المولدين في الثغر الأعلى والمناطق
الجنوبية على يد ابن حفصون وجدت القبائل العربية الفرصة سانحة
للقيام بدورها والانتصاف لعصبيتها وكرامتها (٤) .

وكان المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم الحكومة الأموية من ضروب

(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٤١ ، د. السيد سالم : تاريخ
المسلمين في الأندلس ص ٢٤٤ ، عنان : دولة الإسلام في الأندلس
ص ٣٤٠ ، د. زيتون : المرجع السابق ج ١ ص ٣٢١ .
(٤) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، القسم الثاني ص ٣٥ .

الرعاية والتسامح يضر أكثرهم لهذا الخصومة والكيد ، ولا يدينون
بالولاء لها . على الدوام ، وينتهزون الفرص للخروج عليها ، وكانوا يلقون
العون والتأييد من بنى جنسهم من النصارى المعاهدين (٥) .

ولذلك انضموا إلى ثورة ابن حفصون الذي كان مولدا ويرجع
إلى أصل أسبان مسيحي وكان يجيش بالمسيحية وعاد إليها بعد
أن أسلم وسبقه أبوه قبل ذلك بعدة أعوام (٦) .



(٥) عنان : المرجع السابق ص ٧٤ .

(٦) نفسه ص ٤٢ ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٠٣ وبعدها
تاريخ المستعربين وآثارهم في الأندلس ص ٢٥٩ وبعدها .

ثورة المولدين بقيادة عمر بن حفصون

وقد كان من أخطر هذه الثورات التي قامت في الأندلس ثورة ابن حفصون المولد^(١) الذي كان يمثل في ثورته كل ما يجيش به المولدون نحو العرب من بغض وكراهية ، فكان يدعوهم ومن إليهم من العجم المستعربين إلى الخروج على سلطان العرب ، ويذكرهم بها ينالهم من عسف واضطهاد على أيديهم ، وأنه قام ليرفع عنهم ذلك ويرد إليهم حريتهم وهو في ذلك لا يبغى سوى تنويع نفوذه وتوطيد سلطانه الذي بسطه على معظم الأنحاء الجنوبية الغربية من الأندلس فيما بين البحر ووادي شنيل (٢) .

(١) عن هذه الثورة بالتفصيل : انظر البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٢ وبعدها ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ وبعدها ، عنان : دولة الإسلام ص ٢٠ وبعدها ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٩ وبعدها ، د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ٣٢٢ وبعدها . وهو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن دميان ابن فرغلوش بن أذفونش الشمس ، ثار بالأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن وبدأت ثورته سنة ٢٧٠ في جبل بريشتر (بيشتر) فيما بين رنده ومالقة وانضم إليه الكثيرون من المولدين والخارجين على الطاعة والمفسدين ، واستولى على غرب الأندلس إلى رنده وعلى السواحل من استجة إلى البيرة وظل مستمرا في ثورته حتى مات سنة ٣٠٦ هـ فخلفه أبنائه إلى أن قضى على ثورته سنة ٣١٥ هـ في عهد عبد الرحمن الناصر .

(انظر : العبر ج ٤ ص ١٣٤ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٠٨
عنان : دولة الإسلام ص ٢٠) .

(٢) عنان : دولة الإسلام في الأندلس (عصر الفتنة الكبرى) ص ٣١٤،٢٧ .

ويبدو أنه كان يطمع في الاستيلاء على مقاليد الأمور في الأندلس بدليل أنه أظهر الميل للدولة العباسية وقد قاوم هذه الثورة الأمير محمد وابنه المنذر كما قاومها الأمير عبد الله بمقاومة شديدة وفي سنة ٢٨٦ هـ أظهر ابن حفصون ما كان يخفيه فعاد إلى النصرانية وتسمى بصمويل . وقد أدى ذلك إلى انصراف الكثير من المولدين المسلمين عنه بينما فرح العجم بذلك ، واشتد السخط عليه في أنحاء الأندلس وجد المسلمون في قتاله حيث رأوا أن حربه من الجهاد (٣) .

وحاول ابن حفصون أن يعوض ما فقدته من أنصار ويقوى مركزه فخطب الفونسو الثالث ملك ليون وعقد معه محالفة كما تودد لبنى قسى في الثغر الأعلى ، وخطب ابن الاغلب صاحب إفريقية وهاداه ، وكذلك الفاطميين أعداء الأمويين بالأندلس ، وأظهر الدعوة العباسية بالأندلس ، كما أظهر الدعوة لعبيد الله المهدي (٤) .

وقد كان للحملات التي أرسلها الأمير عبد الله أثرها في استنزاف قوة ابن حفصون بحيث لم يعد يشن حربا هجومية كما كان يفعل سابقا في عهد الأميرين محمد والمنذر وفي السنوات الأولى من حكم عبد الله ، وكان لهذا كله أثره في إضعاف ثورته التي استمرت ما يقرب من النصف قرن حتى قضى عليها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٥ هـ (٥) .

-
- (٣) د. محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ج ١ ص ٣٢٥ ،
عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٤٣ .
- (٤) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٥ .
د. محمد زيتون : المرجع السابق ص ٣٢٥ .
- (٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٦٥ .

١ - الفتنة بين العرب والمولدين فى البيرة

ولم يكد يمضى عام واحد من إمارة عبد الله حتى اشتعلت نيران فتنة شديدة بين العرب والمولدين فى كورة البيرة ، وكانت مدينة قسطلة حاضرة هذه الكورة (التى عرفت باسم غرناطة فيما بعد) تذخر بعدد هائل من أهل الذمة من نصارى ويهود وكان المسلمون فيها قلة حتى أنها سميت (بإغرناطة اليهود) نظرا لكثرتهم فيها كما كانت تضم الكثير من المولدين ، وكان النصارى والمولدون - برغم إسلامهم - يؤلفون فى عهد الأمير عبد الله رابطة قوية متألفة متحدة المصالح والأهداف حيث كان يغمر أكثرهم شعور بالكراهية ضد السكان العرب ، وكانوا ينظرون إليهم نظرة المستعمرين المغتصبين لبلادهم ، ومن هنا فقد اضطر العرب إلى تأليف جبهة قوية المناهضة جبهة المولدين والمعاهدين وعرفت هذه الجبهة (بالعصبية) (٦) .

وكان أول من تزعم هذه الجبهة عربى من ناحية البراجلة فى كورة البيرة يدعى (يحيى بن صقاللة القيسى) وكان شديد التعصب للعرب ضد المولدين والعجم ، فعدوا يترصدون له حتى أتى إلى حاضرتهم قسطلة فقتلوه بالرغم من عقده معهم أمانا مؤكدا واستولوا على حصن منت شاعر (منت شقند) بالشرب من البيرة .

فخلفه على رئاسة عصبية العرب سوار بن حمدون القيسى .
» وكان فارسا شجاعا محاربا فكثر أتباعه واشتدت شوكته واعتزت العرب به « (٧) .

(٦) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٦ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الثانى ص ٣٥ .
(٧) ابن حيان : المتنبس ص ٥٥ .

وقام سوار في بداية سنة ٢٧٦ هـ بالثورة في ناحية البراجلة
موانضت إليه بيوتات العرب من كورة ألبيرة وجيان وريه وغيرها ، للأخذ
ببشار يحيى واسترداد حصن منت شاعر الذي استولى عليه المولدون والعجم
موكان فيه نحو ستة آلاف منهم ، واستطاع استرداد الحصن وقتل الكثيرين
فيه ، ثم أخذ في فتح حصون المسألة والنصارى واحدا بعد
الأخر ، وقتل الكثير منهم حتى ضجوا منه واستغاثوا بجعد بن
عبد الغافر عامل الأمير عبد الله على البيرة ودعوه إلى قتاله ، وبينوا
لله أنهم على طاعتهم للسلطان ، فخرج وخرجوا معه في جيش كثيف
لمقاتلة سوار ولكنه تمكن من هزيمتهم ، وأغل في المولدين السيف
حتى ذكر أنه قتل منهم سبعة آلاف وأسر جعدا وأساء معاملته
ثم أطلق سراحه لكونه عربى ، وقد عرفت هذه الواقعة (بوقعة
جعد) (٨) .

وقد أدى هذا الانتصار إلى قوة نفوذ سوار واشتداد بأسه
فكاتبه العرب من حصن غرناطة حتى حدود قلعة رباح ، وصاروا
يبدأ على المولدين والنصارى . وخاطب المولدون الأمير حتى يكف بأس
سوار عنهم ، وراسله الأمير فأظهر الامتثال لطاعته وعقد مع أهل
قسطلة الصلح ، ويظهر أنه طلب من الأمير عزل جعد فعزله وولى مكانه
عمر بن عبد الله بن خالد وكان شريكا لسوار ، وخرج سوار للاسهام
في مقاتلة ابن حفصون وأغار على حصونه في سنة ٢٧٦ هـ ، فغضب
أهل قسطلة لذلك وجمعوا جمعهم لقتاله فيها يزيد على عشرين ألفا ،
واستطاع سوار هزيمتهم وقتل منهم نحو أحد عشر ألفا وسميت هذه

(٨) ابن حبان : المنتبى ص ٥٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢

الموقعة (بوقعة المدينة) حيث دار القتال في سهل وادي سنيل بالقرب من غرناطة (٩) .

وامام ذلك لاذ المولدون بابن حفصون وخلعوا طاعة الأمير عبد الله ، واشتبك ابن حفصون مع سوار في معركة هزم فيها وأصيب بجراح كثيرة فاضطر للعودة إلى حصنه في بيشتر . وترك قائده حفص ابن المرة لمقاتلة سوار ، حتى استطاع أن يستدرجه للقتال في نفر قليل . سنة ٢٧٧ هـ ، ونصب له عدة كمان خرجت عليه وتمكنت من قتله وجرى بجثته إلى قسطله فآظهر المولدون والنصارى فيها الشهامة والفرحة حتى ذكر « أن الثكالي من نسائهم قطعن لحمه مزقا ، واكله كثير منهم حنقا عليه لما قد نالهن من الثكل في بعولتهن وأهليهن واليتم في أبنائهم » (١٠) .

وقد أدى ذلك إلى تصدع جبهة العرب ، فاختاروا بعده سعيد ابن سليمان بن جودي الذي حاول جمع شملهم ، ولكنه لم يتمكن من سد الفراغ الذي تركه سوار ، فلم يكن مثله في الثروة والشجاعة والسياسة ، وظل رئيسا للعرب في البيرة نحو سبع سنوات حتى تمكن أعداؤه من قتله غيلة في ذي القعدة سنة ٢٨٤ هـ (١١) .

(٩) أنظر ابن عذارى البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٢ وهو يذكر أن جموعهم كانت ٢٣ ألف ، ابن حيان : المقتبس ص ٥٧ ، السبب س : مرجع سابق ص ٢٦٧ .

(١٠) ابن حيان : المقتبس ص ٦٠ .

(١١) ذكر ابن عذارى أنه قتل في دار عشيقة له يهودية . (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٤) .

ويقال إنه قتل بتدبير الأمير عبد الله بسبب أبيات قالها في ذم بني

وقام برئاسة العرب بمده محمد بن أضحى بن عبد الطيب الهذلي صاحب حصن الحامة (الحمة) فسار على سياسة مثله ، ولكنه هزم في إحدى المعارك مع ابن حفصون وأسر وأفتداه أصحابه بهال جزيل ، ومن ذلك الحين فقد العرب الزعامة الماثلة لسوار في القوة والشجاعة والسياسة فتفرقت كلمتهم وانحلت عصبيتهم ضد المولدين ، وثبتت العصبية فيما بينهم ووقع الاختلاف فتفرغوا للقتال مع بعضهم (١٢) .

٢ - الفتنة بين العرب والمولدين في لبلة

ومثلما حدث في البيرة حدث في لبلة حيث الف العرب جبهة واحدة ضد المولدين والمسألة ، وتزعم هذه الجبهة رجل يسمى عثمان ويعرف بابن عمرو .

وقد ثار على واليها عمرو بن سعيد القرشي واستطاع الاستيلاء على دار الإمارة وإخراج الوالي من المدينة ، وما لبث أن انضم إليه جماعة من العرب فأغار بهم على قرى إشبيلية . ولما علم الأمير عبد الله بثورته بعث إليه عثمان بن عبد الغافر ليستميله فنجح في ذلك ، وعاد ابن عمرو إلى إظهار ولائه للأمير وفرق أتباعه ، وسكنت الفتنة إلى حين ، ثم لم تلبث

أمية جاء فيها :

يا بني مروان جدوا في الهرب

نجم الثنائير بن وادي القصب

يا بني مروان خلوا ملكنا

إنما الملك لأبناء العرب

(١٢) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٨ ، عنان : دولة الإسلام

في الأندلس (عصر الفتنة) ص ٣٦ .

أن اشتعلت من جديد بين العرب المولدين ، فسار ابن عمرو إلى حصن .
قرقبة فاستولى عليه وتحصن فيه ، وانضم إليه عثمان ورجاله وخرج
العرب بقيادة عثمان لملاقاة المولدين فهزموهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ،
وامتدت نيران هذه الفتنة إلى منت ميور التي ثار فيها رجل من المولدين
يدعى ابن خصيب ، كما ثار مؤسد آخر يدعى ابن عفير في جبل العيون .
وهو من حصون لبلة وأخذت نيران هذه الفتنة تمتد شيئا فشيئا حتى
وصلت إلى إشبيلية (١٣) .

٣ - الفتنة بين العرب والمولدين في شيبيلية

كانت إشبيلية تعد العاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة ، وكان
العدد الأكبر من سكانها من النصارى المولدين ، بالإضافة إلى
مجموعات من السكان العرب أمثال بنى موسى وبنى الجند ، وبنى الحجاج
وبنى خلدون وغيرهم وكذلك من البربر . وكانت هذه القبائل العربية تؤلف
فيها بينها العصبية العربية في إشبيلية ، وقد قامت بعد الفتح
مصاهرات بين العرب والإسبان في إشبيلية وغيرها من كور الأندلس فكثر
زواج العرب بالإسبانيات ونشأ جيل عرف بالمولدين أصبح يشكل أغلبية
السكان بمرضى الزمن واحتفظ كثير منهم بأسمائهم القديمة مثل بنى أنجلين
وبنى شبرقة وغيرهم .

غير أنه بمرضى الزمن أخذت العصبية تلعب دورها فأصبحنا نرى
في إشبيلية عصبية عربية يمثلها بنو أبى عبدة بزعامة أمية بن عبد الغافر
وبنو حجاج برئاسة عبد الله وأخيه إبراهيم وبنو خلدون بزعامة كريب
وخالد بن عثمان وهم قوم المؤرخ المشهور ابن خلدون ، وعصبية من .

المولدين يمثلها بنو أنجثين وبنو شبرقة ، كما وجد فريق محايد من العرب والبربر والموالي لم يتعصبوا لفريق وظلوا على ولائهم للإمارة الأموية (١٤) .

وكان التنافس بين العرب والمولدين على النفوذ والرياسة من أهم أسباب الاضطراب فى المجتمع الأندلسى يومئذ .

وكان المولدون فى إشبيلية كما وصفهم ابن حيان « أغلظ أهلها شوكة ، وأوسعهم نعمة وأعزهم جانباً ، وأحضرهم عددة ، يعتدون فى اثنى عشر رئيساً ، لكل رئيس منهم عقدة يعتقدونها وعدة يعتد بها » (١٥) .

وكان السبب فى اشتعال نيران هذه الفتنة هو قيام كريب بن عثمان بن خالدون بآتحالف مع سليمان بن محمد بن عبد الملك الناصر بشذونة ، وعثمان بن عمرو الناصر ببسلة وكانا من اليمانية ، وكذلك جنيد ابن وهب القرمونى من البربر البرانس ضد المولدين والموالي بإشبيلية وعقدئذ كون هؤلاء حلفاً مع المضربين ، والبربر البتر من أهل كورة مورور المجاورة وتلاحظ هناك تداخل العصبية فاليمانية والبربر البرانس فى جهة ، والمضربة والبربر البتر فى ناحية . وهذا يدل على مدى ما فعلته العصبية بالإضافة إلى المصالح فى الفتن والصراعات التى قامت بين عناصر السكان فى الأندلس .

ولكن كريب لم يستطع أن يحقق أهدافه فى السيطرة والنفوذ على إشبيلية أمام تكتل المولدين والموالي فاضطر إلى الخروج من إشبيلية ، واستوطن قرية تشرف عليها تسمى (البلاط) ، ومن هناك حرض بربر ماردة ومدلين على مهاجمة إشبيلية لكثرة خيراتها ، فأغاروا على قرية

(١٤) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٦٩ كان الفريق الحسايد يتألف من عرب قرشيين وبعض الموالى الأمويين وبعض البربر .
(١٥) المتنبس ص ٧٥ .

تسمى طلياطه فقتلوا الكثير من أهلها واستباحوها وسبوا الكثير من نسائهم وذريتهم ، فخرج موسى بن أبي العاص والى إشبيلية لصددهم ولكنهم استطاعوا هزيمته ، وانطلقوا يشنون غاراتهم على جميع جهاتها فآدى ذلك إلى عزل الأمير عبد الله له ، وتوليته حسين بن محمد المورى مكانه .

وفى عهد هذا الوالى ظهر بين قرطبة وإشبيلية قاطع طريق بربرى الأصل يدعى (الطماشكة) فقام أهل استجه من المولدين وعلى رأسهم محمد بن غالب بإقامة حصن فى قرية شنت طرش - بموافقة الأمير - وقام ببعض أتباعه من البربر البتر والوالى والمولدين بحراسة الطريق بين قرطبة وإشبيلية حتى علا شأنه ، وتردد ذكر اسمه . فحسده بنو خلدون وبنو حجاج أعيان إشبيلية من العرب فهاجموه لئسلا لاقتضاء عليه حتى تكون لهم الكلمة العليا ولكنه استطاع هزيمتهم وقتل أحدهم فشكلوا إلى والى إشبيلية فطالب بثار المقتيل من ابن غالب ، فأرسلهم إلى الأمير ، فالتبس عليه الحكم فى قضيتهم نظرا لتضارب الأقوال والشهادات ، وعزل الوالى حسين ابن محمد المورى وولى مكانه محمد بن خالد الخالدى المعروف بالمعوج ، ثم ما لبث أن عزله أيضا وولى مكانه ابن عمه أمية بن عبد الغافر الخالدى فاستقر مع محمد ابن الأمير عبد الله فى قصر إشبيلية ، ووكل الأمير إلى ابنه البت فى القضية ، فجمع الفريقين ولكنه وجد تعصبا فى كل فريق لرائيه ، فاضطر إلى إرجاء النظر فى القضية أيضا وسمح لابن غالب بالعودة لحصنه ، فأدى ذلك إلى غضب العرب وازدادت قلوبهم كراهية وتعصبا ضد المولدين ، وخرجوا من إشبيلية وأرسلوا إلى محالفيهم ، وشقوا عصا الطاعة على الأمير عبد الله .

واستطاعوا الاستيلاء على مدينة ترمونة ، وحصن قورية وجزيرة

الاسيلة ، ولما وصلت هذه الاخبار إلى الأمير أشار عليه وزراؤه
بقتل محمد بن غالب المولد إرضاء للعرب حتى يدخلوا في طاعته مرة
أخرى ، فأخذ الأمير بذلك .

وقد أثار مقتل ابن غالب نائرة المولدين والسوالى ، فوثبوا
على عامل إشبيلية أمية بن عبد الغافر بعد أن أرسلوا إلى حلفائهم
من المزيين والبتري في جمادى الآخرة سنة ٢٧٦ هـ .

وفر أمية للاحتباء بمحمد ابن الأمير عبد الله ، فأرسل إلى
محمد بن خطاب بن أنجلين زعيم المولدين بإشبيلية للتفاهم معه
في إطفاء نيران الفتنة ، وكان زعيم المولدين قد اتفق مع أصحابه
من المحاصرين للقصر على مهاجمته عند أذان الظهر إذا لم يخرج هو
ومن معه ، ولما مضى الوقت المحدد اقتحم المولدون القصر ونهبوا
خيله ومراكبه ، وكان أمية ورفاقه قد ثبضوا على ابن خطاب ومن معه
وأمر غلمانه بالاستعداد لصد المهاجمين ، واستمر حصار المولدين
للقصر حتى اليوم التالي واستنجد الأمويون بالجععد بن عبد الغافر فأقبل
بعسكره من قرمونة ودخل إشبيلية واستطاع هزيمة المحاصرين وقتل
منهم عددا كبيرا .

وأمر محمد بضرب اعناق ابن أنجلين ورفاقه ومصادرة أموالهم
ونهب دورهم وكتب إلى أبيه بذلك فأمره بالعودة إلى قرطبة ، واستقدم
أمية وإلى إشبيلية سادات العرب وقربهم فأقاموا فيها بعض الوقت ، ثم
مالبثوا أن عادوا للثورة مرة أخرى . وكان لمقتل الجععد في كمين
للطاشكة هو وأخويه أثره في حزن أمية عليهم ، وفي عودة العصبية
بين العرب والمولدين من جديد حيث حمل عرب إشبيلية وقرمونة على

الأولدين والأعاجم في إشبيلية وما جاورها حملة عنيفة قتلوا فيها
الكثيرين منهم .

وظلت الكلمة للجبهة العربية وحلفائها حتى استطاع الأمير عبد الله
القضاء على شوكتهم بالقوة تارة ، وبالحيلة تارة أخرى إلى أن تمكن
إبراهيم بن الحجاج من الاستقلال بإشبيلية سنة ٢٨٦ هـ بعد أن كانت مقسمة
بينه وبين حليفه كريب بن خلدون (١٦) .

واستمر إبراهيم في حكم إشبيلية وقرمونة حتى توفي سنة ٢٩٨ هـ
فخلفه ولده عبد الرحمن في حكم إشبيلية ، ومحمد في حكم قرمونة حتى
انتهت دولتهم في بداية عهد الخليفة الناصر (١٧) .



(١٦) انظر الرواية كاملة في المقتبس ص ٦٧ - ٨٥ .

(١٧) راجع تفاصيل ثورة بني الحجاج في الديان المغرب ج ٢

ص ١٢٨ - ١٣٥ ، ابن خلدون العبر ج ٤ ص ١٢٥ ، ج ٧

ص ٢٨٠ - ٢٨١ . عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٣٨ -

٤٠ . د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٥٨ ، ٢٨١ .

رابعاً : العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة

كان فتح المسلمين لشبه جزيرة إيبيريا (الأندلس) فاتحة عصر جديد ، وبداية تطور هام بالنسبة لها ، فقد كانت تعاني قبل الفتح الإسلامي لها من كثير من مظاهر الجور والفساد والاستبداد تحت حكم القوط ، حيث كانت أقلية من الحكام والأمراء والنبلاء تمتع بكل مظاهر الثراء والنفوذ على حساب أغلبية فرضت عليها الكثير من ألوان الرق والعبودية والاستغلال ، فلماء جاء الإسلام الفاتح قضى على ذلك كله ، وأشاع مبادئ العدالة والمساواة والحرية . وأقبل عليه الكثير من أهل هذه البلاد ، لما لمسوه فيه من قيم ومبادئ نبيلة خلصتهم مما كانوا فيه .

أما من بقى على دينه منهم : فقد ترك لهم المسلمون الفاتحون الحرية الكاملة في ممارسة شعائر عقائدهم الدينية ، وضربوا بذلك مثلا أعلى في التسامح . كما خففوا عنهم الضرائب الباهظة التي كانت مفروضة عليهم ، واكتفوا منهم بأداء الجزية التي كانت تتراوح قلة أو كثرة على حسب مقدرة الشخص المالية .

وكان الخراج يفرض بالتساوي على من يحوز الأرض مسواء كان مسلما أو ذميا . وهكذا تحرر أكثر الفلاحين من الاقطاع والرق القديم ، وتلوكوا الأراضي وأصبح لهم حق التصرف فيها . ولم يكن لهم هذا قبل الفتح(١) .

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٧٤ ، لين بول : قصة العرب في أسبانيا ص ٤ ، د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠ .

وقد عومل أهل الذمة فى الأندلس بمقتضى معاهدات تنظم ذلك ،
ويعتبر العهد الذى أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير حاكم
شرق الأندلس خير مثال لذلك . وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد العزيز بن موسى
لتدمير بن غندر يس إذ نزل على الصلح أن له عهد الله وميثاقه ، وما
بعث به أنبياءه ورسوله ، وأن له ذمة الله عز وجل ، وذمة محمد
ﷺ ، ألا يقدم له ولا يؤخر لأحد من أصحابه بسوء ، وأن لا يسبون
ولا يفرق بينهم وبين نسائهم وأولادهم ، ولا يقتلون ولا تحرق كنائسهم ،
ولا يكرهون على دينهم ، وأن صلحهم على سبع مائة ، وأنه لا يدع
حفظ العهد ، ولا يحل ما اعتقد ، ويصحح الذى فرضناه عليه والزمناه
أمره ، ولا يكتننا خيرا علمه ، وأن عليه وعلى أصحابه غرم الجزية
من ذلك على كل حر دينار وأربعة أمداد من قمح ، وأربعة أمداد
من شعير ، وأربعة أقساط خل وقسطا عسل وقسط زيت ، وعلى كل
عبد نصف هذا — شهد على ذلك عثمان بن عبد الله القرشى ،
وسليمان بن قيس التجيبى ، ويحيى بن يعمر السهمى ، وبشير بن قيس
الخشى ، ويعيش بن عبد الله الأزدى ، وأبو الأصم الهذلى ، وكتب
فى رجب سنة أربع وتسعين » (٢) .

ولقد استطاع المسلمون الماتحون أن يقضوا فى أعوام قليلة على
الكثير من عناصر القلق والاضطراب ، وأن ينظموا إدارة البلاد ، فقد

(٢) ابن الدلائى : ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ص ٥ ، تحقيق
د. الأهنى ، معهد الدراسات الإسلامية بمديرة سنة ١٩٦٥ م .
الحميرى : الروض المعطار ص ٦٢ — ٦٣ مطبعة لجنة التأليف
القاهرة سنة ١٩٣٧ م . د. حسين مؤنس : فجر الأندلس ص ١١٤ —
١١٥ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ج ١ ص ٥٥ — ٥٦ .

أبقوا لأهل الذمة شرائعهم وقضائهم ، وعينوا لهم حكاما من أنفسهم يديرون شؤونهم ويجمعون الضرائب المقررة منهم ، ويفصلون بينهم فى الأحكام ، كما عينوا الكثير من الأكتفاء منهم فى مناصب هامة فى الدولة مثل أرتاباس الذى عينه عبد الرحمن الداخل أول قنومس للنصارى بالأندلس (٣) ، وجيزون قاضى النصارى بقرطبة الذى عينه الحكم المستنصر واتخذة إلى جانب ذلك مترجما له (٤) ، وحسداى بن شبروط اليهودى الذى اتخذه الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبا خاصا له وغدا من أصحاب النفوذ والثراء فى عهد المستنصر (٥) .

وهكذا تمتع أهل الذمة بالكثير من الحثوق فى ظل الحكم الإسلامى ، وكان لهذا التسامح أثره فى رضائهم بالنظام الجديد ، واعترافهم صراحة بأنهم يؤثرونه على حكم الإفرنج والقنوط كما يقول لين بول (٦) .

ويعترف بهذه الحقائق بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين المعتدلين فيقول دوزى مثلا : « لم تكن حال النصارى فى ظل الحكم الإسلامى مما يدعو إلى كثير من الشكوى بالنسبة لما كانوا عليه من قبل ، وكان العرب يتحلون بكثير من التسامح فلم يرهقوا أحدا فى شؤون الدين ، ولم يغمط النصارى للعرب هذا الفضل ، بل جهدوا لفتحهم تسامحهم وعدلهم وآثروا حكمهم على حكم الجرمان والفرنج . ويقول معترفا بأثار الفتح الإسلامى الإيجابية « كان الفتح العربى

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٨ .

(٤) المقرئ : نصح الطيب ج ١ ص ١٨٢ .

(٥) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٠ .

(٦) لين بول : العرب فى أسبانيا ص ٣٨ ، عنان : دولة الإسلام

فى الأندلس العصر الأول ص ٦٤ - ٦٥ .

نعمة لاسبانيا ، فقد أحدث ثورة اجتماعية هامة ، وقضى على الكثير من الادواء التي كانت تعانىها البلاد من قرون ... الخ » .

ويقول لين بول : « يجب الا يخطر ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خربوها بصنوف الإرهاق والظلم ، كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم ، فإن الأندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة وعدل وحكمة كما حكمت في عهد العرب الفاتحين » .

ويقول أيضا « وكان للأسبان أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم ، وعين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف . وكان التسامح الدينى سائدا فلم يدع للأسبان سببا للشكوى » (٧) .

ويقول المؤرخ الأمريكى سكوت : « كان دفع الجزية يضمن الحماية لأتسل الناس ، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل ، كما يسمح للملحد أن يجاهر بأرائه دون خشية ، والأخبار يزاولون لشؤونهم في سلام . أما أقوال الكتاب النصارى التي ينسبون للعرب فيها أفضح المثالب فهي محض مبالغة وافتراء » .

وإن كنا لا نوافق في أن المسلمين كانوا يسمحون للملاحدة بالمجاهرة بأرائهم خاصة إذا كان فيها تهجم الإسلام كما يتضح ذلك من حركة الاستشهاد التي سياتى ذكرها .

وينوه المؤرخ الأمريكى الدكتور (لى) بتسامح العرب والمسلمين خلال العصور الوسطى وترفعهم عن الخصومات الدينية ، وعن بغض الأجناس والتفرقة بينها .

(٧) أنظر : العرب في اسبانيا ص ٣٨ وبعدها ، د. أحمد شلبى :

موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٢٧ - ٢٨ .

(م ٩ - المجتمع الأندلسى)

ويذكر المستشرق (التاميرا) أن أغلبية الشعب الإسباني بقيت في ظل حكم المسلمين محتفظة برؤسائها وقضائها وأساتفتها ، وكنائسها ، وبالجملة فقد بقيت البلاد محتفظة بما يشبه استقلالها المدني الكامل ، وقنع الولاة بأن يفرضوا عليها الضرائب الشرعية » .

وحتى بعض المستشرقين المتحاملين لم يجدوا مناصا من الاعتراف بذلك مثل المستشرق الإسباني سيمونت الذي يقول « إنه فيما يتعلق بالقوانين المدنية والسياسية فإن النصارى الإسبان احتفظوا في ظل الحكم الإسلامي بنوع من الحكومة الخاصة » (٨) .

انتشر الإسلام بين غالبية سكان إسبانيا حيث وجدوه طريقهم إلى الخلاص وإلى الحرية والعدالة والمساواة ، كما اعتنقه البعض للحفاظ على ما تحت يده من أملاك وأراض ، أو للخلاص من دفع الجزية ، أو لرفع مكانته الاجتماعية .

ولم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها ، وصارت الغالبية العظمى من السكان مسلمين — وسموا بالمسالمة — أما الذين بقوا على دينهم فقد أخذ يقتلون شيئا فشيئا وعرفوا بالمعاهدين والمعاقدين وأهل الذمة والعجم . وقد بهر الكثير منهم بالمسلمين ومبادئهم — برغم بقائهم على دينهم — فأخذوا يقلدونهم في كثير من العادات والتقاليد والملابس والأزياء والطعام والشراب ، ويتعلمون اللغة العربية ويجيدونها ويتحدثون بها ويكتبون ولذلك سموا بالمستعربين . وقد عاشت إلى جانب هؤلاء المستعربين النصارى جاليات من اليهود وجدت أيضا

(٨) انظر : عنان : دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول
ص ٦٠ - ٦٥ .

د . محمد زيتون : المسلمون في المغرب والأندلس ص ١٨٧ - ١٩٠ .

من المسلمين الكثير من ضروب التسامح وحسن المعاملة بعد أن وجدت في فتحهم لإسبانيا خلاصا لها من الجور والاضطهاد الذي كانت ترزح تحته أثناء حكم القسوط (٩) .

وبالرغم من هذا التسامح التام الذي أبداه المسلمون تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى ، إلا أن فريقا من الإسبان المتعصبين كانوا ينظرون إلى المسلمين على أنهم غزاة مفتصبون ، وكان هؤلاء الغلاة يتهمون إخوانهم من النصارى المعتدلين الذين ارتضوا حكم المسلمين بالمروق والخيانة للدين والوطن .

وكان رجال الكنيسة منهم هم مبعث هذا التعصب ودعايته ، يبذرون بذور الشقاق ويوقدون نيران الفتنة ، ويوغرون صدور المتطرفين والغلاة باسم المسيحية والحفاظ عليها ، وكانوا يفضون المسلمين ، ويناصرون المسيحيين الذين يقاومون المسلمين من خلال حركة الاسترداد أو الاستعادة لطرد المسالمين من إسبانيا (١٠) .

وكان تظفل حركة الاستعراب عند إخوانهم من النصارى قد أحدث رد فعل قوى لديهم فأخذوا يبذون أسفهم الشديد وتحسرهم لذلك . وحاولوا عبثا وقف هذه الحركة دون جدوى ، فلم يجدوا أمامهم سبيلا إلا الطعن في الإسلام والسخرية من المسلمين ونبيههم معتمدين

(٩) انظر د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٢٩ - ٣٠ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٧٥ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ١٣٣ .
(١٠) عن هذه الحركة راجع : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٦٨ وبعدها . عنان : دولة الإسلام في الأندلس (العصر الأول) ص ٢٠٦ وبعدها ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧١ وبعدها ، عادل بشتاوي : الأندلسيون المواركة ص ٣٨ وبعدها .

على طائفة من الخرافات والباطيل التي يروجها رجال الكنيسة .
ولم تكن العوامل الدينية هي وحدها مبعث ذلك التعصب ، بل
كان للعوامل الاجتماعية أيضا دور في ذلك حيث أن هؤلاء كان يثير
تلويهم ما يحيط بالحكم الإسلامي في الأندلس من مظاهر العز والسؤدد ،
وما يظهر به الحكام المسلمون من مظاهر الفخامة والعظمة ، وما ينعم
به المجتمع الأندلسي من حياة رغدة آمنة مستقرة (١١) .

وكان يذكى هذا الحقد في نفوسهم ما يتعرضون له - نتيجة
لتعصبهم - من معاملة خشنه وخاصة من العامة . وبلغ هذا التعصب
مداه في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط الذي بدأت حضارة الأندلس
في عهده في التآلق ، وأصبحت الأندلس في عداد الدول العظمى
في العالم الإسلامي والمسيحي على السواء (١٢) .

وكان في وسع هؤلاء المتعصبين في طليطلة وغيرها من المدن
البعيدة عن العاصمة (قرطبة) أن يرفعوا علم الثورة أو ينضموا
إلى الثورات التي تقوم ضد الأمويين ، ولكنهم في قرطبة قاموا بحركة
دينية خطيرة سنة ٢٣٧ هـ حيث عمدوا إلى تحقيق أهدافهم بوسيلة
بسيطة وخطيرة في نفس الوقت وهي المجاهرة بسبب الإسلام ونبيه
في الطرقات والأماكن العامة وهم يعلمون أن المسلمين لن يسكتوا على
ذلك ، وأن تلك جريمة شنعاء تعرض مرتكبيها لعقوبة القتل ، غير
أنهم انزلقوا في هذا المنحدر عامدين حتى يكونوا شهداء وقديسين
فيؤدى ذلك إلى ازدياد نيران الفتنة (١٣) .

(١١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ص ٢٥٩ .

(١٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس
ص ٢٢٩ - ٢٤١ .

(١٣) يذكر أن هذه الفتنة التي سميت بحركة الاستشهاد بدأت بحوار
دار بين قسيس من قرطبة يدعى برفكتوس مع بعض المسلمين
حول فضائل محمد وعيسى ، وحميت المناقشة فتحولت إلى جدال

وكان يتزعم هذه الحركة قسيس متعصب متهور من قرطبة يدعى يولوخويس أو (أيروج) أخذ يسب الإسلام ويهاجم الأسبان الذين اعتنقوه ، ويحب لاتباعه الاستشهاد فى سبيل نصره المسيحية ضد الإسلام ، وكان يساعده فى ذلك شاب مسيحى من أغنياء قرطبة يدعى (الفارو) أخذ ينتقد الأسبان الذين يتعلمون اللغة العربية وأدابها ويتركون اللاتينية وشروحها . وكان يساعدهما قسيس آخر يدعى (برفكتوس) ، وفتاة أسبانية تدعى (فلورا) كانت قد أسلمت ثم ارتدت . وأدرك الأمير عبد الرحمن دقة الموقف وخطورته ورأى معالجته بالحزم والسياسة معا ، فاستدعى مجلسا من الأساقفة عقد فى قرطبة برئاسة (ريكفارد) مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فى هذا المجلس كاتبه النصرانى جوميز ابن أنطونيان بن جوليان عامل أهل الأندلس (١٤) وتم فى هذا المجلس استعراض الموقف وما يمكن أن يترتب على أعمال هؤلاء الفلاة من عواقب خطيرة ، وأصدر المجلس قرارا ينتقد فيه مسلك هؤلاء المتطرفين ، ويحذر باقى النصارى من الانضمام إليهم ، والتهديد باعتقال كل مخالف لذلك .

غير أن ذلك القرار لم يؤد إلى نتيجة حاسمة ، فقد تمادى هؤلاء فى غيهم واعتقل الكثير منهم وزج بهم فى السجون ، وقدموا للمحاكمة فأخذوا يطلقون السنتهم بالسب والقذف فى الإسلام ونبيه ،

عنيف أدى إلى طعن هذا القسيس فى الإسلام ورسوله فقبض عليه وأعدم مما أدى ببعض رجال الكنيسة المتعصبين إلى استئلال ذلك وعلى رأسهم يولوخويس للقيام بدعواتهم ضد الإسلام (د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٥) .

(١٤) يسميه ابن القوطية قومس بن أنتنيان بن يوانه وقد اعتنق الإسلام فيها بعد وسمى بحمامة المسجد (انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٣) .

وحاول القضاة إقناعهم بخطئهم ومدى خطورته ولكن ذلك لم يجد نفعا ، عند ذلك أخذوا يحكمون عليهم بالقتل جزاء ما يصنعون ، وكان الأخبار يكرمون رفات هؤلاء القتلى ويطلقون عليهم صفة الشهداء مما زاد هذه الحركة ضراما ، ورأى قضاة المسلمين خطر هذه الحركة فأرأوا عدم مقابلتها بالعنف حتى لا تزداد اشتعالا فأخذوا فى مراجعة هؤلاء المنحرفين والحكم عليهم بالسجن بدلا من القتل ولكنهم كانوا يطالبون بالموت حتى يلحقوا بإخوانهم الشهداء ، حتى أن القاضى الذى حاكم فلورا عندما حكم عليها بالسجن أخذت تطالبه بالحكم عليها بالإعدام وتمادت فى السب والتذف أمامه حتى حكم عليها بالموت ، وظلت هذه الفتنة مستمرة وحكم على نحو أحد عشر متعصبا فى شهرين (١٥) . واعتقل يولوخيوس وغيره من زعماء الحركة ، ورغم ذلك استمرت الفتنة ، ولما توفى الأمير عبد الرحمن أفرج عنه وعين اسقنا لمدينة طليطلة حتى يكف عن إشعال نيران هذه الفتنة فهذأت قليلا ، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصل فتنته رغم ذلك وعند ذلك قبض عليه وأعدم فى مارس سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م بأمر من الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن ، وبقتله أخذت الفتنة تضعف شيئا فشيئا حتى زالت ، وهكذا انتهت هذه الفتنة الخطيرة التى استمرت ما يقرب من ثمانى سنوات ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م - ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ولم تحقق شيئا من أهدافها بل على العكس أدت إلى مقتل نحو أربعة وأربعين من المتعصبين ، وإلى إثارة السخط والاستنكار من جانب النصارى المعتدلين الذين كانوا يقدرون تسامح المسلمين (١٦) .

- (١٥) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٥٠ - ٥١
عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ٢٥٨ - ٢٦١ .
(١٦) د. محمد زيتون : المسلمون فى المغرب والأندلس ص ٢٩٧ ،
د. أحمد شلبى : المرجع السابق ج ٤ ص ٥١ د. السيد سالم :
تاريخ المسلمين ص ٢٤٢ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس
ص ٢٦١ .

الفصل الثالث

للحالة الدينية



من الطبيعي أن يكون التدين ، والعناية بشعائر الدين أمرا واضحا ،
«وسمة مميزة في بلد شغل بالحروب طويلا ، واتقدت فيه روح الجهاد
والمرابطة كالاندلس . وقد كان لجاورة المسلمين للنصارى في اسبانيا
وأوربا أثر بالغ في ازدياد هذا الشعور(١) .

ولذلك فقد اتصف أهل الأندلس عامة بالتدين والمحافظة على شعائر
الدين إلا القليلين ، وكانوا يجلبون رجال الدين ويقدرتهم وخاصة الفتهاء
ومن هنا كان لثب فقيه عندهم من أرفع الألقاب ، وكانوا إذا ما أرادوا
تكريم عالم أو أمير عظيم اطلقوا عليه هذا اللقب .

كما كانوا يقيمون الحدود الشرعية ، وينكرون التهاون في تعطيلها
إذا راوا في ذلك تهاونا من قبل السلطان كما ذكر ابن سعيد المغربي(٢) .
وعندما دخل المسلمون الأندلس اظهروا حماسة بالغة في نصرة
الإسلام ونشره ، وخاضوا من أجل ذلك معارك شتى ، وحروبا تكاد تكون
متصلة ضد الأعداء بحيث يمكن القول : إن حياة المسلمين في الأندلس
كانت في مجموعها أو مجملها عبارة عن حروب ومعارك بينهم وبين بعضهم
من ناحية بفعل العصبية والتنافس على الملك والرئاسة ، وبينهم وبين
النصارى من ناحية أخرى . ويلاحظ بعض المؤرخين الإسبان

(١) يقول القزويني : « ومن عجائب الدنيا الملكة الإسلامية
بالأندلس مع إحاطة الفرنج بها من جميع الجوانب » عجائب المخلوقات
ص ٣٨٨ .

وهي أعجوبة حقا بذل المسلمون في سبيل تكوينها الكثير ،
ومكثوا في صراع لا يكاد يهدأ حتى يبدأ من جديد لمدة ثمانية قرون ،
واستطاعوا في خلال فترات الهدوء والاستقرار القليلة إقامة
تلك الحضارة الباذخة .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

تاريخ المسلمين في الأندلس مع الأسبان وحلفائهم من النصارى بأنها معركة القرون الثمانية (Labatalle de Ocho) . ولذلك فإن الحروب المتتالية للمسلمين مع الأسبان وحلفائهم من الأوربيين كانت تبعث في نفوسهم الحمية والحماسة الدينية فيما عدا فترات قليلة تعاون فيها بعض الطامعين في الملك والرئاسة - وخاصة في عصر ملوك الطوائف - مع هؤلاء الأعداء ، خاصة وأنهم أدركوا أن بقاءهم وبقاء دولتهم في الأندلس رهين ببقاء الإسلام والالتزام بصرته ، فيذكر المقرئ عن إبراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرقيق « أن أهل الأندلس أصحاب جهاد متصل » (٢) .

أولا - المذاهب الفقهية

وإذا كان المسلمون قد شهدوا في المشرق نشأة الفرق والأحزاب السياسية والدينية التي أدت إلى مزيد من الصراع والتشتت والانقسام الفكرى والدينى والسياسى ، فإنهم لم يشهدوا مثل ذلك الصراع فى الأندلس ، حيث كانت مذاهب أهل السنة هى المعمول بها فى الأندلس . فقد كان مذهب الإمام الأوزاعى إمام أهل الشام (١٥٧ هـ / ٧٤٤ م) هو المذهب المعمول به فى بداية الأمر ، ثم بدأ مذهب الإمام مالك فى دخول الأندلس منذ عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن الملقب بالرضا (١٧٢ هـ - ٧٨٨ م - ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م) (٣) .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ٧١ .

(٣) يذهب ليفى بروفنسال إلى أن مذهب مالك دخل الأندلس قرب نهاية حكم الأمير هشام الأول أو فى السنوات الأولى من حكم ابنه الحكم (الحضارة العربية ص ١٥٨) . وقد ذهب د. حسن إبراهيم حسن وكذلك د. حسن على حسن : إلى أن مذهب مالك لم ينتشر

يقول ابن الفرضى فى ترجمة زهير بن مالك البلوى : « كان فقيها على مذهب الأوزاعى على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بنى أمية » (٤) .

وكان تلميذ الإمام الأوزاعى فى الأندلس ، والذي يرجع إليه الفضل فى نشر مذهبه الفقيه صعصعة بن سلام الشامى (قاضى قرطبة وصاحب الصلاة فيها ت ١٩٢ هـ) (٥) .

وقد ذهب الكثيرون إلى أن مذهب الإمام مالك قد بدأ فى الانتشار فى الأندلس فى عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وأن أول من أدخله زياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشيطنون (ت ١٩٣ هـ) . وكان قد رحل إلى المدينة بعد عام واحد من إمارة هشام ، وتلميذ على يد الإمام مالك الذى كان معاصرا لهشام وكان يثنى عليه وعلى حسن سيرته ، ثم أصبح المذهب العام والسائد والرسمى منذ عهد الحكم ابن هشام ولذلك يذكر ابن سعيد « أنه لا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب ما يتباحثون به » (٦) .

إلا فى عهد الحكم بن هشام (أنظر الحياة الدينية فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى ص ١٠٧ ، تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٣) . والحقيقة أن معظم المصادر تتفق على أن هذا المذهب قد بدأ فى الانتشار فى عهد هشام ، وأصبح المذهب الرسمى فى عهد الحكم .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ص ١٥٣ . الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦ م القاهرة .

(٥) فتح الطيب ج ١ ص ١٠٣ ، تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٥٤ - ١٥٥ ، ليفى بروفنسلال : الحضارة العربية ص ٥٩ ، ١٥٨ .

(٦) وقد ذكر البعض : أن الغازى بن قيس (ت ١٩٩ هـ) هو أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس فى أيام عبد الرحمن الداخل ، وكان مؤدبا بقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وشهد تأليف مالك للموطأ ، وأدرك نافع بن أبى نعيم القارىء ، وأخذ عن الأوزاعى ، ويقال ، إن عبد الرحمن عرض عليه القضاء فأبى واشتغل بالفقه والفتوى

وتختلف الروايات فى سبب تحول الأندلسيين عن مذهب الإمام الأوزاعى إلى مذهب الإمام مالك . فمن قائل : إن العلماء والفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق قابلوا الإمام مالك فى المدينة فأعجبوا بشخصه وفتحه المعتمد على الكتاب والسنة ، والذى يميل إلى الناحية العالية - فهو يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين ويتشقق مع مصالح جمهورهم فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض من أوامره ونواهيه - وقد أخذت المذاهب الأخرى من هذه القاعدة بأطراف ولكن الإمام مالك يعمم ذلك ، ويجعله قاعدة ولم يكن يلجأ إلى الراى إلا فى حالات الضرورة القصوى (٧) .

ومن قائل : إن الإمام مالك سأل بعض الحجاج الأندلسيين عن أميرهم هشام فاثنوا عليه خيرا - وكان تقيا ورعا مجاهدا - فقال مالك - وكان فى نفسه من بنى العباس شيىء - : لبيت الله أن يزين موسنا بمثله ، أو لبيت الله أن يزين حرمانا بملككم .

فلما سمع هشام هذا سمح لتلاميذه من أمثال الفازى بن قيس ، وزباد ابن عبد الرحمن (شبطون) ويحيى بن يحيى الليثى ، وعيسى بن دينار ، وسعيد بن أبى هند ، وقرعوس بن العباس بتدريس مذهبهم ونشره ، وأمر القضاة بالعهل به . ومن هنا أخذ مذهب مالك فى الانتشار حتى غدا المذهب الرسمى فى الأندلس (٨) .

(أنظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٤ ، تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ج ٢ ص ١٧٧) .

(٧) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٧٤ .

(٨) أنظر د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ - ٢٧٠ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم والأندلس ص ٢١٨ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٤ - ٥٥ . ويذهب د. الشكعة : إلى

ويذكر المقرئ سبب دخول مذهب مالك إلى الأندلس فيقول :
« ذهب الجمهور إلى أن السبب في ذلك هو رحلة علماء الأندلس إلى
المدينة ، وعند رجوعهم أفاضوا في الحديث عن فضل مالك ، وسعة
علمه ، وجلال قدره ، ومن هنا أقبِلوا على مذهبه ، على أن هناك
رأيا يذهب إلى أن مالكا سأل بعض الأندلسيين عن سيرة أميرهم فسره
ما سمع من حسن سيرته وعدله في حكمه » وقد كان مالك يكره سلوك
بني العباس وخاصة المنصور ، وذلك لما فعله بالعماليق في ثورة
النفوس الزكية ، ومن هنا تمنى أن يهب الله المشرق خليفة عادلا ، وبلغت
أمنيته الحُكم بن هشام فحمل الناس على اتباع مذهبه وترك مذهب
الأوزاعي (٩) .

كما نقل المقرئ عن ابن حزم رأيه في ذلك حيث يقول (ابن حزم) :
« مذهبنا انتشرا في بدء أمرها بالرياسة والسلطان مذهب أبي حنيفة
في المشرق ، ومذهب مالك عندنا بالأندلس فإن يحيى بن يحيى كان مكيئا
عند السلطان مقبول القول في القضاء ، وكان لا يلي قاضي في أقطار الأندلس
إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس

ان الحكم بن هشام هو الذي نشر مذهب مالك بن جهمرة الناس ،
وخلط بين هشام وبين ابنه حين قال « تسمع الحكم ثناء مالك
عليه » . وقد اتفقت غالبية المصادر على أن هشام هو الذي
أثنى عليه الإمام مالك (انظر الأدب الأندلسي ص ٧٤) .
(٩) فتح الطيب ج ١ ص ٣٢٨ المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٢ هـ .

ويمكن دمج الرأيين في رأي واحد فنقول : إن مالكا سأل
بعض علماء الأندلس الذين التقوا به وتلمذوا على يديه وأسوا
جلال قدره وسعة وعلمه عن أميرهم فأثنوا عليه خيرا
مما جعله يثنى عليه فتبنى ما تمنى مما كان سببا في إقبال الناس
في الأندلس على علمه ومذهبه وقام هؤلاء التلاميذ بدور
أساسي في ذلك .

سراع إلى الدنيا فأقبلوا على ما يرجون به أغراضهم (١٠). ولكننا لا نوافق ابن حزم على أن السبب في إقبال الناس في الأندلس على مذهب مالك هو طمعهم في الدنيا ، والحق أن مذهب مالك مذهب واقعي أو عملي يرى أن كل ما هو نافع للمسلمين وفي صالح جمهورهم يعد من الإسلام ما لم يتناقض مع مبادئه وأحكامه أو أوامره ونواهيه ، هذا فضلا عن أنه مذهب أهل المدينة مستقر رسول الله ﷺ ومثواه والتي عاش فيها كثير من صحابته ، وتهوى إليها النفوس .

ويضيف ابن خلدون سببا آخر على طريفته في فلسفة أحداث التاريخ فيذكر أن البداوة كانت هي الغالبة على أهل المغرب والأندلس وأنهم لم تكن لهم حضارة أهل العراق ، فكانوا إلى مذهب أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة (١١) . ونضيف إلى ما قاله ابن خلدون أن مذهب مالك يعتمد على النصوص أكثر مما يعتمد على العقل والقياس ، وهذا أيضا مما يناسب البداوة . ويعد أكثر ملامحة لعقيدة الأندلسيين .

ويفسر الأستاذ العبادي انتشار مذهب مالك بعوامل سياسية فيذكر أن النفور كان شديداً، والخصومة مستحكمة بين الأمويين والعباسيين حيث كان العباسيون على المذهب الحنفي لأن مالكاً لم يكن يستريح لسياسة العباسيين (١٢) .

وبالإضافة إلى هذه الأسباب فإننا نستطيع أن نضيف سببا آخر له أهميته وهو أن الأندلس لم تكن بمنأى عن التيارات المذهبية في المغرب الذي لا يفصلها عنها إلا مضيق صغير ، وكان المذهب المالكي قد انتشر في بلاد المغرب على يد سحنون وأسد بن الفرات اللذين

(١٠) نفع الطيب ج ٢ ص ٢١٨ .

(١١) المقدمة ص ٤٢٥ المطبعة الأميرية سنة ١٣٢٠ هـ .

(١٢) المجمل في تاريخ الأندلس ص ٨٩ .

ادخله إليها وعملاً على نشره مع طائفة من الفقهاء (١٣) .
ومن هنا امتد هذا المذهب إلى الأندلس حيث كان كثير من البربر
الذين شاركوا في فتحها على المذهب المالكي الذي غدا بمثابة الهوية
والقومية بالنسبة للسكان في المغرب والأندلس (١٤) .

وقد كان شبيبون أول من أدخل الموطأ كاملاً إلى الأندلس
على رأي الكثيرين وأخذ عنه يحيى بن يحيى الليثي المصمودي ، الذي
أشار عليه زياد بالرحيل إلى المدينة للالتزم على يد الإمام مالك فلازمه
مدة وسمع عنه الموطأ ، ثم رحل إلى مكة فسمع من سفيان بن عيينة ،
كما سمع بمصر عن فقيهها الليث بن سعد وعبد الرحمن بن القاسم
العتقي ، ولما عاد إلى الأندلس عمل هو الآخر على نشر مذهب مالك ،
وتولى الرئاسة في الفقه والقضاء وأصبح إمام عصره ، وغدا له
منزلة سامية ومكانة عظيمة في عهد هشام الذي قرب الفقهاء حتى
سمى عصره بعصر نفوذ الفقهاء (١٥) .

وكذلك غدا له منزلة كبيرة في عهد حفيده عبد الرحمن الأوسط
وبلغ من نفوذ يحيى أنه كان لا يولى أحداً في القضاء إلا بمشورته .

-
- (١٣) د. مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦٩ . وسخون هو
عبد السلام بن سعيد ، وكان من أشهر فقهاء المالكية بالمغرب ،
وعليه تتلمذ الكثيرون من فقهاء الأندلس . فيذكر أنه كان بكورة
إلبيرة سبعة سمعوا كلهم منه في زمن واحد وأصبحوا يدورون
حول كتابه المدونة الذي جمعه من آراء عبد الرحمن بن القاسم
العتقي تلميذ مالك وفقهه المالكية بمصر حتى وفاته سنة ١٩١ هـ .
(انظر : الذخيرة ق ١ ج ١ ص ١٤٠ - ١٤١ ، ابن حبان
المقتبس ص ٣٠٣ تحقق د. محمود ككي) .
د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة
ص ٢٤ ، ص ٢٥ . الحياة الدينية في المغرب ص ١٠٣ .
(١٤) د. حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب ص ١٠٧-١٠٨ .
(١٥) د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٤٤ .

وقد أصبح المذهب المالكي في الواقع هو المذهب الوحيد
المعترف به رسميا في الأندلس وأقام الغالبية العظمى من فقهاءه أنفسهم
حراسا له وتحمسوا له تحمسا شديدا وصل بالكثير منهم إلى درجة
التعصب له ، وانتهى بهم إلى التقليد والجهود .

وقد وصل التعصب ببعض لدرجة أنه إذا تناظر فقيهان
في قضية أو مسألة وقال أحدهما : قال رسول الله رد الآخر قائلا :
وقال مالك وهذا من الجهل المؤدى إلى العصبية لأن مالكا ما استقى
إلا من الرسول ﷺ .

كما وصل التحمس لدرجة أن بعضهم ألف كتابا في مناصرة هذا
المذهب على غيره مثل عبد الوهاب بن نصر البغدادي الذي ألف كتابا
في مائة جزء كما يذكر المقرئ عن (الوادى آشى) سماه (النصر لذهب
إمام الهجرة) ويذكر أن الكتاب وقع في يد أحد قضاة الشافعية بمصر
فالتقى به في النيل لما فيه من عصبية شديدة (١٦) .

ظل الأندلسيون في الأعم الأغلب على هذا المذهب وتحمسوا له
وتعصب بعضهم له تعصبا شديدا ، ولذلك لم تعد الأندلس تسمع غير
صوت هذا المذهب بفضل التأثير الذي مارسه فقهاؤه ، ولكن كان هناك
أناس اعتنقوا مذاهب أخرى غير أن صوتها كان خافتا ، وكان هناك أمراء
عرفوا كيف يتحررون من نفوذ الفقهاء المالكية كالحكم الربضى ،
ويسمحون بل ويشجعون دخول تيارات فكرية ومذهبية جديدة ما دامت
لا تمس سلامة العقيدة ولا تهدد نظام الحكم مثل الأمير محمد الأول
(٢٣٨ هـ - ٢٧٣ هـ) والحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ولكن الفكر المناصر
للمذهب المالكي حاول التقليل - إن أم يكن القضاء - على هذه التيارات

(١٦) أنظر المقرئ ج ٣ ص ٢٧٥ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي
ص ٧٤ ، ليفي بروميسال : الحضارة العربية ص ١٥٤ .

الوافدة ، وإهمال شأنها ، وقصر النشاط الدينى فى مجالات الفقه والتشريع على هذا المذهب وحده (١٧) .

وقد كانت سيادة مذهب مالك مما قلل من المذاهب الأخرى المخالفة لاهل السنة عموما ، وجعل الأندلسيين من عامة وعلماء يصدرن فى الغالب عن رأى واحد وعاطفة واحدة (١٨) .

غير أن سيادة هذا المذهب لم تلغ وجود مذاهب أخرى سواء اكانت مذاهب فقهية كالمذهب الشافعى والمذهب الحنفى والمذهب الظاهرى ، أو مذاهب دينية كالخوارج والشيعة والمعتزلة .

موقف فقهاء المذهب المالكى من المذاهب الأخرى :

تعصب فقهاء المالكية لمذهب مالك تعصبا شديدا ، وتحمسوا له تحمسا بالغا ، ولذلك وقفوا ضد انتشار المذاهب الأخرى سواء اكانت مذاهب فقهية أو دينية . فقد كان الإمام مالك عندهم هو صاحب الكلمة العليا والأخيرة فيما يتصل بالفقه والعقيدة وعلم الكلام .

ودليل ذلك موقفهم من بقى بن مخلد الذى أدخل مصنف ابن أبى شيبة كاملا ، كما أدخل كتاب الفقه الكبير للشافعى ، كما أدخل أيضا كتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات ، وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى ، وصنف تفسير القرآن ومسند النبى ﷺ ليس لأحد قبله كما قيل . واحتفظ بلون من الاستقلال الفكرى فلم يكن يتبع مذهبنا معينا وإنما يصدر فتاواه تبعاً لاجتهاده الشخصى معتمدا على القرآن

(١٧) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٥٤ .

(١٨) ابن الأحمر : نثير فرائد الجمان ص ٤٥ تحقيق د. رضوان الداية

دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .

(م ١٠ - المجتمع الأندلسى)

والسنة (١٩) وهو شيعى لم يكن لفقهاء المالكية أن يتركوه عليه .
ولكنهم لم يستطيعوا مهاجمته مباشرة وانتهزوا فرصة تدريسه
لمسند ابن أبى شيبة الذى يعرض آراء مالك وآراء الفقهاء الآخرين
فهاجموه .

وقد واجه بقى معارضة عنيفة من فقهاء المالكية وعلى رأسهم
ابن مرتينيل (٢٠) ، وأصبح بن خليل الذى ينسب إليه انه قال « لأن يكون
فى تابوتى رأس خنزير أحب إلى من أن يكون فيه مسند
ابن أبى شيبة » (٢١) ، ومحمد بن حارث (٢٢) . وقد أخذ هؤلاء الثلاثة
وغيرهم من المالكية فى إثارة العامة ضد بقى واقترح بعضهم إصدار فتوى
بإباحة دمه وقرر بقى الرحيل فرارا بنفسه ، وبلغ الأمر محمدا ما يحدث
فاستدعاه وجميع الفقهاء وعقدت مناظرة دافع فيها بقى عن آرائه بقوة فطلب
منه مسند ابن أبى شيبة ليطلع عليه ، ثم قال لخازن كتبه : هذا الكتاب
لا تستغنى عنه خزائنا فأنظر فى نسخة لنا ، وقال لبقى فى صراحة :
أنشر عهك وارو ما عندك . ونهاهم عن أن يتعرضوا له (٢٣) .

وإذا كان هذا مثل واحد يبين لنا كيف كان موقف فقهاء المالكية
من المذاهب الفقهية ، فما بالناس بموقفهم من المذاهب الدينية والكلامية
مثل مذهب المعتزلة والشيعة والخوارج ، لا شك أن الموقف كان أشد
ويدننا على ذلك قول المقدسى (وهم يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ
مالك فإن ظهروا على شافعى أو حنفى نسوه ، وإن عثروا على معتزلى
أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه) (٢٤) .

-
- (١٩) ابن الفرضى تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٨٣ .
(٢٠) أنظر ترجمته فى ابن الفرضى المرجع السابق رقم ٢٤٥ .
(٢١) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٦٢٢ .
(٢٢) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ١١٠٧ .
(٢٣) ابن الفرضى نفس المرجع رقم ٢٨١ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٢ .
(٢٤) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ .

ويكتفى أيضا لفهم ما صنع المالكية بالتعليم فى الأندلس حيث قصروه فى الغالب على دراسة المذهب المالكى وعادوا ما سواه ولكن كانت هناك أوقات يستطيع فيها أصحاب المذاهب الأخرى تدريس مذاهبهم ولكن على استحياء أو فى خفاء غالباً . ومن ثم فقد فشلت هذه المذاهب فى أن تجد لها أتباعا كثيرين مثل المذهب المالكى (٢٥) .

ومع مجيء المنصور بن أبى عامر اشتدت قبضة الفقهاء المالكية حيث كان فى حاجة إلى التأييد من جراء استبداده بالسلطة فقربهم إليه وأمر بحرق كتب الفلسفة ، وأطلق لهم العنان فى محاسبة الكثيرين على عقائدهم فاتهم الكثيرون بالزندقة (٢٦) ، ولذلك أخذت حرية العلماء تقيد فى إلقاء دروسهم . ويبدو أن المنصور قد قام بذلك سياسة حيث يقال إنه كان محبا للفلسفة فى قرارة نفسه (٢٧) .

كما واجه ابن حزم الظاهرى نفس الموقف فأحرقته كتبه فى ميادين إشبيلية (٢٨) .

وفى بعض الأحيان كانت تخف حدة المواجهة للمخالفين فى المذهب نظرا للحاجة إلى توحيد الصف ضد العدو المسيحى المترص بالمسلمين على اختلاف نزعاتهم ومشاربهم . وربما كان لهذا الاعتبار اثره فى عدم انتشار المذاهب المخالفة للمذهب المالكى فى الأندلس كثيرا .

(٢٥) ريبيرا ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ٢٥ - ٢٦ ترجمة د. الطاهر مكي . دار المعارف سنة ١٩٨١ .

(٢٦) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٦٧ ط بولاق .

(٢٧) نفع الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، ريبيرا : التربية الإسلامية ص ٢٦ - ٢٧

(٢٨) انظر : الطاهر مكي : دراسات عن ابن حزم ط ٢ مكتبة وهبة

المذهب الشافعى

بالرغم من سيادة المذهب المالكي بالاندلس إلا أن المذهب الشافعى وجد له طريقا إلى هذه البلاد منذ حكم الأمير محمد الأول (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) الذى كان أول أمير أموى يتسامح ويشجع دخول المذاهب الأخرى ، لما رآه وليس له من قوة نفوذ الفقهاء المالكية ، ورغبته فى الحد من نفوذهم كما حاول الحكم الرضى ذلك من قبل ، وأيضا توسيع آفاق الحياة الفقهية بحيث لا تقتصر على مذهب واحد . وذلك بالرغم من تحذيرات الفقهاء المالكية له (١) .

وكان قاسم بن محمد بن سيار القرطبى أول دعامة المذهب الشافعى فى العاصمة الأندلسية ، حيث كان قد تفقه فى المشرق على هذا المذهب وارتبط به ولما عاد إلى الأندلس دعا إلى ترك التقليد ، والأخذ بالحجة والنظر والاستنباط والاعتماد على الاجماع والتقياس ، وأخذ يدرس هذا المذهب فى قرطبة تحت رعاية الأمير محمد ، الذى منحه الحماية فى مواجهة دعامة التقليد من فقهاء المالكية بخاصة ، وعهد إليه بتحرير وثائقه وشروطه ، وظل فى هذا المنصب حتى توفى سنة ٢٧٦ هـ / ٨٩٠ م .

-
- (١) ليفى بروفتسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٤ .
(٢) قاسم بن محمد بن سيار : هو مولى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك قال عنه ابن الفرضى : « كان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ، ومال إلى مذهب الشافعى . يذكر أن أباه أوصاه بالأخذ برأى الشافعى ، ولم يكن مثله فى حسن النظر والبصر والحجة قال عنه أحمد بن خالد ومحمد بن عمر بن لبابة (ما رأينا أفقه من قاسم ابن محمد ممن دخل الأندلس من أهل البرجل) وذكر أنه توفى سنة ٢٧٧ ، ٢٧٨ هـ (تاريخ علماء الأندلس ص ٣٥٥ - ٣٥٦ ترجمة رقم ١٠٤٩ .

وقد تأكد هذا التشجيع من الأمير محمد عندما شمل برعايته فقيها آخر هو أبو عبد الرحمن بقى بن مخد القرطبي صاحب التفسير الذى أشاد به ابن حزم وقال عنه :

« الكتاب الذى أقطع قطعا لا أستثنى فيه ، أنه لا يوجد فى الإسلام تفسير مثله لا تفسير محمد بن جرير الطبرى ولا غيره » (٣) .

وقد قام بمحاولات لإدخال المذهب الشافعى إلى الأندلس إلا أنها لم تؤد إلى نتائج هامة فى سبيل نشر هذا المذهب (٤) .

وكان قد رحل إلى المشرق فى طلب العلم ، وسمع من عدد من الأعلام فى مكة والمدينة ومصر ودمشق وبغداد ، واختلف إلى علماء المالكية والشافعية ، كما سمع من الإمام أحمد وروى عنه وعن ابن أبى شيبة ، كما سمع بإفريقية عن سحنون وغيره ولم يتبع مذهبا معينا ، وإنما كان يصدر فيها يعرض له من قضايا بحسب ما يترأى له من اجتهاد معتادا على الكتاب والسنة ، وأخذ يدرس الحديث فى قرطبة ويقرا مسند ابن أبى شيبة ، وأصبح له تلاميذ ساروا على نهجه من أبرزهم محمد ابن وضاح (٥) ، وقد صنف فى الحديث كتابا رتب على أسماء الصحابة روى فيه عن الف وثلاثمائة صحابى وعلى أبواب الفقه المختلفة فهو مصنف ومسنن قال عنه ابن حزم « وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته

(٣) انظر ترجمته فى البغية ص ٢٤٥ وبعدها (٥٨٤) ، الجذوة ص ١٧٧ وبعدها (٣٣١) ، تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩١ وبعدها (٢٨٣) .

(٤) بروغنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٦٠ .

(٥) هو محمد بن وضاح بن بزيع مولى عبد الرحمن الداخل ، كان من الرواه الكثيرين طوف بالشرق فى طلب العلم ، وسمع من كثيرين منهم سحنون بن سعيد التنوخى بإفريقية وحي بن يحيى الليثى بالأندلس ، وأخذ يحدث بالأندلس مدة طويلة وروى عنه كثيرون ونشر عنها كثيرا وتوفى سنة ٢٨٦هـ (بغية المئتمس ص ١٣٣ - ١٣٤

ترجمة رقم ٢٩١) .

وضبطه وإتقانه وإحتفاله فيه بالحديث وجودة شيوخه « (٦) .

وقد ملا الأندلس حديثا ورواية ، وقد ثار عليه فقهاء المالكية لأن مسند ابن أبي شيبة الذى كان يقرأه لم يكن يعرض وجهة نظر أهل المدينة فقط ، وإنما كان يعرض آراء خصومهم أيضا مما جعلهم يثيرون عليه العسامة ويفرون به الأمير محمد ، وينكرون عليه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث مما جعل الأمير يتحدث إلى وزيره هشام ابن عبد العزيز فى هذا الأمر ويدعوه إلى أن يضع له حدا ، فأحضره وخصومه من المالكية أمام الأمير الذى تصفح الكتاب ثم قال لخازن كتبه « هذا الكتاب لا تستغنى خزانتنا عنه فانظر فى نسخه لنا » ثم قال لبقى انشر علمك واروا ما عندك ، ونهاهم أن يتعرضوا له .

فأخذ فى نشر حديثه وقراءة روايته وانتشر الحديث من يومئذ بالأندلس ثم تلاه تلميذه ابن وضاح « فصارت الأندلس دار حديث وإسناد وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه » كما يقول ابن القرضى .

وكان مما انفرد به بقى أنه أدخل مصنف أبى بكر بن أبى شيبة كاملا ، وكتاب الفقه للشافعى وكتاب التاريخ لخليفة بن خياط وكتابه فى الطبقات وكتاب سيرة عمر بن عبد العزيز للدروقى . وقد اعتبره بعض المؤرخين شافعى المذهب على حين اعتبره البعض الآخر مستقلا عن أى مذهب فقهى (٧) .

وقد عرفت الأندلس بعد ذلك عددا من فقهاء الشافعية الذين تولوا تدريس المذهب ونشره فيها وخاصة فى عهد الحكم الثانى (المستنصر)

(٦) بغية المتتمس ص ٢٤٥ .

(٧) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٩٢ ، بغية المتتمس ص ٢٤٦ .

بعد أن كانوا في عهد أبيه الناصر قد التزموا جانب الظل فيما يبدو ، حيث لم يعد صوتهم قويا كما كان في عهد الأمير محمد ، بينما عاد صوت المالكية قويا ، واشتدت قبضتهم على مقاليد الحياة الدينية والثقافية من جديد في حماية المنصور بن أبي عامر (٨) .

وقد كان الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الناصر أحد الدعاة النشطين للمذهب الشافعي فيقول عنه الحميدى « كان فقيها شاعريا شاعرا اخباريا متنسكا » (٩) . وقد اتهم بالاشتراك في مؤامرة ضد والده فكان مصيره القتل سنة ٣٣٨هـ / ٩٥٠م .

وكان من أتباع المذهب الشافعي أيضا أبو الجعد أسلم ابن عبد العزيز بن هاشم القرطبي الذي تتلمذ على يد بقى بن مخلد ، ورحل للمشرق سنة ٢٦٠هـ ، ولقى بمصر عددا من أصحاب الشافعي ومنهم محمد ابن عبد الحكم ويونس بن عبد الأعلى وغيرهم . وقد ولي قضاء الجماعة مرتين في عهد الناصر ، وبالرغم من أنه كان يميل للمذهب الشافعي إلا أنه كان يقضى طبقا للمذهب المالكي لأنه المذهب الرسمي للدولة ، وقد توفى سنة ٣١٩هـ (١٠) .

ومنهم أحمد بن بشر بن محمد بن اسماعيل التجيبي المعروف بابن الأغبش وكان من أهل قرطبة سمع من ابن وضاح والخشني وغيرهما ، وكان متقدما في معرفة لسان العرب والبصر بلغاتها منفردا في ذلك ، وكان مشاورا في الأحكام ، ويذهب في فتياه إلى مذهب الشافعي ويميل إلى النظر والحجة وتوفى سنة ٣٢٧هـ (١١) .

(٨) بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٦ .

(٩) جذوة المقتبس ص ٢٦٢ ترجمة (٥٥٥) .

(١٠) تاريخ علماء الأندلس ص ٢٧٨ ، جذوة المقتبس، ص ٣٢٢ ، الخشني :

قضاء قرطبة ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

(١١) ابن الفرضي ص ٣٣ ترجمة (١٠٢) .

ومفهم أحمد بن عبد الوهاب بن يونس المعروف بابن صلى الله ، من أهل قرطبة . كان حافظا للفقهاء ، عالما بالاختلاف ، بصيرا بالحجاج حسن النظر ، وكان يميل إلى مذهب الشافعى ، وله سماع من شيوخه . وقتله صاحب عبيدا الشافعى وتفقه معه ، وكان له حظ وافر من العربية واللغة وسار فى جملة المقابليين للمستنصر ، وكان ينسب أيضا إلى مذهب الاعتزال (١٢) .

وخلال السنوات التى حفلت بالاضطرابات والفتن ، وسبقت سقوط الخلافة الاموية وجد المذهب الشافعى بعض انصار له فى قرطبة من ابرزهم ابن حزم الذى درس المذهب المالكى ، ثم تحول عنه إلى المذهب الشافعى بعض الوقت ، ثم تحول بعد ذلك إلى المذهب الظاهرى ، واصبح اكبر داعية بالاندلس ، وسخر مواهبه لبعثه وإحيائه من جديد (١٣) .



(١٢) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٤٧ ترجمة ١٥٤ .

(١٣) د . محمود حماية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ص ٥٨ .

المذهب الحنفي

الواقع أن هذا المذهب لم يجد له أتباعا في الأندلس في عصر بنى أمية إلا أفرادا قلائل . وقد أبدى المقدسي دهشته من ذلك حين ذكر :
إنهم في الأندلس يقولون لا نعرف غير كتاب الله وموطأ مالك ، على حين أن ثمة أتباعا كثيرين لمذهب أبي حنيفة في المغرب .

وكان الرد عليه أن هذا من فعل الأمير ، ثم يروي قصة ينسبها إلى هذا الأمير الذي لم يذكر اسمه — ولعله هشام بن عبد الرحمن — فيقول : إن الأحناف والمالكية تناظرا بين يديه ذات يوم فقال : من أين أبو حنيفة ؟ قالوا : من الكوفة ، قال : وما لك ؟ قالوا : من المدينة . فقال : عالم دار الهجرة يكتنينا . وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة وقال : لا أحب أن يكون في عملي مذهبان (١) .

ولكن يبدو في هذه القصة طابع الصنعة والتكلف بالرغم من ذكر المقدسي أنه سمعها من عدة مشايخ في الأندلس وهي من نوع الحكايات التي تجرى على ألسنة الناس دون تحقق من صحتها . فهل كان الأمير الأموي يجهل موطن أبي حنيفة وما لك حتى يسأل عن ذلك ؟ . ويظهر أن السبب في ذلك هو عدم ميل الأمويين لهذا المذهب نظرا لأنه كان مذهب خصومهم العباسيين ، ولذلك مالوا إلى مذهب الأوزاعي إمام أهل الشام أولا ، ثم إلى مذهب الإمام مالك أهل المدينة الذي أثنى على سياسة هشام بن عبد الرحمن الداخل بعكس العباسيين ، هذا بالإضافة إلى أن مذهب أبي حنيفة مذهب يعتد على العقل والمنطق أكثر من مذهب مالك الذي

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ٢٣٧ ، ليفي

بروفنسال : الحضارة العربية في أسبانيا ص ١٦٣ — ١٦٤ .

يعتمد أكثر على النصوص ، مما جعل الأندلسيين - وكان فيهم كثير من البربر الذين انتشر مذهب مالك في بلادهم قبل ذهابهم إلى الأندلس - يقبلون عليه أكثر نظرا لتوافقه مع طبيعتهم وثقافتهم البسيطة ، ثم إنه مذهب أهل المدينة مثوى رسول الله ﷺ ، ولها من المنزلة والمكانة ما لها .

ومن أشهر أتباع المذهب الحنفي في الأندلس الذين عثرنا عليهم في كتب التراجم الأعشى القرطبي الذي كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقته أهل العراق(٢) .

ويظهر ذلك من خلال رايه في شرب النبيذ فقد ذهب مذهب أبي حنيفة في هذه المسألة(٣) حيث قال : بقصر اسم الخمر على عصير العنب فقط . وأما ما اتخذ من غير العنب من الأثربة كالثمر والشعير فيسمى نبيذا وهو حلال إذا لم يسكر أما إذا أسكر فإنه يلحق بالخمر فيصير محرما . ويستدلون على ذلك بقوله ﷺ : حرمت الخمر بعينها والسكر من كل شراب ، وبما روى من أن عمر بن الخطاب كان يشرب النبيذ ويقول : إنا نأكل لحوم هذه الإبل فنشرب عليها النبيذ الشديد ليقطعها في بطوننا(٤) .

-
- (٢) وهو أبو عبد الله محمد بن عيسى بن عبد الواحد بن نجيح المعافري المعروف بالأعشى القرطبي ، رحل من الأندلس إلى مكة سنة ١٧٩هـ ، وسمع من سفيان بن عيينة وغيره ، وكان الغالب عليه الحديث ورواية الآثار ، وكان صالحا عاقلا سريا جوادا يذهب إلى مذهب أهل العراق توفى سنة ٢٢١هـ (نفع الطيب ج ١ ص ٣٥١) .
- (٣) عن هذه المسألة راجع : تفسير آيات الأحكام ج ١ ص ٢٧٧ وبعدها ، الأجوبة الخفيفة في مذهب الإمام أبي حنيفة ص ٧٩ - ٨٠ .
- (٤) الأصفهاني : محاضرات الأدباء ج ١ ص ٤١٢ ، د. أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي ج ٣ ص ٢٠٣ . يروي الجهشيوي : أن شريكا القاضي تحدث مع معاوية بن يسار وزير المهدي العباسي يوما بحديث في تحليل النبيذ فقال عافية القاضي وكان حاضرا :

ويتجلى ذلك من قصته (الأعمش القرطبي) مع القاضى محمد بن زياد الذى قبض على رجل شرب نبيذا فحبسه ليقيم عليه الحد ، فذهب الأعمش إلى حارسه وأخبره بأن القاضى قد أمر باطلاق سراح الرجل فأطلق سراحه ولم يكن القاضى قد أمر بذلك . وكان قد عرض على الأعمش القضاء فرفض واشتهر بمزاحه وأنه صاحب حكايات ونوادير (٥) .

ومن الذين ذهبوا مذهب أهل العراق أيوب بن سليمان بن حكم ابن عبد الله بن بلكايش بن إليان القوطى ، وقد رحل إلى المشرق ، ودخل العراق فسمع بها وعاد ومعه الكثير من كتب أهلها ، وكان يميل إلى الحجة والنظر ولا يرى التفتيد ، ولذلك انصرف عنه الطلاب ولم يتلمذ عليه إلا ابنه (٦) .

وقد وجد اتباع هذا المذهب اضطهادا فى الأندلس كما يستدل على ذلك من قول المتدسى : « أما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع ، وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك . فإن ظهروا على حنفى أو شافعى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ونحوهما ربما قتلوه » (٧) .

- ما سمعنا بهذا الحديث فقال شريك : وما يضر عالما إن جهل جاهل . ويروى أن عيسى بن موسى سأل أحد العلماء عن النبيذ فقال : حلال وقد أدركنا بعض أبناء الصحابة والتابعين وهم يشربونه . أما مذهب الأئمة مالك والشافعى وأحمد وأهل الورع فقد عسوا كل مسكر خمرأ وحرعوا كل أنواع المسكرات من العنب وغيره . (انظر الوزراء والكتاب ص ١٤٤ ، ابن تيمية : السياسة الشرعية ص ١١٣ ، د. أحمد شلبي : التاريخ الإسلامى ج ١ ص ٢٠٢) .
- (٥) ابن حيسان : المقتبس ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ، ص ٢٣١ تحقيق د. محمود مكى ، نفح الطيب ج ١ ص ٣٥ .
- (٦) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٢٧٠ .
- (٧) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٢ ص ١٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣ .

المذهب الظاهري

تأسس هذا المذهب بالعراق على يد داود بن علي بن خلف
الاصبهاني البغدادي (٢٠٠ - ٢٧٠ هـ) . وكان على المذهب الشافعي
اولا ، ثم خرج عنه وظهر القول بالظاهر . وهو على حد قول
الخطيب البغدادي : « أول من أظهر انتحال الظاهر ، ونفى القياس
في الأحكام (١) » .

وقد نشأ هذا المذهب كرد فعل للمذهب القياسي والإسراف فيسه ،
ويقوم على الأخذ بظواهر النصوص والتأويل ، ويتلخص في جعل مدارك
الشرع كلها منحصرة في النصوص والإجماع ، ورد القياس الجلي والعلّة
النصوص عليها إلى النص ، لأن النص على العلة نص على الحكم في جميع
مجاليها (٢) . وجعل المصادر الشرعية هي النصوص فقط وإبطال
القياس . وعدم الأخذ به . ويذكر أن داود لما سئل عن ذلك وقد أخذ
الشافعي به قال : أخذت أدلة الشافعي في إبطال الاستحسان فوجدتها
تبطل القياس (٣) .

وقد دخل المذهب الظاهري إلى الأندلس على يد عبد الله بن محمد
ابن قاسم بن هلال القرطبي المتوفى سنة ٢٧٢ هـ تقريبا وذلك في عهد
الأمير محمد الأول . وكان عبد الله قد رحل إلى المشرق وتلقى العلم على

(١) تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) د. حسن علي حسن : الحياة الدينية في المغرب ص ١١٣ ، د. محمود
حماية : ابن حزم ومنهجه ص ١٥٨ ، د. صلاح الدين رسلان :
الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٨ .

(٣) الشيخ محمد أبو زهرة : ابن حزم ص ٣٧٠ .

يعد داود مؤسس المذهب وكتب عنه كتبه كلها وأدخلها إلى الأندلس
وغلّب عليه هذا المذهب (٤) .

كما وجد عدد من العلماء الذين رحلوا إلى المشرق ومهدوا للفقه
الظاهرى بعد عودتهم ومن أشهرهم بثنى بن مخلد وأبو عبد الله محمد
ابن وضاح ، وقاسم بن أصبغ ، حيث كانوا من علماء الحديث .

ومن ثم ظهر علماء أمكنهم ان يجهروا بظاهريةهم وعلى رأسهم القاضى
الشهير منذر بن سعيد البلبوطى ت ٣٥٥هـ/٩٦٦م الذى كان « يؤثر هذا
المذهب ، ويجمع كتبه ، ويحتج لقائلته ، ويأخذ به نفسه وذويه ، فإذا
جلس للقضاء قضى بمذهب مالك الذى عليه العمل بالأندلس » (٥) .
ولذلك فإنه يعتبر الممثل الأول للمذهب الظاهرى فى الأندلس . يقول عنه
ابن الفرضى « وكان مذهبه فى الفقه مذهب النظر والاحتجاج وترك
التقليد ، وكان عالما باختلاف العلماء ، وكان يميل إلى رأى داود بن على

(٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس رقم ٦٥٥ .

(٥) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٣٣ . وقد لقب بذلك نسبة إلى موطن
نشأته وهو فحص البلبوط بالقرب من قرطبة ، ولى قضاء الأندلس
فى عهد الخليفة الناصر سنة ٣٣٩هـ ، وظل فى هذا المنصب فى عهد
المستنصر حتى توفى سنة ٣٥٥هـ فكانت ولايته للقضاء ست عشرة
سنة لم يؤخذ عليه فيها جور أو هوى — كما ذكر المقرئ — وكان
خطيبا مفوها خطب فى الاحتفال بسفارة قنصلنطين بعد ان أرتج
على أبى على القالى سنة ٣٣٨هـ .

قال عنه ابن حزم « كان مائلا إلى القول بالظاهر ، قويا على
الانتصار له ، ومن مصنفاته (الإنباه على استنباط الأحكام من كتاب
الله) والإبانة عن حقائق أصول الديانة . (انظر نفع الطيب ج ١
ص ٣٣٣ ، بغية الملتبس ص ٤٦٦ ، جذوة المقتبس ص ٣٤٨ — ٣٤٩)

ابن خلف العباسى ويحتج له ، وكان بصيرا بالجدل ، منحرفا إلى مذهب
اهل الكلام لهجا بالاحتجاج (٦) .

وكذلك أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت (ت ٤٢١ هـ) ، الذى
تتلمذ عليه ابن حزم ، وأخذ عنه المذهب يقول عنه الضبى « فقيه عالم
زاهد يميل إلى الاختيار والقول بالظاهر ، ذكره أبو محمد بن حزم ،
وكان أحد شيوخه » (٧) .

ويعتبر ابن حزم أكبر داعية لهذا المذهب بالاندلس ، فقد ناضل من
أجل إحيائه ونشره بعد أن كان قد خبا فى المشرق ، ولولاه لاندثرت
فروعه فضلا عن أصوله وبقيت أثباتا متفرقات فى بطون الكتب هنا
وهناك .

وليست لدينا نصوص صريحة تبين سبب تحول ابن حزم إلى هذا
المذهب واعتناقه له ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ - سبق صدر ابن حزم بكثرة الآراء والاختلافات فى المسألة
الأوحدة مما جعله يرد المصادر الأخرى غير النصوص والإجماع ،
ويرفضها ويؤلف الرسائل فى إبطالها . مثل كتابه (إبطال القياس
والاستحسان) ، وكتابه (المحلى) الذى بين فيه ضعف هذه المصادر
وتهاافتها .

٢ - الخصومة والتنازع والفرقة بين أتباع المذاهب المختلفة نتيجة
للاتباع والتقليد لأصحابها ، مما جعله يحمل على التقليد ويرى ان الاختلاف
بين المذاهب ليس رحمة كما يقال ، وإنما هو شر كله ولا يمكن أن يأتى

(٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٤٤ ، ترجمة (١٤٥٤) .

(٧) بغية المتتمس ص ٤٦٧ ، جذوة المتتمس ص ٣٥٠ .

بخير ابدا ، ووجد فى منهج الظاهر الراحة للنفس والاطمئنان للقلب .
٣ - الفساد الخلقى والنفاق الاجتماعى الذى جعل طائفة من العلماء والفقهاء فى عصره يتقربون إلى الحكام بئوى عنق النصوص مستخدمين فى ذلك القياس والاستحسان والمصالح المرسله وغيرها . فانكر هذه الوصولية والأدوات التى استخدمها هؤلاء فى سبيل الوصول إليها .

٤ - اقتناعه ببطلان التقليد ، وأن اتباع مذهب معين بدعة لان « سيرة الصحابة والتابعين وطريقتهم هى الاجتهاد ، وطلب سنن النبى ﷺ ولا مزيد ، وترك تقليد إنسان بعينه » (٨) .

٥ - سعة علمه وكثرة اطلاعه على كتب السنن والآثار والفقه وغيرها مما جعله يرى نفسه مجتهدا توافرت فيه صفات الاجتهاد . ويطمح إلى أن يكون صاحب مذهب يقول عنه الذهبى « كان رجلا من العلماء الكبار فيه أدوات الاجتهاد كاملة » (٩) .

ويقول عنه الكوثرى « وحيث كانت نشأته فى بيت عز واعتزاز كان يطمح إلى التفرد بمذهب ليكون متبوعا لا تابعا » (١٠) .

ولا غرو فقد بلغت تصانيفه فى علوم شتى نحو أربعمائة مجلد تشتمل على ما يقرب من ثمانين ألف ورقة وهذا شىء لم يجتمع لأحد قبله إلا لابن جرير الطبرى الذى ذكر انه كان أكثر أهل الإسلام تصنيفا (١١) .

(٨) رسائل ابن حزم : رسالتان أجاب فيهما عن سؤالين ص ٩٢ .

(٩) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١١٥٣ .

(١٠) مقدمة كتاب النبذ فى أصول الفقه الظاهرى ص ٥ ، تحقيق الكوثرى مطبعة الأنوار بمصر سنة ١٩٤٠م .

(١١) ياقوت : معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٣٨ ، ابن العماد : شذرات الذهب

ج ٣ ص ٢٩٩ . المراكشى : المعجب ص ٣٠ - ٣١ .

ويعتمد منهج ابن حزم الظاهري على اصلين : الأول : القول بظاهر الكتاب والسنة والاجماع . والثاني : إبطال القول بالقياس والاستحسان والرأى والتقليد .

ويعد ابن حزم من أشد دعاة المذهب الظاهري وإمامه في عصره ، وكتبه تعتبر المرجع اليقيني للتعرف عليه حتى قيل « من أراد الاطلاع على مذهب داود فعليه بكتب الإمام ابن حزم الظاهري ، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية الحنبلي » (١٢) .

ولعل خير ما يوضح مذهب الظاهرية كتابه في أصول الفقه المسمى (الإحكام في أصول الأحكام) الذي سلك فيه مسلكا يدل على التجديد والابتكار حيث تحدث فيه عن مسائل لم يتحدث فيها ظاهرية المشرق . وقد عقد فيه فصلا بين فيه معنى الظاهرية ، وأنهم لا يعتمدون في استنباط الأحكام على القياس بل على النص فقط ، وإذا كان النص مطلقا اخذ على إطلاقه إلا إذا قيده نص آخر . بيد أن اعتقاد الظاهرية على النصوص فقط قد أوقعهم أحيانا في بعض المناقضات ومثال ذلك : أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب لوجود النص ، ولا يوجبون غسله من ولوغ الخنزير مع أنه أشد نجاسة لعدم ورود النص .

وبينما يوجبون غسل اليد ثلاثا بعد القيام من النوم ، ويحكمون بنجاسة الماء الذي مسته يد مستيقظ لم يغسل يده ، تراهم يجيزون للجنب قراءة القرآن والجلوس في المسجد . إلى غير ذلك من المسائل التي جعلت البعض يحمل عليهم بشدة (١٣) .

(١٢) صلاح الدين رسلان : السياسة والأخلاق عن ابن حزم ص ٥٣ .
يعد مذهب الإمام أحمد أقرب المذاهب للظاهرية لأنه يترك للقياس إلا في أضيق الحدود ، ويأخذ بالمسأثور ، ويثقف عند النصوص .

(١٣) أنظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٤ .

وقد أخذ ابن حزم يدعو إلى مذهبه الظاهري الجديد الذي يقوم أول ما يقوم على التفسير الحرفي للنصوص فنراه يقول « ولذا وجب علينا اتباع النص لأنه كاف بنفسه واضح ظاهر » ، ويقول : « وحمل الكلام على ظاهره الذي وضع له في اللغة فرض لا يجوز تعديه إلا بنص أو إجماع ، لأن من فعل غير ذلك أفسد الحقائق كلها ، والشرائع كلها ، والمعقول كله » (١٤) . ولكنه يجيز التأويل حين يكون هناك نص آخر محيل لهذه الدلالة ، أو إجماع متيقن أو ضرورة حس فحينئذ يعزل التأويل المخالف للظاهر على مقتضى البلاغة العربية (١٥) .

وكنتيجة حتمية للتمسك بالنصوص يرفض ابن حزم القياس والتقليد والراي والاستحسان لأن هذه في نظره هي التي فتحت باب الخلاف والنزاع على مصراعيه . فنراه يقول : « فجميع أهل القياس مختلفون في قياساتهم ، وهم كلهم مقرون على أن كل قياس ليس صحيحا ، ولا كل راي حقا » (١٦) .

ولم يقتصر ابن حزم في منهجه الظاهري على ميدان الفقه وأصول الفقه فقط وإنما حاول تطبيقه على العقائد والمذاهب الكلامية . ويعتبر تطبيقه لهذا المنهج في هذا المجال من الابتكارات التي انفرد بها (١٧) . وقد أصبح ابن حزم صاحب مذهب نسب إليه شمل كثيرا من الأتباع الذين سموا بالحزمية ، وهو في كتابه المحلى يدعو إلى مذهبه

(١٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٢ ص ١١٦ ، ج ٣ ص ٣ .

(١٥) صلاح رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٦ .

(١٦) المحلى ج ١ ص ٥٨ . القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ .

(١٧) ديلاس أوليري : الفكر العربي ومكانته ص ٢٤٠ ، د . طه الحاجري :

مسور أندلسية ص ٨٢٩ .

هذا دعوة صريحة ، نراها واضحة في كل صفحة من صفحات هذا الكتاب (١٨) .

ومن أشهر أتباعه : ابن عبد البر القرطبي ، والحميدى صاحب جذوة المقتبس ، كما أخذ بلون منه محيي الدين بن عربى الصوفى المشهور الذى أخذ بمنهج الظاهرية فى العبادة والفروع ، والفيلسوف الكبير ابن رشد وابن تومرت زعيم الموحدين ، والمنصور الموحدى الذى جعل مذهبه المذهب الرسمى لدولته (١٩) .

ولكن لم يجد مذهب ابن حزم قبولا لدى الكثير من الأندلسيين فى العصر الأموى حيث كانوا على المذهب المالكى الذى كان بمثابة دين لهم ، وجزءا لا يتجزأ من شخصيتهم .

وقد ثارت بينه وبين الفقهاء - وخاصة المالكية - مساجلات عديدة ومناظرات عنيفة وذلك فقد عاش شطرا كبيرا من حياته فى عنق وأذى ومضايقات دفاعا عن آرائه . ودارت بينه وبين معاصريه من العلماء والفقهاء مناظرات شديدة وخاصة بينه وبين أبى الوليد الباجى الفقيه الأشعري المعروف .

يقول المقرئ « إنه لما قدم الأندلس وجد لكلام ابن حزم طلاوة ، إلا أنه كان خارجا عن المذهب (يقصد المذهب المالكى) ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه ، فقصرت السنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه ، واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل وحل بجزيرة ميورقة فرأس فيها ، وتبعه أهلها ، فلما قدم أبو الوليد كلموه فى ذلك فدخل إليه وناظره ، وشهر باطله ، وإله معه مجالس كثيرة » (٢٠) .

- (١٨) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٥ .
(١٩) الشيخ أبو زهرة : ابن حزم ص ٥١٧ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٣ .
(٢٠) نفع الطيب ج ٦ ص ١٧٦ تحقيق د. نريد رفاعى ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٩ وبعدها .

وكان من أشهر الذين تصدوا للرد على آرائه وفتدوه نقدا لاذعا بعد وفاته (٤٥٦ هـ) القاضى المالكى أبو بكر بن العربى فى كتاب سماه (الدواهى والنواهى) يصف فيه الظاهرية بانهم : « أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لها ، وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوانهم الخوارج حين حكم على رضى الله عنه يوم صفين فقالوا : لا حكم إلا لله وكان أول بدعة لقيت فى رحلتى القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخياف كان من بادية إشبيلية يعرف بابن حزم ، نشأ وتعلق بالذهب الشافعى ، ثم انتسب إلى داود ، ثم خلع النكل ، واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة بإضغ ويرفع ، ويحكم ويشرع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيرا للقنوب منهم . . . الخ » (٢١) .

وقد اضطهد ابن حزم وشدد عليه وشرد عن وطنه واحرقت كتبه علنا فى إشبيلية فى عهد المعتضد بن عباد . ويصف ابن حزم شيئا من ذلك فيقول « ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والتغريب ، والإغرام الفادح ، وأرزمت الفتنة — الفتنة البربرية — وعمت الناس وخصتنا إلى أن توفى أبى الوزير رحمه الله ، ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جنود البربر وخرجت عن قرطبة سنة ٤٠٤ هـ وتقلبت فى الأمور » (٢٢) .

ويقول الذهبى « وقد امتحن هذا الرجل ، وشدد عليه ، وشرد عن وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه ، واستخفافه بالكبار ، ووقوعه

(٢١) الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٥٩ .

(٢٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٥ .

في اثمة الاجتهاد ، بأقبح عبارة وانظ محاوره وأمنع برد « (٢٣) .

لقد كان ابن حزم ضيق الصدر ، متقلب المزاج ، حاد اللسان
ويمكن إرجاع ذلك إلى عدة أسباب منها :

١ - مرض الكبد والطحال الذي أصيب به في صباه وهو يشير إلى ذلك فيقول : « لقد أصابتنى علة شديدة وادت وفي ريو في الطحال شديد ، فولد ذلك على من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر أمرا جاشت نفسى فيه ، إذا انكرت تبدل خلقى ، واشتد عجبى من مفارقتى لطبعى ووضع عندى أن الطحال موضع الفرح ، وإذا فسد تولد ضده » .
وهذا تحليل دقيق ينم عن ثقافة طبية واسعة .

٢ - ما عاناه من جهود الأندلسيين على مذهب مالك وحده وتعصبهم له ، ورفضهم لأى مذهب آخر سواه ، مما الجأه إلى هذا الأسلوب العنيف لنشر مذهبه خاصة وأنه لقي صدا وهجوما عنيفا فبادله بمثله .

٣ - الظروف السياسية المتقلبة التي عاش في ظلها ، واكتوى بنارها هو وأسرته مما أدى به إلى التنقل المستمر وهو يشير إلى ذلك فيقول « أنت تعلم أن ذهنى متقلب وبالى مضطرب مما نحن فيه من نبو الديار ، والجلاء عن الأوطان ، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال وتبدل الأيام » (٢٤) .

ويشير ابن حزم في قصيدة له إلى مذهبه وما لقيه بسببه فيقول :

قالوا تحفظ فإن الناس قد كثرت

اقوالهم واقاويل العدى محن

(٢٣) سعيد الأفغانى : ابن حزم ص ١٢١ ، ١٣٠ وصفه البعض بقوله « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقتين » . (الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ص ٤٥) .
(٢٤) طوق الحماسة ص ١٥٤ .

فقلت هل عييبهم لى غير انى لا
اقول بالراى إذ فى رايبهم فتن
واننى مولع بالقص لست إلى
سواه انحو ولا فى نصره آهن
لا اننى نحو آراء يقال بها
فى الدين بل حسبى القرآن والسنة
ويقول فى قصيدة اخرى بعد أن أحرقتوا كتبه ساخرا :
وإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى
تضمنه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبى
وينزل إن أنزل وينفن فى قبرى
دعونى من إحراق كاغد وقولوا
بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة
فكم دون ما تهبون لله من بستر(٢٥)

وأخيرا ننهى حديثنا عن ابن حزم بقول عبد الواحد المراكشى - الذى
كان قريبا من عصره - عنه « وهو أشهر علماء الأندلس اليوم ، وأكثرهم
ذكرا فى مجالس الرؤساء ، وعلى السنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب
مالك ، واستبداده بعلم الظاهر . ولم يشتهر به أحد قبله ممن علمنا ،
وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا اليوم بالأندلس » (٢٦) .

(٢٥) معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٥٢ - ٢٥٣ طبعة فريد رفاعى .

(٢٦) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ١٤٦ وبعدها .

ثانياً - المذاهب الدينية (الكلامية)

مذهب الشيعة

كان الفاطميون بعد تأسيس دولتهم في المغرب يهدفون إلى نشر مذهبهم الشيعي في الأندلس ، وإلى غزو هذه البلاد لجعلها مع المغرب وحدة واحدة تخضع لسلطانهم ولذهبهم ، وبهذا ينقسم العالم الإسلامي إلى قسمين :

قسم شرقي تابع للخلافة العباسية ، وقسم غربي تابع للخلافة الفاطمية . ولهذا أخذ الفاطميون في إرسال عيونهم إلى الأندلس للتعرف على أحوالها مثل أبو اليسر الرياضي ، وابن هارون البغدادي ، وابن حوقل النصيبي .

وقد لعب هؤلاء العيون (الجواسيس) دوراً مهماً في العناية للفاطميين والمذهب الشيعي بالأندلس ، بالإضافة إلى جمعهم للمعلومات عن أحوالها وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية تحت حكم الأمويين .

وقد دخل هؤلاء متسترين إما بغرض العلم كابن هارون البغدادي أو بغرض الرحلة والتجارة كابن حوقل النصيبي ، ولكنهم في الحقيقة كانوا يتجسسون للفاطميين (١) .

يقول ابن الفريسي عن ابن هارون « أدخل بعض كتب أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، وبعض كتب عمرو بن بحر الجاحظ رواية ، وانصرف إلى المشرق بعد ما تردد في الأندلس أعواها وأخبرني سليمان .

(١) د . السيد سالم : تاريخ المسلمين وأثارهم في الأندلس ص ٢٨٧ .

ابن أيوب أن أبا جعفر البغدادي - وهذه كنيته - إنما دخل الأندلس
بمجنسها «(٢)» .

وقد قدم ابن حوقل تقريرا مفصلا للفاطميين عن الأندلس يغري
بإزحف عثيها جاء فيه أنها بلاد غنية طيبة الهواء ، كثيرة الماء ، وأن
حكومتها ضعيفة لا تقوى على المقاومة .

ومما قاله في تقريره « ومن أعجب ما في هذه الجزيرة بقاؤها
على من هي في يده ، مع صغر أحلام أهلها ، وضعة نفوسهم ، ونقص
عقولهم ، وبعدمهم من البأس والشجاعة والفروسية والبسالة »(٣) .

وقد بدأ الفاطميون لذلك يرسلون دعواتهم متخفين إلى الأندلس ،
ونجحوا في اجتذاب بعض أنصار لهم فيها مثل ابن أبي المنصور الذي رحل
إلى المغرب وتولى القضاء للخليفة المنصور الفاطمي ، وابن هاني ،
الأندلسي الشاعر المشهور الذي التحق بخدمة الخليفة المعز لدين الله (٤) .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦ ترجمة « ٢٠١ » .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٩٨ - ٩٩ ، د. أحمد شلبي ، موسوعة
التاريخ الإسلامي ج ٤ ص ٦٠ ، د. مصطفى الشهابي : الجغرافيون
العرب ص ٥٥ .

(٤) هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي ، أصله من بني المهلب الأزدية
بإفريقية ، انتقل أبوه إلى الأندلس وسكن البيرة فولد له محمد الذي
برع في الشعر واشتهر . يذكر أنه قصد جعفر بن علي الأندلسي ملك
الزاب من المغرب الأوسط فوجد باباه عامرا بالشعراء ، فتزيا بزى
بربري وكتب على كتف شاة بيتين من الشعر هما :

الليل ليل والنهار نهار

والبغل بغل والحصار حصار

والديك ديك والنجاجة زوجته

وكلاهما طير له منقار

وأدخلهما إلى وزيره فأراد أن يضحك الملك فأبلغه بذلك فأمر بدخوله
فأنشده قصيدة مدح رائعة منها :

كأن لواء الشمس غرة جعفر

رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

فقام إليه جعفر وعانقه بعد أن عرفه ، وخلق عليه وظل عنده
حتى كتب له المعز الفاطمي ليتوجه إليه ، فاتصل به في المغرب ،
ولما توجه إلى مصر تبعه ابن هانيء ، ثم عاد لأخذ أولاده ولكنه
قتل برقة سنة ٣٦٢ هـ ، وكان المعز يؤمل عليه آمالا كبيرا وأسف لوفاته
أسفا شديدا وقَالَ : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء
المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

وله قصائد كثيرة في مدح الفاطميين وخاصة المعز ، وكان شيعيا
متحمسا ، وبلغ من تحمسه أن وصف سيفه بالتشيع كذلك حيث يقول :

لي صارم وهو شيعي كصاهله

يكاد يسبق كراتي إلى البطل

إذا المعز مهن الدين سلطه

لم يرتقب بالنيايا مدة الأجل

وقد بالغ ابن هانيء في وصف المعز حتى جعله في مرتبة الانبياء
بل نسب إليه بعض صفات الألوهية والقدرة على الإتيان
بالمعجزات ومن أجل ذلك اتهم بالكفر . مثل قوله :

ما شئت لا ما شاعت الأقدار

فاحكم فانت الواحد القهار

ويذكر المستشرق ليفي بروفنسال : أن الدعوة للمذهب الشيعي قد بدأت في الأندلس خلال حكم عبد الرحمن الناصر ، ولكنه لا يعرفنا على وجه التفصيل كيف بدأت ؟ ولكننا نعتقد أنها بدأت قبل ذلك منذ أن استطاع الفاطميون تأسيس دولتهم في المغرب فمدوا أبصارهم إلى الأندلس التي كون الأمازيغ لهم فيها دولة .

ويبدو أن عددا من عيون الفاطميين ودعاتهم المتخفين قد تولوا أمر هذه الدعوة في الأقاليم الأندلسية القريبة من المغرب ، والمطلحة على البحر المتوسط لسهولة الوصول إليها والخروج منها بسبب موقعها الجغرافي ، وبعدها النسبي عن العاصمة الأندلسية (قرطبة) .
وقد أشار ابن حزم في القرن الخامس الهجري إلى وجود نواة

وكانها أنت النبي محمد

وكانما أنصارك الأنصار

انظر : ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٩٧ —
٩٨ ترجمة (٤٠٩) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤ — ٥ ،
ديوان ابن هانيء ص ٣٤ ، ٣٦ ، ١٦٤ ، ١٨٢ طبعة بيروت سنة
١٣٢٦ هـ . وإن ذهب البعض إلى أنه تشيع لا عن عقيدة ، ولكن طمعا
ذهب المعز وعطاياه .

وقد فسر البعض أمثال هذه الأقوال حسب نظرية المثل والمثول التي آمن بها الشيعة حيث جعلوا الإمام مثل العقل الكلي الذي يعتبر في نظرهم أول ما خلق الله ، ولذلك فالإمام عندهم متصل بالله لأن ممثوله وهو العقل الكلي متصل بالله . ولذلك فإنها في نظرهم لا تعد كفرا (انظر : د. محمد كامل حسن : نظرية المثل والمثول القاهرة سنة ١٩٤٨م دار الفكر العربي) .

للشيعة بين سكان إقليمى المرية ، وبلنبيق ، ولكننا لا نعرف عنهم المزيد من الأخبار (٥) .

وقد استطاع التاسم بن حمود — الذى ينتمى إلى الادارسة العلويين — أن يعتلى عرش الخلافة الاموية مرتين فى الأندلس ٤٠٨ هـ ، ٤١٣ هـ لعدة شهور قبل سقوطها ، وجاهر بأرائه الشيعية ، وقدم نفسه كممثل لها ، وهى بلا شك نفس آراء الادارسة الذين حاصر الامويون نشاطهم المعادى لهم فى شمال المغرب (٧) .

ويذكر المراكشى والضبى : أن التاسم كان يذكر عنه أنه تشيع ولكنه لم يظهر ذلك ولا غير على الناس عادة ولا مذهبا (٨) . وعلى أى الأحوال فإنه يعد من الشيعة بالأندلس سواء جاهرا أو لم يجاهر ، كما كان من الشعراء المتشيعيين بالأندلس الشاعر والمؤرخ أبو بكر عبادة بن ماء السماء الذى تشتم من كتاباته وأشعاره رائحة التشيع والتعصب ضد بنى أمية وهو ينتسب إلى قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى ، واشتهر بالموشحات ،

(٥) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٦) بنو حمود : أسرة يتصل نسبها بأدارسة شمال إفريقيا ، وكانت تقيم فى سبته ، ثم دخلت قرطبة ، وقبضت على زمام الأمور ، وأخذت تعيث بالخلفاء الامويين فمرة تضع خليفة دون أن يكون له من الأمر شىء ، ومرة يتولى أفراد منها الحكم ويدعون أنهم خلفاء . ولم يستطيع بنو حمود أو الامويين الذين وضعوهم على عرش الخلافة أن يحافظوا على وحدة الأندلس فسقطت الخلافة سنة ٤٢٢ هـ وبدأ ما يسمى بعصر ملوك الطوائف .

(٧) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى إسبانيا ص ١٦٩ .

(٨) المعجب فى تلخيص اخبار العرب ص ٣٣ ، بغية المتتمس فى تاريخ رجال اهل الأندلس ص ٢٨ .

«واتصل ببني جهور بعد انهيار الخلافة الاموية ، واختص ببني حمود العلويين ، ولذلك كله اتهم بالتشيع» (٩) .

ومن ذكرتهم المصادر الاندلسية على انهم من المشيعين الشاعر أبو عبد الله محمد بن ابراهيم بن حيون ، وكان من وادي الحجارة ، ورحل إلى المشرق نحو خمسة عشر عاما فسمع بصنعاء ومكة وبغداد ومصر ، ولقى جماعة من اصحاب الإمام أحمد وكان كما ذكر المقرئ « إماما في الحديث ، حافظا للعلل ، بصيرا بالطرق ، ولم يكن بالاندلس قبله ابصر بالحديث منه ، لم يذهب مذهب مالك ، وكان يظن به التشيع لشيء كان يظهر منه في حق معاوية » وقد توفي بقرطبة سنة ٣٠٥هـ (١٠) .

ونظرا لشدة الخصومة بين الفاطميين الشيعة بالمغرب وبين الامويين السنة بالاندلس فقد أخذ الامويون وبخاصة منذ عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر في مجابهة الفاطميين بعدة وسائل واساليب منها :

١ — التلقب باللقاب الخلافة حيث تلقب الناصر باللقاب الخليفة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م لتوطيد مركزه ، وتثبيت دعائم دولته في الداخل والخارج ، وإظهار أنه لا يقل عن الخليفة العباسي أو الفاطمي . وأن دولته لا تقل عن الدولة العباسية أو الفاطمية بل تنافسهما .

٢ — بث بذور الفتن والخلافات والقتال بين القبائل البربرية في بلاد المغرب لإزعاج الفاطميين ، واجتذاب بعض زعماء هذه القبائل . ومود الخارجين على الفاطميين بما يحتاجونه .

٣ — الحرص على تقوية الأسطول الاندلسي لمنافسة أسطول

(٩) ابن حبان : المقتبس في اخبار بلد الاندلس ص ٣٤٥ — ٣٤٦ تحقيق د. محمود مكي .

(١٠) نفع الطيب ج ١ ص ٣٤٦ .

الفاطميين في البحر المتوسط ورد هجماته والسيطرة على مضيق جبل طارق بعد الاستيلاء على طنجة وسبته وهما معبري الأندلس من المغرب .

٤ — توطيد العلاقة ببعض الدويلات المغربية بالرغم من مخالفتها في المذهب مثل دولة بنى رستم الخارجية في تاهرت (١١) .

٥ — عقد المعاهدات مع أعداء الفاطميين من الدول الأجنبية مثل ملك إيطاليا هوجو البروفانس (هوجو دي بروفانس) الذي كان يحق على الفاطميين مهاجمتهم ميناء جنوه وتدميره ، وإمبراطور بيزنطة الذي كان يهدف إلى استرجاع جزيرة صقلية من أيدي الفاطميين ، والاختشيديين في مصر لجابهة محاولات الفاطميين المتكررة لغزوها .

٦ — محاربة المذهب الشيعي فكريا في الداخل والخارج ، وحظر التأليف في مسائل الفكر الشيعي والمعتزلي . حتى استقر في أذهان الأندلسيين أن تتناول هذه المسائل يعتبر خروجاً عن الدين الإسلامي القويم الذي يمثله المذهب المالكي . ولذلك ذكر المقدسي عنهم قولهم « لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك » (١٢) .

٧ — تأليف الكتب في الرد على هذا المذهب الذي كان يخشى من تسريه إلى الأندلس ، ومن تعدد الفرق المذهبية فتصاب البلاد بالتمزق والانقسام مرة أخرى بعد أن بذلت جهود مضيئة في توحيدها بالقوة سياسيا وبالمذهب المالكي دينيا .

كما نرى الناصر يرسل مجموعة من الفقهاء المالكية إلى مصر في

(١١) انظر : د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ،

د. محمود مكي : التشيع في الأندلس ص ١٢١ .

(١٢) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، بروغنسال : الحضارة العربية ص ١٦٣ .

عهد الإخشيديين لجابهة مذهب الشيعة فى الخارج . مثل محمد بن القاسم
ابن شعبان المعروف بابن القرطى (١٣) .

٨ — استقبال العلماء والادباء المناوئين للفاطميين والفارين منهم مثل
الخشنى صاحب كتاب (قضاة قرطبة) . الذى فر من بطشهم ، واتصل
بالحكم وحبب إليه العلم وغرس فيه هواية جمع الكتب . ومثل حكم بن محمد
ابن هشام القيروانى المقريء الذى فر منهم إلى الأندلس فأكرمه المستنصر
وأجرى عليه العطاء حتى توفى سنة ٣٧٠هـ (١٤) .

وقد أثرت هذه السياسة التى اتبعتها الناصر تجسأه الفاطميين
فادت إلى فشلهم فى النيل من الأندلس ، والتوجه ناحية مصر لفتحها .

كما اهتم الخليفة الحكم المستنصر بمحاربة الفاطميين ومذهبهم
الشيعى مثل أبيسه وسار على سياسته تجاههم قبل رحيلهم إلى مصر .
وبالغ فى ذلك حيث رأى فى محاربتهم نوعا من الجهاد ضد خصوم
سياسيين ودينيين فى آن واحد . وكان حماسه للفتنة السننى على مذهب
مالك مما جعله ينظر إليهم على أنهم زنادقة تجب محاربتهم خشية انتقال
مذهبهم إلى الأندلس (١٥) .

هذا فضلا عن أنه — مثل بقية بنى أمية — كانوا ينظرون إليهم
على أنهم مدعين لئنسب الفاطمى ، ونبيل ذلك تلك الرسائل المتبادلة
بينه وبين العزيز بالله الفاطمى فقد ذكر ابن خلكان : أن العزيز كتب إلى
الحكم رسالة يسبه فيها ويهجوّه فرد عليه الحكم قائلا « أما بعد

(١٣) د. محمود مكى : التشيع فى الأندلس ص ١٢٤ . ويذكر أن الناصر
أرسل إليه عشرة آلاف دينار ليفرقها فى شيوخ المالكية بمصر ، فأخرج
الإخشيديين مثلها لشيوخ الشافعية . انظر : فوليان ريدرا : التريسة
الإسلامية فى الأندلس ص ١٩٤) .

(١٤) د. محمد زغروت : مكتبة الأمويين الإسلامية مجلة البحوث الإسلامية
عدد ١٧ ص ٣٥٢ ، تاريخ علماء الأندلس ص ١٢١ .

(١٥) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

فقد عرفتنا فهجوتنا ، ولو عرفناك لأجبتك « (١٦) .
كما ذكر العيني : أن الحكم كتب إلى العزيز كتابا هجاه فيه وذكر
انه دعى فى نسبه وأن جده ميمون القداح ينتسب إلى الباطنية (١٧) .

ويبدو أنه بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، وزوال خطرهم عن
الأندلس نهج المستنصر نهجا آخر حيث كان محبا للعلم والثقافة -
مثل المأمون العباسى - فانتسعت حركة التأليف والترجمة فى عهد
لتشمل ألوان الفكر المختلفة بما فيها الفكر الشيعى حيث لم يعد هناك
ما يخشى منه من تهديد أمن البلاد . وأصبح لدى الأندلسيين من الوعى
الدينى ، والتعصب الشديد للمذهب المالكى ما يضمن عدم تحولهم عنه
أو انحرافهم لمذهب آخر . فنراه يطلب من بعض العلماء التصنيف فى
أخبار الفاطميين وأنسابهم ، فيؤلف له معاوية بن محمد بن هشام
الروانى المعروف بالشبانسى أو ابن الشبانسية (ت . ٢٩٠ هـ) كتابا فى
نسب العاويين سماه (التاج السنى فى نسب آل على) ويحتوى على
أخبار الشيعة فى المغرب والأندلس (١٨) .

والخلاصة أن الفاطميين لم يتمكنوا من نشر مذهبهم الشيعى فى
الأندلس ، كما فعلوا فى المغرب ، ولم يسجل هذا المذهب إلا نتائج
محدودة وغير ذات أثر كبير تمثلت فى تلك الأقليات الشيعية التى عاشت
فى بعض البلاد الأندلسية وخاصة بعد عصر الخلافة الأموية كما
أشار إلى ذلك ابن حزم فى القول الذى ذكرناه آنفا .

(١٦) عقد الجبان ج ١٩ ص ٣٩٦ ، تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٣٠ .
(١٧) د . محمد زغروت : مجلة البحوث الإسلامية ص ٣٥٢ .

(١٨) التشيع فى الأندلس : ج ٢ ص ١٢٦ مجلة معهد الدراسات الإسلامية
فى مدريد مجلد سنة ١٩٥٤م ، الحلة السيرة : ج ١ ص ٤٠ هاشم
٣ ، د . محمد زغروت : مكتبة الأمويين الإسلامية مجلة البحوث
الإسلامية عدد ١٧ ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

مذهب المعتزلة

وجدد دعاة المعتزلة كثيرهم من دعاة المذاهب الأخرى - كالشيعة والخوارج - متفلسفا لهم في بلاد المغرب ، واستطاعوا نشر آرائهم وأفكارهم في أوساط البربر بصفة خاصة . ويرجع نشاط المعتزلة إلى أوائل القرن الثاني الهجري حيث أرسل واصل بن عطاء الذي ينسب إليه تأسيس المذهب مجموعة من الدعاة لنشره في كثير من الأقطار كما يتضح من شعر صفوان الأنصاري أحد شعراء المعتزلة حيث يقول عن واصل :

له خلف شعب الصين في كل ثفرة

إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يفأل عزيمهم

تهكم جبار ولا كيد مآكر (١)

وكان من هؤلاء الدعاة الذين أرسلهم إلى بلاد المغرب لنشر المذهب عبد الله بن الحارث (٢) ويبدو أن نشاطه قد لقي رواجاً في أوساط البربر حيث تشير بعض المصادر إلى اعتناق بعض قبائل البربر لمذهب الاعتزال (٣) .

وإذا كان مذهب الشيعة قد وجد مقاومة شديدة من الأمويون في الأندلس ولذلك لم ينتشر ولم يحرز إلا نتائج محدودة ، فإن مذهب المعتزلة

(١) انظر : الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٢٨ بيروت سنة ١٩٦٨ م .

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٩٢ .

(٣) انظر : د. حسن على حسن : الحياة الدينية في المغرب في القرن

الثالث الهجري ص ١٤١ .

تد وجد مجالا اوسع وعددا اكبر من المؤيدين ربما يفوق بكثير ما اورده لنا المؤرخون الأندلسيون الذين ترجموا لعلماء وطنهم .

ولعلل السبب المهم فى ذلك يعود إلى أن الأمويين كانوا ينظرون إلى المذهب الشيعى على أنه مذهب يريد به أصحابه أن يصلوا إلى أهداف سياسية ، بخلاف مذهب المعتزلة الذين لا يبغون من ورائه إقامة دولة مثل الشيعة والخوارج ، ولكن ليس معنى ذلك أن الأمويين قد رحبوا بهذا المذهب بل إنهم قاوموه أيضا ولكن لم تكن مقاومتهم له مثل مقاومتهم للمذهب الشيعى وبخاصة أولئك الأمراء والخلفاء الذين اهتموا بالعلم والثقافة ، وحاولوا مقاومة نفوذ وتسلط الفقهاء المالكية على مقاليد الحياة الفكرية والدينية فى الأندلس .

وما لا شك فيه أن تعصب جمهور الأندلسيين للمذهب المالكي قد جعلهم ينظرون إلى غيره من المذاهب الفقهية والدينية (الكلامية) نظرة تشدد واضطهاد . كما يستدل على ذلك من قول المقدسى السابق . « وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك ، فإن ظهورا على شافعى أو حنفى نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ربما قتلوه » (٤) . وقد واجه فقهاء المالكية هذا المذهب باستنكار شديد ، والذي كان يكتشف أمره وأنه يدعو لهذا المذهب كان يتم إبعاده من أولى الأمر بواسطة تأثيرهم وتدخلهم كما حدث عندما وصل إلى قرطبة أبو الطيب ابن أبى بردة سنة ٣٦١هـ ، فى عهد الخليفة المستنصر فأحسن استقباله على أنه من كبار الشافعية ، ولما اكتشف أنه من المعتزلة أبعده على الفور سنة ٣٧٣هـ (٥) .

(٤) أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ ، ضحى الإسلام ج ٣ ص ١٣ .

(٥) ليفى روفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٠ .

ورغم ذلك فقد وجد من يعتنق مذهب المعتزلة ، ويدعو إليه ، ويبدو أن سبب ذلك هو أن المعتزلة التزموا العمل سرا أكثر من الشيعة ، واستطاع بعضهم أن يبث آراءهم خفية دون أن يلاحظهم أحد ، أو يثيروا غضب المتشددين من فقهاء المالكية الحريصين على الاتجاه السننى الحافظ . ودليل ذلك ما يذكره ابن حزم « من أن وادى بنى توبة كان كله معتزليا » (٦) .

ومن الصعب تحديد الوقت الذى بدأت فيه آراء المعتزلة تتسلل تدريجيا بين أكثر عناصر الشعب الأندلسى ثقافة — نظرا لطبيعة هذا المذهب الذى يعتمد على العقل كثيرا — وإن كنا نعتقد أن ذلك لم يحدث قبل حكم الأمير محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) الذى سمح للكثير من الآراء والأفكار بالدخول إلى الأندلس فدخلت كثير من كتب المعتزلة إلى الأندلس وتلقفها الكثير من المثقفين وخاصة القضاة (٧) .

ومن الأوائل القائلين بهذا المذهب فى الأندلس : أحمد بن موسى ابن حدير الذى كان يقول : إن الله عاقل وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس . كما كان منذر بن سعيد الباطونى يتهم بالميل إلى هذا المذهب أيضا . أما ابنه الحكم فقد كان رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلمهم كما يقول ابن حزم (٨) ، ومنهم أيضا عبد الأعلى بن وهب القرطبى ت ٢٦٢ هـ (٩)

(٦) المرجع السابق ص ١٧١ ، دراسات عن ابن حزم ص ٦٠ .

(٧) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ٢٠٣ .

(٨) ابن حزم : طوق الحمامة ص ٧٢ ، تاريخ علماء الأندلس : ترجمة

١٥٤ ، وترجمة ١٤٥ .

(٩) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٨٣٧ .

(م ١٢ - المجتمع الأندلسى)

وكان من الفقهاء المشهورين الذين آمنوا بحرية الاختيار ونفى خلود الروح (١٠) .

وكذلك خليل بن عبد الملك بن كليب القرطبي الذى اشتهر باسم خليل الغفلة (١١) وكان معاصرا لبقى بن مخلد ، وقد رحل إلى المشرق ، ودرس على الكثيرين وأخذ يتحدث بعد عودته إلى الأندلس عن استقلال الإرادة ، وحرية الإنسان فى أفعاله ورفض مبدأ الجبرية القائل بأن الإنسان مجبور فى أفعاله (١٢) .

وقد اشتهر خليل بالمجاهرة بأرائه دون تستر ، وكان فى أول أمره صديقا لمحمد بن وضاح فلما تبين له أمره هجره وكان يؤول كثيرا من الأشياء . ويذكر أنه جاء إلى بقى بن مخلد فسأله بقى عن أربعة أشياء . قال : ما تقول فى الميزان ؟ قال عدل الله ونفى أن تكون له كفتان . فقال : ما تقول فى الصراط ؟ قال : الطريق (يريد الإسلام) فمن استقام عليه نجا ؟ قال فما تقول فى القرآن ؟ فلجلج ولم يقل شيئا وكأنه ذهب إلى أنه مخلوق . فقال : ما تقول فى القدر ؟ قال : أقول إن الخير من عند الله والشر من عند الرجل . فقال بقى : لولا حالتك لأشرت بسفك دمك ، قم فلا أراك فى مجلسى بعد هذا الوقت (١٣) .

ويظهر أنه لم يتعرض لأذى فى حياته ، وإن تعرض للهجر والمقاطعة من أصدقائه نظرا لأرائه ، ولكنه بعد وفاته جاء جماعة من الفقهاء المالكية ومنهم أبو مروان بن أبى عيسى وأخرجوا كتبه من بيته وأحرقوها إلا ما كان فيها من كتب المسائل (الفقهية) (١٤) .

-
- (١٠) الحضارة العربية ص ١٧١ .
 - (١١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٤١٩ ج ١ ص ١٣٩ وبعدها .
 - (١٢) الحضارة العربية ص ١٧٢ .
 - (١٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .
 - (١٤) المرجع السابق ص ١٣٩ .

وكان لخليل مؤيد قوى فى مذهبه وهو تلميذه ابو بكر يحيى بن يحيى المعروف بابن السمينه (ت ٣١٥ هـ) وكان كما يقول ابن الفرضى « متصرفا فى ضروب من العلم ، متفتنا فى الآداب ورواية الاخبار ، مشاركا فى الفقه والرواية وعقد الشروط ، بصيرا بالاحتجاج وعلم الكلام ، نافذا فى معانى الشعر وعلم العروض والتنجيم والطب » .

وكان قد رحل إلى المشرق ومال إلى كتب الحجة ومذاهب المتكلمين ، ثم عاد إلى الأندلس وأصيب بمرض النقرس ، وظل ملازما لداره يقصده فيها الكثيرون ، وكان يعلن بالاستطاعة أخذ ذلك عن أستاذه خليل ابن عبد الملك (١٥) .

ويبدو أن مذهب الاعتزال قد أخذ يشق طريقه رويدا رويدا بين المثقفين والعمامة أيضا حيث يصف ابن حزم سكان وادى بنى توبة بأنهم من المعتزلة (١٦) كما ذكر أيضا : أنه كان فى الأندلس قوم يذهبون إلى الاعتزال ويؤلفون فيه (١٧) .

وبعد ذلك وخلال عصر الخلافة الأموية طوى الصمت مذهب المعتزلة الكلامى البحت وظهر مذهب جديد على يد ابن مسرة الابن (ولد سنة ٢٦٩ هـ وتوفى سنة ٣١٩ هـ) (١٨) .

(١٥) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٨٨ ترجمة (١٥٨٠) .

(١٦) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٤ .

(١٧) انظر أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ٣ ص ٩ .

(١٨) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة بن نجيج الجبلى الشربلى ، كان ابوه مولى لرجل من البربر من أهل فاس ، وقيل لبني هاشم ، وقيل لبني أمية ، رحل الأب إلى المشرق وسمع بالبصرة عن كثيرين . والمعروف أنها كانت مقر المعتزلة الأول ، ولذلك كان متبها بالقول بالقدر وكان يكتفم ذلك ولا يظهره ، وكان خليل الغفلة صديقا له ، وكان ورعا فاضلا طويل الصلاة ، رحل فى آخر عمره إلى المشرق

وقد تتلمذ على يد أبيه الذى اعتنق المذهب ، كما تتلمذ على يد محمد بن وضاح الخشنى وخرج إلى المشرق فى أواخر أيام الأمير عبد الله حيث اتهم بالزندقة (١٩٠) . ودخل القيروان ولبث فيها مدة ، وهناك رآه الخشنى فى مجلس أستاذه أبى جعفر أحمد بن نصر أحد تلاميذ سحنون ، ثم ذهب بعد ذلك إلى الحجاز فحج وزار قبر الرسول وظل بالمدينة مدة يتتبع آثاره فدل على دار زوجه مارية القبطية وكانت دارا بسيطة ، وفى أعلاها سقيفة ، فصلى بها ، وحددا مساحتها ، ولما عاد إلى الأندلس بنى مثلها لسكناه فى جبل قرطبة (٢٠٠) .

وقد صحبه فى هذه الرحلة اثنان من معتقى مذهبه وهما محمد ابن حزم بن بكر التنوخى ويعرف بابن المرىنى وكان من أهل طليطلة ، وأيوب بن فتح ، واثنان آخران هما أحمد بن غانم ، ومحمد ابن وهب المعروف بابن الصيقل (٢١١) .

ونزل بمكة وتوفى بها فى ذى الحجة سنة ٢٨٦هـ ويقال : إن خروجه كان بسبب دين عليه ، ولكن يبدو أنه اتهم بالاعتزال وطورد فكان ذلك سببا لخروجه (انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢١٧ - ٢١٨) .

(١٩) انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ترجمة رقم (١٢٠٤) . حدد د. إحسان عباس مولده بأنه سنة ٢٩٩هـ (تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٥٢) وربما كان خطأ مطبعيا ، والصحيح أنه ولد سنة ٢٦٩هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى فى ترجمته له (تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ترجمة ١٢٠٤) . كما حدد خروجه فى سنة ٣١١هـ فى أواخر عهد الأمير عبد الله وربما كان هذا خطأ مطبعيا أيضا لأن عبد الرحمن الناصر قد ولى الحكم سنة ٣٠٠هـ ، ولذلك ذهب البعض إلى أنه خرج فى عهد الناصر سنة ٣٠١هـ (د. محمود حمادة ابن حزم ومنهجه ص ٣٨) .

(٢٠) ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ص ٣٦٥ .

(٢١) التكملة ص ١١ ، ص ١٩٩ ، ص ٣٢١ .

ويذكر ابن الفرضى : أن ابن مسرة اشتغل فى الشرق بملاقة أهل
الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة ، ثم عاد إلى الأندلس فأظهر النفسك
والبورع ، واختلف الناس إليه وسمعوا منه ، ثم انقسموا فى موقفهم
منه إلى فريقين : فريق رآه إلهما فى العلم والزهد ، وفريق آخر طعن
عليه ووصف مذهبه بالفساد وسوء المعتقد والابتداع والخروج عن العلوم
المعلومة بالأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم (٢٢) .

ويبدو من الأخبار القليلة التى وردت عنه فى كتب التراجم والتاريخ
أن مذهبه كان يجمع بين التصوف والاعتزال فلم يكن معتزليا خالصا
ولا باطنيا خالصا (٢٣) .

فأما مبادئ الاعتزال التى كان يقول بها فهى القول بالاستطاعة ،
وانفاذ الوعيد والتأويل فى كثير من القرآن (٢٤) . يقول ابن حزم « إن
ابن مسرة شارك المعتزلة فى القول بالقدر ، وكان يقول : إن علم الله
وقدرته صفتان محدثتان مخلوقتان ، وأن الله تعالى عامين أحدهما : أحده
جملة وهو علم الكتاب أو علم الغيب ، والثانى : علم الجزئيات وهو علم
الشهادة فإنه لا يعلم منه شيئا حتى يكون واستشهد على ذلك بقوله
تعالى (عالم الغيب والشهادة) (٢٥) .

(٢٢) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٩ .

(٢٣) ذهب الأستاذ أحمد أمين إلى أنه كان معتزليا كإبيه ، وأسر مذهبه
مثله ، ولذلك اعتزل الناس ، ولم يستطع المحافظة على ذلك طويلا
فاتهم بالإلحاد ، وفر من الأندلس وأظهر التتيسة وأخذ يبعث تعاليمه
(ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٩ - ٧٠) .

(٢٤) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٣٩ ، د. إحسان
عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ .

(٢٥) الفصل فى المال والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٨ مصر سنة ١٣١٧ هـ .

وقد ذكر ابن الفرضى : انه كان يحرف التأويل فى كثير من آيات القرآن ، وكان مع ذلك يدعى التكلم على تصحيح الأعمال ، ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق فى نحو من كلام ذى النون الإخميمى المصرى ، وأبى يعقوب النهرجورى ، وأنه كان له لسان يصل به إلى تأليف الكلام وتمويه الألفاظ وإخفاء المعانى وأنه وفد عليه جماعة من أهل المشرق منهم ابن زياد الأعرابى وابن سالم التسترى (٢٦) .

وأما المبادئ الباطنية فى مذهبه فإنه بناها على آراء نسبت لابنبيذوقليس الفيلسوف اليونانى الذى يعد أول الحكماء اليونانيين السبعة ونسبت إليه كرامات كالصوفية ، والحقيقة أنها بعض آراء فيلون الاسكندرى وأفلوطين .

ومن هذه الآراء المنسوبة إليه الجمع بين معانى صفات الله ، وأنها كلها تؤدى إلى شىء واحد ، وأنه إذا وصف بالعلم والجود والقدرة الخ فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة ، بل هو الواحد بالحقيقة الذى لا يتكرر بوجهه . وتزعم الفرقة الباطنية ان له رموزا قلما يوقف عليها (٢٧) .

وقد يستنتج مما جاء فى كتب ابن مسرة أن النبوة من الممكن اكتسابها وأنه قد يصل إليها من بلغ الغاية فى الصلاح وطهارة النفس وإن أنكر بعض أصحابه نسبة هذا القول إليه (٢٨) .

وقد أبرز مذهب ابن مسرة نظرية ثانوية كانت موجودة عند أفلوطين

(٢٦) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٤٠ ترجمة سنة ١٢٠٤ .

(٢٧) القفطى : أخبار الحكماء ج ١ ص ١٣ .

أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٩ - ٧٠ ، د . إحسان عباس :

تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٤ - ٥٥ .

(٢٨) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ١٩٩ .

وهي القول بوجود مادة روحانية تشترك فيها جميع الكائنات ما عدا الذات الإلهية . واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية . ويذكر المستشرق الإسباني بالنثيا : أن ابن مسرة قد دافع عن هذا المذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية(٢٩) .

ويذكر ليفي بروفنسال : أنه أراد بناء منهج فلسفي يقوم على مبدأ وحدة الوجود ، وأن أصالة فلسفة ابن مسرة تكمن في الاستفادة من هذه الفكرة ، وأنه بنى على هذا المذهب فكرته عن كوثية العالم ، وعقيدته في الإرادة الحرة ، والعلم الإلهي السابق وعدم تطهير الروح إلا بعد عودتها للعالم الروحاني(٣٠) .

ويرى جولد زيهر : أنه تأثر بنظرية الاملاطونية الحديثة التي كانت منتشرة بالشرق في ذلك الوقت وكون مدرسة تدعو إلى حرية الفكر(٣١) . وقد انتهى المستشرق الإسباني آسين بلاسيوس إلى نتائج تختلف بعض الشيء عن نتائج ليفي بروفنسال وجولد زيهر فهو يرى وجوب الفصل عند دراسة أفكار ابن مسرة بين المنهج اللاهوتي والمنهج الفلسفي . وحاول أن يتبين خصائص كل منهما معتمدا على آراء اثنين من الأندلسيين وهما ابن حزم وصاعد الطليطلى ، واثنين من المشاركة وهما الشهرزوري والشهرستاني(٣٢) .

وأيا ما كان الأمر فقد استطاع ابن مسرة أن يجتذب إليه تلامذة

(٢٩) تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٨٠ ترجمة د. حسين مؤنس .

(٣٠) الحضارة العربية في إسبانيا ص ١٨٠ ترجمة د. الطاهر مكي .

(٣١) المرجع السابق ص ١٧٩ .

(٣٢) الحضارة العربية في إسبانيا ص ١٨٠ .

كثيرين عاش معهم فى عزلة بجبل قرطبة ، وكان كما تصوره الروايات
ذا قدرة ساحرة مؤثرة فى النفوس ، و ألف بعض الكتب فى مذهبه
ومنها كتاب الحروف وكتاب التبصرة ، ويذكر ابن الأبار : أنه لم يكن يخرج
كتبا إلا بعد أن يتعقبه حولا كاملا (٣٣) . وكانت بعض كتبه معروفة
فى الأندلس ورأى ابن حزم عددا منها (٣٤) .

وقد أثارت آراء ابن مسرة خصومات جدلية فى الأندلس والمشرق ،
وتصدى للرد عليها علماء من الأندلسيين والمشاركة فممن تصدى للرد عليه
من المشاركة أحمد بن محمد بن زياد الأعرابي ، وأحمد بن محمد بن سالم
الستري .

وممن تصدى للرد عليه من الأندلسيين ابن أبيض الذى ألف كتابا
كبيرا فى ذلك أكثر فيه من الحديث والشواهد (٣٥) ، وكذلك الزبيدى
العالم اللغوى المشهور الذى ألف كتابا فى الرد عليه أيضا (٣٦) ،
والقاضى ابن زرب (محمد بن يبقى) الذى كان يعارض آراء ابن مسرة
معارضة شديدة وألف كتابا أخذ عنه عدة مرات بقرطبة (٣٧) . وقد
منحه الخليفة عبد الرحمن الناصر سلطات واسعة ومعه الزبيدى لمحاصرة

(٣٣) التكملة ص ٢٨٤ - ٢٨٥ . يذكر أنه كان حريصا على عدم اطلاع
أحد على كتبه حتى المقربين إليه من تلاميذه ويقال : إنه لما
ألف كتاب التبصرة احتال صاحبه يحيى بن عبد الملك الذى كان
يسكن معه فى خلوته بالجبل فاستخرج هذا الكتاب ونسخ منه نسخة
لنفسه ثم أراها له فلما تصفحها قال : لا نفعك الله به ولم يخرج
هذا الكتاب بعد ذلك لأحد (التكملة ص ٢٨٥) .

(٣٤) احسان عباس : مرجع سابق ص ٥٥ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٤٤ .

(٣٦) الصلة ص ٤٦٥ .

(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٤ .

آراء ابن مسرة ، فأمر باعتقال تلاميذه وطلب منهم التبرؤ من أفكارهم علنا ، وأحرق كتبهم التي نسخوها من كتبه خارج مسجد قرطبة .

ثم جاء عهد الخليفة الحكم المستنصر فخفت حدة ملاحظتهم بعض الشيء نظرا لاهتمام هذا الخليفة بالعلوم العقلية ومنها الفلسفة إلى جانب العلوم الدينية . ولكن ما إن جاءت خلافة ابنه هشام المؤيد الذي تولى حجابته المنصور بن أبي عامر حتى عادت ملاحظتهم من جديد - حيث كان المنصور شديدا على المشتغلين بالفنسة - وتم تعيين ابن زرب قاضيا للجماعة ، فاهتم بالكشف عنهم وتتبعهم واستتابتهم فتأب على يديه عدد منهم وأحرق ما وجدته من كتبهم وكان ذلك في حدود سنة ٣٧٠ هـ (٣٨) .

وفي سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٩م اكتشفت مؤامرة ضد الخلافة الأموية وكان من بين المتهمين فيها عبد الملك بن منذر بن سعيد البلوطي القاضى المشهور في عهد الناصر والمستنصر وقد حكم على عبد الملك بالقتل والصلب حيث اتهم بأنه معتزلى وأنه ضم ثلاثة من إخوته وهم سعيد وعبد الوهاب والحكم إلى مذهب ابن مسرة ، وأخذوا يبثونه في قرطبة ، وساعدهم في ذلك نظام الخلوة التي أقامها ابن مسرة بعيدا عن العاصمة في جبل قرطبة . وتكوين مقر آخر لأتباع المذهب في مدينة بجاية (٣٩) .

وكان هناك أناس انضموا إلى مذهب ابن مسرة دون أن يلتقوا به أو يتلمذوا على يديه ومنهم طريف الروطى ، وأضحى بن سعيد وكانا من

(٣٨) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ ، د. محمود حماية :
ابن حزم ومنهجه ص ٣٩ ، د. إحسان عباس : مرجع سابق
ص ٥٨ .

(٣٩) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٨١ - ١٨٢ .

أهل الزهد والخير وقد ألف بعضهم كتابا فى أخبار ابن مسرة وأصحابه
نقل عنه ابن الأبار فى التكملة (٤٠) .

ومن أشهر أتباع ابن مسرة وتلاميذه أيضا : إلياس بن يوسف
الطليطلى ت ٣٢١ هـ ، وأخوه عون بن يوسف الطليطلى ، وخلييل
ابن عبد الملك (ت ٣٢٣ هـ) الذى تفقه بكتب ابن مسرة وضبطها وكان
يجاهر بالقول بالاستطاعة والتقدير والتأويلات التى تفسر لنا شيئا من
تأويلات ابن مسرة كقوله إن الصراط هو الطريق أى الإسلام ، والميزان
هو عدل الله (٤١) .

وأيوب بن سليمان بن اسماعيل الطليطلى ت ٣٤٣ هـ وكان قديم
الجوار لابن مسرة طويل الملازمة له (٤٢) ، ومحمد بن مفرج المافرى
(ت ٣٧١ هـ) الذى لم يقف عند حد الاعتقاد بالمذهب وإنما كان يدعو
إليه (٤٣) ، ومحمد بن فضل الله بن سعيد الذى تفقه بكتب ابن مسرة ،
واحمد بن وليد (ت ٣٧٦ هـ) وهو من أهل بجانة وكان من الذين استتابهم
القاضى محمد بن بيقى (٤٤) ، ورشيد بن فتح الدجاج من أهل قرطبة
(ت ٣٧٦ هـ) وكان يتهم بمذهب ابن مسرة ولما توفى صل عليه القاضى
محمد بن بيقى ودفن بمقبرة قريش ويظهر أنه استتابه (٤٥) .
وأبان بن عثمان (ت ٣٧٧ هـ) من أهل شذونة وكان نحويا لغويا ،

(٤٠) التكملة ص ١٢ ، ٣٤٦ .

(٤١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٣٩ .

(٤٢) ابن الأبار : التكملة ص ١٩٩ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨١ - ٨٢ ترجمة رقم (١٣٣١) .

(٤٤) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٥٣ ترجمة (١٨١) .

(٤٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ١٤٧ - ١٤٨ ترجمة

(٤٣٩) .

لطيف النظر . جيد الاستنباط ، بصيرا بالحجة متصرفا في دقيق العلوم ،
حسن الشعر ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة (٤٦) .

وعبد العزيز بن حكم الأموي (ت ٣٧٨ هـ) وكان ماثلا إلى الكلام
والنظر وقد غص منه انتحاله لمذهب ابن مسرة كما يقول
ابن الفرضي (٤٧) ومحمد بن أحمد بن حمدون القرطبي المعروف بابن الإمام
(ت ٣٨٠ هـ) وكان مشهورا باعتقاد مذهب ابن مسرة يجاهر به ولا يتستر ،
وكان مولعا بالتشريق في صلاته (٤٨) .

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسي القرطبي (ت ٣٨٢ هـ)
وأصله من جيان وكان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة ويبدو أنه تاب
عنه (٤٩) .

وآخر من عرف من أصحاب ابن مسرة اسماعيل بن عبد الله الرعيني
وهو متأخر عن الجيل الثاني من أتباعه ، وقد أدركه ابن حزم ولكنه لم يلقه
وقال عنه « وكان من المجتهدين في العبادة المنقطعين في الزهد » (٥٠) .
وقد أحدث في المذهب أقوالا نفرت سائر من بقى من أتباعه منه وكفروه
لذلك إلا القليل منهم ومنها قوله : إن الأجساد لا تبعث أبدا وإنما تبعث
الأرواح ، وأن الإنسان حين يموت تلقى روحه الحساب ، ويصير إما إلى
الجنة وإما إلى النار ، وأنها لا تبعث إلا على هذا الوجه أبدا .
وقوله : إن العالم لا يفنى أبدا ، وكان لا ينسب الفعل إلى الله

-
- (٤٦) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٢ ترجمة (٥٤) .
(٤٧) المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٩ ترجمة (٨٣٦) .
(٤٨) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٩٣ ترجمة (١٣٦١) .
(٤٩) المرجع السابق ج ٢ ص ٩٦ ترجمة (١٣٦٦) .
(٥٠) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

وينزعه عن ذلك ، ويرى ان العرش هو الذى يدير العالم وينسب قوله هذا إلى ابن مسرة ويستشهد على ذلك بأقوال فى كتبه .
ولكن ابن حزم يدافع عن ابن مسرة فى ذلك قائلا : « ليس فيها لعمري دليل على هذا القول » ويذكر انه عرض هذه الأقوال على ابن لإسماعيل فأنكرها ، ولما برىء منه أتباع ابن مسرة بقيت ابنة له تتبعه وكانت متكلمة ناسكة مجتهدة (٥١) .
ويذكر ابن حزم أيضا أنه رأى من أصحاب إسماعيل من يصفه بفهم منطق الطير ، وبأنه كان ينذر بأشياء قبل أن تكون فتكون .
ويبدو أن إسماعيل قد حاول تكوين مذهب جديد يكون إماما له ونادى بمبادئ جديدة وأنه اتبعه أناس على هذا المذهب ويستشف ذلك من قول ابن حزم : « وهناك أمور لا شك فيها وهى أنه كان عند فرقتة إماما واجبة طاعته ، يؤدون إليه زكاة أموالهم . وكان يذهب إلى أن الحرام قد عم الأرض ، وأنه لا فرق بين ما يكتسبه المرء من صناعة أو تجارة أو ميراث وبين ما يكتسبه من الرفاق ، وأن الذى يجلب للمسلم من كل ذلك ثوته كيئما أخذه هذا أمر صحيح عندنا عنه يقينا ، وأخبرنا عنه بعض من عرف بالطن أمورهم أنه كان يرى الدار دار كثر مباحة دماؤهم وأموالهم إلا أصحابه فقط ، وصح أنه كان يقول بنكاح المتعة » (٥٢) .

وبالرغم من كل المحاولات التى بذلت فى سبيل القضاء على هذا المذهب سواء من الخلفاء أو الفقهاء المالكية إلا أن ذلك لم يؤد إلى منع بعض مبادئه إن لم يكن كلها من البقاء لتأخذ فى الانتشار بعد ذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجرى لتحدد بدقة ووضوح ملامح الحياة الصوفية الجماعية فى الأندلس وتطورها (٥٣) .

- (٥١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .
(٥٢) انظر الفصل ج ٤ ص ٢٠٠ ، إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٨ .
(٥٣) بروغنسال : الحضارة العربية من ١٨٢ .

مذهب الخوارج

إذا كان مذهب المعتزلة قد لقي معارضة شديدة في الأندلس ، فإن مذهب الخوارج بلا شك قد لقي معارضة ومقاومة أشد .
ومن المعروف أن مذهب الخوارج وخاصة الإباضية والصفيرية (١) .

(١) الإباضية : تسمية أطلقت عليهم من قبل خصومهم وهي نسبة إلى عبد الله بن إباض الذى اشتهر بالدفء عن المذهب . ومؤسسه الحقيقي هو الإمام جابر بن زيد أستاذ عبد الله ، وقد استخدم أسلوب التقية الدينية في البصرة ، وعرف بأنه أحد التابعين المحدثين الثقات ومن فقهاء البصرة وعلمائها . (الحياة الدينية في المغرب في القرن الثالث الهجرى ص ١٩٧) ، وهم لا يعتبرون أنفسهم من الخوارج وإنما هم الجماعة المؤمنة ولذلك يتبرأون من فرق الخوارج الأخرى التى حكمت على مرتكبي الكبائر بالشرك وأحلت دماءهم وأموالهم . وقد بين الشهرستاني وغيره من كتاب الفرق آرائهم حيث قالوا : « إن مخالفينا من أهل القبلة غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكرام عند الحرب حلال وما سواه حرام ، وحرام قتلهم ، وسبيهم في السر غيلة إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة ، وقالوا إن دار مخالفينهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى ، وأجازوا شهادة مخالفينهم على أوليائهم وقالوا في مرتكبي الكبائر إنهم موحدون لا مؤمنون » (الملل والنحل ص ١٣٤ ، مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٧١) .

وفى هذه الآراء نلمس مدى المسألة والاعتدال الذى اتسم به الإباضية بالقياس إلى الفرق الأخرى من الخوارج التى كفرت المسلمين واستباححت دماءهم وأموالهم وأعراضهم (انظر د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٠١) .

قد وجد له مجالا وصدى فى بلاد المغرب ، ووجد أتباعه فيها مجالا خصبا لبث أفكارهم وتشريعاتهم بعيدا عن قبضة الخلافة ، وأقبل عليه الكثير من البربر لأنه كان يتلائم مع نزعتهم وعقلياتهم وطبيعتهم بما فيه من بساطة ووضوح من ناحية ، وصلابة وتشدد وقوة مراس من ناحية أخرى .

الصفرية : أصحاب زياد بن الأصغر ، وقيل سموا بذلك نظرا لاصفرار وجوههم نتيجة لكثرة العبادة . ومبادئهم فى الجملة كمبادئ الأزارقة فى أن مرتكبي الكبائر مشركون ، غير أنهم لا يرون قتل مخالفينهم مثل الأزارقة ، وهم يقولون بموالاته عبد الله بن وهب الراسبي وحرقوق بن زهير السعدى وأتباعهما من المحكمة الأولى ويقولون بإمامة أبى بلال مرداس الخارجى وعمران بن حطان السدوسى بعده (الفرق بين الفرق ص ٧٠ - ٧١ ط ٢ بيروت سنة ١٩٧٩م) .

وقد أشار الشهرستانى إلى الخلاف بين الصفرية من ناحية والأزارقة والنجدات والإباضية من جهة أخرى فقال « إنهم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقاد ولم يستقلوا الرجم ، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم فى النار ، وقالوا التقية جائزة فى القول دون العمل . وأما قضية الإيمان والشرك والبراءة عند الصفرية فيلخصها قول نسب يزيد « نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندرى لعننا خرجنا من الإيمان عند الله . والمشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بانكار النعمة ، وكفر بانكار الربوبية والبراءة براءة من أهل الحدود سنة وبراءة من أهل الجحود مريضة » (الملل والنحل ص ٢٥٠ - ٢٥١ تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١م) .

ويشير ابن خلدون إلى شيء من ذلك فيقول : « ثم نبضت فيهم عروق الخارجية فدأنوا بها ولقنوها من العرب النائلة ممن سمعها بالعراق ، وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفيرية . . . الخ » (٢) . وقد ساهمت الظروف والأوضاع السياسية والاجتماعية التي كان يمر بها المغرب في تمهيد السبيل لانتشار مذاهب الخوارج فيه ، والمتصفح لأسماء القبائل التي انضمت للمذاهب الخارجية يجد أنها شملت البتر والبرانس أصل البربر . فقد اعتنقت زناتة المذهب الإباضى ، وساندت الدولة الرستمية الإباضية ، مما دفع أحد ولاتها إلى القول « بأن هذا الدين إنما قام بسيوف نفوسة وأموال زناتة » (٣) .

وكذلك قبيلة نفوسة التي تعد من أكبر قبائل البربر ، وقد اعتنقت المذهب الإباضى ، وقبيلة لماية التي اعتنقت المذهب الإباضى أيضا . وقبيلة هوارا التي تنتمي للبرانس التي اعتنق أغلبها المذهب الإباضى (٤) . وإلى جانب المذهب الإباضى التي انتشر في مناطق كثيرة من بلاد المغرب فقد وجد المذهب الصفرى الذي انتشر أيضا واعتنقه العديد من البربر وخاصة قبائل مكناسة ومطفرة وبرغواطة وكانت أول ثورة خارجية تندلع على أرض المغرب سنة ١٢٢ هـ بقيادة ميسرة المدغرى (المطغرى) ويعرف بالحقير بائع الماء بسوق القيروان (٥) .

وقد استطاع ميسرة أن يقود جموع أتباعه من الخوارج الصفيرية وغيرهم ليقضى على ولاة طنجة وإقليم السوس وأتبعه هؤلاء ويأيعوه بالخلافة وخاطبوه بأمر المؤمنين وفشت دعوته في سائر القبائل بافريقية (٦) . ويذكر أن أتباعه كانوا

(٢) العبر ج ١ ص ١١٠ ط بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٣) الحياة الدينية في المغرب ص ١٥٤ - ١٢٥ .

(٤) العبر ج ٦ ص ٥٨٦ .

(٥) الكاهل ج ٥ ص ١٩١ - ١٩٢ ، العبر ج ٤ ص ١٨٩ ، تاريخ افتتاح

الاندلس ص ١٤ .

(٦) عن هذه الثورة انظر السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ١٥٤ - ١٥٥ .

يطلقون رموسهم تشبها بالخوارج من الأزارقة وأهل النهروان من أتباع

عبد الله بن وهب الراسبي (٧) .

وقد استطاع المذهب الخارجي بشقيه الإباضي والصفري أن يحقق

نجاحا سياسيا بإقامة دولتين خارجيتين إحداهما دولة صفرية في سجلماسة

في المغرب الأقصى سنة ١٤٠هـ والأخرى إباضية في المغرب الأوسط وهي

الدولة الرستمية سنة ١٦٠هـ (٨) .

وقد ذكر ابن خلدون أسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش

طارق الذي دخل الأندلس وهي مطفرة ومدبونة ومكناسة وهوارة وكلها

متفرعة من زناتة (٩) . ومن المعروف أن قبيلة مطفرة كانت تعتنق المذهب

الصفري ومنها ميسرة المدغري الذي قام بأول ثورة خارجية في المغرب

وامتد صداها إلى الأندلس .

ولا شك أنه كان من بين البربر الذين دخلوا الأندلس من كان يعتقد

المذاهب الخارجية وان كانت المصادر لم تورد لنا كثيرا من ذلك . والدليل

على ذلك أن هناك ثورات بربرية رفعت شعار الخوارج وتشبهت بهم

ومن أخطرها ثورة ابن هدين أو زقطرتق سنة ١٢٥هـ التي حلق فيها البربر

رموسهم اقتداء بميسرة « ولكي لا يخفى أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا »

وقد ذكر ابن حزم : أن النكارية كانوا هم الغالبين على خوارج

الأندلس (١٠) .

ويذكر دوزي : أن رجوع ثورة البربر بتأييد ميسرة في إفريقية كان

شديدا في إسبانيا حيث رحب بربرها بمبعوثي الخوارج الوافدين من

إفريقية لدعوتهم إلى حمل السلاح لاستئصال شأفة العرب فنشبت فتنة

سياسية دينية كفتنة الإفريقية (١١) .

(٧) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٣٢ ، د. السيد سالم : تاريخ :

تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٥٤ .

(٨) الحياة الدينية في المغرب ص ١٢٧ ، ابن الأثير ج ٦ ص ٨ .

(٩) القيروان المبتدأ والخير ج ٦ ص ١٠٦ وبعدها .

(١٠) أخبار مجموعة ص ٣٩ — ٤٠ ، الفصل : ج ٤ ص ٢٠٢ .

(١١) تاريخ مسلمي إسبانيا ج ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ ترجمة د. حسن

حبشي دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ م .

التصوف

هناك ناحية جديرة بالبحث في الحالة الدينية وهي ناحية التصوف ، وكما نشأ التصوف في المشرق في القرن الثاني ، كذلك نشأ في الأندلس في نفس القرن بعد الفتح غير أن التصوف في المشرق كان مزيجاً من التعاليم الإسلامية وتعاليم الفرس واليونان والهنود وتصوف الأندلس كان مزيجاً من تعاليم الإسلام والأفلاطونية الحديثة والتعاليم اليونانية والرومانية وما جاء من قبل المشرق من تعاليم فارسية وهندية ، حيث كانت الأندلس تجاور هذه البلاد .

يضاف إلى ذلك أن الأندلس قد كثر فيها العنصر البربري ، وقد اشتهر هذا العنصر من قديم بأن أهله أصحاب خيال واعتقاد بالمقاييس وسرعة تصديق أصحاب الدعاوى الغيبة ولا ننسى ما نقيه العرب عند فتحهم للمغرب من شدة مقاومة هذا العنصر وخاصة على يد امرأة تدعى (الكاهنة) حيث التفت حولها الكثيرون ، وقاوموا العرب مقاومة شديدة . وحتى الآن في كثير من بلاد المغرب لازال للبربر شهرة قوية في فتح الكتاب ، وكشف الكنوز وقراءة الكف والتنجيم وإدعاء معرفة المستقبل وهي أشياء من قبيل التصوف بعد أن يتدلى ولذلك كله اتسعت عند الأندلسيين حركة التصوف (١) .

وأول من عرف تصوفه في الأندلس ابن مسرة محمد بن عبد الله المولود سنة ٢٩٦ هـ وقد عرف أبوه بالاعتزال وكان ذلك المذهب قليلاً وغير مرغوب فيه فاضطر أن يخفى ذلك . وأورث هذا المذهب لابنه فاعتزل الناس قبل الثلاثين في خلوة بجبل قرطبة يتعبد فيه ويبث هذا المذهب لأتباعه . وساعدته عزلته على سعة الخيال وعمق التفكير والصفاء ولكن ما لبث أن انكشف أمره فاتهم بالزندقة فخرج من الأندلس مظهراً أنه يريد الحج

(١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٨ - ٦٩ ، إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٤ .

(٢) (م ١٣ - المجتمع الأندلسي) .

حتى كانت خلافة عبد الرحمن الناصر فعاد مرة أخرى وأخذ فى نشر مذهبه فازداد أتباعه ، ويبدو أنه اتخذ التقية وسيلة لإخفاء حقيقة مذهبه الذى يجمع بين الاعتزال والتصوف (٢) .

ويبدو أن تطور مذهب الاعتزال وانتشاره فى الأندلس قد ارتبط بحياة الزهد والتصوف (٣) .

وهنا يصح لنا ان نتساءل هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوف ، أو أن ميله الطبيعي ومزاجه وتعاليم النصرى الإسبان والفلاسفة اليونان هى التى أنتجت ذلك ؟ فيكون التصوف الأندلسى مستقلا عن التصوف فى المشرق . ليس بين أيدينا ما يقطع بالإجابة خصوصا وقد كان فى الأندلس قبل الإسلام زهاد من الرهبان المسيحيين انقطعوا للعبادة . ولا مانع من أن يكون التصوف الأندلسى قد أخذ من هذا وذاك . وعلى أية حال فقد كان ابن مسرة أول من عرفنا فى الأندلس من المتصوفة وكان من تلاميذه أبو بكر محمد الهاشمى الذى أخذ عنه محبى الدين ابن عربى وكان متقشفا زاهدا ولم نعرف له كتباً ، وعاصره صوفى آخر يدعى أبو عبد الله القرشى الهاشمى الذى نسبت إليه أقوال صوفية كثيرة منها « من لم يدخل فى الأمور بلطف الأدب لم يدرك مطلوبه فيها » ، « من لم يراع حقوق الإخوان يترك حقوقه حرم بركة الصحبة » وقد توفى ببيت المقدس سنة ٥٥٩ هـ وكان الناس يتبركون بضريحه هناك (٤) .

ويرى أسبن بلاسيوس أن حياة الزهد كانت هى الطريقة الوحيدة المثلى والممكنة فى عصر الخلافة لن يريدون الفرار من سيادة رجال

(٢) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٦٩ .

(٣) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ١٧٥ .

(٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٧٠ .

الدين المالكية في الأندلس ، وأن يثثوا تعاليمهم في دائرة ضيقة من الأتباع والمؤيدين دون أن يتعرضوا لخطر جسيم .

واستطاع هؤلاء الزهاد بورعهم أن يكتسبوا مكانة عند السلطان والفتهاء والعمامة ، واستعانوا بالتفسيرات الرمزية للتوفيق بين النصوص وبين الأفكار الباطنية المشرقية (٥) .

وكان هؤلاء يشكون على نحو ما رواد الحركة الصوفية فاعتزلوا الحياة في المدن ، واعتكفوا في الجبال والغابات ، واجتهدوا في العبادة والطاعة وحرمان النفس من الشهوات والملذات ، وآثروا الفقر على الغنى وكانوا يقطعون الليل في تلاوة القرآن ، والنهار في الصيام ولا يكون إلا القليل ، ويصبرون على المرض ويفضلون حياة العزوبية ، ويخرجون عما بأيديهم للفقراء ، يفتدون الأسرى ، ويقطعون حياتهم في العزلة والتأمل والفكر والعبادة ، أو يرابطون في الثغور لمحاربة النصاري طلباً للشهادة .

وكان المؤرخون وكتاب التراجم يطلقون عليهم العباد والنسك والزهاد والصوفية وكان الكثيرون منهم قد قطعوا كل صلة لهم بالحياة العمارة في مجتمعاتهم بينما أبقى البعض منهم على صلته بالأوساط العلمية والدينية . وتميزوا بملابسهم الغربية الخشنه ، وحياتهم القاسية ، وممارسة الأعمال اليدوية للتعيش منها ، ومن حين لآخر يشاركون في الحملات الحربية الموجهة ضد النصاري .

وقد قدم لنا الضبي في كتابه بغية المتبس نهوذجاً حياً لواحد من هؤلاء الزهاد ويدعى محمد بن طاهر القيسي فيقول عنه « ورع فاضل من أهل بيت جلاله وصلاح برع بخصاله المحمودة فكان في نفسه فقيراً عالماً زاهداً خيراً ناسكاً مثيلاً في طلب العلم ، ورحل في القماسة إلى

(٥) البغى بروغنيسال : الحضارة الغربية ص ١٧٥ ، (٧) .

قرطبة فروى الحديث بها وتفقه بأهل الشورى المفتين وناظرهم وأخذ بحظ وافر من العلم ، ثم ارتحل إلى المشرق عند إتمام الثلاثين فسكن الحرمين ثمانية أعوام يتعيش من عمل يده بالنسخ ، ورحل إلى بيت المقدس ثم إلى العراق ، ودخل مدينة واسط ، واستكثر من لقاء العلماء والفقهاء ، وصحب الأخیار والنساک وتألفهم واقتدى بهم ولبس الصوف وقنع بالقرص وتورع جدا وأعرض عن شهوات الدنيا فأصبح عالما عاملا منتقع القرين ، قد جريت منه دعوات مجابة ، وحفظت له كرامات ظاهرة ، يطول القول في تعدادها حياها عنه رواة صدق .

ثم قدم تدمير سنة ست أو سبع وثلاثمائة ولم يزل بمدينة مرسية قاعدة تدمير وطنه ، ونزل خارجا عنها في القرية المنسوبة إلى بنى طاهر ، وابتنى لنفسه بيتا سقفه بحطب الشعر أو الطرفاء (٦) أوى إليه وكانت له هناك جنيئة يعمرها بيده ويقتات بما يزرعه فيها من البقل والثمر . وكان لا يدع في خلال ذلك الجهاد مع محمد بن أبى عامر وقواده وشهد معه فتح مدينة سمورة ، وقلمرية من قواعد مملكة جليقية المسيحية ثم ترك قرينته ورحل إلى الثغر . وواصل الرباط بفروجه المخوفة .

وكان ذا بأس وشجاعة وثقافة تحدث بها أهل الثغر في حكايات عجيبة وظل مرابطا بطليبة حتى استشهد سنة ٣٧٩هـ (٧) .

وثمة نموذج آخر وهو عثمان بن محامس ت ٣٥٦هـ / ٩٦٦م قال عنه الضبى « زاهد عالم مشهور بالعزوف عن الدنيا من أهل استجة

(٦) ورد في نفع الطيب بحطب السدر ، وفي هامشه بحطب الشعراء والسدر شجر النبق ، والشعر والشعراء شجرة ليس لها ورق ولها أهداب تحرص عليها الأبل أشد الحرص (بغية الملتمس ص ٨٤ هامش ٢) .

(٧) الضبى : بغية الملتمس ترجمة رقم (١٥٤) (ص ٨٢ - ٨٤) .

كتب على باب داره (يا عظمنا لا تطمع) « (٨) » .
ويقول عنه ابن الفرضى « كان حافظا للتفسير ، عالما بأخبار
الدهور ، وله فى ذلك كتاب منقل أكثره عن ظهر قلب وتوفى بحمىه الله
سنة ست وخمسين وثلاثمائة » (٩) .

وخلال عصر الخلافة بدأت الأندلس تستقبل أعدادا من هؤلاء
النسك الجوالين الذين أخذوا يزدادوا فى القرون التالية وبخاصة فى
شرق الأندلس ومملكة غرناطة ومن هؤلاء ابراهيم بن علق الديلمى
الخراسانى ، وأحمد بن محمد بن صالح الأنطاكى (١٠) .

ونجد فى هذه الفترة نزعة زهد واضحة عند بعض الشعراء
مثل ابن أبى زمنين والغزال وابن عبد زيه وأبى بكر الزبيدى وغيرهم (١١)
ونحس فيها بأفكار شاعر الزهد أبى العتاهية ونظرته إلى الحياة والموت .
ومن الغريب أن نحسكم بأن شعراء الأندلسيين قد استعاروا هذه
الموضوعات من أبى العتاهية أو اقتبسوها من شعره لأن الزهد نزعة لها
أصولها الاجتماعية ولا تجيء كلها اقتباسا ، فموضوع الحياة والموت مشترك
بين الناس جميعا ، ولكن أثر أبى العتاهية فى تقوية هذه النزعة الزاهدة
فى الشعر الأندلسى لا يمكن إنكاره فعندما تنظر إلى الزبيدى فى قوله :

تفكر فى المهات فعن قريب ينادى بالرحيل إلى الحساب

وقدم ما ترجى النفع منه لواء الخلد واعمل بالكتاب

ولا تغتر بالدنيا فمما قريب سوف تؤذن بالخراب

.....

(٨) الضبى : بغية الملتبس ترجمة ١١٩٤ ص ٤١٣ .

(٩) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ص ٣٠٥ ترجمة ٩٠١ .

(١٠) انظر ترجمتهما فى تاريخ علماء الأندلس رقم ٥٠ ص ٢٠ ، ورقم ٢٠٤
ص ٦٢ - ٦٣ .

(١١) راجع عن اشعار الزهد عند الغزال وكذلك ابن عبد زيه ظهر الإسلام
ج ٣ ص ١٠٩ - ١٢٣ .

.....

فإننا نجده قد اتفق في الشكل والموضوع بل والقافية مع قول
أبي العتاهية :

لذوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب

وإذا نظرنا إلى قول ابن أبي زئبج :

أيها المرء إن جنياك بحر طامح موجه فلا تأمنها
وسبيل النجاة فيها مبين وهو أخذ الكفاف والقوت منها (١٢) :

والى قول أبي العتاهية :

كل أهل الدنيا تعوم على الغفلة

منها في غمر بحر عميق

يتبارون في السباح فهم ما

بين ناج منهم وبين غريق

فإننا نجد الموضوع واحدا بينها وإن اختلفت الصورة فالصورة
عند أبي العتاهية غير تلك التي يرسمها ابن زئبج وهي أقرب إلى أن تكون
أندلسية أصيلة من تلك الصورة التي رسمها لنا الزبيدي في أبيات
السابقة (١٣) .

ويذكر د. إحسان عباس : أن شعر الزهد في الأندلس قد ولد في
أحضان ثورة الربض التي قامت ضد الحكم بن هشام ، حيث كان
الفقهاء والأتقياء ينظمون أشعار الزهد ، ويتغنون به ليلا ، ويعرضون
فيها بالحكم ، ثم أخذ هذا النوع يقوى ردا على الحياة اللاهية ،
وانقيادا لدواعي التقى أيام الشيخوخة ، كما نرى في زهديات الغزال
ومحصات ابن عبد ربه — وهي قصائد نظمها بعدد أن تقدمت به السن

(١٢) الثعالبي : بتيمة الدهرجة ١ ص ٤١٠ .

(١٣) إحسان عباس : الأدب الأندلسي ص ٩٤ — ٩٥ .

لينفض بها تصائد اللهو التي قالها أيام شبابه (١٤) ووجد من الاتقياء من تخصص في هذا النوع من الشعر مثل ابن أبي زمنين صاحب ديوان (النصائح) ، وقاسم بن نصير الذي ألف كتابا في شعر الفقهاء تكلمة لهذا الاتجاه الذي كان قد انتهجه في شعره (١٥) .

ولكننا نعتقد أن شعر الزهد كان موجودا قبل ثورة الرضخ لأن الزهد ليس من الأمور التي تحدث فجأة في المجتمع ، فأى مجتمع من المجتمعات يجتمع فيه الجانبان جانب الترف واللهو وجانب الزهد والتصوف ، وقد يتغلب أى منهما على الآخر في بعض الفترات لكن لا يخلو الأمر من وجود أحدهما إلى جانب الآخر ولكن بدرجات مختلفة حسب ظروف كل مجتمع من المجتمعات ودرجة تدينه .

ودليل ذلك أننا نجد في كتب التراجم الأندلسية أسماء لزهاد وجدوا حتى منذ بداية دخول المسلمين إلى الأندلس وقال البعض منهم أشعارا في الزهد والحكمة (١٦) .

وقد كان تيار الزهد في الأندلس ثم التصوف بعد ذلك رد فعل شديد لتيار الإسراف في الترف واللهو الذي جذب الكثيرين فكان من الطبيعي أن يعاود صوت هذا التيار الذي يهون من شأن الدنيا ويبصر بحقيقتها ويدعو إلى الآخرة في مقابل صوت الفريق الذي ينادى باللذة والمتعة .

ويبدو أن عدد الزهاد في الأندلس كان من الكثرة بـمكان حتى إن

(١٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢٢ .

(١٥) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص ٧٣ - ٧٤ .

(١٦) راجع تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، بغية المنتسب في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي ، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحبيدي ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٥٧ وبمدها .

ابن بشكوال - حسب ما ذكر ابن الأبار - صنف كتابا بعنوان (زهد الأندلس وأئمتها) ولكنه لم يصل إلينا (١٧) .
وإذا كان الأدب هو ظل الحياة في المجتمع وهو المرآة التي تنعكس عليها فإننا نستطيع من خلال الكثير من النصوص أن نتبين بوضوح جانب الزهد في المجتمع الأندلسي .
ومن هنا فإن أشعار الزهد هي تلك تكون أضعاف مثلاتها في الشرق ولا غرابة في ذلك حيث كان المجتمع مليئا بوسائل الترف وأسباب الترف ومن هنا كان رد الفعل قويا ، فإذا كان الخليفة الناصر مثلا محبا للجوارى والبهاء ، فمنا في مظاهر الإبهتن والترف محبا لاقتناء الجوارى والقيان ، فإن ابنه عبد الله كان شديد الزهد مبتعدا عن ترف الحياة وامتعاها مستنكرا لإسراف أبيه في الترف (١٨) .
يقول عنه الحميدى والضبي (١) وكان فقيها شافعيًا شاعرا إخباريا متنسكا (١٩) .

(١٧) انظر التكملة لكتاب الصلة ص ٧١٨ .
(١٨) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٥٧ دار العلم للملايين بيروت . وقد ذكر الدكتور الشكعة أن استنكاره لإسراف أبيه وإغراقه في الإقبال على الدنيا دفع به إلى التآمر عليه للتخلص منه ولكن مؤامره باءت بالفشل فقبض عليه وقتله أبوه بيديه يوم عيد الأضحى . والحقيقة أن هذه المؤامرة كانت بسبب حسده لأخيه الحكم على العهد إليه بالخلافة ، حيث تسول له بعض خاصته ومنهم الفقيه أحمد بن عبد البر وأحمد بن العطار ويأسر الفتى وغيرهم قتل أبيه قبل أن يسلم الحكم لأخيه فلما كشف أمر هذه المؤامرة وقتل عبد الله من شارك معه في ذي الحجة ٣٢٨ هـ (انظر : ابن الأبار : رحلة الأندلس ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٨ ، تحقيق د. حسين مؤنس ط ٢ سنة ١٩٨٥ دار المعارف بمصر ، محمد دياب : تاريخ العرب في إسبانيا ج ١ ص ٣٥٣ - ٣٥٩ مصر سنة ١٨١٤ م) .
(١٩) جذوة القتبس ص ٢٦٢ - ترجمة (٥٥٥) ، بقية المتمس ص ٢٤٧ ترجمة (٩٣٢) .

الفصل الرابع

الفصل الرابع

مظاهر الحياة الاجتماعية

Handwritten text, possibly a signature or name.

Handwritten text, possibly a date or short phrase.

Handwritten text, possibly a date or short phrase.

العمارة

أولاً - العمارة الدينية

المساجد

اقترن عصر الفتوحات الإسلامية للبلاد الأجنبية خارج شبه الجزيرة العربية بإنشاء مراكز عمران إسلامية (أمصار) كان الغرض منها أن تكون قواعد حربية ومراكز لجيوش المسلمين الفاتحة من ناحية ، ولصبغ البلاد المفتوحة بالصبغة العربية الإسلامية من ناحية أخرى .

وقد كانت المساجد هي الأساس الذي اعتمد عليه الفاتحون المسلمون في صبغ المدن المفتوحة بالصبغة الإسلامية ، حيث يصبح المسجد الجامع بمرور الزمن هو مركز المدينة وقلبها النابض . فهذه تتفرع الأزقة والطرق المؤدية إلى أبوابها ، وحول ساحته أو قريبا منه تقام الأسواق والفنادق والقياسر والحمامات وغيرها ، وهو مركز الاجتماعات السياسية ، ومقر توزيع الجيوش ، ومكان عقد الحلقات العلمية ، والفصل في الخصومات وغير ذلك ، فضلا عن كونه مكان إقامة شعائر الإسلام . فليس غريبا أن يسيطر المسجد في المدن الإسلامية في تلك العصور على مناحى الحياة . وهكذا كان بناء المسجد الجامع في الإسلام أساس الحركة العمرانية في المدن الإسلامية .

وعندما فتح المسلمون الأندلس شاطروا الأسباب في كنائسهم في قرطبة وغيرها حيث أقاموا في جزء من كنيسة (شنت بنجنت) الكبرى بقرطبة مسجدا بسيطا متواضع البناء ، وقام حنث الصنعاني وأبو عبد الرحمن الحبلى التابعيان بوضع قبلته بأيديهما ، وترك القسم الآخر للأسبان يقيمون فيه شعائرتهم .

فيذكر المقرئ نقلا عن الرازي : (أنه لما افتتح المسلمون الأندلس ،
امتثلوا ما فعله أبو عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد عن رأي عمر
من مشاطرة الروم بالشام ، فنكث بهم مثل كنيهة دمشق وغيرها مما أخذ
صالحا ، فشاطر المسلمون في الأندلس أعاجم قرطبة كنيستهم العظمى وكانوا
يسمونها (شنت بنجنت) (سانت فيسنت Sant Vencent) - وكانت
في الأصل معبدا رومانيا - وابتنوا في ذلك الشطر مسجدا جامعا ،
وبقى الشطر الثاني بيد النصارى الخ « (١) .
كما أقام المسلمون جامعا بالجزيرة الخضراء على انقاض كنيسة
قديمة على يد عبد الله بن خالد ، وكذلك جامعا في طرطلة .
وإذا تحدثنا عن المساجد التي بناها الأمويون في الأندلس فإننا
نشجد الكثير (٢) وسوف نقتصر على ذكر أشهرها نسبيلا .

١ - مسجد قرطبة : يعتبر المسجد الجامع بقرطبة من أروع أمثلة
العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصر الوسيط . قال عنه
الخميري : إنه الجامع المشهور أمره ، الشائع ذكره ، من أجل مصانع
الدينية وكبر المساحة ، وإحكام صنعة ، وجمال هيئة ، وإتقان بنية .
تتم به الخلفاء المرابطون فزادوا فيه زيادة جملة ، وتنهى إثر
تتميم حتى بلغ الغاية في الإتقان . فصار يحار فيه الطرف ، ويعجز عن

(١) : نصح الطبيب : ج ١ ص ٢٥٦ ط الأزهرية ، وانظر البيان المغرب ج ٢
ص ٢٢٩ . وكان له عدة تسميات كالمسجد الجامع ، والجامع الأعظم
والجامع المبارك والجامع المكرم .

(٢) : يذكر أن عدد المساجد في عهد عبد الرحمن الداخل بلغ ٤٩١ مسجدا
ولا شك أن معظمها كان مساجد صغيرة ووصلت في عهد المنصور
ابن أبي عامر إلى ١٦٠٠ مسجد في رواية ، ٣٨٢٧ في رواية
الشمري ، (انظر : الدهيري : الرؤى المعطّار ص ١٥٧ ،
الشمري : نصح الطبيب ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ ، ويذكر ابن غالب
نقلا عن ابن حيان أن مساجد قرطبة بلغت عند انتهاء اكمالها
١٨٣٦ مسجد ، (انظر فرحة الانفس ص ٢٧) .

حسنة الوصف ، فليس في مساجد السُّميين مثله تنبيهاً وطولاً
وعرضاً « (٣) .

ولذا أصبح يضرب به المثل في العظمة والفخامة والامتداد والزخرفة .
وقد وصفه الكثير من المؤرخين وصفاً ضافياً كالمقري وابن بشكوال وابن
الخطيب وابن عذاري وغيرهم . وكان يعد مفخرة من مفاخر قرطبة وفي
ذلك يقول القاضي أبو محمد بن عطية :

باربع فائت الأعمار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثننان والزهاء ثالثة والعلم أكبر شىء وهو رابعها (٤)

وقد بدأ بناء هذا المسجد الأمير عبد الرحمن الداخل (صقر
قريش) ، وذلك بعد أن ضاق المسجد القديم - الذي كان جزءاً من
الكنيسة - بالمصلين بعد تكاثر عدد المسلمين الوافدين على الأندلس
وخاصة العاصمة قرطبة ، وشاهد عبد الرحمن ما يعانيه من زحام
ومتاعب بسبب تقارب السقف من الأرض حتى لا يستطيع الواحد منهم
أن يقوم في اعتدال وبخاصة في المؤخرة حيث كان مستوى الأرض
يرتفع كلما اتجهنا شمالاً لأن أرضية الجزء القبلي من المسجد كانت
منحدرة نحو النهر ، ولما كان المسجد يشغل الجزء الشمالي من
الكنيسة فقد كان طبيعياً أن يكون تعليق السقائف من الجهة الشمالية
وليس القبليّة حيث المحراب . وعلى هذا فقد سبب انخفاض السقائف
مضايقات شديدة للمصلين . ومن هنا فقد عزم عبد الرحمن الداخل على
حل هذه المشكلة ، وذلك بضم ما بقي من الكنيسة للمسجد ، وإعادة
بنائه من جديد ليتسع لجميع المصلين ، وليناسب مع عظمة وفخامة
الدولة الجديدة .

(٣) الروض المعطار في خبر الأمطار ص ١٥٣ .

(٤) المقري : فتح الطيب ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ١٤٦ .

ولذا فقد ساوم نصارى قرطبة فى بيع نصيبهم ، وأوسع لهم ،
فرفضوا فى البداية ، فظل بهم حتى وافقوا أخيرا بشرط أن يسمح لهم
ببناء كنيسة لهم خارج الأسوار وشرع فى هدم الكنيسة والمسجد القديم
وبناء جامع قرطبة بأسلوب جديد فى سنة ١٦٨ هـ (٧٨٤ م) ، وتم
بناؤه واكتملت أسواره فى سنة ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) . ويذكر أنه أنفق
على بنائه ثمانين ألف دينار ، واشترى نصيب النصارى بمائة ألف (٥)
وفى ذلك يقول الشاعر دحية بن محمد البلوى مادحاه :

وانفق فى ذات الإله ووجهه

ثمانين ألفا من لجين وعسجد

توزعها فى مسجد اسمه التقى

ومنهجه دين النبى محمد

ترى الذهب النارى فوق سهوكه

يلوح كبرق العارص المتوقد(٦)

وكان المسجد الجديد الذى بناه الداخل على قسمين : قسم
مستوف وهو بيت الصلاة وقسم مكشوف وهو الصحن ، وكان بيت
الصلاة يشتمل على تسع بلاطات تتجه عموديا على جدار القبلة ممتدة
على اثنى عشر عقدا (قوس) فى كل بلاطة ، وتتقوم هذه العقود على
عمد من الرخام جلبت من الكنائس الخيرية (٧) .

وكان الصحن مغروسا بالأشجار حيث عهد عبد الرحمن الداخل إلى

(٥) القرى : نصح الطيب ج١ ص ٢٥٦ ، ٢٦٢ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ص ٣٤٢ ، نصح الطيب : ج٢
ص ٢٦٢ .

(٧) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٨٤
والبلاط أو البلاطة : المساحة الواقعة ما بين أربعة أعمدة .

صعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢ هـ) صاحب الصلاة بالمسجد - وكان على مذهب الإمام الأوزاعي - أن يفرس في صحنه الأستجار ، واتبع أمراء الأندلس وخلفاؤها هذا التقليد بعد ذلك في بقية مساجد الأندلس . ولذلك يقال : إن الأثر الباقي من مذهب الأوزاعي في الأندلس بعد انتشار مذهب الإمام مالك يتمثل في هذا .

وتوفي الأمير عبد الرحمن سنة ١٧٣ هـ قبل أن يتم بناء المسجد فلم تكن له منذنة أو سقائف لصلاة النساء . فحاف ابنه هشام من بعده فأقام له منذنة من خمس فيء (. أربونة) ، وبلغ ارتفاعها إلى موضع الأذان نحو عشرين مترا ، كما أقام في نهايته مما يلي الجوف (الصحن) سقائف للنساء ، كما أمر ببناء ميضأة في شرقيه (٨) .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام زيدت بلاطات المسجد من تسع إلى أحد عشر بلاطاً ليتسع المسجد وذلك سنة ٢١٨ هـ ٨٣٣ م ، وجعل هذين البلاطين الجديدين في سقيفتين ، ووصلها بالسقائف التي كانت معدة لصلاة النساء . وبنى في مؤخرة الصحن سقيفة أخرى ، كما زاد في سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م في بيت الصلاة فأتسع المسجد من جهة القبلة ، وبلغ طول هذه الزيادة نحو خمسين ذراعاً وعرضها نحو مائة وخمسين ، وعدد سواربها ثمانين سارية (٩) . ونقل

(٨) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٢ .

لم يقدر لهذه المنذنة أن تعيش طويلاً حيث تصدعت في آخر عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) فهدمها الخليفة عبد الرحمن الناصر وأقام أخرى بدلا منها ، وقد تمكن أحد المهندسين الأثريين الأسباب من الاهتداء إلى أساسها وكان طول قاعدتها يبلغ ستة أمتار (انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣٨٧) .

(٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

المحراب القديم إلى جدار القبلة الجديد ، وفتح في بيت الصلاة بابين في جانبي المسجد الشرقي والغربي ، بالإضافة إلى البابين القديمين ، فأصبح له أربعة أبواب اثنان في الجهة الشرقية ، وآخران في الجهة الغربية .

وتوفى عبد الرحمن الأوسط قبل أن يتم زخرفة المسجد ، ف جاء ابنه محمد فأمر في سنة ٢٤١هـ (٨٥٥م) « بإتقان طرز الجامع وتتميق تقوشه » ، ثم أمر سنة ٢٥٠هـ بصنع مقصورة خشبية حول المحراب لها ثلاثة أبواب ، ولما تم ذلك صلى فيه فقيل في ذلك موسى ابن سعيد :

لعمري لقد أبدى الإمام التواضعا

فاصبح للادنيا وللدين جامعا

بنى مسجدا لم يبن في الأرض مثله

وصلى به شكرا لذى العرش راعما

فطوبى لمن كان الأمير محمدا

له إذ دعا فيه إلى الله شافعا (١٠)

وفي عهد الأمير المنذر بن محمد أقيم في صحن المسجد بيت المال على غرار بيوت المال في جامع عمرو بالنسطاط والجامع الأموي بدمشق ، كما أمر بتجديد السقاية وإصلاح السقائف (١١) .

وفي عهد أخيه الأمير عبد الله بن محمد أنشأ ساباطا (طريقا مغطى) معقودا على حنايا يصل ما بين القصر والجامع من جهة الغرب ، وفتح إلى المتصورة بابا كان يخرج منه إلى الصلاة ، وهو أول من اتخذ ذلك من أمراء بني أمية ، وتابعه في ذلك من جاء بعده (١٢) .

(١٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٣ .

(١٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤٣ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٨٩ ، فيون شاك : الفن العربي في أسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

وفى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر هُدِّمَت المئذنة القديمة التي
 أُنشِئَتْ هَتَمًا بِمَعْنَى أَنْ تُصَدَّعَتْ ، وَأَمِيمٌ مَكَانَهَا مئذنة جديدة سنة ٣٤٤هـ
 (٩٥٠ م) كَانَتْ تَسْمُو عَلَى شِصَائِرِهِ مَبَانِي قَرْطَبَةِ ، وَيُرَاهَا الْقِسَامُونَ
 مِنْ جِيلِهَا كَانَتْ الْمَطَارِطُ عَلَى مِيَاهِ الْبَنْفَرِ الْهَدْيِيَةِ بِالسُّفُونِ الرَّيْطِمِ بِهَا فِي
 (الآن) عَقْرٍ مَشْهُرًا بِالْحِجَارَةِ الْخَضِيقَةِ ، وَأَجْلَلُ لِهَيْئَتِهَا أَنْ يَنْطَبِقَ الْأَشْفَعُونَ
 بَعْضُهُمَا بَعْدَ الْآخَرِ كَانَتْ مئذنة هَتَمًا ذاتِ مَطْلَعٍ وَاجِبِينَ ، وَلِكُلِّ مَطْلَعٍ
 مِائَةٌ وَسَبْعُ دَرَجَاتٍ ، وَلَا يَلْتَقِي الرَّاقُونَ فِيهَا إِلَّا بِأَعْلَاهَا ، وَبِغِىرِ ارْتِفَاعِهَا
 ثَمَانِينَ ذِرَاعًا حَتَّى مَكَانِ الْمُؤَذِّنِ أَيْ ضَعِيفِ ارْتِفَاعِ الْمئذنة الْأُولَى ، وَمِنْ
 مَكَانِ الْمُؤَذِّنِ إِلَى أَعْلَاهَا عَشْرِينَ ذِرَاعًا ، وَنُصِبَ بِأَعْلَاهَا سَفُودٌ بَارِزٌ
 رُكِبَتْ فِيهِ ثَلَاثُ مَنَاجِيحٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ (١٣) وَبُنِيَ إِلَى جَانِبِ هَذِهِ
 الْمَنَارَةِ حِجْرَةٌ لِلْمُؤَذِّنِينَ (١٤) وَبِهِمْ مَسَاجِدُ كَثِيرَةٌ وَبِهَا مَسْجِدٌ
 كَمَا قَامَ النَّاصِرُ بِتَرْغِيمِهِ ، وَاجْهَةٌ نَيْتُ الصَّلَاةِ الْمَطْلَعَةُ عَلَى الصَّحْرِ بِمَعْنَى
 تَصَدُّعِهَا ، وَأَصْلَحَ الْبَابُ الْمُوجَّهَ لِلتَّصَرُّفِ فِي الْجَنَابِ الْغَرْبِيِّ وَكَانَ يُعْرَفُ
 بِبَابِ الْوُزْرَاءِ (بَابِ سَانَ اسْتِيَانِ) ، وَأَقَامَ عَلَى الصَّحْرِ ظُلَّةٌ لِقَايَةِ النَّاسِ
 مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ تَسْتَدُّ عَلَى كَوَابِلِ عِلْيَ نَمِطِ تِلْكَ الَّتِي تَقُومُ عَلَيْهَا وَاجْهَةٌ
 بِبَيْتِ الصَّلَاةِ .

وقد سجل أعماله هذه على لوحة يجوار المدخل في البلاط
 الأوسط ونصها : « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . . . أَمْرُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بِقَلْبِهِ بَيْنِيَانِ هَذَا الْوَجْهِ ،
 وَإِحْكَامِ إِتْقَانِهِ ، تَعْظِيمًا لِشَعَائِرِ اللَّهِ وَمَحَافَظَةً عَلَى حَرَمَةِ بَيْتِهِ الَّتِي أُنْزِلَ
 أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ، وَلَمَّا دَعَاهُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ تَقْبُلِ عَظِيمِ الْإِجْرِ ،

(١٣) الحميري : الروض المعطار ص ١٥٥ ، ابن عذارى : البيان

المغرب ج ٢ ص ٣٤٤ .

(١٤) الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ٢٤ .

(م ١٤ - المجتمع الأندلسي)

وجزيل الذخر مع بقاء شرف الأثر وحسن الذكر . فتم ذلك بعون الله في شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، على يدى مولاه ووزيره وصاحب بيانيه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب . « (١٥) .

وقد أنفق الناصر في بناء المئذنة وغير ذلك مما قام به في المسجد سبعة أمداد وكيلين ونصف من الدراهم القاسمية كما ذكر ابن عذارى (١٦).

أما أعظم زيادة في مسجد قرطبة فقد تمت في عهد الخليفة الحكيم المستنصر بعد تضاعف عدد سكان قرطبة بحيث لم يعد المسجد يقطن لجموعهم الغفيرة . وقد عهد الحكم إلى حاجبه جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي بذلك ، فطبقت الأحجار من جبال قرطبة ، وأشرف الحكم بنفسه على تقدير الزيادة وتفصيل بنائها وأحضر لذلك الأشياخ والمهندسين فرسموا بأن تكون بمد بلاطات المسجد جنوبا على اتقى عشر عقدا ، واستمر البناء فيها أربع سننوات أنفق فيها مائتان وواحد وستون ألف دينار وخمسمائة وسبعة وثلاثون دينارا (١٧) .

ويصف ابن سعيد هذه الزيادة بقوله « وبها كملت محاسن هذا الجامع ، وصار في حد يقصر الوصف عنه » (١٨) .

وفي جهادى الآخرة سنة ٣٥٤ هـ أتم بناء قبلة المحراب وأحاطها بقبتين جانبيتين وقبة أخرى على مدخل زيادته بالجامع تجاه قبلة المحراب ، وهناك نقش يدور بعقد المحراب ومنه « أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكيم أمير المؤمنين وفقه الله مولاه وحاجبه جعفر

(١٥) المقري : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٠ . انظر د. السيد سالم : تاريخ

ص ٣٩١ ، المقري : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

(١٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

(١٧) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٥٩ ، نفع الطيب ج ٢ ص ٨٤ .

(١٨) نفع الطيب ج ٢ ص ٩٧ .

ابن عبد الرحمن رحمه الله بتشبيك هذه البنية ، فتم بعون الله بنظر
محمد بن تميم ، وأحمد بن نصر ، وخالد بن هاشم أصحاب شرطته ،
ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب « (١٩) .

كما شرع في تزيين المسجد بالفسيساء الذي كان ملك الروم قد
بعث إليه به مع صانع يتقن ذلك ، ومنه تعلم بعض الصناع المسلمين حتى
حذقوا ذلك وتفوقوا في الصنعة . ويوجد في أعلى عقد المحراب نقش
بالخط الكوفي جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله الحكم
أمير المؤمنين أصلحه الله ، مولاه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن رحمه الله ،
بعمل هذه الفسيساء في البيت المكرم ، فتم جميعها بعون الله سنة أربع
وخمسين وثلاثمائة « (٢٠) .

كما أمر الحكم بوضع المنبر القديم إلى جانب المحراب سنة ٣٥٥هـ ،
ونصب في قبلة الزيادة التي زادها مقصورة من الخشب منقوشة من
الظاهر والباطن مشرفة الذروة بلغ طولها خمسة وسبعون ذراعا ،
وعرضها اثنان وعشرون ، وارتفاعها ثمانية أذرع وجعل لها ثلاثة أبواب
بديعة الصنعة عجيبة النقش (٢١) .

كما أمر بصنع منبر جديد « ليس على معمور الأرض أتقن منه ،
ولا مثله في حسن صنعه وخشبه ساج وأبنوس وبقم وعود قاتلى » .

(١٩) السيد سالم : تاريخ المسلمين ص ٣٩٢ .

(٢٠) نفس المرجع ص ٣٩٣ .

(٢١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢٧ - ٣٢٨ ويذكر
ابن غالب الأندلسي : أن باب هذه المقصورة كان من الذهب
المضروب ، وأن عضاداته كانتا من الأبنوس ، بينما كان طوله
وأوصاله من الفضة (انظر نص أندلسي جديد من فرحة الأندلس
مجلة معهد المخطوطات العربية ج ١ ص ٢٨ تحقيق د. لطفي
عبد البديع) .

ويذكر أنه كان يعمل فيه ثمانية صنّاع ، واستغرق العمل فيه سبع سنوات ، وأن عدد درجاته تسع درجات ، وعدد حشواته ست وثلاثون ألف حشوة سمّرت بمسامير من الذهب والفضة ورسعت بهما ، وكان هذا المنبر يسير على عجل ، ويوضع بعد صلاة الجمعة في غرفة خلف الحراب ، وقد اتبعت هذه الطريقة بعد ذلك في المغرب (٢٢) .

وفي سنة ٣٥٦ هـ هدم الحكم الميضاة القديمة التي كانت تقع بفناء المسجد ويجلب لها الماء من بئر الساقية ، والتي أنشأها هشام ، وبنى بدلا منها أربع ميضات في الجانبين الشرقي والغربي للفناء ، وأجرى إليها الماء من عين بجبل قرطبة في قناة حجرية منقطة البناء جعل في جوفها أنابيب من الرصاص لحفظ الماء من الدنس والأوساخ وكانت تصب في أحواض من الرخام ، كما أجرى الماء إلى سقايات من الرخام أيضا اتخذها على أبواب الجامع في الجهات الثلاث الشرقية والغربية والشمالية. لوفى ذلك يقول الشاعر محمد

ابن شخيص : **والمسجد لسامية بئر فوننا قنينة**

وقد خرقت بطون الأرض عن نطف

من أعذب الماء نحو البيت تجريها

طهر الجسم إذا زالت طهارتها

رى القلوب إذا حرت صواريتها

قرنت فخرا بأجر قل ما اقترنا

في أمة أنت راعيها وحاميتها (٢٣)

(٢٢) الحبيرى : الروض العطار ص ١٥٥ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٦١

ذكر ابن عذارى أن الذئير كان من عود الصندل الأحمر والأصفر

والأبنوس والعاج والعود الهندي وبلغت تكلفته ٣٥٧.٥ دينار

وكان تملحه في خمسة أشهر (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٠) .

(٢٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

وأخيراً فقد اختتم الحكم ببناء المسجد بإقامة دار للصدقة في
قريبه لتكون مكاناً لتوزيع صدقاته ، كما أقام في ساحته وحوله مكاتب
للتعليم أولاد الأيتام والمساكين وفي ذلك يقول ابن شخيص :
وساحة المسجد الأعلى مكآلة مكاتباً لليتامى من نواحيها

أو مكآت سور القرآن من كالم نادتك يا خير قائليها ورابعها (٢٤)
وتعتبر زيادة الحكم أعظم زيادة في جامع قرطبة من حيث البناء
والزخرفة حيث جعلته متناسقا متعادل الأجزاء ، وأهم ما فيها تلك القباب
التي تقوم على هياكل من عقود بارزة متشابكة في أشكال هندسية رائعة
وقد كان لهذه القباب أثرها في أوربا حيث أوحت للفنانين الفرنسيين
بالقبوات القوطية الشهيرة (٢٥) .

أما المحراب الجديد فيعتبر أجمل عنصر معماري في المسجد أضانه
الحكم ، حيث عنى به المهندسون عناية كبيرة ، فأقاموا القباب على
بلاطه الأوسط ورواقه الأمامي ونقشوه من الداخل والخارج بالتوريقات ،
وزينوا عضادته بلوحات من الرخام عليها حفر غائر على هيئة زخارف
نباتية وتوريقات تتمشى مع الأسلوب البيزنطي .

وقد فتح الحكم إلى يمين المحراب بابا يؤدي إلى السباط الجديد
الذي يصل بين القصر والمقصورة ، ويتصل هذا الباب بمخزن لحفظ
الأدوات والمعدد والطرسوت والحسك الخاص بإيصاد الشبوع في ليلة
السابع والعشرين من رمضان (ليلة القدر) وذكر أنه كان يحفظ

-
- (٢٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٤٠ - ٣٤١ ويذكر ابن عذارى أن عدد
المكاتب التي أنشأها الحكم بلغ سبعة وعشرين مكتبا منها ثلاثة حول
المسجد والباقي في الأرياض (أحياء قرطبة) .
(٢٥) د. السيد سالم : المساجد والقصور بالأندلس ص ٣٤ - ٣٦ ،
تاريخ المسلمين وأثارهم ص ٣٩٤ .

مبهذا الخزن مصحف يرفعه رجلان لثقته ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان الذي كان يقرأ فيه يوم قتل وفيه نقط من دمه (٢٦) . وكان يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، وله غشاء بديع الصنع ، وكريسي يوضع عليه ، ويقوم الإمام بقراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى مكانه .

ويذكر أن هذا المصحف ظل بالمسجد حتى آل الأمر إلى الموحدين تولى الأندلس فأخرج في ١١ شوال سنة ٥٥٢هـ أيام عبد المؤمن بن علي فاعتنى به وتبركوا به ، ثم إلى بني مرين ، وكان السلطان أبو الحسن الريني يحمله معه في أسفاره دائما ، حتى هزم في موقعة طريف فوقع المصحف في يد البرتغاليين ، وتحاليل المسلمون في استرداده حتى جاء به إلى فاس أحد تجار أزموور سنة ٧٤٥هـ ، وحفظ بالخزانة السلطانية (٢٧) .

ثم كانت الزيادة الأخيرة في مسجد قرطبة على يد المنصور ابن أبي عامر والتي امتدت طولا من أول المسجد إلى آخره . وبدأت في سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م حيث أضاف ثمانية أروقة على المسجد من الجهة الشرقية ، وذلك نظرا لاتصال الجانب الغربي منه بقصر الخلافة فوصلت جملة البلاطات تسع عشرة بلاطة . وذلك لما زاد الناس بقرطبة وخاصة من البربر الذين استكثر المنصور منهم واعتمد عليهم ، وقد كان قصد المنصور إتقان البناء ، والمبالغة في إحكام البنية دون الزخرفة .

(٢٦) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ص ٨ - ١٠ . وقد شك المترى في نسبة هذا المصحف وما فيه من أوراق لعثمان حيث قال « وما توهموه من أنه خطه بيمينه فليس بصحيح ، فإم يخط عثمان واحدا منها ، وإنها جمع عليها بعضا من الصحابة » (نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٥) .

(٢٧) نفع الطيب ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ .

وبالرغم من ذلك فإن الزخارف لم تكن تقل عن سابقتها روعة وجمالا (٢٨) .
وقد قام المنصور بنزع ملكية الأراضى والدور الواقعة فى شرق
الجامع ، وتمويض أصحابها بما يرضيهم من مال أو عقار وبلغ عدد
سوارى المسجد بعد هذه الزيادة ١٤١٧ سارية ، وعدد ثرياته ٢٨٠
سرية . وبلغ عدد الأئمة والمقرئين الأكفاء والمؤذنين والخدم والمؤذنين
وغيرهم ١٥٩ شخصا (٢٩) .

وظل العمل فى هذه الزيادة مدة عامين ونصف كان المنصور فيها
يعمل بنفسه فى أحيان كثيرة ، واستخدم مجموعة من أسرى التتارى فى
ذلك . وأصبح المسجد مؤلفا من تسع عشرة بلاطة ، ففقد المسجد تناسقه
وتعادل أجزائه وأصبح المحراب متطرفا عن وسط جدار القبلة بعد أن
كان يقع فى محور الجامع ، وهدم أبواب الجامع من الجهة الشرقية قبل
الشروع فى الزيادة ، وفتح فى الجدار الشرقى بيت الصلاة القديم ثغرات
واسعة تصل بين الزيادة الجديدة وبيت الصلاة القديم ، كما فتح فى
الجدار الشرقى الجديد ثمانية أبواب فأصبح عدد الأبواب المؤدية إلى بيت
الصلاة ١٦ بابا يضاف إليها خمسة أبواب تفتح على جوانب الصحن فيكون
عدد أبواب المسجد ٢١ بابا كانت ملبسة بالنحاس الأصفر ومخرمة تخريما
رائعا (٣٠) .

(٢٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢٩) ذكر ابن بشكوال : أن المنصور كان يطلب من صاحب الأرض أو الدار
أن يطلب ما يشاء ثمنا لها ثم يضاعفه له ، حتى أن امرأة كان لها
دار بها نخلة ، فتأملت لا أقبل عوضا إلا مثل ذلك فأمر بأن تشتري
لها دار بنخلة حتى ولو ذهب فيها مال بيت المال . (المقرئ)
فتح الطيب ج ٢ ص ٨٤) .

(٣٠) تاريخ المسلمين ص ٣٩٧ ، الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ص ٢٦ .

١٧) وقد احتفظ المسجد بصورته تلك دون أن يطرأ عليه تغيير في نظام
بنائه حيث لم تضاف إليه أى اضافات فيما عدا أعمال الترميم اللازمة وخاصة
فى عصرى المرابطين والموحدين وظل كذلك حتى سقطت قرطبة فى يد
مغريبيون الثالث ملك قشتالة سنة ١٢٣٦م فتحول إلى كنيسة عرفت باسم
كنيسة سانتا ماريا العظمى أو الكبرى (٣١) .

ويعكس المسجد الجامع بقرطبة التأثيرات المعمارية السورية سواء فى زخارفه
المعمارية أو فى نظام عقوده المزدوجة ونظام سقفه ، أو فى وضع المئذنة ،
أو فى تصميم الجنبات حول الصحن كما تذكرنا عقوده المتعادلة على
جدار القبلة بنظائرها فى المسجد الأقصى .

ولا شك أن عبد الرحمن الداخل قد استعان بعرفاء ومهندسين شاميين
فى بناء هذا المسجد ، كما فعل حفيده الأمير عبد الرحمن بن هشام
عندما استعان بأحد الموالى الشاميين ويدعى (عبد الله بن سنان)
فى بناء سور إشبيلية سنة ٢٣٠هـ بعد غزو النورمان لها (٣٢) .

وهكذا كان لعبد الرحمن الداخل فضل كبير فى تطعيم حضارة
الاندلس بالتأثيرات المشرقية وعلى رأسها التقاليد السورية .

وقد كان لهذا المسجد تأثيرات كبيرة فى العمارة الإسلامية والمسيحية
على حد سواء . ففى العمارة الإسلامية كان نموذجا يحتذى فى كثير من
المساجد التى أقيمت فى الأندلس بعد ذلك فى نواحي شتى مثل نظام
القباب ذات الضلوع ، ونظام البلاطات المتجهة عموديا على جدار القبلة
ويتضح ذلك جليا فى جامع الباب المردوم بطليطلة ، ومثل اتساع الصحن

(٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣٦٨ ،

انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٨ .

(٣٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٩٥ ، د. السيد سالم :

قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ .

ونظام العقود وأسلوب الزخارف كما يتضح في جامع إشبيلية الذى أنشئ في عصر الموحدين . كما امتد تأثيره الفنى إلى بعض بلاد العالم الإسلامى كالمغرب ومصر والشام فبئذنة جامع ابن طولون تجلوا علينا عقودا من النوع الشائع في جامع قرطبة ، والفنطرة التى تصل بين الجامع تستند على عقدين متجاورين على الطراز القرطبى وبأسفلها كوابيل من نفس نظام كوابيل مسجد قرطبة (٣٣) .

وأما عن تأثيراته في العمارة المسيحية فمتضح في إسبانيا حيث ترى واضحة في بعض الكنائس مثل كنيسة المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس ديل ، وكنيسة سانتيا جو دي بينالبا ، وسان مرتينيو بجليقية ، وكنيسة سان ميان ، وسان ثريان في مملكة نيون وغيرها (٣٤) .

٢ - جامع إشبيلية : وقد أنشئ في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين أمر قاضيه عمر بن عدبس بتشييده سنة ٢١٤هـ / ٨٢٩ - ٨٣٠م ولذلك نسب إليه . وقد سجل تاريخ إنشائه على بدن عمود من الرخام لا زال محفوظا في متحف الآثار الأهلئ بإشبيلية بخط كوفى ونصه « يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم الأمير العدل المهتدى الأمر بينان هذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضى إشبيلية في سنة أربع عشرة ومئتين ، وكتب عبد البر بن حرون » (٣٥) .

وكان هذا الجامع يشبه جامع قرطبة في نظامه العام وفي عدد بلاطاته حيث كان يشتمل على أحد عشر بلاطا متجهة عموديا على جدار القبلة الذى بلغ طوله ما بين ٤٨ - ٥٠ مترا ، وكان البلاط الأوسط أكثر البلاطات اتساعا وارتفاعا . وأقيمت له مئذنة في منتصف الجدار

(٣٣) انظر : دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٧٢ . تاريخ المسلمين .

وآثارهم في الإندلس ص ٣٨٩ - ٤٠٠ .

(٣٤) انظر : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠٠ هامش ٢ .

(٣٥) تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .

الشمالي تشبه نظام المآذن القرطبية التي ترجع إلى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت مربعة من الخارج مستديرة من الداخل بلغ طول كل جانب من جوانبها الأربعة ٨٨ م .

وقد غرس في صحنه أشجار النارج والبرتقال ، وكانت تتوسطه قطعة من الرخام تنبثق منها نافورة على شكل محارة (٣٦) ، ويصفه المستشرق الألماني (فون شك) « بأنه جاء عملاً رائعاً وشهيراً ولكنه لم يكمله على ما أراد له » ، كما يذكر أن المؤرخين العرب يقصون : أن عبد الرحمن رأى في نومه عند تملكه أنه دخله فوجد النبي عليه الصلاة والسلام ميتاً ومسجى في قبلته فأنثيه مغموماً وسأل أهل العبارة عن ذلك فقالوا : هذا موضع يهوت فيه دينه . فحدث على أثر ذلك غلبة الجوس (النورمان) على المدينة (إشبيلية) واستيلائهم عليها ، وتحقق معنى الحلم عندما حاولوا هدم المسجد ، وقذفوا سقفه بالسهم الملتهبة المحمية ، وجمعوا كثيراً من الوقود ، وكوموه في إحدى البلاطات لإحراقه ، وعندما هموا بذلك ظهر من جانب المحراب ملك في صورة غلام تادر الجمال فطردهم من المسجد (٣٧) .

ولا ندري من أين جاء هذا المستشرق بهذه القصة ففي المصادر الأندلسية التي رجعنا إليها وهي كثيرة ومتعددة لم نجد أية إشارة ولو من بعيد لمثل ذلك ، ويبدو أن خيال هذا المستشرق هو السذى صور له تلك القصة ، أو خيال المستشرق دوزي الذي نقل عنه ذلك ، وعلمية ظهور الملك والتصديق به شيء موجود لدى هؤلاء فأرادوا أن يطبقوه على تاريخنا الإسلامي ، وللأسف فإن مترجم الكتاب لم يعلق على هذه القصة المزعومة بالرغم من تعليقاته الضافية في مواضع كثيرة .

(٣٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين ص ٤٠١ .

(٣٧) الفن العربي في إسبانيا وصقلية ص ٦٢ ترجمة د. الطاهر مكي .

وقد أصيب المسجد ببعض الأضرار نتيجة لغارة النورمان على إشبيلية سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م وقد ظل يحتفظ بنظام بنائه ومساحته دون أن تدخل عليه زيادات لمدة ثلاثة قرون حتى ضاق بالمصلين في عصر الموحديين فأشيع إلى جانبه جامع القصبة الكبير بإشبيلية . وحدث في سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) أن هدم الجزء الأعلى من مؤذنته على أثر زلزال شديد فجددها المعتمد بن عباد في شهر واحد فقط ، كما تصدعت جدرانه الغربية ومالت بعد مدة بتأثير هذا الزلزال ، كما تاكلت جوائز سقفه وظل كذلك حتى أمر أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدى سنة ٥٩٢هـ بترميمه وإقامة ركائز قوية تسند هذه الجدران وأعاد إليه الصلاة بعد أن كانت متوقفة فيه منذ سنة ٥٧هـ (٣٨) .

وبعد سقوط إشبيلية في يد الإسبان سنة ١٢٤٦م حول إلى كنيسة سميت (سان سلفادور) ثم أصيبت المذنة بأضرار بالغة سنة ١٣٥٦م نتيجة زلزال عنيف هدم الجزء العلوى منها فأقام الإسبان مكانها برج النواويس ، ثم قاموا بهدم المسجد بأكمله سنة ١٦٧١م باستثناء ما بقى من المذنة والبهو لبناء الكنيسة الجديدة مكانه وتم بناؤها سنة ١٧٢١م ولم يتبق من المسجد فى الوقت الحالى سوى جزء من الصحن وجزء من المذنة يبلغ ارتفاعه ٩ م فى داخله درج حلزونى عرضه ٨٠ سم يدور حوله دعامة أسطوانية ضخمة . وهو يعطينا صورة عن المساكن الأندلسية فى هذا العصر (٣٩) .

٣ — مسجد الباب الردوم بطليطلة : وقد قام بتأسيسه قاضى طليطلة أحمد بن حديدى من ماله الخاص . فقد تولى الوزارة أيام اسماعيل بن دى

(٣٨) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة على المستضعفين ص ١٣٤ .
(٣٩) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١١ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤٠١ .

النون ملك طليطلة ، وتعلم واجهته كتابة تاريخية نصها « بسم الله الرحمن الرحيم . أقام هذا المسجد أحمد بن حديدي من ماله ابتغاء ثواب الله ، فتم بعون الله على يدي موسى بن علي البناء وسعادة ، فتم في المحرم سنة تسعين وثلاثمائة » (٤٠) .

وهو مسجد صغير المساحة ولكنه يعتبر من أهم مساجد الأندلس بعد مسجد قرطبة نظرا لاحتفاظه بتسعة قباب قائمة على الضلوع المتقاطعة تمثل أول مراحل التطور التي مرت بها قباب جامع قرطبة (٤١) . وقد شيد من الحجر الجرانيتي والأجر وفقا للأسلوب الذي اختلفت به طليطلة . وهو على شكل مربع لا يتجاوز طول الجانب منه ثمانية أمتار . ويتألف من ثلاثة أروقة طولية تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، بحيث يحدث ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منها اثنا عشر قوسا على شكل حدود الفرس ، ويعلو كل اسطوان من هذه الأساطين قبة تتقاطع فيها الأقواس على نحو ما رأيناه في قباب قرطبة ، والقبة الوسطى أكثر ارتفاعا من القباب الأخرى .

أما واجهة المسجد الرئيسية - وهي الجنوبية الغربية - فتطل على الطريق المؤدى إلى الباب المردوم بثلاثة عقود ، ويوجد في أعلاها نص التأسيس السابق . ويعلو هذه العقود الثلاثة بئكة صماء من أقواس متقاطعة . ويتوج هذه البئكة إفريز بداخله شبكات مخرمة على شكل معينات . أما الواجهة التي تطل على صحن المسجد فتتألف من ثلاثة عقود متجاوزة تعتبر بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاوزة صماء يتناوب

(٤٠) عرف هذا المسجد بذلك الاسم نسبة إلى باب مجاور له ما زال قائما ويعرف بالباب المردوم .
(٤١) ابن بسام : الذخيرة ج ١ ق ٤ ص ١١٨ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٠٧ .

فيها اللونان الأبيض والأحمر نتيجة لتعاقب توابل الآجر والحجر على نظام أقواس جامع قرطبة (٤٢) .

وقد تحول هذا المسجد إلى كنيسة بعد استيلاء الفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة سنة ١٠٨٥م أطلق عليها سانتا كروز ، وأضيفت إليه في الجانب الشرقي حنية من الطراز المدجن في القرن الثالث عشر الميلادي ، ووهبه الملك الفونسو الثامن لإحدى الجمعيات الدينية ويعرف اليوم باسم كنيسة (الكريستو دى لاثوث El Cristo de Lathuz) (٤٣) .

٤ - **المسجد الجامع بالرية** : يعتقد العالم الأثرى الإسباني (توريس بلباس) أن هذا المسجد قد شيّد في عهد الحكم المستنصر بعد زيادته في جامع قرطبة بسنوات قليلة ، وانتهى بعد دراسة ما تبقى منه من آثار ضئيلة داخل كنيسة سان خوان نسبة وهي لا تعدو المحراب وجزء من جداره - أنه كان يتألف من خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وأن البلاط الأوسط منها كان أكثر البلاطات استعمالاً ، وأن المحراب كانت تعلوه قبة مفضصة ما زالت قائمة حتى اليوم .

وأن نظام البناء - كما يتجلى من خلال ما بقى من جدار المحراب - كان على نمط النظام القرطبي القائم على تناوب حجرين عرضاً مع حجر طولاً وهو ما يعرف في عصرنا باسم (أدبة شتاوى) . وقد أضيفت إلى هذا المسجد زيادات من جوانبه الثلاثة الشرقية والغربية والشمالى بواسطة زهير العامري الصقلي كما يتجلى من قول ابن الخطيب « وهو الذى بنى هذا المسجد وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة » (٤٤) .

وكان صحن هذا المسجد مفروشا بأشجار اللبمون والبرقتال ، ومفروشا بالرخام وتتوسطه نافورة للوضوء ، شأن نظام مساجد الأندلس .

- (٤٢) المرجع السابق ص ٤٠٣ - ٤٠٤ .
(٤٣) تاريخ المسلمين ص ٤٠٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٣ .
(٤٤) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٢ .

وقد تحول إلى كنيسة سنة ١٤٩٠م وشيدت بداخله كاتدرائية سنة ١٤٩٢م وسميت بكنيسة (سان خوان) ، وقد حولت هذه بدورها إلى مخزن للمدافع والمهمات العسكرية سنة ١٨٤٥م . ثم سلمت إلى جماعة الآباء فرنسيسكان فحفظت بقاياها وبقيايا الجامع . وتد عثر في أرضية هذا المسجد على بضعة كوابيل حجرية تشبه كوابيل جامع قرطبة إلا أنها تختلف عنها في كثرة زخارفها القائمة على التزيينات وتبدو فيها أوراق مبسطة مقسمة على أصابع ، وتتشابه مع زخارف قصر الجعفرية بسرقسطة وقصبة مالقة مما يرجح أنها من عصر المعتصم بن صمادح (٤٥) .

٥ - **مسجد الزهراء** : كما أتمم الخليفة عبد الرحمن الناصر في مدينة الزهراء التي أقامها إلى جانب قرطبة مسجداً كان يعمل في بنائه كل يوم ألف رجل منهم ثلاثمائة بناء ، ومائتي نجار ، وخمسمائة من الصناع والأجراء وتم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً سنة ٣٢٩هـ ، وكان يتكون من خمس بلاطات ، كان البلاط الأوسط منها أكثر اتساعاً ، وكان صحن المسجد مفروشاً بالرخام الخمرى اللون وتتوسطه فوارة يجرى فيها الماء ، وكان ارتفاع مئذنته أربعين ذراعاً وهي شبيهة بالمئذنة الأولى لجامع قرطبة التي أقامها الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل . أما منبره فقد جاء في غاية الحسن والبهاء وجعلت حوله مقصورة من الخشب . بديعة الصنع . وقد بلغ طوله من القبلة إلى الجوف (الصحن) سوى المحراب سبعة وثلاثون ذراعاً ، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسعة وخمسون ذراعاً (٤٦) .

(٤٥) المرجع السابق ص ١١٤ .

(٤٦) المقري : فتح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ ، أزهار الرياض ج ٢ ص ٢٦٥ - ٣٦٢ . هذا وقد ذكر د. حسين إبراهيم : أن الذي بناه هو الحكم ابن الناصر وأنه قد تم بناؤه في سبعين سنة ٣٢٩هـ وهذا خطأ واضح حيث أن الحكم لم يل الخلافة إلا بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠هـ ، إلا إذا كان المقصود أنه هو الذي أشرف على بنائه . انظر تاريخ الاسلام السياسي ج ٣ ص ٤٧٣ .

العمارة المدنية التقصور والدور

حظيت قرطبة منذ بداية الفتح الإسلامي للأندلس بنصيب كبير من
عناية ولاة الأندلس وأمرائها وخلفائها ، وغدت حاضرة للمسلمين في
الأندلس ، وظلت تحتل المكانة الأولى بين المدن الأندلسية حتى سقوط
الخلافة الأموية (١) .

(١) قرطبة مدينة قديمة ، يرجح أنها أنشئت في العصر الأيبيري
ويستدل على ذلك من اسمها الأيبيري Corduba الذي عربيه المسلمون
إلى قرطبة ، ومن الحفائر الأثرية التي أجريت في نطاقها حيث عثر
على تهاثيل برونزية أيبيرية . وقد ظلت تتمتع بمكانة لائقة حتى
أواخر القرن السابع الميلادي حيث أخذت تفقد أهميتها شيئا فشيئا
إمام طليطلة في العصر القوطي .

وعندما جاء الفتح الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا كانت قرطبة
من بين المدن التي فتحها المسلمون حيث أرسل إليها طارق بن زياد
قائده مغيث الرومي في سبعمئة فارس ففتحها بسهولة عن طريق
الحيلة والمفاجأة . وأصبحت قرطبة منذ ولاية أيوب بن حبيب الأحمي
حاضرة الأندلس في سنة ٩٩ هـ ، ونقلت إليها العاصمة من إشبيلية
التي كان موسى بن نصير قد اتخذها قاعدة للحكم بعد الفتح ،
وظلت عاصمة للأندلس نحو ثلاثة قرون حتى سقطت الخلافة الأموية
سنة ٤٢٢ هـ .

وتقع قرطبة على سهل مرتفع في سفح جبل قرطبة (جبل
العروس) ، الذي يعتبر جزء من سلسلة جبال سيرومورينا ،
وتشرف من جهة الجنوب على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير

يقول ابن حوقل الرحالة الشيعي في وصفها ، وقد زارها في القرن الرابع الهجري في عهد الخليفة الناصر : « وهي أعظم مدينة بالاندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى هبة في كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق » (٢) .

ويرجع الفضل في تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الحكم والإدارة فيها إلى الأمير عبد الرحمن الداخل ، فقد كان عصر الولاة عصرا مضطربا سادت فيه المنازعات والتقاتل نتيجة للعصبية القبلية بين اليبسية والمخرية . فلما استقر الأمر لعبد الرحمن الداخل بدأ في إرساء قواعد الحكم والإدارة التي كانت سائدة في الدولة الأموية بالشرق ، وسرعان ما ارتقت بالاندلس من مجرد ولاية تابعة للخلافة الأموية إلى مصاف الدول الكبرى المستقلة . ويشير ابن حيان إلى هذا التطور الكبير فيقول « لما فتح الداخل الأندلس ثغرا قاصيا ، غفلا من حيلة الملك عاطلا ، أرفأ أهلها بالطاعة السلطانية ، وحكمهم بالسيرة الملوكية ، وأخذهم بالآداب ، فأكسبهم عما قليل المروءة ، وأقامهم على الطريقة ، وبدأ فدون الدواوين ، ورفع الأواوين ، وفرض الاعطية ، وعقد الأتوية ، وجند الأجناد ، ورمتع العباد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك هيئته ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا

وترتفع عن سطح البحر بما يتراوح بين ١٠٠ - ١٢٢ م ، وهي تعتمد في ثروتها على الزراعة خاصة في سهلها الجنوبي الذي يعرف بالكبانية وأهم محاصيلها الكزوم والزيتون ، كما تشتهر بالكثير من المعادن والأحجار كالفضة والزئبق وججر الشاذنة الذي يستعمل في التذهيب . كما تكثر بها مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمري .

(٢) المقرئ : فتح الطيب ج ٢ ص ٨ .

حوزته ولم يثبت أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها « (٣) .
وقد عمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة ملكه بهالة من الأبهة
والنفخامة يعيد به ملك آبائه وأجداده ، فزود حاضرتة بالكثير من المنشآت
والعمائر ، فقامت فيها حركة عمرانية لم تشهد لها نظيرا من قبل ،
واتخذت مظهر المدن والعواصم الكبرى فيذكر المقرئ : أنه لما تمهد ملكه
شرع في تعظيم قرطبة ، فجدد مغانيها ، وثشد مبانيها ، وحصنها بالسور ،
وابتنى قصر الإمارة والمسجد الجامع ، ووسع فناءه ، وأصلح مساجد
الكور (٤) ، ثم ابنتى مدينة الرصافة متنزها له ، واتخذ بها قسرا حسنا
وجنانا واسعة ، نقل إليها غرائب الفراس ، وكرائم الشجر من بلاد الشام
وغيرها من الأقطار .

ويقول في موضع آخر « إن عبد الرحمن الداخل لما استقر أمره
وعظم بنى القصر بقرطبة وبنى المسجد الجامع ، وأنفق عليه ثمانين ألف
دينار ، وبنى قرطبة الرصافة تشبها برصافة جده هشام « (٥) .
ويبدو الطابع السورى فى تلك المنشآت التى أقامها عبد الرحمن
الداخل بقرطبة فقد حاول أن يعيد ما طمس لأبائه وأجداده من معالم
الخلافة ، وما درس من آثارها ، ويطعم الحضارة الأندلسية بالتقاليد
السورية حتى تكون استمرارا للحضارة الأموية فى بلاد الشام .

(انظر : د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس

ص ١٥ وبعدها ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٢٩٣ وبعدها ، دائرة

معارف الشعب (٦١) ص ١٥ - ١٦) .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٣١٠ .

(٤) ذكر المقرئ أن عدد مساجد قرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل بلغ

٤٩٠ مسجدا (نفح الطيب ج ٢ ص ٧٨) .

(٥) نفح الطيب ج ٢ ص ٨٣ .

(م ١٥ - المجتمع الأندلسى)

قصر الإمارة (الخلافة) فى قرطبة :

عندما فتح المسلمون الأندلس نزل قادتهم ورؤساؤهم بالثصور التى كانت موجودة فى المدن المفتوحة ، وعندما فتح مغيث الرومى قرطبة أقام فى قصر أميرها القوطى والمعروف ببلاط قرطبة . ورأى موسى بن نصير أن هذا القصر أنسب لأن يكون مقرا للوالى فأعطى مغيث « دارا شريفة ذات مسقى وزيتون وثمار يقال لها اليسانة كانت للملك الذى أسره وسميت بلاط مغيث » (٦) .

وتتابع ولاة الأندلس فأتاموا فى قصر الإمارة بقرطبة ، ونزل به عبد الرحمن الداخل وصار مقرا له ولأبنائه ، ودخلت عليه الكثير من الإضافات والزيادات ، وأصبح يعرف بالقصر الخلامى بعد ذلك . ويقول عنه ابن بشكوال « هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم وفيه من المبانى الأولية ، والآثار العجيبة — لليونانيين ثم للروم والقوط والأمم السابقة — ما يعجز عن الوصف . ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — البدائع الحسان ، وآثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة الجارية من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمنوا المؤن الجميمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته ، وناحية من فواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منها إلى المصانع (الأبنية المختلفة) صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس الموه ... إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغريبة ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » ويضيف ابن بشكوال قائلا : « وفى هذا القصر القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو التى لم ير الراعون

مثلها فى مشارق الارض ومغاربها» (٧) .

وقد وصف المقرئ قصر قرطبة بقوله « ابتدع الخلفاء من بنى مروان - منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها - فى قصرها البدائع الحسان ، وآثروا الآثار العجيبة ، والرياض الأنيقة ، وأجروا فيه المياه العذبة المطوية من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمنوا المون الجسيمة حتى أوصاؤها إلى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة لأشكال من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس الموه ، إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغربية ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة ، وفى القصر القباب العائية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراعون مثها فى مشارق الارض ومغاربها» (٨) .

ويبدو أن هذا القصر كانت له مناظر تطل على نهر الوادى الكبير والربض الجنوبى من قرطبة ، وأنه قد أضيف إليه فى عهد عبد الرحمن الأوسط « الذى اتخذ القصور والمنتزهات ، وجاب إليها المياه من الجبال ، وجعل لقصره مصنعا اتخذه الناس شريعة» (٩) ولعله بنى القصر المسمى بالكامل أيضا (١٠) .

ويذكر ابن خلدون أن الحكيم الرضى وعبد الرحمن الأوسط وابنه محمد قد اهتموا بتشييد المجالس (شبيهة بالاستراحات) فى هذا القصر ومنها المجلس الزاهر والبهو والكامل والمنيف . كما أضاف إليه الأمير عبد الله

(٧) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢١٦ ، ج ٢ ص ١٠٢ .

(٨) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٩ .

(٩) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٥ .

(١٠) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ .

ابن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) ففتح فيه بابا عند الركن القبلى سماه باب
النعدل كان يجلس فيه يوما فى الاسبوع لمباشرة احوال المتظلمين بنفسه ،
كما اقام ساباطا (طريقا مستوقفا) يصل بين القصر وجامع قرطبة
المواجه له ، كما أن الناصر اضاف إليه إضافات كثيرة . حيث يذكر ابن عذارى
انه « لم يترك فى قصر الإمارة بنية إلا وترك فيها اثرا محدثا إما بتجديد
أو بتزييد ، ومن هذه الاضافات بناء عرف بدار الروضة (١٢) بجوار
المجلس الزاهر - الذى استقبل فيه سفير بيزنطة سنة ٣٣٨ هـ - كما
اسس الدار المعروفة باسم دار الرخام (١٣) .

ويغلب على الظن أن هذه المجالس أو القصور التى اقامها هؤلاء
الامراء فى قصر قرطبة القديم كانت ابنية جديدة على أجزاء من انقاض
القصر القديم .

وكان هذا القصر يضم قصورا أو مجالس داخلية منها - بالاضافة
إلى ما مر ذكره - المجدد ، والحائر ، وقصر الوزراء ، والمعشوق ، والبارك ،
والرثيق ، والسرور ، والتاج ، والبديع ، والبستان (١٤) .

وكان لهذا القصر عدة أبواب منها باب السدة وهو الباب
الرئيسى فى الناحية القبلىة ، وباب قورية ، وباب الصنعة فى الناحية

-
- (١١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١١٢ .
(١٢) لعلها سميت بذلك لأنها كانت تطل على تربة الخلفاء داخل القصر
والمعروفة بالروضة . (انظر ابن حيان : المقتبس ص ٣ نشر
مؤثور انطونيه) .
(١٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٣ نشر د. عبد الرحمن الحجى . ويبدو
أن السبب فى تسميتها بذلك هو استخدام الرخام فيها بكثرة .
(١٤) المقتبس ص ٢٣٠ نشر الحجى ، نفع الطيب ج ٢ ص ١١٢ ، ج ٢
ص ١٥٣ .

الشمالية ، وباب الجامع فى الناحية الشرقية وكان يدخل منه الأمراء يوم الجمعة . أما الجهة الغربية من القصر فلم يكن فيها أبواب حيث كانت كلها بساطين وروضات (١٥) . وقد تعرض هذا القصر للتخريب عقب دخول البربر قرطبة سنة ٤٠٣هـ فيما يسمى بالفتنة البربرية (١٦) .

وبعد سقوط قرطبة فى يد الأسيبان سنة ١٢٣٦م سُمى بالقصر الأسقنى بدلا من القصر الخلقى ، ثم حوله الأسقف (دون سانشورى روخاس) فى القرن الخامس عشر إلى قصر من الطراز القوطى ، وتهدمت واجهته الجنوبية فى أوائل القرن السابع عشر ، ثم أحرقت سنة ١٧٤٥م ولم يبق منه اليوم سوى الجدار المقابل لجدار جامع قرطبة ، وجزء من الجدار الشمالى ، ويحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة بما فى ذلك الركائز التى تدعمها (١٧) .

قصر الرصافة :

كان عبد الرحمن يحن إلى تصور آبائه وأجداده وخاصة رصافة جده هشام (١٨) فأقام المنية المعروفة بالرصافة — على بعد ٢ كم —

(١٥) عنها بالتفصيل انظر : السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة

ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١٦) نفح الطيب : ج ٢ ص ١٣ .

(١٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢٦ .

(١٨) الرصافة : كان بعض الخلفاء الأمويين يتخذون تصورا لهم فى بادية

الشمام بعيدا عن العاصمة لقضاء بعض أوقاتهم فيها ومنها قمير

عمرة الذى بناه الوليد بن عبد الملك ، وقصر المشتى الذى ينسب

للوليد بن يزيد ، وقصر الحير الغربى الذى يقع على بعد أربعين

ميلا جنوب غربى تدمر ، وقصر الحير الشرقى الواقع على بعد ستين

شمال غربى قرطبة وبنى بها قصرا للتنزه والسكنى فيه فى بعض الاوقات ٤ .
وسماها بذلك نسبة إلى رصافة جده هشام (١٩) .

يقول المقرئ « فاتخذ بها قصرا حسنا ، ودحا جنانا واسعة ، ونقل إليها غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه سفر بن زيد مولاة إلى الشام من النوى المختارة ، والحربب المغربية حتى نمت بين الجذ وحسن التريبة فى المدة القريبة أشجارا معتمة اثمرت بغرائب من الفواكه ، انتشرت عما قليل بأرض الأندلس فاعترف بفضلها على أنواعها » (٢٠) .

وقد كان من أشهر الفواكه التى غرست فى منية الرصافة (الرمان السفرى) الذى وصفه ابن حيان بأنه « الموصوف بالفضيلة ، المقدم على

ميلا إلى الشمال الشرقى منها وأربعين ميلا من الرصافة . وقد أشار الطبرى إلى نزول هشام بها وابتناؤه قصرين فيها ولعلهما هذان القصران (قرطبة حاضرة الخلافة) (تاريخ الحضارة الاسلامية العربية ص ٥٠٢) . وأشار السيوطى إلى أن هشام قد بنى قصر الرصافة بقتسرين ليخاؤ فيه (تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨) .

(١٩) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ١٤ ، كما أقام ابنه عبد الله المعروف بابننسى ريبضا ببينسية سماه بالرصافة . ولعل هذه الرصافة التى أقامها عبد الله هى الولجة التى ذكرها ابن الأبار فى الحلة السيرة (انظر ج ٢ ص ١٢٧) وقد كان موضع منية الرصافة التى أنشأها الداخلى بستانا يعرف باسم (رينالش) ولا زال هذا الاسم يطلق على ضاحية سكنية على بعد ٥ كم شمال شرق قرطبة .

(٢٠) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٤ .

أجناس ، الرمان بعذوية الطعام ، ورقة الحجم ، وغزارة الماء ، وحسن الصورة » .

ويذكر أن أم الأصبغ أخت عبد الرحمن الداخل قد أحضرت نوعا من الرمان من رصافة هشام بن عبد الملك بالشام ، وأرسلته إلى أخيها عبد الرحمن الداخل مع رسول له ، فعرضه عبد الرحمن على خواصه مزهوا به ، وكان من الحاضرين سفر بن زيد الكلاعي من جند الأردن الذين قدموا الأندلس ، فأعطاه منه « فراقه حسنه وخبره ، فسار به إلى قرية بكورة رية ، فعالج عجمه ، واحتال لفرسه وغذائه وتنقيله ، حتى طلع شجرا أثمر وأينع ، فنزع إلى عرقه ، وأغرب في حسنه » ، ثم حمل بعض ثماره إلى عبد الرحمن ، فلما سأله عن مصدره ، أخبره بطريقته في استنباطه ، فأعجب الأمير ببراعته وفرس منه في منيته وغيرها ، فأدى ذلك إلى انتشار زراعته ، وغدا يعرف (بالرمان السقري) نسبة إلى سفر الكلاعي (٢١) .

كما أرسلت أم الأصبغ إلى أخيها ثملات من أشجار النخيل ففرسها في منيته بالرصافة . ويذكر أنه عندما نزل بها لأول مرة شاهد نخلة أهاجت أشجانه ، وذكرته بموطنه الذي تركه فارا منه ، فقال مرتجلا :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تئات بأرض القرب عن بلاد النخل

فقلت شبيهي في المغرب والنوى

وطول التناي عن بني وعن أهلي

(٢١) نفع الطيب ج ١ ص ٢١٧ . ولا يزال هذا النوع من الرمان يعرف بهذا الاسم إلى اليوم في إسبانيا (السقري . Azifri) . (انظر دراسات في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ص ٢٨٤) .

نشأت بارض أنت فيها غريبة
فمثلك في الإقصاء والمنهى مثلى
سفتك غوادى المزن من صوبها الذى
يسبح ويستمرى السماكين بالويل (٢٢)

ويقول أيضا فيها :

يا نخل أنت غريبة مثلى
فى المغرب نائية عن الأصل
فابكى وهل تبكى مكبسة
عجماء لم تطبع على خيل ؟
لو أنها تبكى إذا ليكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت وأذهلتنى

بغضى بنى العباس عن اهلى (٢٣)

وكان عبد الرحمن يؤثر الجلوس فى علية بالرصافة لمشاهدة الجنان
المحيطة بالقصر الذى أنشأه بها ، وكان يحيط به سور له عدة ابواب
منها : باب الجبل الذى عرف بذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن
الأوسط (٢٤) .

(٢٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ . وقد ذكر ابن الأبار : انه
قيل إن هذه الأبيات لعبد الملك بن بشر بن عبد الملك بن مروان
قالها عند دخوله الأندلس فى صدر أيام الأمير عبد الرحمن الداخل
والمشهور أنها لعبد الرحمن كما فى الكثير من المصادر .
(٢٣) الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ وقد ذكر أيضا أن هذه الأبيات
لعبد الملك بن عمر بن الحكم ولكن نسبتها إلى عبد الرحمن الداخل
أقوى كما ذكر ابن بشكوال أيضا (الحلة السيراء ج ١ ص ٣٧ -
٣٨) .

(٢٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٨٤ ، مؤلف مجهول : أخبار
مجموعة فى فتح الأندلس : ص ١١٥ .

ويمكن ان نستنتج مما ذكره صاحب اخبار مجموعة : ان عبد الرحمن كان يلجأ إلى هذا القصر أيضا عندما كانت تواجهه مشكلة كبيرة ، وبخاصة من الثائرين والمتبردين . ففيه أمر بقتل وهب بن ميمون ، وابن سليمان الأعرابي ، وهذيل بن الصميل ، ومغيرة بن الوليد ابن أخته الذي ثار عليه وساعده هذيل ، كما حبس في هذا القصر أيضا جماعة منهم كجحيى ابن يزيد بن هشام ، وعبيد الله بن أبان بن معاوية بن هشام وأعوانها ، ثم أمر بقتلهم فيه ، وسحبت جثثهم إلى نهر قرطبة حيث صلبت أمام القصر (٢٥) .

وقد ظلت الرصافة من الأماكن الأثيرة لدى أمراء بنى أمية ، فزادوا في عمارتها ، ونزلوا بها ، كما نزل بقصرها بعض ملوك الدول الأجنبية الذين قدموا إلى الأندلس ، مثل الملك أردون الرابع ملك قشتالة المخلوع الذي استعان بالخليفة الحكم المستنصر لاستعادة عرشه فوعده بذلك (٢٦) .

وقد وصف هذه الرصافة الكثير من الشعراء ، وظلت بعد سقوط الخلافة الأموية منتدى للأدباء ، وملتقى للشعراء ، يتبادلون فيها الأشعار . ومن أمثلة ذلك قول قاسم بن عبود الرياحي :

أسقينا إزاء قصر الرصافة

واعتبر قليلا في مال الخلافة

وانظر الأفق كيف بدل أرضا

كى يطيل اللبيب فيه اعترافه (٢٧)

(٢٥) أخبار مجموعة ص ١١٠ - ١١٥ .

(٢٦) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٩ .

(٢٧) نفع الطيب ج ٢ ص ١٥ - ١٦ .

ويعد سقوط قرطبة في يد الاسبان سنة ١٢٣٦م ، أصبحت منية الرصافة ، مقرا لجماعة الآباء الفرنسيين . وقد بقى منها إلى اليوم: بعض آثار جدران وقاعات ، وفي جوف هذه الاطلال باب يؤدي إلى نفق في باطن الأرض يقال : إن عبد الرحمن كان يرتاده كلما أراد أن يخلو بنفسه ، ويصل ما بين الرصافة وقرطبة ، وهناك آثار نخلة قديمة هرمة قد تآكلت أجزاء كثيرة منها ، وتداخلت فيها قطع الحجارة ، وبقايا أبنية قديمة يقال إنها نخلة عبد الرحمن الداخل ويطلق عليها نخلة عبد الرحمن (٢٨) .

قصر الدمشق :

ولم يكن قصر الرصافة هو الوحيد الذي أتاه عبد الرحمن الداخل بقرطبة ، واتضح فيه التأثيرات الشامية (السورية) فهناك قصر آخر ذكره بعض المؤرخين ويعرف بقصر الدمشق ، ويغلب على الظن أنه من بناء عبد الرحمن أيضا ، وقد ذكر المقرئ : أن هذا القصر شيد « بأصفاح والعمد ، وأبدع في بنائه ، ونمت ساحاته ، وكسيت سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة ، وأحيطت رياضه وجداوله في ساحاته وأغنيته بأرضيات مرخمة » .

وقد أضاف إليه أمراء بني أمية بعد ذلك وزخرفوه ، واتخذوه « إيدان مراحمهم ومضمار أفراحهم » ، وقلدوا به تصورات أجدادهم في المشرق (٢٩) .

وقد ظلت أطلال هذا القصر قائمة في عصر ملوك الطوائف ، وقد زاره الوزير الشاعر أبو بكر بن عمار وقال فيه :

(٢٨) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٢ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١١٩ ، (٦٤) ص ١٢٧ .
(٢٩) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ١٩٠ - ١٩٢ .

كل قصر بعد الدمشق يذم
فيه طاب الجنى ولذ الماشم
منظر رائع وماء نمير
وثرى عاطر وقصر أشم
بت فيه والليل والفجر عندي
عنبر أشهب ومسك أحمر (٣٠)

قصر ابن الشالية :

ومن القصور التي تعود إلى العصر الأموي أيضا ، وأقيم خارج قرطبة
قصر عبيد الله بن أمية المعروف بابن الشالية وعنه يقول الشاعر عبيد
ابن محمود وكان كاتباً له :

قصر الأمير أبي مروان منتسوخ
من هنة الخلد بالسراء معمور
فيه مجالس قد شيدت بلا عمد
بنيانها مرمر بالتبر مطهور (٣١)

وكان عبيد الله من كبار الثوار في عهد الأمير عبد الله بن محمد ،
واستطاع أن يسيطر على جبل شمتان وما يليه من كورة جيان ، ومد نفوذه
إلى حصن قسطلونة وغيره . وبنى المبانى الفخمة ، واتصل بعمر
ابن حفصون زعيم ثورة المولدين في بيشتر ، وصاهره بتزويج ابنته من

(٣٠) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٣ ، دائرة معارف الشعب (٦٤)

ص ١٢٧ .

(٣١) ابن حيان : المقتبس القسم الثالث ص ١١ تحقيق مثنور أنطونية ،
دوزى : تاريخ مسلمي أسبانيا ج ٢ ص ٢٦٣ ، فون شك : الفن
العربي في أسبانيا وصقلية ص ٦١ .

جعفر ولد ابن حفصون . حتى تم القضاء على ثورته في عهد الخليفة
الناصر (٣٢) .

وفي عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بدأت معالم الحضارة الأندلسية
تتضح شيئاً فشيئاً ، وشهدت قرطبة العاصمة سيلا من التأثيرات
المشرقية في الفنون والآداب والعلوم . وكان عبد الرحمن « أول من فخم
السلطنة بالأندلس ، فنظم الشرطة ، وميز ولاية المدينة عن ولاية الأسواق ،
وأحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ
دخل المسلمون الأندلس ، وأول من اتخذ للوزراء بيتاً للوزارة في
قصره واتخذ القصور والمتنزهات ، وأحدث الطرز ، وكسا الإمارة
أبهة الجلالة » (٣٣) .

وقد تشبهه عبد الرحمن بجدّه الداخل ، بل وفاته في بناء القصور ،
وأسرف في الإنفاق عليها ومتها : البهو والكامل والمنيف ، ويصف عباس
ابن فرناس ما رآه فيها من فخامة وترف فيقول :

حنايا كأمثلة الأهالة ركبت

على عمد تعند في جوهر البدر

كان من الياقوت قبيست رءوسها

على كل مسنون مقيض من السدر

تري الباسقات النائترات فروعها

موائس فيها من مداولة الوقر

(٣٢) انظر : ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٣١ ترجمة

رقم ٨٩ .

(٣٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٢ ، ابن سعيد : المغرب

في حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢

ص ١٣٦ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ٢٠ .

كان صناعا صاغ بين غصونها
من الذهب البادى عراجين من تمر
نثت لؤلؤا ثم استحالت زهدا
يؤول إلى العقيان قبل جنى البسر

وهذا شاعر آخر يصف أحد هذه القصور فيقول :

ومن عمد تزهى بماء محاسن
يصوب عنه كل طرف مصعد
حكمت حمرها البياقوت والدر بيضها
ومن خضرها اشقت اخضرار الزبرجد
يجول السنن فيها مجال الشعاع فى
صفيحة سيف الصيقل المتقلد
عشيق ومعشوق وبهو زاهر
إلى كامل فى حسنه ومجدد (٣٤)

أما فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر فقد وصلت قرطبة إلى الذروة ، حيث كثرت حركة التشييد والبناء بها ، وبلغت مستوى من التقدم والازدهار لم تبلغه أى حضارة أخرى فى الأندلس من قبل ، بل إننا لا نبالغ عندما نقول : إنها صارت أعظم مدن العالم بعد القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، وقد شهد لها الرحالة الشيعى ابن حوقل — برغم ما عرف عنه من عداة للأمويين — فقال : « هى أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندى شبيهه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق » (٣٥) .

(٣٤) الكتانى : التشبيهات ص ٧٠ — ٧٨ .
(٣٥) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٨ ، دائرة معارف الشعب (٦١)
ص ١٨ .

وقد شهدت قرطبة فى عهد الناصر عصرا من الرخاء والازدهار
والعمران لم تشهدده حاضرة من قبل . وقد كان الناصر شغوفاً بالبناء
والعمران ، وساعده فى ذلك ما وصلت إليه جباية الأندلس وخراجها فى
عهده من كثرة واتساع ، فجعل ثلثها للبناء والعمران (٣٦) . وينسب إليه
انه قال :

هم الماوك إذا أرادوا نكرها
من بعدهم فبالسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم
ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم قدره
أضحى يدل على عظم الشان (٣٧)

ولذلك يقول ابن عذارى عنه إنه « أسس الأسوس ، وغرس
الفروس ، واتخذ المصانع والمتصور ، ولم يبق له فى القصر الذى هو
من مصانع أجداده ، ومعالم أوليته بنية إلا وله فيها أثر محدث إما بتجديد
أو بتزييد » (٣٨) .

ويقول ابن خلدون : « ولما استقبل الملك للناصر صرف نظره إلى
تشبيد القصور والمباني » (٣٩) .

(٣٦) يذكر المقرئ أن جباية الأندلس بلغت فى عهد الناصر خمسة آلاف
ألف ألف دينار ، وأربعمائة ألف ألف وثمانين ألف دينار ، ومن
الستوق المستخلصة سبعمائة ألف دينار وخمسة وستون ألفا
(نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

(٣٧) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣٩) العبر ج ٤ ص ١٤٤ ، وانظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

مدينة الزهراء :

يمكن أن تنقسم المدن الإسلامية في الأندلس إلى نوعين :

الأول : المدن السابقة على الفتح والتي نزل بها المسلمون مثل قرطبة وإشبيلية وغيرها .

والثاني : المدن التي أسسها المسلمون بعد الفتح ، واستقروا بها وصبغوها بالصبغة العربية والإسلامية ، وهذه المدن تنقسم إلى قسمين أيضا :

١ - مدن حربية أو عسكرية : مثل مدينة قلعة رباح ، وقلعة أيوب ، وحصن القصر ، وحصن الفرج ، ومدينة القلعة ، ومدينة القليعة وغيرها .

٢ - مدن أميرية يبنها الأمراء والخلفاء للراحة والاستجمام وأحيانا للإقامة مثل مدينة الزهراء التي بناها الناصر ، ومدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن أبي عامر (٤٠) .

ويهمنا في هذا المقام الحديث عن هذا النوع الأخير ونخص بالذكر مدينتي الزهراء والزاهرة .

أما الزهراء فإن تاريخ بنائها يحيط به نوع من القصص أقرب إلى الأساطير حيث ذكر المؤرخون في سبب بنائها : أن الناصر قد ماتت له جارية تركت مالا كثيرا ، فأمر بأن يفتدى بذلك المال أسرى المسلمين لدى الفرنج فلم يوجد لديهم أسرى . فطابت منه جارية له تدعى الزهراء - وكان مغرما بها - أن يبني لها بهذا المال مدينة ويسمونها باسمها ، فاستجاب لذلك وأخذ في بناء المدينة سنة ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م تحت جبل العروس شمال قرطبة على بعد ثلاثة أميال أو نحو ذلك (٤١) .

(٤٠) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٦ .

(٤١) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

والواقع ان الناصر كان محبا للبناء والعمران بطبعه ، ويرى ان البناء إذا تعاضم قدره اضحى يدل على عظيم الشأن كما قال ، وانه احد أسباب تخليد ذكرى الإنسان . فرأى ان يؤسس ضاحية خلافية يقيم فيها قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائنها ، خاصة وانه قد ثقب بلقب الخلافة منذ وقت قصير سنة ٣١٧هـ (٤٢) .

ويبدو ان قصة الجارية إنما هي محض خيال من ابتكار المؤرخين العرب الذين يريدون ان يجعلوا لكل تسمية أصلا ، ويحبكون القصة حتى تبدو حقيقية ، فيذكرون أنه نقش صورة هذه الجارية فى تمثال وضعه على باب المدينة بالغة فى حبه لها ، وحقيقة الأمر ان هذا التمثال لا يعدو ان يكون أحد التماثيل الرومانية التى نصبت على أحد ابواب المدينة تقليدا لتمثال على هيئة امرأة وضع على باب القنطرة بقرطبة ، والذي عرف بباب الصورة أو باب العذراء (٤٣) .

أما اسم المدينة فإنه نسبة إلى القصور الزاهرة التى أسسها الخليفة فى هذه المدينة ، أو نسبة إلى الأزهار حيث غرس الأشجار والأزهار

(٤٢) يذكر د. حسن ابراهيم : ان عبد الرحمن الناصر لما وطد دعائم ملكه ، ووجد بلاد الأندلس وأصبح خليفة فكر فى بناء مدينة يتخذها حاضرة لخلافته ، مقتديا فى ذلك بأبى جعفر المنصور عندما بنى بغداد سنة ١٤٥هـ ، وعبيد الله المهدي حين بنى المهديية سنة ٣٠٣هـ ، والمعز لدين الله حين بنى مدينة القاهرة فيما بعد . وإذا كان للناصر ان يتمثل بالمنصور والمهدى ، فكيف يتأتى له ان يقتدى بالمعز ، والقاهرة لم تنشأ إلا سنة ٣٥٨هـ ؟ وهو قد بدأ بناء الزهراء سنة ٣٢٥هـ ! (انظر تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٧٠) .

على جبل قرطبة التى تقع المدينة على سفحه ، وخاصة اشجار التين واللوز (٤٤) .

وقد بدأ الناصر فى بناء هذه المدينة فى المحرم سنة ٣٢٥ هـ ، على بعد خمسة أميال تقريبا إلى الشمال الغربى من قرطبة (٤٥) .
وقد كلف الناصر عبد الله بن يونس عريف البنائين ، وحسن القرطبى ، وعلى بن جعفر الاسكندراني بجلب الأعمدة والرخام إليها . وكان يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنائير ، وعلى كل سارية بثمانية دنائير سجماسية كما ذكر ابن عذارى ، أو بعشرة دنائير على كل رخامة كبيرة أو صغيرة كما ذكر المقرئ ، فجلبوا لها الرخام الأبيض من المرية ، والرخام المجزع من رية ، والوردى والأخضر من قرطاجنة وإصفاطس . وكان يورد إليها من الجير والحص الف ومائة حمل كل ثلاثة أيام .

وقد ذكر ابن عذارى : أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة ، سوى التبليط فى الأساس ، وأن عدد السوارى التى جلبت لها بلغ (٤٣١٣) سارية ، جلب منها (١٠١٣) سارية من إفريقية ، وأهدى ملك الروم للناصر (١٤٠) سارية ، والباقى من رخام الأندلس من طركونة وغيرها .

وذكر أنه كان يعمل فيها كل يوم من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة دابة ، وكان المشرف على البنائى الحكيم ابن الناصر . واستمر العمل فى بنائها بقیة عهد الناصر وعهد

(٤٣) ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٦١ .

(٤٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥ .

(٤٥) ذكر المقرئ أن المسافة بين الزهراء وقرطبة أربعة أميال وثلاث . وطولها من المشرق إلى المغرب (٢٧٠٠) ذراع ، وعرضها (١٥٠٠) ذراع ، وعدد سوارىها (٤٣٠٠) سارية ، وأبوابها تزيد على ١٥ ألف باب (نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥) .

(م ١٦ - المجتمع الأندلسى)

ابنه الحكم إلى سنة ٣٦٥ هـ أى نحو أربعين سنة (٤٦) .

وقد بنيت الزهراء على سفح جبل العروس (جبل قرطبة) ، وكانت تشتمل على ثلاث مستويات متدرجة فى البناء كما يتبين من وصف الإدريسى لها حيث قال « وهى فى ذاتها مدينة عظيمة مدرجة البنية ، مدينة فوق مدينة ، سطح الثلث الأعلى يوازى الجزء الأوسط ، و سطح الثلث الأوسط ، يوازى الثلث الأسفل ، ولكل ثلث منها سور . فكان الجزء الأعلى منها قصورا يعجز الوصف عن صفاتها ، والجزء الأوسط للباستين والروضات ، والجزء الثالث للديار والجوامع » (٤٧) .

وقد جاب الناصر من القسطنطينية حوضا من الرخام منقوشا بالذهب ، وعليه رسوم بارزة ، ونصبه فى بيت المنام بالقصر الشرقى بالمدينة ، الذى عرف بقصر المؤنس ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالدر النفيس المصنوع بدار الصناعة بقرطبة (٤٨) .

كما أقام الناصر فى المدينة القصر الخلقى والذى عرف بالمجلس الزاهر ، وكان آية فى الترف . فقد ذكر أنه اتخذ فيه قبة تراهيها من الذهب والفضة أنفق فيها مالا كثيرا ، وجعل فى وسطه صهريجا عظيما مملوءا بالزئبق ، إذا سطعت عليه أشعة الشمس أحدثت نورا وبريقا يخطف الأبصار ، ويأخذ بهجامع القلوب حتى ليخيل للناظر أن المجلس يتحرك ، وقيل إن الناصر كان إذا أراد أن يفزع أحدا من أهل مجلسه أوما إلى أحد الصقالية ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس لمعان

(٤٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

(٤٧) صفة المغرب والاندلس (من كتاب نزهة المشتاق) ص ٢١٢ .

(٤٨) انظر المترى : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ، ابن عذارى : البيان

المغرب ج ٥ ص ٢٣١ .

كالبرق . وقيل إن هذا المجلس كان يدور ويستقبل الشمس أينما دارت ، وهذا من قبيل مبالغات المؤرخين .

وكان في كل جانب من جوانب هذا القصر ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا قائمة على أعمدة من الرخام الملون والبثور الصافي ، وقد رصعت هذه الحنايا بالذهب وأصناف الجواهر . إلى غير ذلك من الأوصاف التي تحمل في طياتها كثيرا من المبالغة (٤٩) .

كما بنى إلى جانب المجلس الزاهر قصرا سماه (دار الروضة) . كما أخذ في بناء المتزهات ، فاتخذ منية الناعورة خارج القصور ، وساق إلى هذه القصور والمنيات الماء من أعلى الجبل على مسافة بعيدة . ويصف ابن خلدون ما أنشأه الناصر في مدينة الزاهرة فيقول : « وأنشأ في مدينة الزاهرة من المباني والقصور والبساتين ما عفا على مباني من سبقه ، واتخذ فيها دورا فسيحة للوحوش متباعدة السياج ،

(٤٩) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ — ٢٤٧ . ويذكر النباهي : أن الناصر لما بنى هذه القبة جلس فيها وقال لمن حوله « هل رأيتم أو سمعتم ملكا فعل مثل هذا ، أو قدر عليه ؟ فقالوا : لا يا أمير المؤمنين » وبينما هو كذلك في غبطة وسرور دخل عليه القاضي منذر بن سعيد البلوطي فقال له : والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ ؟ فقال الناصر غاضبا : انظر ما تقول . قال : ليس الله يقول (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمة آيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ، وآيوتهم أبوابا وسرا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لآسا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) .

فوجم الناصر وأطرق مليا ثم بكى ، ودعا للقاضي بخير ، وقام عن مجلسه وأمر بنقض سقف هذه القبة ، وجعل قرابيدها من التراب (نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٨ — ١١٠) .

ومسارح للطيور مظاللة بالشباك » ، كما بنى الناصر بها أيضا دورا

لصناعة الآلات من السلاح والحلى وغير ذلك (٥٠) .

وكانت هناك بحيرة بالقصر تربي فيها الحيتان ، وكان طعامها في

كل يوم ثمانمائة خبزة ، وقيل اثني عشر ألف خبزة ، وينقع لها من الحمص

الأسود ستة أئفزة في كل يوم (٥١) .

قصر منية الناعورة :

كما أنشأ الناصر في منية الناعورة (٥٢) غربى قرطبة قصرا له نسب

(٥٠) العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ، بينما يذكر ابن عذارى أنه كان

يخبز كل يوم برسم حيتان البحرات ١٨ ألف خبزة ويعلق على ذلك

قائلا « وهذا من أعظم الأشياء » (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١) .

(٥٢) سميت بذلك نسبة للناعورة (الساقية) التي كانت ترفع المياه

إلى بساتينها (قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٠٣) ، وكانت

منية الناعورة في بداية الأمر أرضا تقع على شاطئ نهر قرطبة

بجوار مصلى فحص المصارة العتيق ، اشتراها الأمير عبد الله

أيام والده محمد بن عبد الرحمن الأوسط بما حولها من المزارع من

رجل يسمى خليل البيطار سنة ٢٥٣ هـ « فأنشأها منية عجيبة ،

واسعة الخطة ، أرادها للفرجة ، وأوسع خطتها ، وأكثر

غراساتها ، واقتصد مع ذلك في الإنفاق عليها » وكانت بساتينها

تسقى من نهر قرطبة بواسطة الناعورة ولذلك سميت بها ثم انتقلت

ملكيتها لعبد الرحمن الناصر ، فأقام بها هذا القصر ، وأجرى

له الماء العذب من جبل قرطبة في جسر أو قناة على حنايا

معقودة استغرق بناؤها أربعة عشر شهرا ، وكان أثرا لديه

يقصده للراحة والنزهة ، وخاصة بعد عودته من الغزوات ،

إليها فى سنة ٣٢٩هـ « وأجرى له الماء العذب من جبل قرطبة فى قناة
يجرى ماؤها بتدبير عجب ، وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة عليها أسد
عظيم الصورة بديع الصنعة ، يجوز الماء إلى عجزه فيمجه بفمه فى تلك
البركة فيسقى جنان القصر على سعتها » كما ذكر المقرئ (٥٣) .

وقد ذكر ابن عذارى : أن عدد الدور التى كانت تضمها مدينة الزهراء
١١٣ ألف دار للرعية ، بخلاف دور الوزراء والكبراء . وهذا دليل على
انتقال الكثير من الناس إليها من قرطبة ، وخاصة بعد أن اتخذها الناصر
مقرا جديدا للخلافة . هذا بخلاف عدد دور القصر الخلقى وتبلغ
أربعمائة دار لسكنى الخليفة وحاشيته وأهل بيته ، وذكر أن عدد الفتيان
الصقالبة فى القصر بلغ ٣٧٥٠ فتى ، وعدد النساء من الجوارى والخدم
بلغ ٦٣٠٠ امرأة ، وأنه كان يصرف لهم من اللحم فى كل يوم ١٣ ألف رطل.
سوى الطيور والأسماك (٥٤) .

وقد بالغ المؤرخون والرحالة فى وصف قصور الزهراء ، وما احتوته
من مظاهر الثراء والترف بأوصاف لا يصدقها العقل فى كثير من
الأحيان .

غير أن ما أسفرت عنه الحفائر الأثرية التى أجريت فى موضع هذه

وفيه نزل الملك أردون الرابع ملك قشتالة لما قدم يستنجد
بالمستنصر لرده إلى عرشه سنة ٣٥١هـ (انظر : المتنبس ص ٢٨
تحقيق ملثور انطونيه ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، نفع الطبيب
ج ١ ص ٢٦٤) .

(٥٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ هذا بينما يذكر المقرئ أن عدد
الفتيان الصقالبة بالزهراء ١٣٧٥٠ ، وعدد النساء ٦٣١٤ ،
وقيل عدد الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠ أو ٣٧٨٧ أو ٦٠٨٧ (انظر
نفع الطبيب ج ١ ص ٢٦٥) .

المدينة قد أثبتت صدق كثير من هذه الأوصاف إلى حد كبير (٥٥) .

وما كاد عبد الرحمن الناصر ينتهى من بناء قصور الزهراء ، حتى شرع فى إقامة الأسواق والحمامات والخانات والمتنزهات بها ، وشجع الناس على السكنى فيها . ويذكر أنه أمر مناديه بالنداء فى جميع أقطار الأندلس أن من يبنى بها دارا ، أو يتخذ بها مسكنا فله أربعمئة درهم معونة « فتسارع الناس إلى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ، وتزايدت فيها الرعيعة » (٥٦) .

وقد أدى ذلك إلى هجرة الكثيرين إليها حتى ازدحمت بالسكان ، وامتد العمران خارجها فى الطريق الممتد بينها وبين قرطبة حتى كادت الأبنية تتصل بينها . وتوفى الناصر قبل أن يتم بناء المدينة بأكملها ، فأخذ ابنه الحكم المستنصر فى إكمالها . ولكن لم يتح لهذه المدينة الفخمة أن تنعم بالحياة والازدهار طويلا ، حيث شرع المنصور بن أبى عامر فى بناء مدينته الزاهرة سنة ٣٦٨ هـ لمنافسة الزهراء فسأب منها الكثير من مظاهر النشاط والازدهار ونزل منها الدواوين ، وبيت المال ، والخزائن ، وغير ذلك ، حتى جاءت الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس لتعصف بحياتها مع الزاهرة ، ولم يتجاوز عمرها نحو ثلاثة أرباع قرن - وقد ندبها الكثير من الشعراء ومنهم السمسيسر الألبيرى الذى يقول :

وقفت بالزهراء مستعبرا معتبرا أندب اثنتان

(٥٥) انظر عن هذه الحفائر : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ملحق

رقم ٢ ص ٢٠٨ وبعدها ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة

ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٤١٠ - ٤١١ .

(٥٦) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٧ ، المقربى : فتح الطيب ج ٢

ص ١١٢ .

فقلت يا زهرا الا فارجمي قالت وهل يرجع من ماتا ؟

فلم ازل ابكى وابكى بها هيهات يفتى الدمع هيهاتها

وأبو الحزم بن جهور الذى زارها يوما ووقف على اطلالها فقال :

قلت يوما لدار قوم تفتانوا

أين سكانك العزاز علينا

فاجابت هنا اقاموا قليلا

ثم ساروا ولست اعلم أيننا (٥٧)

مدينة الزاهرة :

بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر ، وتولى ابنه هشام مقاليد
الخلافة وكان لا يزال غلاما فى العاشرة من عمره ، تولى محمد بن أبى عامر
الملقب بالمنصور الحجابة له ، وأخذ نفوذه فى الازدياد ، وسيطر على
مقاليد الأمور فى الأندلس ، وحجر على الخليفة الصغير بعد أن تخلص
من منافسيه .

وأراد أن يسجل ما وصل إليه من نفوذ وسلطان فأقام على نهر
الوادى الكبير بالقرب من قرطبة قصرا له كان نواة لمنيته التى سميت
بالزاهرة ، وغدت منافسة لمدينة الزهراء التى بدأها الناصر وأكملها
المستنصر .

ويعبر الفتح ابن خاقان عن ذلك بقوله « عندما استفحل أمره ، واتقد
جمره ، وظهر استبداده ، سما إلى ما سميت إليه الملوك من اختراع
قصر ينزل فيه ، ويحل به أهله وذويه ، ويضم إليه رياسته ، ويتم
به تدبيره وسياسته ، ويجمع فيه فتيلاته وغلماته » .

(٥٧) المثرى : نفع الطيب ج ٢ ص ٦٦ ، تاريخ المسلمين وآثارهم

كما يذكر المقرئ أيضا أنه « بنى على طريق المباهاة والمخامة مدينة العامرية ذات القصور والمنتزهات المخترعة كمنية السرور وغيرها من مخترعاته العجيبة » (٥٨) .

وهناك عامل آخر فى بناء المنصور للزهراء واتخاذها مقرا له وهو خشيته على نفسه من دخول قصر الخليفة هشام بعد أن حجر عليه ، واستبد بالأمر من دونه ، وكثر حساده ومنافسوه وخصومه (٥٩) .

وقد شرع المنصور فى بناء هذه المدينة سنة ٣٦٨ هـ ، فحشد لها العمال والفعلة ، وجلب لها ما تحتاج إليه من مواد البناء ، وبدأ العمال فى تسوية أرضها تمهيدا للبناء . وقد وسع المنصور فى تخطيطها ، فامتدت رقعتها امتدادا كبيرا ، وسورها بأسوار عالية ، وفتح فيه عدة أبواب منها باب الفتح ، وباب السباع ، وباب الجنان .

وقد استغرق البناء فيها مدة عامين حيث انتقل إليها المنصور سنة وأمتعه ، واتخذ فيها الدواوين ، وعمل داخلها الأهرام (مخازن الغلال) ، وأطلق بساحتها الأرحاء ، ثم أقطع ما حولها لوزرائه وكتابه ، وقواده وحجابه ، فابتنوا بها كبار الدور ، وجلبت القصور واتخذوا خلالها المستغلات المفيدة ، والمنازة المشيدة ، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الأرفاق ، وتنافس الناس فى النزول بأكنافها ، والحلول بأطرافها للأدنى من صاحب الدولة ، وتناهى الغلو فى البناء حولها ، حتى اتصلت أرباضها

(٥٨) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٥٩) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٥٨ .

بأرياض قرطبة» (٦٠) .

وقد أدى إنشاء الزاهرة إلى فقدان الزهراء لمكانتها ، فقد أخذ الكثيرون من أهلها في الرحيل عنها إلى الزاهرة ، ليكونوا بالقرب من صاحب النفوذ والسلطان .

وكان المنصور قد رتب جلوس الوزراء والكبراء والشيوخ بها ، وندب إليها أرباب الخطط ، وجعلها مقرا للشرطة ، وعين عليها واليا على نحو ما كان معمولا به في الزهراء وقرطبة ، كما أقام بها مسجدا جامعاً لتكتمل جميع مرافقها ، وتصبح مدينة مستقلة بذاتها ، وهكذا حلت محل الزهراء وأصبحت قاعدة الحكم ومركز السلطنة بالرغم من وجود الخليفة في الزهراء . فقد كانت تصل إليها الضرائب والجبايات ، ويقصدها الولاة والحكام وطلاب الحاجات ، وغدت مركزا للاحتفالات السياسية الكبرى ، ومكانا لاستقبال الملوك والأمراء الأجانب . فقد استقبل فيها المنصور سنة ٣٨٢هـ شانجة (سانشو) ملك بنبلونة - الذي أهدى للمنصور ابنته فتزوجها وولدت منه عبد الرحمن المعروف بشنجول - استقبالا حافلا .

كما استقبله عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٤هـ ، واستقبل عبد الملك أيضا الخليفة هشام المؤيد فيها سنة ٣٩٨هـ بعد أن أعده له نزهة فيها (٦١) . وقد اتسع عمران الزاهرة شيئا فشيئا وتزايد فيها البناء وأقيمت فيها المنيات والمتنزهات ، والبساتين والرياض إلى جانب القصور .

(٦٠) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٠ ، المقرئ : نفع الطيب

ج ٢ ص ١١٣ .

(٦١) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ١٤٦ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام

ص ٧٣ ، ٨٨ .

ومنها قصر ناصح ، وقصر الزاهى الذى كسيت جدراناه بالمرمر ،
واجريت فيه المياه والغدران التى تحف بها الأشجار والأزهار ، وقصر
الحاجبية الذى أقامه المظفر إلى جانب المدينة خارج السور (٦٢) .

ومن منياتها : منية السرور ذات الحسن النضير ، وهى جامعة بين
روضة وغدير (٦٣) وذات الواديين ، ومنية أرطانية ومنية
للؤلؤة (٦٤) .

ومن أشهر المنيات منية العامرية أو منية المنصور (٦٥) التى كان يقضى
بها الكثير من أوقاته مع خاصته . وقد احتفى بها الكثير من الشعراء ،
بسبب سحر حدائقها ومنهم ابن أبى الحباب الشاعر ، الذى دخل على
المنصور فى منيته « والروض قد تفتحت أنواره ، وتوشحت أنجاده
وأخواره ، وتصرف فيها الدهر متواضعا ، ووقف بها السعد خاضعا » .
ووقف على روضة فيها ثلاث سوسنات تفتحت اثنتان منها دون الثالثة
مقال :

(٦٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٦٢ .

(٦٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٦٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، ص ٣٠٠ .

(٦٥) أسسها المنصور سنة ٣٦٩ إلى جانب مدينة الزهراء وحاطها
بالرياض والجنان وأجرى فيها قناة تنساب مثنوية كالشعبان بين
بساتينها وعلى ضفتيها تكثر الأشجار ، وتقع آثارها اليوم على
بعد ثلاثة كم من مدينة الزهراء وتسعة كم غربى قرطبة (انظر
البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٤ ، نفع الطيب ج ٢ ص ١١٥ ، قرطبة
حاضرة الخلافة ص ٢١٣) .

لا يوم كالיום فى أيامنا الأول
بالعامرية ذات المياء والظلم
هواؤها فى جميع الدهر معتدل
طيبا وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالي الذى يحتل ساحتها
بالسعد إلا تدل الشمس فى الدول
كانما غرست فى ساعة وبدا الموسمان من هينه فيها على عجل
أبدت ثلاثا من الموسمان مائلة
أعناقهم من الإعياء والكسل
فبعض نوارها للبعض منفتح
والبعض منفلق عنون فى شغل
كانها راحة ضمت أناملها
من بعد ما هلت من جودك الخضل
واختها بسطت منها أناملها
ترجو نذاك كما عودتها فصل (٦٦)

ويذكر ابن سعيد أن ابن العريف النحوى دخل على المنصور بها
وعنده صاعدا البغدادى فقال منشدا :

فالعامرية تزهى على جميع المباني

وانت فيها كسيف قد حل فى غمدان (٦٧)

فقام صاعد وكان منافسا له فقال : أسعد الله تعالى الحاجب الأجل ،
ويمكن سلطانه . هذا الشعر الذى قاله قد أعده وروى فيه ، أقدر

(٦٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٦٧) غمدان : قصر سيف بن ذى يزن باليمن .

ان اقول احسن منه ارتجالا فقال له المنصور : قل ليظهر صدق دع- والك
فقال :

يا ايها الحاجب المعتلى على كيوان
ومن به قد تناهى فخر كل يمان
العامرية أضحت كجنة الرضوان
فريدة لفريد ما بين أهل الزمان

ثم قال فى وصفها :

انظر إلى النهر ينساب كالثعبان
والقضب تلفت سكرا على ذرا الأغصان
والطير يخطب شكرا بهمس القضبان
والروض يفتن زهوا عن بسم الأقبان
والنرجس الفض يرنو بوجنة النعمان
وراحة الريح تمتا ر نفحة الريحان
قدم الدهر فيها فى غبطة وأمان (٦٨)

وفى منيات الزاهرة وتصورها يقول صاعد البغدادي اللغوى :

أما ترى العين تجرى فوق مرمرها
زهوا فتجرى على أحفافها الطريا
أجريتها فطما الزاهى بجريتها
كما طموت فسدت العرب والعجماء
تخال فيه جنود الماء رافعة
مستلّمات تريك الدرع والقباء

تحفها من فنون الأيك زاهرة
قد أورقت فضة إذ أورقت ذهباً
بديعة الملك ما ينفك ناظرها
ينلوا على السمع منها آية عجبا
لا يحسن الدهر أن ينشى لها مثلاً
ولو تعنت فيها نفسه طاباً (٦٩)

وكان يكثر فيها النرجس والياسمين والبنفسج وقد وصف الوزير
الجزيري مجلساً للمنصور فيها فقال :

وتوسطتها لجة فى قصرها
بنت السلاحف ما تزال تنفق
تنساب من فكى هزبر إن يكن
ثبت الجنان فإن فاه أخرج
صاغوه من ندى وخلقى صفحتى
هادية محض الدر فهو مخلق
للياسمين تطلع فى عرشه
مثل المليك عراه زهو مطرق
ونضائد من نرجس وبنفسج
وجنى خيبرى وورد يعبى
ترنو بسحر عيونها وتكاد من
طرب إليك بلا لسان تنطق
وعلى يمينك سوسنات أطلعت
زهر الربيع فهن حسناً تشرق

كما أنشد الشاعر الجزيري على لسان النرجس فيها مخاطبا
المصور :

حيثك يا قمر العلاء والجالس
أزكى تحيتها عيون النرجس
زهرا تريك بحسنها وبأونها
زهرا النجوم الجارية الكنس (٧٠)

وإذا كانت حياة الزهراء قد امتدت نحو سبعين عاما ، فإن حياة
الزاهرة لم تبلغ نصف هذه المدة ، حيث ثار العمامة على عبد الرحمن
شنجول سنة ٣٩٩ هـ وهاجموها ونهبوها وهدموا مبانيها ومحووا رسومها ،
فخربت وتلاشى أمرها وصارت كأمس الدابر ، وكانت كارتتها أعظم من
الزهراء ، حيث أن موجة التخريب ضدها كانت أشد وأعتى نكاية في
العالميين .

وذكر أن بعض ما نهب منها بيع في العراق وغيرها من بلاد المشرق .
ويروى ابن عذاري : أن العمامة نهبوا ما كان فيها من الأموال
والسلاح والخزائن والأمتعة والآلات السلطانية ، حتى اقتلعت الأبواب
الضخمة وغيرها مما حوته القصور ، وصارت تباع بكل جهة .

ثم أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي بهدمها ، وقطع أبوابها ،
وتحطيم أسوارها ، وتشيعت قصورها ، واضرمت النيران فيها حتى طمست
معالمها ، وأعاد العاصمة إلى قرطبة (٧١) .

(٧٠) المقرئ : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٠ ، ٧١ .
(٧١) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٣ ص ٦٤ ، وقد وجد في بهو
الجنس بقصر إشبيلية - الذي بنى في عهد بني عباد (ملوك
إشبيلية ، وأضيف إليه في عصر الموحدين - أعمدة تيجانها متخذة
من أطلال الزاهرة والزهراء . (دائرة معارف الشعب (٦٤)
ص ١٢٨) .

ويبدو أن المنصور قد كان يتوقع خراب الزاهرة وضياع معالمها
فقد ذكر ابن حزم : أنه كان مع المنصور وجماعة فى نزهة بالزورق فى
نهر الوادى الكبير الذى تقع عليه المدينة فقال : « وبها لك يا زاهرة الحسن
لقد حسن مرآك ، وعبقى ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخزرك ، وطاب
تريك ، وعذب شربك . فليت شعرى من المرید الذى يعدمك ، ويوهن
ركنك ويهدمك ، ويخلى ميدانك ، ويضوى قصبتك وأفنائك . فبؤسا له
إذ لا يودنه حسنك . فكيف عن تغييرك ؟ . ألا تسببه بهجة منظرك فكيف
عن محو أثرك ؟ » قال ابن حزم : فاستعظمتنا ذلك وأنكرنا ما صدر عنه
وظننا أن الراح قد غابت عليه ، وخيلت ذلك إليه فقال : « والله كأنكم
لا تعلمون ذلك ، نعم سيظهر علينا عدونا فى أقرب مدة فيهدم هذا كله
ويهدمه ، وكأنى بحجارتها فى هذا النهر » (٧٢) . وقد حدث ما كل
يخشى به المنصور بعد أن فرط فى حق الكثيرين ووصل إلى النفوذ
والسلطان بكل حيلة ووسيلة ممكنة .

وذكر ابن سميذ : أنه كان فى بلنسية كثير من المتنزعات والمسارح ،
ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومنية ابن أبى عامر ، تحيط بها الجنان
والأنهار من كل جانب (٧٣) .

كما كانت هناك منيات أخرى أقيمت بها بالطبع مجالس أو قصور
للإقامة أو النزول فيها ومن أشهرها :

منية نصير الفتى فى الربيض : وكان مولى للأمير عبد الرحمن الأوسط ،
ومن أكبر المفتيان الخصيان فى بلاطه ، وقد وكل إليه عبد الرحمن القيام
ببناء الزيادة التى زادها فى جامع قرطبة (٧٤) . وقد اتخذ نصر هذه المنية

(٧٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٣) المغرب فى حطبى المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٧٤) المتقربص ص ٢٤٤ تحقيق الحجى ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١٦ .

فى عدوة الرىض التى تشرف على نهر الوادى الكبير بجوار مقبرة الرىض (٧٥) . وكان موضعها بيتا للرحا فى أيام أبى الخطار الكلبى فى عصر الولاة . ويبدو أنه أقيم مكانها فندق « كان متقبله من أهل الإضرار والفسق » (٧٦) فأمر عبد الرحمن بهدمه بعد مبايعته بالإمارة سنة ٥٢٠٦ هـ .

ويظهر أن الأمير قد أقطع فتاه — وكان أثيرا لديه — هذه الأرض فأقام عليها منيته ، وظلت بحوزته حتى مات مسموما سنة ٢٣٦ هـ على يد الأمير نظرا لتآمره عليه مع جاريتة عجب (٧٧) ، ثم آلت إلى زرياب المغنى المشهور ، ثم آلت بعده إلى الأمير عبد الله بن محمد حفيد عبد الرحمن « فشيّد بنيانها وأتقن مصانعها » وكان يوزع أوقاته بينها وبين منية الناعورة السالفة الذكر . وفى عهد الخليفة الناصر آلت إلى ابنه الحكم ولى عهده ، وفيها نزل سفراء الامبراطور البيزنطى قنسطنطين السابع فى صفر سنة ٣٣٨ هـ عند قدومهم إلى قرطبة (٧٨) .

منية عجب : كما أقامت عجب جارية الحكم الرىضى منية لها فى الرىض القبلى فى مواجهة رصيف قرطبة الكبير — وهو الطريق المرصوف بالحجارة الذى كان يمتد من شرق قرطبة حتى الناحية الغربية للقصر ، ويقع ما بين الضفة اليمنى للنهر وبين القصر ، ويفتح عليه الباب القبلى للقصر المؤدى مباشرة إلى القنطرة المقامة على النهر . وكانت هذه المنية تشتمل على عدة مساكن موقوفة على الرىضى (٧٩) .

(٧٥) المقتبس ص ٣٨ تحقيق ملثور أنطونيه .

(٧٦) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٠ .

(٧٧) تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٧ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٩ .

(٧٨) المقتبس ص ٣٨ تحقيق أنطونية .

(٧٩) قرطبة حاضرة الخلافة ص ٢٠١ ، ٢١٩ .

قصر الفارسي : وكان من القصور المتصودة للنزهة والفرجة شمال قرطبة . وقد ورد اسم هذا القصر بين معاهد بنى أمية التي شهدت أول إشراقة عشق ابن زيدون الوزير الشاعر لولادة بنت المستنكى . وفيه يقول أحد الشعراء :

ويتهاج قصر الفارس صبابة

لقايبى لا يالو زناك الأسمى قدحا (٨٠)

منية ابن أبي الحكم بن القرظية : وكانت تقع على نهر قرطبة الأعظم (نهر الوادى الكبير) بمنطقة تعرف باسم (الشابات) (٨١) ، وكانت منيعة محصنة مرتفعة الأسوار ، بها عمارات مسورات ، وقد نزل بها أبناء على بن الأندلسي صاحب المسيلة ، وعيال أخيه جعفر عند قدومهم إلى قرطبة سنة ٣٦٠ هـ فى عهد الحكم المستنصر بمبالغة من الحكم فى إكرامها بعد خروجها على المهدي الفاطمى .

منية ابن عبد العزيز : وكانت تقع فى الصحراء الممتدة ما بين قرطبة والزهراء وكان قاصدها يصل إليها بعد مروره على السدة والمصاراة ومسجد الحاجب ابن أبى عبدة - الذى أنشئ فى عهد عبد الرحمن الأوسط - ثم روض مسجد الشفاء ، وروض حمام الإبيرى أو النردى (٨٢) . وقد نزل فيها يحيى بن على المعروف بابن الأندلسي وأخوه جعفر فى ٢٧ ذى القعدة سنة ٣٦٠ هـ .

منية جعفر المصطفى : أقامها الحاجب جعفر بن عثمان المصطفى فى خلافة الحكم المستنصر . وقد ذكر ابن عذارى أنها كانت فى منطقة تسمى

(٨٠) نوح الطيب ج ٢ ص ٥٥ .

(٨١) المتنبس : ص ٤٣ ، ٢٢٨ نشر الحجى .

(٨٢) نفسه ص ٤٦ .

الش غربي قرطبة . وذكر أن السبب في بنائها : أن الخليفة الحكم كان متخوفا على ابنه هشام من ابن أبي عامر ، وكان لشدة نظره في الحدثن متيقنا من أنه سينزع السلطان من ولده ، ويؤسس لنفسه مدينة في موضع يسمى الش (بفتح اللام) فأمر حاجبه بالمسارعة إليها والشروع في البناء عليها وأنفق فيها مالا عظيما ، ولكنه اكتشف بعد بنائها أن هناك موضعا آخر يقع في شرقها بنفس التسمية ولكن بضم اللام عند منزل رجل يسمى أبو بدر . وقد كان هذا الموقع فعلا هو الذي اختاره المنصور ابن أبي عامر لبناء مدينة الزاهرة التي جعلها مقرا له (٨٣) . وقد آلت هذه المنية بعد نكبة جعفر المصحف إلى المنصور . وفيها يقول أبو بكر ابن جعفر :

قف بالمصحفية وانذب مقلة أصبحت بلا إنسان
واسألها عن جعفر وسطاه ونداه في سالف الأزمان (٨٤)

* * *

(٨٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ .

(٨٤) نفح الطيب ج ٢ ص ١٧ .

الدور

وإذا كانت قصور الأمراء والخلفاء والوزراء قد كثرت في الأندلس في العصر الأموي ، فإن دور الخاصة والكبراء قد زادت أيضا (١) . حيث حاولوا التشبه بهذه الطبقة في البناء والعمران والزخرفة والتأثيث كل على قدر إمكاناته .

وليس من السهل تحديد مواقع دور الخاصة في قرطبة وغيرها من مدن الأندلس ، أو وصفها حيث لم تزودنا المصادر بالكثير في هذا الصدد فيما عدا الإشارة إلى بعض دور المشاهير من القضاة والفقهاء والعلماء . بينها أفاضت في وصف القصور . ويمكن تقسيم الدور في الأندلس إلى قسمين : دور رسمية تابعة للدولة ، ودور خاصة بالناس . أما الدور الرسمية فكان منها بقرطبة :

دار الوزراء : ويبدو أنها أنشئت في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط لأنه كان « أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر » وذلك للتشاور معهم في أمور الدولة (٢) وعلى هذا فإن هذه الدار كانت تقع بجانب قصر الإمارة ، أو أنها كانت من ملحقاته . وقد ذكرها ابن القوطية وابن حيان (٣) .

(١) ذكر المقرئ : أن عدد دور الخاصة والكبراء وصل في عهد المنصور ابن أبي عامر في قرطبة وحدها (٦٠٣٠٠) دار ، وأن عدد دور العمامة فيها وصل إلى (٢١٣٠٧٧) دار ، سوى الدور التي أعدت للكراء ، وهو ما نطلق عليه في العصر الحاضر مساكن الإيجار (نفع الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٢) ابن القوطية : تاريخ انفتاح الأندلس ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ص ١٠٧ ، المقتبس ص ٢٥ تحقيق الحجى .

دار القومة : ويبدو أنها أنشئت فى عهد الخليفة الحكم المستنصر بعد الزيادة التى أضافها للمسجد الجامع بقرطبة ، وكانت خاصة بسكنى قومه هذا المسجد ، وكانت تقع بداخله فى الجهة الشمالية . ويذكر أنها تعرضت لحريق « أتى على غرفها ، ودمر سقفها ، وأدى إلى تشعبتها » فى ليلة الجمعة لخمس خلون من شهر رجب سنة ٣٦٢هـ (٤) .

دار الرهائن : وكانت تجاور باب القنطرة ، وفيها كان يتم حبس بعض الرهائن حتى يتم الفصل فى أمرهم ، فقد حبس فيها صالح وعلى ابنا رافع صاحب حصن (حجة) ونفر من بنى عمهما (٥) .

دار الصدقة : وقد أنشأها الخليفة المستنصر غرب المسجد الجامع بقرطبة بعد الانتهاء من الزيادة التى أضافها للمسجد وكانت مزودة بغية وكان يتم من خلالها توزيع الصدقات (٦) .

بيت العمال : وكانت دويرة من ملحقات القصر الخلقى ، اتخذت فى الأصل لعمال القصر ، ثم تحولت إلى سجن ، وكان موضعها بفصيل باب الجنان المطل على النهر ، ولعلها كانت نفس سجن قرطبة القديم فى عهد الإمارة (٧) .

ويمكن أن نضيف إلى هذه الدور الرسمية بعض الدواوين والمصالح الحكومية مثل :

دار الصناعة : وكانت تقع بجوار مسجد أبى عثمان بقرطبة (وهو عبيد الله بن عثمان زعيم موالى الأمويين قبل دخول عبد الرحمن

(٤) المقتبس ص ١٠٤ تحقيق الحجى .

(٥) نفسه ص ١٧٦ .

(٦) نفسه ص ١٩ .

(٧) المقتبس ص ٢٠٢ تحقيق الحجى .

إلى الأندلس) ، وكان هذا المسجد يقع شمال القصر الخلفى حيث كان هناك باب للقصر يعرف (بباب الصناعة) لأنه كان يشرف عليها . ويظهر أن هذه الدار أنشئت فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط بعد غزو النورمان لإشبيلية سنة ٢٢٩ هـ ، وكانت تصنع فيها المراكب والسفن ، ولكنها اقتضرت منذ زمن الناصر على صناعة الآلات والحلى والتهاثيل فيها يبدو ، وذلك نظرا لكثرة دور الصناعة التى أنشئت لبناء السفن فى سواحل الأندلس ، وفيها تمت صناعة الاثنى عشر تمثالا من البرونز المرصع بالدر النفيس التى وضعت فى مجلس المؤنس ببدينة الزهراء (٨) .

دار الطراز والبرود : ويذكر أنها أنشئت فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فهو الذى أحدثها واستنبت عملها كما ذكر ابن عذارى ، وإن كان ابن حيان يذكر أنها من بناء عبد الرحمن الداخل (٩) . ويبدو أن الداخل هو الذى أنشأها واختصت بصناعة البرود الأميرية ولذلك عرفت بالدار البريدية ، ثم تطورت فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، واتسعت مرافقها ومهامها وما يصنع فيها . فقد ذكر ابن الخطيب « أنه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرفاق وطرفة أهل الآفاق » (١٠) .

ومعنى هذا أنه أنشأ دار للطراز لنسج الثياب الأميرية له ولأهله وحاشيته ويبدو أنها أنشئت إلى جانب الدار البريدية التى أقامها الداخل . وفى عصر الخليفة الناصر اتسعت وأصبح ينسج فيها ما يحتاج إليه من الخلع والكسوات وملابس الحرير وغير ذلك . ويذكر ابن الخطيب معلقا على ذلك « ولو تتبعنا أصنافهم وما كانوا يحاولونه من صناعاتهم ،

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٥٥ ، نفع الطيب ج ٢ ص ١٠٤ .

(٩) المقنتس ص ٦٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٦ .

(١٠) أعمال الأعلام ص ٢ .

وينافسون به المشرق من بضائعهم ، ومقدار جراياتهم ونفقاتهم لضاق عنه الكتاب « (١١) . وقد أشار ابن حوقل إلى شهرة قرطبة فى زمن الناصر فى صناعة الجيد من الثياب والكسوة من الكتان والخز والقز (١٢) .

وقد ذكر ابن حيان : أن هذه الدار نقلت من موضعها الأول سنة ٣٦١هـ. فى عهد المستنصر من غرب القصر إلى دار الزوامل بالمصارة فى غرب قرطبة ، وأما دار الزوامل فقد نقلت من موضعها إلى دار تقع بالقرب من المحبس عند قصر الناعورة . وأما دار البرد القديمة فقد أمر الحكم بإقامة حوانيت للبزازين مكانها (١٣) .

وكان لها قيم يشرف عليها حيث تولاها فى عهد الأمير عبد الله زيان الفتى ، وفى زمن الناصر خلف الفتى الكبير ، وفى زمن المستنصر فائق الفتى المعروف بالنظامى (١٤) .

دار المسكة : وكان أول من أنشأها فى قرطبة الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حيث لم تكن هناك دار مسكة للمسلمين بعد فتح الأندلس ، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون بالعملات الأموية والعباسية وبعض العملات المغربية ، وكذلك بعض العملات التى كانت موجودة بالأندلس كالرومانية والقوطية ، وكانت تسك دراهم وفلوسا يتعامل بها الناس كل ستمين فلسا بدرهم ، وفى سنة ٣١٦هـ أمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بإقامة دار جديدة للمسكة داخل قرطبة بدل الدار القديمة التى كانت تقع بجوار

(١١) أعلام الأعلام ص ٤٠ .

(١٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠٨ .

(١٣) المقتبس ص ٦٦ نشر الحجى .

(١٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٣ ، ص ٢٨٤ ، ص ٢٨٧ ، المقتبس ص ٦٦ ، ٣١٧ وأغلب الظن أنها كانت تقع بجوار قصر الإمارة فى قرطبة من الجهة الغربية استنادا إلى ما ذكره ابن حيان وابن الخطيب . (انظر المقتبس ص ٦٦ ، أعمال الأعلام ص ٤٠) .

باب العطارين خارج قرطبة (١٥) لضرب الدنانير والدراهم الأندلسية ،
عولى خطتها أحمد بن موسى بن حدير ، ثم نقلها بعد ذلك إلى مدينة
الزهراء التي أسسها (١٦) .

أما دور الخاصة فكان من أشهرها : دار الأمير عبد الله بن عبد الرحمن
وكانت قريبة من باب القنطرة .

ودار القاضي منذر بن سعيد البلوطى : وكانت تقع بجوار مسجد
السيدة الكبرى بالقرب من مقبرة قريش بالربض الغربى من قرطبة .
ودار بقى بن مخلد : وكانت تقع بظاهر المدينة فى فمحص الطرف على
سارح المبطلنة الممتد من باب عبد الجبار .

ودار الأمير عبد الله بن محمد : وكانت تقع بجوار باب قرطبة الغربى ،
ولها عليّة تشرف على الطريق .

ودار الفقيه المشاور أبى ابراهيم : وكانت تقوم بجوار مسجد
أبى عثمان تجاه باب الصناعة من أبواب قصر قرطبة الشمالية .
ودار محمد بن سعيد الأموى : وكانت تقع ببنية عبد الله بالناحية
الشرقية من قرطبة .

ودار ريان الوصيف : وكانت تقع بجوار منار الجامع بقرطبة .
وغيرها (١٧) .

وقد كانت الدور فى الأندلس بصفة عامة تقوم حول فراغ مركزى
هو الصحن الذى تتوزع حوله الغرف ، وتتألف من جزئين أساسيين :
الواجهة الخارجية ، وداخل البيت . وبينما كانت للواجهة الخارجية بسيطة

(١٥) الهمداني : مختصر كتاب البلدان ص ٨٨ تحقيق دى غويه ، ليدن
سنة ١٨٥٥م .

(١٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ ، ٣٢١ .

(١٧) انظر : قرطبة حاضرة الخلافة الأموية ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

فى الغالب تكاد تخلو من الزخرفة ، كانت الغرف تزخر بالكثير من الزخارف الرائعة .

ويمكن تفسير ذلك بأن حياة الأسرة الأندلسية كانت تتركز فى داخل الدار حيث تقضى المرأة جل وقتها ، فكان من الطبيعى أن يتألق الناس فى تزيينها من الداخل ، وكسوتها بنوع من الزجاج المفضى ، المعروف فى الشرق بالنسيفساء ، وكان يعرف عندهم (بالزليجى) ، وهو ذو ألوان عجيبة ، ويقوم عندهم مقام الرخام الملون المتخذ فى الشرق للزخرفة .

وكان له تأثير كبير فى ترطيب الأبهاء والقاعات فى فصل الصيف . هذا بالإضافة إلى ما لألوانه المتعددة ، وخطوطه الهندسية الرائعة من آثار طيبة فى النفس . وكان المدخل فى دور الأثرياء عادة ما يفضى إلى ردهة تؤدي إلى البهو ، أما فى دور العمامة فكان يفصل بهم منكر على شكل زاوية قائمة حتى لا يرى المسارة من فى الداخل .

وقد كانت المرأة الأندلسية تجد فى ذلك تعويضا عن العزلة التى تعانيها فى البيت . ولعل هذا هو السبب فى أن أغلب الدور فى مدن الأندلس كانت تحتوى على علييات أو غرف علوية ، أو مصارى (جمع مصرية) وهى غرف بارزة عن جدران البيت ، مزودة بشبكات من عيدان الخشب المتقاطعة وتسمى (بالشراحيب) . وهى لا تختلف كثيرا عن المشربيات فى المنازل المصرية . وهكذا كان يتاح للمرأة الأندلسية التمتع بمشاهدة الخارج دون أن يراها أحد .

وكان صحن البيت أو فناؤه عنصرا هاما باعتباره المكان الذى تقضى فيه المرأة معظم وقتها ، ومنه ينفذ الضوء والشمس والهواء إلى غرف الدار ، ولذلك فقد اهتموا بتزيينه ، وفرشه بالحجر أو الرخام أو غير ذلك ، وغرسه بالأشجار كالبرتقال والليمون ، ومدته بالمياه الجارية .

• مما يزيد روعة وجمالاً ، ويخفف في نفس الوقت من حرارة الشمس (١٨) .
ولقد وصف ابن سعيد المغربي دور الأندلس بأنها « في غاية الجمال
لمبالغة أهلها في أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها » وأضاف
مقارنا بينها وبين الدور المصرية « إنني تعجبت لما دخلت الديار المصرية
من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق
أوضاعها » . وهو يشير بذلك إلى استخدام الطوب اللبن في بنائها ،
وإستخدام الطين في تجصيصها ، وهو ما كان سائداً في الريف المصرى
إلى وقت قريب ، ويوجد منه أمثلة حتى الآن كما أثنى الشقندى في رسالته
على المبانى الأندلسية فقال « أما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها ،
واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لا تخلو من الماء الجارى ،
والأشجار المتكاثفة كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك » (١٩) .



(١٨) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٢٤ .

(١٩) عن دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٢١ .

مجالس الموسيقى والغناء

ازدهر فن الغناء والموسيقى فى الأندلس ، وساعد على هذا الازدهار عدة عوامل نستطيع أن نجعلها فيما يأتى :

١ - طبيعة بلاد الأندلس الجميلة التى تدعو إلى البهجة والسرور والبهو والطرب .

٢ - ميل أهل الأندلس بصفة عامة للموسيقى والغناء ، ومما يدل على ذلك تلك النقوش المحفورة على علب العاج الأندلسية التى عثر عليها ، وفيها مجالس طرب وموسيقى وشراب ، وقد أمسك فيها بعض الأشخاص بألات موسيقية .

٣ - ولع كثير من الأمويين بالأندلس بالغناء والموسيقى ، وإجزالهم العطاء لأهلها . كما يتجلى من خلال الروايات التاريخية ، ومن خلال بعض النقوش المحفورة على بعض التحف التى عثر عليها ، ومنها علب العاج الأندلسية (١) .

٤ - قدوم كثير من مشاهير المغنين والمغنيات من المشرق إلى

(١) انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ ، د. عبد العزيز عتيق :
الأدب العربى فى الأندلس ص ١٤٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى
ص ٨٦ - ٨٧ . ويروى أن المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط
كان شاعرا مقلدا عالما بالغناء (اللطحة السيرة ج ١ ص ١٢٨) ،
وكذلك اثنان من إخوته أيضا (د. إحسان عباس : تاريخ الأدب
الأندلسى ص ٣٩) . كما يروى أن أبا الأصبغ عبد العزيز
ابن عبد الرحمن الناصر كان مفرما بالغناء ، محبا للشراب ،
ولما انقطع عن الشرب سر أخوه المستنصر بذلك ، وتمنى أن يترك الغناء
أيضا ، فلما سمع ذلك عبد العزيز قال : والله لا تركته حتى تتسرك

الاندلس - وخاصة من الحجاز والعراق اللذين انتشر بهما الغناء -
وعلى رأسهم زرياب .

ه - اختراع الموشحات والأزجال فى الأندلس ، واستجابة الكثير
من الأندلسيين لها ، لأنهم رأوها أقرب إلى التعبير عما فى أنفسهم ، وأسهل
فى التلحين والغناء ، وأنسب للمغنيين المتجولين الذين يتكسبون
بفنائهم (٢) .

الطيور تغريدها . (دائرة معارف الشعب ص ١٠٠ هامش ١) .
ومما يدل على أن الغناء والموسيقى قد أصبحا جزءا من كيان
معظم أهل الأندلس من مختلف طبقاتهم ما ذكره أبو بكر الطرطوشى
(٥٠٢ هـ) من أنهم فى أوساطهم الشعبية كانوا يقرأون القرآن
بالألحان والرقص بالأرجل ، والتصفيق بالأيدي ، وهى عادات
اخترعوها على حد قوله .

يقول : « وجعلوا لكل لحن من الألحان فى القرآن اسما مخترعا ،
فقالوا : اللحن الصقلبي ، فإذا قرأوا قوله تعالى (**وإذا قيل إن وعد
الله حق**) يرقصون فى هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلهم وفيها
الخلاخيل ، ويصفقون بأيديهم على نفحات متوازنة ، ومن ذلك الرهب
(الرهبان) أن نظروا إلى كل موضع فيه ذكر المسيح تمثلوا
أصواتهم فيه بأصوات النصراني والرهبان والأساقفة فى
الكنائس » . (الحوادث والبدع ص ٧٧ - ٧٨ تحقيق محمد الطائى) .
ولا نعتقد أن ذلك قد حدث إلا فى عصر ملوك الطوائف الذى
وصل فيه الترف والبهرجة والتميز إلى درجة كبيرة ، فانصرف الكثيرون
إلى الدنيا ، ويمكن أن يكون فى قول الطرطوشى بعض المبالغه حيث
نظر إلى تسايل البعض وإظهار إعجابه بالقراءة هذه النظرة ،
كما هو حادث فى بعض سرادقات العزاء حتى وقتنا الحاضر .

(٢) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٧ ، د. حسن إبراهيم :

تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٥ .

٦ - قيام بعض الأندلسيين بتأليف الرسائل والكتب فى الموسيقى والغناء ، ومنهم عباس بن فرناس (ت ٢٧٤ هـ) الذى كان إلى جانب محاولاته فى الاختراع والابتكار (٣) « قد حنق الموسيقى ، وعانى ضرب العمود وصوغ الألحان ، وهو أول من فك بالأندلس كتاب العروض للخليل ، وأول من فك الموسيقى « (٤) ، وكذلك يحيى الخدج المرسى الذى ينسب إليه كتاب (الأغاني الأندلسية) على غرار كتاب الأغاني للأصفهاني (٥) .

ويذكر التيفاشى (ت ٦٥١ هـ) : أن أهل الأندلس فى القديم كان غناؤهم إما بطريقتة النصرى - يعنى ألوان الغناء الشعبى التى كانت منتشرة فى أسبانيا قبل الفتح - أو بطريقتة حداء العرب (فن الحداء)

(٣) من هذه المحاولات محاولته الطيران التى تعتبر أول محاولة إسلامية للطيران فى الهواء ويذكر أن رجلا يونانيا يدعى إيكاروس سبقه فى هذه المحاولة . فقد صنع لنفسه كساء من الريش له جناحان وضع فيهما ذراعيه ، وقفز من أعلى تل قرب بلنسية يسمى (مونت أجودو) فطار بضعة أمتار ، ثم سقط نظرا لأنه لم يجعل لهذا الكساء ذبلا لحفظ توازنه .

ومن هذه المحاولات كذلك التى كلات بالنجاح صنعه آلة عرفت (بالمقاتة) لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، واختراعه طريقة لصناعة الزجاج من طحين الأحجار .

(انظر : د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٧٤ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣) .

(٤) ابن حيان : المقتبس ص ٢٧ تحقيق د. محمود مكى ، المقرئ : نفع الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ .

(٥) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

الذى كان من الطبيعى أن ينتقل مع العرب الفاتحين . كما انتقل الغناء الحجازى والعراقى أيضا مع القادمين إلى الأندلس من المشرق من مغنين ومغنيات .

ويقول « ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأثرت الدولة الأموية ، وكانت مدة الحكم الرضى ، فوفد عليه من المشرق ومن إفريقية من يحسن غناء التلاحين المدنية فأخذ الناس عنهم ، إلى أن وفد الإمام المقدم فى هذا الشأن على بن نافع المنقب بزرياب غلام إسحاق الموصلى على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فجاء بما لم تعهده الأسماع واتخذت طريقته مسلكا ونسى غيرها » (٦) .

ويذكر أنه كان بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الداخل قينة تسمى العجفاء (٧) ، كانت جارية لمسلم بن يحيى مولى بنى زهرة ، فاشتراها من الأمير وضما إليها (٨) . وهذا يدل على ميل الكثير من الأمويين للغناء منذ بداية عهدهم فى الأندلس بالرغم مما صادفهم من صعوبات فى سبيل تأسيس دولتهم ، وتوطيد أركانها ، والقضاء على المخالفين .

ويبدو أن (علون وزرقون) كانا أول مغنين دخلا الأندلس من المشرق ، وكان ذلك فى عصر الحكم الرضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) الذى

(٦) مجلة عالم الفكر مجلد ١٢ عدد ١ ص ٢٠ (حضارة الأندلس) .
(٧) لم تذكر لنا المصادر اسمها ، ويبدو أنها اشتهرت بذلك اللقب لأنها كانت نحيلة ، وكانت تسكن مع مولاها فى بيت صغير متواضع مساحته اثنا عشر ذراعا فى مثلها ، وليس به الكثير من الفرش والاثاث سوى نمرقتين ومقعدين مفككين من قديمها كما يذكر المقرئ عن رواية الأرقمى (نصح الطيب ج ٤ ص ١٣٨ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٦) .

(٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١١٩ .

وصفه الكثيرون بالميل إلى الترف واللهو وخاصة فى مرحلة شبابه
برغم قضاائه على الكثير من الثورات التى قامت ضده وأشهرها ثورة
الربض . كما اشتهر بالغناء فى عصره رجل يسمى (منصور اليهودى) .
ولكن غناء هؤلاء ذهب لغلبة غناء زرياب عليهم بعد قدومه إلى

الاندلس(٩) .

ويعتبر الكثيرون عصر عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦هـ - ٢٢٨هـ)
عصر ازدهار لفن الغناء والموسيقى بالاندلس ، حيث كان اديبا شاعرا
يعيد الهمة والغايات كما وصف . ويعتبر أول من اتخذ رسوم الخلافة
وابهتها . وكان كما ذكره المقرئ « مولعا بالغناء مؤثرا له على جميع
لذاته »(١٠) . ولذلك فقد رُفد إلى الاندلس فى عهده بعض القيان
المغنيات من المدينة ، فأورد لهن دارا ملحقة بقصره سميت (دار
المدنيات) (١١) .

ومن أشهر هؤلاء القينات (فضل المدينة) التى كانت جارية لإحدى
بنات الخليفة هارون الرشيد ، ثم ذهبت إلى المدينة لتعلم الغناء ،
فاشتهرت للأمر عبد الرحمن ومعها جارية أخرى تسمى (علم) ، وكان
يؤثرهما لظرفهما وأدبهما وحسن غنائهما ، كما كانت هناك جارية أخرى
تسمى (قلم) ، وكانت فى الأصل من سبى البشكنس ، ثم أرسلت إلى

(٩) نفع الطيب ج ٣ ص ١٣٠ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٠) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٣ .

(١١) نفع الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، وقد ذكر د. أحمد هيكل (فى تاريخ
الأدب الأندلسى ص ٧٣) أن الذى فعل ذلك هو عبد الرحمن
الداخل وهو خطأ وربما كان سهوا أو نسيانا فجعل الداخل مكان
الأوسط .

المشرق ، فتعلمت الأدب والغناء ، وروت الشعر ، وحفظت الكثير من الأخبار (١٢) .

كما كان من القيان الوافدات من المشرق أيضا غير هؤلاء جارية بغدادية ذات فصاحة وبيان ومعرفة بالألحان تسمى (قمر) ويصفها المقرئ بأنها « جمعت أدبا وطرفا ، ورواية وحفظا ، مع فهم بارع وجمال رائع ، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها » (١٣) .

وقد كانت جارية لإبراهيم بن الحجاج اللخمي (ت ٢٨٨ هـ) الذي ثار على الأمير عبد الرحمن الأوسط ، واستقل بإشبيلية . ومن شعرها في مدح إبراهيم :

ما في المفارب من كريم يرتجى
إلا حليف الجود إبراهيم
إني حلت عليه منزل نعمة
كل المنازل ما عداه سقيم
ومن شعرها في الحنين إلى موطنها :
أها على بغدادها وعراقها
وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه
تبدو اهلتها على أطواقها
متبخرات في النعيم كأنما
خلق الهوى العذرى من أخلاقها

(١٢) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٤٤ ، دائرة معارف

الشعب (٦١) ص ١٠٠ .

(١٣) نفع الطيب ج ٤ ص ١٣٦ .

نفسى الفداء لها فإى محاسن

فى الدهر قشرق من سنا إشرافها (١٤)

كما كان للمنصور بن أبى عامر جارية شاعرة مغنية تسمى (أنس القلوب) شغف بها وزيره أبو المغيرة بن حزم (١٥) .

كما كان من المغنيين الذين قدموا إلى الأندلس أيضا مغن من مصر يدعى عبد الواحد بن يزيد الاسكندراني الذى قدم حدثا متظرفا يشدو بشيء من الغناء ، واتصل بالحاجب عيسى بن شهيد ، فلها رأى نجابته تصحه بالإقلاع عن الغناء ، والاكتفاء بأدبه وفضله ، ففعل واتصل بالأمير عبد الرحمن ، فأعجب به وقربه وصيره واليا ، ثم ترقى بعد ذلك إلى مرتبة الوزارة . وقد توفى سنة ٢٣٧هـ عن ثيف وثمانين سنة (١٦) . على أن أهم وأشهر مغن دخل الأندلس هو أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب (١٧) تلميذ إسحاق الموصلى أشهر المغنين فى بغداد فى عصر الرشيد .

ويذكر أن الرشيد طلب من اسحاق أن يأتيه بمغن مجيد للصنعة فجاءه بزرياب ومعه عوده الخاص بدلا من عود أستاذه ، ولما سأله عن السوب قال : « عودى وإن كان فى قدر جسم عوده ، ومن جنس

(١٤) نفع الطيب ج ٤ ص ١٣٧ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ١٣٠ ، ١٣٢ .

(١٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٩ ، الأدب الأندلسى ص ٨٨ - ٨٩ .

(١٦) ابن حيان : المقتبس ص ١٦٩ - ١٧٠ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٤ - ٨٦ .

(١٧) أطلق عليه هذا اللقب تشبيها له بطائر أسود اللون حسن التفريد وذلك لسواد بشرته وحسن غنائه (انظر : تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧) .

خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها انائة ورخاوة ، وببها ومثلثها اتخذتها من مصران شبل أسد ، فلها فى الترتم والصفاء والجهارة والجدة أضعاف ما لغيرها من سائر الحيوانات ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها « (١٨) . ثم غنى أمام الرشيد :

يا ايها الملك الميون طائره

هارون راح إليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد ، وعاتب إسحاق على أنه لم يخبره به ، وطلب إليه العناية به حتى ينظر فى شأنه ، فدب الحسد فى قلب إسحاق ، وخشى أن يحتل تلميذه مكانه ، فهدده بالقتل أو مغادرة بغداد ، فرحل إلى المغرب حيث قضى وقتا قصيرا فى بلاط زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب أمير القيروان ، وكتب إلى أمير الأندلس الحكم الرضى يسأله الإذن فى الوصول إليه ، ويعلمه بمكانه فى الغناء ، فأذن له فى دخول الأندلس (١٩) . وأرسل إليه منصور المبنى اليهودى لاستقباله ، ونزل بالجزيرة الخضراء مدة ثم جاءته الأخبار بوفاة الحكم فهم بالعودة ، ولكن منصور ثناه عن ذلك ورغبه فى قصد من سيحل محل الحكم فى الملك ، ولما تولى عبد الرحمن الأوسط كتب إليه منصور يخبره بخبر زرياب ،

(١٨) نصح الطيب ج ٣ ص ١٢٣ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠١ .

وغنى أمام الرشيد :

(١٩) يذكر ابن عبد ربه : أن سبب مغادرة زرياب المغرب أنه غنى زيادة أبياتا لم تعجبه فأمر بصفع قناه وطرده . (العقد الفرید ج ٧ ص ٣١ مطبعة الاستقامة القاهرة سنة ١٩٥٣) . ولكننا نميل إلى أن سبب خروجه من المغرب دعوة الحكم له ، وأنه توقع أن ينال فى الأندلس ما لم ينله فى بغداد وتحقق له ما كان يتوقعه .

(م ١٨ - المجتمع الأندلسى)

فكتب إلى عماله أن يحسنوا استقباله ويوصلوه إلى قرطبة وأمر خصيائه من أكبر خصيائه بتلقيه (٢٠) . ولما وصل أنزل في دار فخمة ، واستقبله الأمير وبالف في إكرامه ، وجعل له رزقا شهريا قدره مائة دينار ، ولكل ولد من أولاده الأربعة عشرين دينارا ، كما جعل له ثلاثة آلاف دينار في كل عام ، ألفا في كل من عيدي الفطر والأضحى ، وخمسمائة في كل من عيدي النيروز والمهرجان ، عدا ما خصص له من القمح والشعير ، وما وهب له من الضياع والبساتين التي قدرت بأربعين ألف دينار (٢١) .

وقد أعجب عبد الرحمن بمواهبه فقربه إليه ، حتى قيل إنه جعل له بابا خاصا في قصره يدخل منه كلما استدعاه (٢٢) . وقد أدت هذه المكانة إلى حسد البعض له فيذكر ابن سعيد : أن زرياب غنى يوما أمام عبد الرحمن وأطربه فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ، فاحتوشه جواريه وولسده فنثرها عليهم ، فكتب أحد السعاة إلى عبد الرحمن بذلك قائلا : إنه فعل ذلك لأن ذلك المال لم يعظم في عينيه وفرقه في ساعة واحدة ، فوقع عبد الرحمن على هذه الرسالة :

(٢٠) يذكر ابن خلدون والمقرئ : أن عبد الرحمن خرج لاستقباله بنفسه (العبر ج ٤ ص ١٧٤) ، (نفع الطيب ج ١ ص ١٦١) .

(٢١) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٦ ، ليفي بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٧ - ٦٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٨ - ٣٩ ، محمد دياب : تاريخ العرب في إسبانيا ج ١ ص ١٦٥ - ١٦٦ ، ويذكر الأخير أن راتبه الشهري كان مائتي دينار .

(٢٢) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤١٦ .

خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ٩٤ .

« قد رأينا انه لم يفعل ذلك إلا ليحبينا إلى أهل داره ، ويفهرهم بنعمنا وقد شكرناه ، وأذنا له بالمال المتقدم ليسكه لنفسه ، فإن كانت عندك مضرة أخرى في حقه فارفعها إلينا » (٢٣) وهذا يدل على مدى حب عبد الرحمن لزياب ، وعدم استماعه إلى وشاة الراشدين فيه .

وقد أبدع زرياب في تنسيق الألحان ، وأظهر براعة فائقة في الموسيقى والغناء حتى ادعى أن الجن هي التي تعلمه الأصوات ، ويبدو أنه قد ورث هذا الشعور عن أستاذه اسحاق الموصلي الذي ورثه عن أبيه ابراهيم . وكان يهب من نومه سريعا ، فيدعو جاريتيه غزلان وهيندة ، فتمسك كل واحدة بعود ، ويمسك هو بعوده ، ويطارحها الغناء ليلته ، ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه (٢٤) .

وقد كانت له ابتكارات في مجال تطوير الآلات الموسيقية وعلى رأسها العود ، فقد أضاف إليه وترا خامسا بعد أن كانت أوتاره اربعة ، واتخذ مضربه من قوادم النسر بدلا من الخشب . وقد أثر عنه أنه كان يحفظ عشرة آلاف بيت مقطوعة من الأغاني بالحنانها (٢٥) . وبذلك يعتبر

(٢٣) المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٥١ .

(٢٤) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٧ .

(٢٥) لين بول : العرب في أسبانيا ص ٧٨ ، تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٤١٨ ، ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في أسبانيا ص ٦٩ . ويذكر ليفي بروفنسال أن الأوتار كانت ثلاثة ، ومعظم الباحثين أن الأوتار اربعة وهي : الزير واللبم والمثنى والمثلث ، وكل منها يرمز إلى طبع من طباع النفس البشرية . وكان الوتر الخامس الذي زاده زرياب ولازال إلى اليوم وسطا بين الهاديء والحاد وسمى صول رمز له بالروح وهو أحد درجات السلم الموسيقي المعروف اليوم (انظر تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٧ ، دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥) .

زرياب هو المؤسس الحقيقي لمدرسة الموسيقى والغناء فى الأندلس ، حيث أورش فيها صناعة الغناء كما يقول ابن خلدون (٢٦) .

وقد تخرج على يديه الكثير من التلاميذ . ويذكر أنه كانت له طريقة فريدة مع تلاميذه المبتدئين ، فكان يبدأ بالنشيد أول شذوه بأى نقر كان ، ويأتى إثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والإهزاج .

وكان إذا أراد تعليم أحدهم أمره بالعود على الوسادة المدورة ، وأن يشد صوته إذا كان قوى الصوت ، وإن كان لين الصوت أمره أن يشد على بطنه عمالة لأن ذلك مما يقوى الصوت فلا يجد متسعا فى الجوف عند خروجه من الفم فإن كان أُنصق الأضراس لا يقدر على فتح فمه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق راضه بأن يدخل فيه قطعة من الخشب عرضها ثلاثة أصابع يجعلها فى فمه عدة ليال حتى ينفرج فكاه ، وإذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت من تلاميذه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته (يا حجام) أو يقول آه ، ويهد صوته ، فإن سميع صوته صافيا نديا قويا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، أشار بتعليقه وإلا أبعده (٢٧) .

ويذكر حسين مؤنس : أن زرياب ابتكر طريقة لكتابة موسيقاه . ولكننا لا نعرف إلى الآن كيف كان يكتبها ؟ وما هى نوتها الموسيقية ؟ وأنه ابتكر أيضا الفرقة الموسيقية التى تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن الصوت تلحيننا يجمع بين العزف والإنشاد الجماعى والفردى ، وأنه يعتبر أول من أنشأ فى الأندلس التخت (المسرح الصغير) الذى تجلس

(٢٦) المقدمة ص ٣٠٠ المطبعة البهية .

(٢٧) لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٨ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٨ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ص ٣٩ .

عليه الفرقة الموسيقية ، وكان يسمى بالاستارة ، وأن موسيقاه التي أدخلها أصبحت تمثل الموسيقى الراقية في الأندلس ، ونسبت إليه فعمرت (بالموسيقى الزريابية) ، وأصبح الحداء بمثابة الفنء المسمى أو الشعبي (٢٨) .

وقد علم زرياب أولاده الغناء والموسيقى ، وكانوا عند قدومه إلى الأندلس أربعة فأصبحوا ثمانية ذكور وبنين هما علية وحمدونة ، فتعلموه ومارسوا صناعته ، وكان أشهرهم به عبد الرحمن الذي صار مثله في الصنعة والحظوة (٢٩) ، كما علم جارية له تدعى (منفعة) احسن أغانيه ، وأهداها للأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكذلك (مصابيح) جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قهليل (٣٠) .

وإلى جانب هؤلاء المغنين والمغنيات فقد تعلم بعض رجال الأندلس أصول فن الغناء مثل عباس بن فرناس ، وعقيل بن نصر الشاعر الذي كانت له أغان يجرى فيها مجرى اسحاق الموصلى . وقد أصبح لزرياب طرائق خاصة في الغناء يتناقلها الناس وقد ألف فيها البعض ، مثل أسلم ابن أحمد بن سعيد الذي ألف كتابا في أغانيه (٣١) .

وصفوة القول : أن زرياب كان أشهر مغن في الأندلس ووصل إلى مكانة مرموقة حسده عليها الكثيرون في الأندلس والمشرق لدرجة أنه كان يركب في مائة غلام (٣٢) .

(٢٨) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٩ .

(٢٩) نفح الطيب ج ١ ص ١٦١ .

(٣٠) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٩ .

(٣١) تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٩ .

(٣٢) ليفى بروفنسال : الحضارة العربية ص ٦٨ - ٦٩ .

فهذا عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس يقول مخاطبا عبد الرحمن :

قد طاح امرى والذى أتفى

هين على الرحمن فى قدرته

الف من الحمر وأقل بها

لعالم أربى على بفتنه

زرياب قد أعطيها جملة

وهرفتى أشرف من حرفته (٣٣)

وهذا علوية الأعرس المغنى البغدادي يشكو للمهدى العباسى

ويقارن بين ما هو فيه وما فدا فيه زرياب (٣٤) .

وإلى جانب قرطبة فقد اشتهرت أشبيلية بالهوى والغناء أيضا —

وخاصة فى عصر ملوك الطوائف — فيذكر ابن خلدون « أنه طما من صناعة

الغناء بأشبيلية بحر زاخر ، وتناقل منها بعد ذهاب غصارتها إلى بلاد

العدوة الإفريقية والمغرب ، وبها الآن منه صبابة على تراجع عمرائها

وتناقص دولها » (٣٥) .

ويقول صاحب منهج الفكر « وبأهلها يضرب المثل فى الخساعة ،

وانتهاز فرص الزمان الساعة بعد الساعة » (٣٦) وكان يقال « إذا مات

(٣٣) نفح الطيب ج ١ ص ٣٢٧ .

(٣٤) الحضارة العربية ص ٦٩ .

(٣٥) المقدمة ص ٣٠٠ وقد اشتهر بالغناء فى إشبيلية أبو بكر

الإشبيلى والسوسى وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية موجودة

إلى اليوم بالمغرب وتعرف بموسيقى الأندلس (دائرة معارف الشعب

(٦١) ص ١٠٢ هامش ١) .

(٣٦) المشرى : نفح الطيب ج ١ ص ٧٦ .

عالم بأشيبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة لتباع فيها ، وإذا مات مغن
بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى أشيبيلية لتباع فيها « (٣٧) .

ولما ابتكرت الموشحات والأزجال أعجب بها أهل الأندلس أيما
إعجاب ، وأخذت تغنى مثل القصائد الشعرية ، وازدهر فن الموشحات
بصفة خاصة في عصر ملوك الطوائف (٣٨) .

وإلى جانب المغنين كانت هناك شخصية الزاهر الذي لا يستغنى عنه
في الحفلات والأعراس . ومن أشهرهم التكروري زاهر عبد الرحمن أناصر
الذي كان أنيقا يلبس القطنسوه من الوشى والثوب من الخز ويتوسط
الناس في الحفل . ومنهم ابن مقيم وكان طيب المجلس صاحب نوادر .
ومن أصحاب الطنابير زربوط الطنبوري الذي قتل هو وقتبوط الملهى في
موقعة قنطيش زمن فتنة البربر مع سليمان المستعين (٣٩) .

هذا وقد امتد أثر الغناء الأندلسي إلى الممالك المسيحية في أسبانيا
ومما يدل على ذلك ما رواه ابن الكنانى المتطبب قال : « شهدت يوما مجلس
العلجة بنت شانجة ملك البشكنس زوج الطاغية شانجة بن غرسية
ابن فردلند لبعض ترددنا عن ثغرنا إليه في الفتنة (الفتنة
البربرية) وفي المجلس عدة قببات مسلمات من اللواتى وهبهن له سليمان
ابن عبد الحكم (المستعين) أيام إمارته بقرطبة فأوهأت العلجة إلى
جارية منهن فأخذت العود وغنت :

(٣٧) نفع الطيب ج ١ ص ١٩٣ ، ص ٢٢١ ، نهاية الأرب ج ٢٣ ص ٣١٧
هايش ١ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٨٩ ، دائرة معارف
الشعب (٦١) ص ١٠٤ .

(٣٨) عن الموشحات : انظر د. محمد عنانى : الموشحات الأندلسية
سلسلة عالم المعرفة (٣١) سنة ١٩٨٠م .

(٣٩) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٩ — ٤٠ .

خيلى ما للريح تاتى كانما
يخالطها عند الهبوب خالوق
ام الريح جاءت من بلاط احبتي
فاحسبها ريج الحبيب تسوق
سقى الله ارضا حلها الاغيد الذى
لتذكاره بين الضاوع حريق
اصار فؤادى فرقتين فعنده
فريق وعندى للسباق فريق

فأحسنت وجودت ، وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات
كانهن فلقسات قمر « (٤٠) .

وقد كانت هناك مجالس غناء تعقد فى قصور الأمراء والخلفاء

(٤٠) ابن بسام : الذخيرة ق ٣ مجلد ١ ص ٣١٨ .

وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية باقية حتى اليوم فى أسبانيا
فيما يعرف بغناء (السجيريا) الذى يغنيه النور وهو غناء شعبي
أشبه بالموال ، وفيما يسمى بالسوليارس أيضا ، وهو نوع من الغناء
الشعبي كذلك . ويذكر بعض الباحثين أنه كان من عادة المغنيين
والمغنيات فى الأندلس أن يبدأوا الغناء بجس اللحن فيكررون جملة
منه وهو ما يفعله الأسبان اليوم حين يبدأون بالمقطع التالى :
Ay, Ay, Ay, Ojriomio ومعناه : آه ، آه ، آه يا حبيبي ، ويؤكد
المستشرقان الأسبانيان أنطونيو أرفالو وخوليان ريبيرا أن الغناء
الأسباني المشهور (بانغلامنجو) ليس إلا أثرًا من آثار الغناء
الأسباني . (انظر دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٠٥) ، كما
كان لهذا الغناء أثره فى فرنسا وخاصة فى إقليم بروفانس عند
شعراء التروبادور (تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٤٢٩) .

والاغنياء ، وكانت القيان المغنيات يغنين فيما يبدو من وراء ستارة (٤١) .
ومن أمثلة هذه المجالس التي ورد ذكرها : مجلس غناء لسعيد
الخير أبو عثمان أخى عبد الرحمن الأوسط . فقد بنى دارا جديدة ، وأقام
احتفالا ومجلس غناء دعا إليه الكثيرين ، وحدث أن سقط المجلس
على من كان فيه ، ونجا سعيد بفضل عمود من الأعمدة التي كان يقوم
عليها ، ومعه جاريتته (منتهى المنى) أم وإده مروان ، وماتت أربع عشرة
جارية من جواريه ، فارتجت قرطبة بالخبر ، ووصل إلى عبد الرحمن
فسر بنجاته وعوضه عما أصابه ، وأعطاه بكل جارية ماتت جاريتين ،
وأعطاه مالا كثيرا ليعيد بناء ما تهدم من مجلسه (٤٢) . ومجلس غناء
لمنصور بن أبى عامر فى منيته السرور بمدينة الزاهرة ، كانت تغنى فيه
جاريتته انس القلوب وكان معه الوزير الكاتب أبو المغيرة بن حزم فغنت
شعرا منه :

يا لقومى تعجروا من غزال جائر فى محبتي وهو جارى

ليت لو كان لى إليه سبيل فاقضى من الهوى أوطارى

قال أبو المغيرة : فلما أكلت الغناء أحسبت بالمعنى فقلت :

كيف كيف الوصول للأقمار

بين سمر القنا وبين الثنفار

(٤١) انظر : ابن حيان : المتنبس ص ٣٤٥ تحقيق د. مكى ، جذوة
المتنبس ص ٧١ ، ويبدو أن لفظ الستارة كان يطلق فى البداية
على المكان الذى تستقر فيه الجوارى والقيان فى قصور الأمراء
والوجهاء ، ثم استخدم بعد ذلك للدلالة على هؤلاء القيان
أنفسهم حيث كن يغنين من وراء ستارة ، ثم استخدم للدلالة على
المكان الذى تقام فيه مجالس الغناء .

(٤٢) المتنبس ص ٢٢٥ تحقيق د. مكى ، بروفنسال : الحضارة العربية
فى أسبانيا ص ٦٣ .

لو علمنا بأن حبك حقيق
لطلبنا الحياة منك بثأر
وإذا ما الكرام هموا بشيء
خاطروا بالنفوس فى الأخطار

وعند ذلك أحس المنصور بأن فى الأمر شيئاً فأغلق فى القول
للجارية وقال لها لمن تشيرين بهذا ؟ فبكت وأنشدت :

اذنبت ذنباً عظيماً فكيف منه اعتذارى
والله قدر هذا ولم يكن باختيارى
والعفو أحسن شئىء يكون عند اقتدار

فوهب الجارية لأبى المفيرة ، فأنصرف بها فى الصباح إلى
منزله (٤٣) .

وقد كان البعض يتسبط فى مجالسه إلى درجة كبيرة ، فيظهر المازحة
والهجاء ، ويسقط مئونة التحفظ (٤٤) . فقد ذكر ابن عذارى : أن الناصر
طلب من وزيره أبى القاسم لب أن يهجو الوزير عبد الملك بن جهور ،
فامتنع خشية من لسانه ، فطلب من ابن جهور أن يهجو أبى القاسم ،
فامتنع أيضاً ، فقال الناصر أنا أهجوه :

لب أبو القاسم ذو لحية طويلة فى طولها ميل
وعرضها ميلان إن كسرت
والمقل ماقون ومخبول
لو انه احتاج إلى غسلها
لم يكفه فى غسلها النيل

(٤٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٤٤) انظر الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ٥٦ ص ٢٦٤ .

وضحك الناصر ثم قال للب إنه هجك فاهجه فقال :

قال أمين الله فى خاتمه

لى لحيه أزرى بها الطول

وابن عبير قال قول الذى

ماكوله القرضيل والفول

لولا حياى من إمام الهدى

نخست بالبخس شوقول

وكان عندما بلغ إلى قوله (شو) قد سكت ، فقال له الناصر (قول) فأتم له البيت على نحو ما كان أضمر ، وقال : أنت هجوته يا مولاي . فضحك الناصر وأمر له بصلة (٤٥) . كما كان البعض يظهر غضبه أيضا . فقد ذكر ابن عذارى أيضا أن محمد بن سعيد المكنى بابن السليم — وكان قد تولى عدة ولايات للناصر واحتج ما لا كثيرا — حضر بعض مجالس الناصر الخاصة وشرب فأخذ منه الشراب ، فشق الناصر تفاحة بسكين وقال معرضا به « وددت أن أئشق هكذا رأس من أعرف له ما لا كثيرا فله دوننا ، ولم يسهم ببيت المال منه » (٤٦) .

وقد وصل الأمر بالبعض إلى حد خلع ثوب الوقار والرقص فى المجلس فقد ذكر المقرئ : أن الوزير عبد الملك بن أحمد بن شهيد كان من وزراء المنصور بن أبى عامر ومن أخص ندمائه ، وكان يجتهد فى مرضاته ، ويحاول أن يدخل عليه السرور والمرح . وحدث أن قام وحاول أن

(٤٥) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، والقرضيل : أو القرط هو البرسيم ، وشوقول : لفظتان إسبانيتان باللهجة الرومانسية الأولى تدل على ضمير الغائب والثانية تعنى الردف أى نخست بالبخس ردفه أى إيتيه (د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٢٧) .

(٤٦) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢٦ .

يرقص فى مجلس له متحابلا على أصحابه ، رغم مكانته وكبر سنه ، وذلك
ليبهج المنصور (٤٧) .

كما ذكر ابن عذارى أيضا أن المنصور دعا جعفر بن على
ابن حمدون المعروف بالأندلسى إلى مجلسه ليتخلص منه بالحيلة سنة
٣٧٢ هـ ، فقدم إليه ساقى المجلس كأسا فطلب منه أن يعطيها لجعفر ،
فاستخفه الطرب ، وقام يرقص ، فلم يبق أحد فى المجلس إلا فعل مثله ،
وشرب كثيرا حتى ثقل وانصرف مع غلمانته ، فخرج إليه البعض ، وقتلته
وحمل رأسه إلى المنصور فأظهر الحزن عليه (٤٨) .

موقف الناس من الغناء بالأندلس :

وجد الغناء والموسيقى بالأندلس قبولا يكاد يكون عاما ، ولم يتخرج
من سماعه الكثيرون ، بينما تورع عنه بعض الفقهاء والعلماء (٤٩) .
وقد تناول ابن حزم الأندلس الغناء من الناحية الفقهية فى رسالته
(الغناء الملهى وهو مباح أو محظور) ، ورد الأحاديث التى تقول
بحظره (٥٠) .

إلا أنه وجد من بين علماء وفقهاء الأندلس من أنكر مذهب ابن حزم ،
ورد عليه . وعندما أراد ابن حيان أن ينتقد أحد الفقهاء الذين يبيحون
الغناء قال فيه « إنه رجل مرخص للسمع ، صاب بإنشاد الأغاني

(٤٧) نصح الطيب ج ١ ص ٢٦٠ .

(٤٨) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٤٩) عن موضوع الغناء وموقف العلماء منه انظر : ابن الجوزى :

تليس إبليس ص ٢٢٣ - ٢٥٠ ، الشيخ محمد الغزالي : السنة

بين الفقه والتشريع ، مائة سؤال عن الإسلام ج ١ ص ١٧٥

وبعدها .

(٥٠) رسائل ابن حزم ص ٩٣ وبعدها .

الفاطنة» (٥١) فجعل ذلك من معانيه . والحقيقة انه كان فى الأندلس كغيرها من المجتمعات الإسلامية دائما رايان أو فلسفتان : فاسفة تقوم على التشديد والتحرير فى كثير من الأشياء ، وفلسفة تقوم على التوسط والاعتدال والمرونة وعدم التضييق ، والحكم على الأشياء من منطلق أن الأصل فيها هو الإباحة ما لم يرد نص قاطع بتحريمها .

وقد تغلبت هذه الفاسفة فى كثير من الأوقات ، وكانت وجهة نظرها فى الغناء أنه كلام حسنه حسن وفتيحه قبيح ، ومن غنى أو استمع إلى غناء شريف المعنى ، طيب اللحن ، غير مثير للفرائض ، أو ماله عن الفرائض ، أو مؤد إلى الوقوع فى المحرمات فلا حرج فى ذلك ، أما الحرج فيأتى من الغناء الهابط المعنى واللحن ، المثير للفرائض ، المنهى عن الفرائض ، المؤدى للوقوع فى المحظور . ويرى أصحاب هذه الفاسفة ومنهم ابن حزم أنه لم يرد حديث صحيح فى تحريم الغناء (٥٢) .

ومن العسير أن نثبت أن كل رجال الدين فى الأندلس كانوا يكرهون الغناء ، أو يشددون النكير على أهله ، بل كان منهم من يستمع إلى الغناء الجيد ويعجب به ولا يجد حرجا فى ذلك . ومن أمثلة ذلك قصة تناضى الجماعة بقرطبة محمد بن أبى عيسى ، وكان عند رجل من بنى حدير — وكانوا من بيوتات قرطبة — وجارية له تفتى بتلك الأبيات :

طابت بطيب شانك الأقداح

وزهت بجمرة خدك النفاح

وإذا الربيع تنسنت أرواحه

طابت بطيب نسيمك الأرواح

(٥١) ابن بسام : الذخيرة ٢/١ ص ١٠٠ .
(٥٢) د. محمد الخطيب : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٧٠ — ١٧١ .

وإذا الحناس البست ظامها

فضياء وجهك فى الدجى مصباح

فكتب القاضى هذه الأبيات على يده ، وخرج للصلاة على جنازة وهى مكتوبة على باطن كفه لم يغسلها (٥٣) .

ويذكر ابن عبد ربه صاحب العقد - وكان محافظا - مر ببعض الأحياء ، فسمع مصابيح جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قهليل تغنى ، فأعجبه غناؤها ، فوقف تحت الروشن منصتا حتى فرغت ، ثم ذهب إلى احد المساجد فأخذ لوحا لبعض الصبية الذين كانوا يتعلمون وكتب عليه :

يا من يضمن بصوت الطائر الفرد

ما كنت أحسب هذا البخل من احد

لو أن اسماع أهل الأرض قاطبة

أصفت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فلما قرأ سيدها هذه الأبيات ، خرج مسرعا ولحق به ، وأدخله بيته ورحب به (٥٤) .

ويصف لنا ابن حزم فى كتابه (طوق الحمامة) كثيرا من مجالس الغناء ، وما كان يغنى فيها من شعر ، ويصور لنا شدة تأثره ومن معه بما كان يسمع فيها من غناء .

ويذكر أن حفى العاصرية إحدى بنات المظفر عبد الملك ابن المنصور كلفته بصنع أبيات تلحنها ففعل ، وذكر أنها كانت تجيد

(٥٣) جذوة المقتبس ترجمة ١٠٧ ص ٧٥ ، بغية الملتبس ترجمة ٢١٨

ص ١١١ .

(٥٤) جذوة المقتبس ص ٩٥ .

الغناء ولها صنعة رائعة فى الإنشاد (٥٥) .

ويصف لنا التجيبى (شارح المختار من شعر بشار) مدى حبسه
للغناء وهو مريض بمدينة مائة سنة ٤٠٦ هـ فيقول « وكنت إذا جننى الليل
أشد سهرى ، وخفقت حولى أوتار العيدان ، والطنابير ، والمعازف
من كل ناحية » (٥٦) .

(٥٥) طوق الحمامة ص ٣١ ، ١١٠ ، ١١٤ .

(٥٦) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤١ ، ٤٢ .

الطعام والشراب

لما فتح المسلمون من عرب وبربر الأندلس ، كانوا يعتمدون غالباً على الأطعمة التي عرفوها في بلادهم ، حتى عرفوا الكثير من ألوان الأطعمة التي كانت موجودة في هذه البلاد شيئاً فشيئاً ، باستقرارهم واختلاطهم بالسكان ، فأخذت أطمعتهم تتغير وتتعدد ألوانها .

وقد كان من أطعمة العرب المعروفة : الشريد ، والخريزة ، والعصيدة والربيكة ، والجشيشة ، والسخينة وغيرها (١) .

وبمضى الزمن وبمزيد من الاختلاط والتزاوج بين المسلمين والأسبان أخذت أنواع من الأطعمة الأسبانية تعرف طريقها إلى موائد المسلمين . وبدأت ألوان من الترف والبذخ تنتسب إلى أطمعة الأمراء والخلفاء والخاصة ، حتى كان بعضهم إذا جلس إلى الطعام يقف الأطباء بين يديه ومعهم (الجوارشئات) أو الأدوية الهاضمة ، إلى جانب أنواع الشراب الأخرى ، كما أن البعض كان يستشير الأطباء فيها يأكل ويشرب (٢) .

ولم نجدنا المصادر الأندلسية إلا بالقليل المنادر في هذا المجال .

(١) انظر د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٥٧٧ ، ج ٢ ص ٤٢٧ . الخريزة : اللحم يقطع صغيراً على الماء فإذا نضج ذر عليه الدقيق ، والعصيدة : ماء ودقيق وسمن . والربيكة : من البر والتمر المعجون بالسمن ثم يسوى ، والجشيشة : دقيق مجروش خشن يوضع في قدر ويلقى عليه لحم أو تمر ويطبخ ، والسخينة : طعام من الدقيق والسمن كان العرب يكثرون من أكله في أحوال الشدة . (انظر : الحياة الاجتماعية في العصر الأموي ص ٢٠٤ - ٢٠٥) .

(٢) انظر : د. طه ندا : فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٠١ .

ولكننا نستطيع من خلال الأمثلة القليلة التي عثرنا عليها من أخبار
الأمراء والخنساء الأمويين أن نتبين مقدار الترف والبذخ فى طعامهم .

فتد ذكر المقرئ : أن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء بلغ
ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى دخالتهم من اللحم كل يوم بخلاف
الطير والحوث (السمك) ثلاثة عشر ألف رطل . أى بمعدل نحو رطل
للفرد الواحد أو أقل قليلا ، وأن المرتب من الخبز لحيثان بحيرة الزهراء
١٢ أئف خبزة (رغيف) كل يوم ، وأنه كان ينقع لها من الحمص الأسود
ستة أئفزة كل يوم (٣) .

كما ذكر أيضا أن المنصور بن أبى عامر كان له كل يوم اثنا عشر
ألف رطل من اللحم عدا الصيد والطير والحيثان ، وهذا لطعامه ومن
فى قصره بمدينة الزاهرة من الخدم والحشم والجوارى (٤) .

ومما يدل على مدى التقدم والازدهار فى هذا العصر أنه كانت هناك
أفران عامة — كما يبدو — يجهز فيها الناس طعامهم كما فى عصرنا الحاضر .
فقد ذكر ابن حيان : أن سعيد بن سليمان القاضى صلى صلاة الجمعة
فى المسجد الجامع بقرطبة ، ثم خرج متوجها إلى داره ، فلما انتهى إلى
باب الفرن الذى كان يطبخ فيه قال لصاحبه : أطبخت خبزتى ؟ قال :
نعم ، فأخذها تحت إبطه ، وسار إلى منزله ومعه جماعة أخرجوا دوابهم
إجلالا له حتى أوصلوه (٥) .

وعندما قدم زرياب إلى الأندلس جاء معه بالكثير من ألوان الطعام
البغدady ، وأخذ عنه الأندلسيون طرق طهيه ، وابتدع ألوانا أخرى

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٤) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .

(٥) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ تحقيق د. محمود مكى .

(م ١٩ - المجتمع الأندلسى)

من الأطعمة المطيبة بالتوابل والأماوية ، كما أدخل لونا أطلقوا عليه اسم
(الثشاي) يصنع بماء الكزبرة الرطبة المحلاة بالسنبوسق والكباب ،
وابتكر نوعا من (التقلية) نسبت إليه فأصبحت تعرف بتقلية زرياب ،
ويطبخ فيها الدجاج والأرانب فى ماء كثير الأماوية والطيب .

ولعل الحلوى التى تعرف (بالزلابيا) حتى عصرنا تنسب إليه أيضا

بعد التحريف عن زريابيا (٦) .

كما أنه نظم طريقة إعداد المائدة ، وتقديم الطعام عليها ، حيث بدأ
بالحساء ثم اللحوم والطيور ، ثم الفاكهة والحلوى من الفطائر المصنوعة
بالجوز واللوز والعسل ، والعجائن المحشوة بالبندق والفسق ، والمعقودة
بالفواكه . كما أنه فضل تقديم الماء والشراب فى أكواب زجاجية
شفافة على آنية الذهب والفضة والاكواب المعدنية ، وجعل غطاء
المائدة من الأديم أو الجلد الرقيق لسهولة تنظيفه بدلا من الغطاء المصنوع
من القطن أو الكتان .

وقد شاعت تقاليد زرياب ومبتكراته فى مجال الطعام والشراب ،
وآداب المائدة وبخاصة فى أوساط الطبقة العليا وعلى رأسها
الأمراء والخلفاء (٧) .

أما عن الشراب : فقد كان هناك من يشرب الخمر ، وقد كانت
زراعة الكروم منتشرة فى الأندلس قبل الفتح ، ويعده أيضا ، وكان
يزرعها بدون شك كثير من الأسيان غير المسلمين لصناعة الخمر ، لدرجة

(٦) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ ، أحمد أمين :
ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٣ .

(٧) انظر : لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ص ٧٩ ، ليفى بروفنسال :
الحضارة العربية ص ٧١ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢
ص ٤٢٧ ، د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١١٤ ،
ص ١١٥ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ج ١ ص ١٦٦ —
١٦٧ .

ان الخليفة المستنصر عزم على قطع أشجارها فى جميع أنحاء الأندلس ، حتى يقضى على صناعة الخمر ، وشاور فى ذلك فقيل له : إنهم يعملونها من التبن وغيره من الفاكهة فتوثف عن ذلك ، ولكنه أمر بإراقة الموجود من الخمر وتشدت فى ذلك (٨) .

ويذكر ابن سعيد المغربى أن الأمير عبد الرحمن الأوسط استفتح دولته بؤدم فندق الخمر ، ويبدو أنه فندق اشتهر بتقديم الخمر فسمى بهذا الاسم (٩) . ويذكر ابن عذارى : أن الأمير عبد الله بن محمد ابن عبد الزحمين « كانت اللذات فى أيامه بهجورة ، ولم يشرب قط نبيذا ولا مسكرا (١٠) . كما كان هناك أيضا من يشرب النبيذ على مذهب أهل العراق مثل : أحمد بن إبراهيم بن غيرة النخعي ، وكان من أهل قرطبة ، وقد وصفه ابن الفرضى بأنه « كان مغفلا ، وكان يذهب فى شرب النبيذ الصلب مذهب أهل العراق » وقد توفي سنة ٢٩٠ هـ زمن الأمير عبد الله (١١) ، ويشمل : صهيب بن منيع القرطبي (ت ٣٠٨ هـ) ، الذى تولى القضاء بقرطبة ، ويذكر الحميدى : أنه شرب مرة مع موسى بن حدير الحاجب وكان من عظماء الدولة ، فلما غفل أمر موسى باختلاس خاتمه ، وكان نقشه (يا عليهما كل عيب كن رغوفا بصهيب) ، وأحضر نقاشا فزاد عليه (واستر العيب عني إن فيه كل عيب) ثم رده ، فظل يختم به زمنا حتى فطن لذلك فغيره (١٢) .

(٨) ابن الأبار : الحلة السیراء ج ١ ص ٢٠٣ ، الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٣ ، الضمى : بغية المنتمس ص ١٨ ، المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٩) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٦ .

(١٠) البيان المغرب ج ١ ص ١٥٤ .

(١١) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٣ ترجمة (٥٧) . انظر ما ذكرناه

عن مسألة شرب النبيذ فى الفصل الثالث .

(١٢) جذوة المقتبس ص ٢٤٥ ، ترجمة ٥١٣ .

الملابس والأزياء والزينة

تميز الأندلسيون بعدة خصائص وصفات مميزة . وصفهم بها ابن سعيد المغربي : من أهمها حبهم الشديد للنظافة ، وميلهم الواضح للتأنق في ملابسهم ، وانفرادهم بتقاليد في الزي تختلف عن أهل الأماص الأخرى ، وحسن تدبيرهم في شؤون حياتهم ، وحبهم للعمل وكراهيتهم للبطالة والتسول ، ورغبتهم الشديدة في العلم والتعلم ، وتدينهم ومحافظتهم على قواعد ديانتهم والمحافظة على إقامة حدودها ، وإنكار التهاون في تعطيها وقيامهم بذلك إذا ما أحسوا تهاونا من السلطان في إقامتها .

وحبهم الشديد للغناء وشغفهم بسماعه حتى إنهم ليفضلون الضروري من العيش مع سماعه على العيش المترف دونه . وهذا يدل على صفة بارزة فيهم وهي رقة عواطفهم ورهافة أحاسيسهم ، هذا بالإضافة إلى ظاهرة القلق والتناقض في حياتهم أو التطرف في الأمور ، وتدبير المعاش والاحتياط فيه حتى ينسبون إلى البخل .

يقول ابن سعيد « وهم أشد خُلق الله اعتناء بنظافة ملابسهم وفرشهم وغير ذلك ، وفيهم من لا يكون عنده إلا قوت يومه فيصوم وبيتاع صابونا يغسل به ثيابه ، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها » (١٣) .

وقد أشار ابن سعيد أيضا إلى زى أهل الأندلس في عصره — ونعتقد أنه لا يختلف كثيرا عما كان عليه الحال في العصر الأموي فقال : « وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم لاسيما في شرق الأندلس ، وأما أهل غربها فلا تكاد ترى فيهم قاضيا أو فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة ، وأما الأجناد والعمامة فقليل من تراه بعمامة في الشرق

أو الغرب ، وكثيرا ما تزيا السلاطين والأجناد بزى النصارى المجاورين ، وأكثر غوامهم من يمشى دون طيلسان ، إلا أنه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ والمعظمون ، وغفائر الصوف كثيرا ما يلبسونها حبرا أو خضرا ، وأما الصفر فمخصوصة باليهود ، ولا سبيل ليهودى أن يتعمم البتة والذؤابة لا يرخيها إلا العالم ، ولا يصرفونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى . وإذا رأوا فى رأس مشرقى داخل إلى بلادهم شكلا منها أظهروا التعجب والاستظراف ، ولا يأخذون أنفسهم بتعليمها لأنهم لم يعتادوا ولم يستحسنوا غير أوضاعهم ، وكذلك فى تفصيل الثياب « (١٤) .

ومن هذا النص يتضح أن الأندلسيين وخاصة فى شرق الأندلس كانوا يتميزون بكثف رعوسهم ، وعدم لبس العمائم ونحوها كما كان يفعل المشارقة . وأما الذين يلبسون العمائم وخاصة فى غرب الأندلس فبحكم مناصبهم مثل القضاة والفقهاء ، ويتخذون عمائم مغايرة عن عمائم أهل المشرق . ولذلك كانت ملابسهم تتميز بتفصيلات وهيئات وأشكال خاصة بهم لا تكاد تعرف فى المشرق . وربما كان من أهم مظاهر تلك المغايرة اتخاذهم البياض بدلا من السواد فى الحداد . وما يشير إلى تلك العادة قول الشاعر أبى الحسن الحصرى :

إذا كان البياض لباس حزنى

بأندلس فذاك من الصواب

ألم ترنى لبست بياض نسيبى

لأنى قد حزنت على شبابى (١٥)

(١٤) نفع الطيب ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(١٥) نفع الطيب ج ١ ص ١١١ - ١١٢ ، د. أحمد هيكى : الأدب

الأندلسى ص ٤٥ - ٤٦ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ .

وقد كانت الملابس ذات الألوان الزاهية أو (المصبغات) محبوبة في الأندلس ، وأحبها الكثيرون حتى أولئك الذين كانت تقتضى مناصبهم شيئاً من الحشمة والوقار والاقتصاد في الزينة واللباس . فالقاضي محمد ابن بشير قاضي قرطبة في عهد الحكم الربضي - والذي اتصف بالمعلم والورع - كان يعقد جلساته أحياناً في جامع قرطبة في إزار مورد ورداء معصفر وشعر مصبوغ .

حيث يذكر الخثني : أنه أتاه رجل لا يعرفه فلما نظر إلى زيه من الجبة المفرقة والرداء المعصفر ، والكحل والخضاب ، والحناء في يديه ، اعتقد أنه ليس القاضي ، فطلب من بعض الحاضرين أن يدلوه عليه ، فأشساروا إليه فقال لهم : إني أراكم تستهزئون بي أسألكم عن القاضي وتدلوني على زامر ، فزجروه من كل ناحية فناداه ابن بشير وقال : اذكر حاجتك فذكرها ووجد من العدل والانصاف فوق ما كان يظن (١٦) .

وكان الفقيه يحيى بن يحيى البليثي - زعيم الفقهاء في عهد الحكم ابن هشام وعبد الزمخني الأوسط - من أشد الناس تعظيماً لهذا القاضي وثناء عليه في حياته وبعد مماته . وقد سأل عن لبس العمائم فقال هي لباس الناس في المشرق ، وعليه كان أمزهم في التدين ، فقيل له لو لبستها لاتبعت الناس في لباسها . فقال : لقد لبس ابن بشير الخز

(١٦) قضاة قرطبة ص ٣٢ ، البيان المغرب ج ١ ص ٧٩ ، ٨١ ، تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢٢٤ ويثول لسان الدين ابن الخطيب عن أهل غرناطة في زمنه وبعثته أن فيه شيئاً من العصر الأموي : « ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم الملف المصبوغ شتاء ... فتبصرهم في المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة » . أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣

فلم يتبعه الناس ، وكان أهلا لأن يقتدى به فلعلى لو لبست العمامة لتركنى الناس ، ولم يتبعونى كما تركوا ابن بشير(١٧) .

وكان القاضى سعيد بن سليمان الذى ولى القضاء فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط يجلس للحكم فى المسجد وعليه جبة صوف بيضاء ، وفى رأسه أقروف أبيض وغفارة بيضاء من نفس القماش(١٨) .

وهذا مما يدل على عدم تقييد جميع أفراد كل طائفة أو طبقة بلباس أو زى معين ، ومدى حرية كل شخص فى اختيار ما يناسبه من الملابس . بيد أن اللباس العمام الذى كان يلبسه الناس هو الطيلسان الموصول به غطاء الرأس - مثل لباس المغاربة الآن - أو الطيلسان مع العمامة بالنسبة للقضاة والفقهاء فى غرب الأندلس .

وكان الشيوخ والمعظمون يغطون رؤوسهم بغطاء الطيلسان إذا لبسوه ، أما العمامة فيتركونه متدلّيا خلف رقبتهم . كما صنع البعض القلائس من الخز وكان يغطى بها رأسه كمحمد بن بشير الذى كان

(١٧) الخشنى : قضاة قرطبة ص ٣٦ .

(١٨) قضاة قرطبة ص ٦٢ - ٦٣ ، المقتبس : ص ١٨٩ تحقيق د. محمود مكى . يبدو أن الأقروف كان غطاء للرأس على شكل مخروط ، وأحيانا كانت كلمة الغفارة تطلق على البرنس أو نوع من الطيلسانات (الأدب الأندلسى ص ٣٥) . وكانوا يطلقون على القلنسوة اسم القلائص (القلائص) وكان يلبسها الفقهاء ، وكان الفقيه المقلص عندهم هو الذى يحفظ الموطأ أو عشرة آلاف حديث والمدونة . (د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٥ - ٦٦) .

يصلى الجمعة بالناس فى جامع قرطبة وعليه قطنسوة خز (١٩) وكانت القلائس غطاء للرأس عند أكثر العامة .

وكان الكثيرون يستعملون غفائر الصوف الحد مرء أو الخضراء ، ويضعونها تحت القلائس ، ويتدلى جزء منها على القفا ، وكان اليهود لا يلبسون إلا المغفائر الصفراء تمييزا لهم .

وكان كثيرون من العلماء يرخون نؤابات عمائمهم إذا ما تعمموا ، ولم يكونوا يجعلونها بين الأكتاف ، وإنما يسدلونها تحت أذنهـم اليسرى (٢٠) . كما عرف البرنس وخاصة بين البربر البرانس الذين تعودوا عليه فى بلادهم ، ويبدو أنهم نقلوه إلى الأندلس وانتشر بها (٢١) .

ويشير المقرئ إلى أن المنصور بن أبى عامر حجر على الخليفة هشام المؤيد بحيث لم يكن يراه أحد فى الغالب حتى لا يلتفت الناس حوله ، وكان إذا أركبه للنزهة جعل عليه برنسا ، وعلى جواربه مثل ذلك فلا يعرف منهـن (٢٢) .

كما كان الأندلسيون يطلقون على الثوب اسم الحلة وتتكون من قطعتين الرداء والإزار ، وكانت تصنع من الكتان أو القطن أو الديقاج أو من الحرير الموشى بخيوط ذهبية . وكانت هناك أنواع من الملابس الفاخرة مثل الوشى الـيوسفى والوشى الهشامى يلبسها الخلفاء والأمراء وبعض القضاة والعلماء . فقد ذكر ابن حبان : أن الأمير عبد الرحمن الأوسط أراد أن يركب للنزهة مع بعض كرائمه على العادة ، فطلب من

(١٩) الخشنى : قضاة قرطبة ص ١٨ ، ٣٠ .

(٢٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ ، د. الشكعة : الأدب

الأندلسى ص ٨٤ .

(٢١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ١٩ .

(٢٢) نفح الطيب ج ١ ص ٥٩١ .

الراشدة القائمة على رأسه أن تدخل إلى خزانة الكسوة لتأتى برداء
يوسفى من أفرخ أنواع الوشى ، وترسل به إلى عريف الخياطين بالقصر
ليصنعه ثوبا يلبسه فى النزهة غدا (٢٣) .

وورد ذكر الوشى الهشامى فى قول الشاعر سعيد بن مؤمن فى وصف
منية قنتيش (كنتيش) التى بناها عبد الرحمن الأوسط وما فيها من مبان
فاخرة :

ولابسة وثميا كان رقيقه رقيق الهشامى العنق المنضد (٢٤)

وقد كان لتقدم صناعة النسيج فى الأندلس أثر كبير فى اهتمام أهلها
بالزى واللباس ، حيث كانت هناك عدة مدن تشتهر بصناعة المنسوجات
المتنوعة ، وخاصة مدينة المرية التى كانت تعتبر مركز صناعة المنسوجات
الفاخرة من الديباج والسقلاطون والأصبهانى والجرجانى والعنابى وغير
ذلك .

وكانت هذه المنسوجات — برغم أن بعضها يحمل مسميات مشرقية
— تصنع فى الأندلس وتصدر للمشرق وأوربا التى شغف كثير من أمرائها
وملوكها بها حتى أن بعضهم طلب أن يكفن فى ثياب أندلسية من صنع
هذه المدينة مثل الأمير دون فيليب وزوجته ، ودون رودريجو خيمينث
دى دارا (٢٥) .

وقد كان الأندلسيون يتخذون الخفاف ، ويلبسون الجباب والثياب
القطنية والسراويل ، وكانوا يطلقون كلمة الغفارة على البرنس ، أو نوع

(٢٣) ابن حيان : المقتبس ص ١٦١ — ١٦٢ تحقيق د. مكى .

(٢٤) المقتبس : ص ٣٢٦ — ٣٤٩ . تحقيق د. مكى .

(٢٥) د. السيد سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٦٠ ، د. مصطفى

الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٤ .

من الطيبسانات ذات الغطاء . وكلمة الأرجوان على الصوف الأحمر فقط .
رغم شمولها للأحمر من الصوف وغيره . وكلمة الخمار على ما تغطى به
المرأة رأسها من شقائق الحرير فقط رغم شموله لكل ما تغطى به المرأة
رأسها من ثياب . كما كانوا يطلقون كلمة الجفانفة على ما يجففون به
الماء أو غيره من قطع القماش ، وكلمة البيطير على قطعة القماش التي
توضع حول عنق الطفل لتصون ثيابه من اللعاب والطعام (٢٦) .
وكان من زينتهم الخضاب بالحناء والكتم والكحل والتطيب بالعنبر
والغالية وغيرها .

أما عن ملابس النساء فكان طابعها الأناقة والنفاسة
والترف وخاصة نساء الطبقة الراقية . حيث كن يتفنن في لبس
المصبغات والمذهبات والديباجيات من الثياب ، ويبالغن في زينتهن من
التحلي بالذهب والجوهر بالإضافة إلى التطيب بأنواع الطيب المعروفة
في ذلك الوقت (٢٧) .

يقول لسان الدين ابن الخطيب في وصف أهل غرناطة — وهو وصف
يمكن أن نعبره على أهل الأندلس إلى حد ما حيث لا تتغير العادات
والتقاليد بين يوم وليلة — « صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ،
وشعورهم مرسلنة ، وقنودهم متوسطة معتدلة إلى القصر ، وألوانهم زهر
مشربة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة يتخللها إعراب كثير وتغاب عليهم الإمالة ،

(٢٦) د. لطفى عبد البديع : الإسلام في أسبانيا ص ١١٦ ، د. أحمد

هكل : الأدب الأندلسي ص ٣٥ .

(٢٧) انظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٧٠ حيث يذكر من أنواع الطيب

العنبر الجيد المقدم على أجناسه في الطيب ، ومن أنواع البخور

عود الأنجوج الذي يضارع العود الهندي ذكاء وعطر رائحة .

ويذكر الزعفران أيضا ، وانظر البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ ، ٩٢ ،

ص ١١٣ ، ١٢٠ ، والمختلة السيزاء ج ١ ص ٤٥ — ٤٦ .

ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاتسي بينهم الملف الصبوغ شتاء ، فخصرهم
فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطيخ الكريمة ، وزى
جندهم فى القديم رى أقبالهم وأضدادهم من جيرانهم الإفرنج ، وحريمهم
حريم جميل موصوف بالحسن ونعومة الجسم ، واسترسال الشعر ، ونقاء
الشعر ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن الحياورة ،
يندر فيهن الطول ، ويبالغن فى التفتن فى الزينة والمظاهرة بين المصبغات ،
والتنافس بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن فى أشكال الحلى إلى غاية
نساء الله أن يفض عنهن فيها عين الدهر «(٢٨) .

هكذا وقد كان لقدوم زرياب أثر كبير فى تطور الزى فى الأندلس
حيث أدخل كثيرا من التقاليد فى هذه الناحية ، ومنها أنه جعل لكل فصل
من فصول السنة ملابس مناسبة ، وجعل هناك مواعيد لئلبسها فملابس
الربيع خفيفة ملونة من الخبز والدراربع التى لا بطانة لها ، وملابس
الخريف قريبة منها إلا أنها مبطنة ، أما ملابس الصيف فجعلها خفيفة
بيضاء ، وملابس الشتاء ثقيلة داكنة ، وإذا اشتد البرد لبسوا الفراء ،
وقد عدل فى هيئات الثياب وتفصيلها فخصرها ، وضيق أكمامها بعد
أن كانت واسعة ، وأعطاهها هيئة جميلة (٢٩) .

كما ابتكر زرياب أنماطا جديدة لترتيب الشعر وتصنيفه فقد كان

(٢٨) الإحاطة فى أخبار غرناطة ج ١ ص ٣٥ القاهرة سنة ١٣١٩هـ .

أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣ - ٤ ومن المعروف أن سكان
غرناطة كانوا خليطا من سكان الأندلس الذين التجأوا إليها بعد
سقوط الأندلس شيئا فشيئا ومن هنا يمكن التعميم .

(٢٩) انظر د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٨٥ - ٨٦ ، د. حسن

إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، د. حسين مؤنس : معالم

تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .

أهل الأندلس رجالا ونساء يرسلون الجبة مفروقة من وسط الجبين فيسندل شعرهم عابا على الصدغين والحاجبين ، فلما رأوا زرياب وأولاده ونساءه مقصرين شعورهم دون جباههم ، وقصد سواها مع حواجبهم ، وأداروها (٣٠) وراء آذانهم ، وأسندلوا على أصدافهم هويت نفوسهم إلى ذلك واستحسنوه فأخذوا في تقصير شعورهم من الجانبين وإرسالها وراء آذانهم ، كما ابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه ومنها (تصفيفة الجبهة) وهي إنزال الشعر على الجبين مع قصه في موازاة الحواجب كما يفعل بعض النساء اليوم .

كما ابتكر أنواعا من العطور فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والدهن ومال إلى الی العطور المستخرجة من الزهور (٣١) . وهكذا تحكّم زرياب في كثير من العادات الاجتماعية في الأندلس من ناحية اللبس والأزياء والزينة ، كما تحكّم في كثير من العادات في الطعام والشراب ، وآداب المجالس ، والموسيقى والغناء . يقول لين بول « وتحكّم زرياب في الأزياء والعادات كما كان يتحكّم بترونييس وبروميل الموسيم » (٣٢) .

-
- (٣٠) محمد دياب : تاريخ العرب في أسبانيا ج ١ ص ١٦٦ .
(٣١) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٩٠ .
(٣٢) العرب في أسبانيا ص ٧٩ ، بروفنسال : الحضارة العربية في أسبانيا ص ٧٠ - ٧٢ ، وبترونييس أو بثرون كان قضايا يونانيا اشتهر بكتاباتة الساخرة وأعجب به ثيرون وضمه إلى حاشيته . وبروميل انجلزى ولد في لندن سنة ١٧٧٨م وكان مشهورا بالاناقة ابتكر كثيرا من الأزياء حتى لقب بمالك الاناقة في عصره وتوفي سنة ١٨٠٤م (انظر تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤١٩ ، الحضارة العربية في أسبانيا ص ٧٠ هامش) .

الأعياد والمواسم والخصلات

لم تمدنا المصادر بالكثير من الأخبار فى هذا الصدد ، وإن كنا نستطيع من خلال الإشارات والروايات القليلة التى وردت أن نقول : أنه كانت هناك أعياد دينية إسلامية شارك الأندلسيون إخوانهم المسلمين فى بقية العالم الإسلامى الاحتفال بها وعلى رأسها عيدى الفطر والأضحى .

وقد كان الأمراء والخلفاء يخرجون فيها لحضور الصلاة فى موكب حافل إلى المصلى (١) ، ثم يعودون إلى قصورهم حيث يتوافد عليهم كبار رجال الدولة للتهنئة ، وما يتبع ذلك من ولائم تقدم لهم ، وأعطيات وهبات تمنح لهم .

ويبدو أنهم أخذوا يحتفلون أيضا بالمولد النبوى بعد أن عرف الاحتفال به فى المشرق وخاصة فى مصر زمن الفاطميين (٢) ، ولعل ذلك

(١) كان من أشهر المصليات فى قرطبة مصلى المصارة ومصلى الريض . وكان مصلى المصارة يقع على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير ، ولفظ (مصارة) انتقل إلى المغرب من الأندلس ، ويعنى الفضاء الفسيح الواقع خارج المدينة ، ويعد من متنزهاتها ، ولم تكن المدن الأندلسية تخلو من مصارة يخرج إليها الناس للنزهة فى أيام الأعياد ، وما زالت هناك مواضع فى أسبانيا تحمل نفس الإسم AL Muzara وكذلك فى المدن المغربية أيضا .

أما مصلى الريض : فكان يقع على الضفة اليسرى من النهر جنوب قرطبة ، على مقربة من مصلى الريض ، وكان مصلى المصارة أقرب من الريض ، ولذلك كان الأمويين يصلون به غالباً صلوات الأعياد والاستسقاء (انظر المقتبس ص ٢٩٣ — ٢٨٤) تحقيق د. محمود مكي .

(٢) السندوبى : تاريخ الاحتفال بالمولد النبوى ص ٦٢ مطبعة الاستقامة

بالقاهرة سنة ١٩٤٨م .

يرجع إلى تعظيمهم للنبي ﷺ بالاحتفال بمولده ودراسة سيرته الشريفة ، وإلى الشعور الدينى القوى لديهم الذى أدى بهم إلى التحدى لإثبات وجودهم فى هذه البلاد البعيدة التى تقع فى أوربا المسيحية ، وهذا يفسر لنا تلك الظاهرة الواضحة التى تميزت بها الأندلس كدولة إسلامية فى أوربا ، وهى ما يطلق عليه البعض ظاهرة (المشاركة والتحدى) .

وقد حرص الأندلسيون والمغاربية على الاحتفال به فى العصور المتأخرة احتفالا كبيرا لإيقاظ الشعور الدينى وخاصة بعد تساقط القواعد الإسلامية فى الأندلس واحدة إثر الأخرى وذلك على المستويين الرسمى والشعبى بمواكب الشموغ التى لازالت موجودة حتى اليوم ببعض مدن المغرب وخاصة مدينة سلا(٣) .

كما يظهر أنهم كانوا يحتفلون كذلك بيوم عاشوراء بالصيام والتوسعة على أنفسهم وأولادهم فى هذا اليوم . فتد ذكر ابن حبان وابن عذارى والمقرئ : أن الفقيه عبد الملك بن حبيب كتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط فى يوم عاشوراء :

لا تنسى لا ينسك الأرهم عاشوراء

وأذكره لا زالت فى الأحياء مذكورا

قال الرسول صلاة الله تشمله

قولا وجدنا عليه الحق والنورا

فأرغب فديتك فيما فيه رغبنا

خير الورى كلهم حيا ومقبورا(٤)

(٤) د. أحمد العبادى : المسلمون فى أرض الأندلس : مجلة المختار من

عالم الفكر عدد (١) ص ١٤١ . الكويت سنة ١٩٨٤م .

(٤) المقتبس ص ١٨٤ - ١٨٥ ، نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٦ ، البيان

المغرب ج ٢ ص ٢١١ . وقد ذكر المقرئ البيت الثالث بصيغة مختلفة ،

وأرجع ذلك إلى أنه قد نسى لفظه لظول العهد به فكتبه بالوزن

والمعنى هكذا :

فيمن يوسع فى إنفاق موسمه أن لا يزال بذلك العام ميتورا

ومن هذا نستشف أن الخلفاء والأمراء كانت لهم عطايا وهبات فى هذا اليوم يوزعونها على بعض الناس .

وإلى جانب الأعياد الإسلامية فقد كانت هناك أعياد مسيحية شارك الأندلسيون الأسباب فى الاحتفال بها مثل عيد الميلاد ، وعيد العنصرة وخميس العهد أو خميس إبريل الذى يسبق عيد الفصح بثلاثة أيام (٥) . وقد أشار الطرطوشى إلى أن الأندلسيين كانوا فى هذه الأعياد يبتاعون الفواكه والحلوى من المخبزات والأسفنج كالعجم تماثما واعتبر هذا من البدع (٦) .

وكانت مشاركة المسلمين لأهل الذمة فى هذه الاحتفالات على أساس من نظرة الاحترام والتسامح الدينى ، والحياة المشتركة التى عاشها المسلمون والمسيحيون هناك جنباً إلى جنب فى المجتمع الأندلسى سنين طويلة . وهناك أعياد قومية أو شعبية ، مثل عيد العصير AL acir الذى كان يحتفل به عند جنى محصول العنب ، وكان محصولاً رئيسياً ، فكانوا يقيمون فى الحقول فى جو يسوده المرح والغناء والرقص ، وهى عادة لازالت موجودة فى إسبانيا إلى اليوم (٧) .

وقد كان هناك من النساء من يشترك الرجال فى الاحتفال بهذه الأعياد ، حيث يشير كثير من المؤرخين إلى خروج المرأة للفرجة فى أيام الأعياد ، وكن يذهبن إلى ساحة المصلى ، حيث يثمن الخيام للتفرج لا للصلاة كما يقول الطرطوشى (٨) : وقد ازدادت هذه الظاهرة وضوحاً فى أواخر العصر الإسلامى بالأندلس .

(٥) مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .

(٦) الحوادث والبدع ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٧) المختار من عالم الفكر ص ١٤١ .

(٨) الحوادث والبدع ص ١٤١ .

فيقول لسان الدين بن الخطيب في وصف استقبال سلطان غرناطة
أبي الحجاج يوسف : « واختلط النساء بالرجال ، والتقى أرباب الحجا
بربات الحجال ، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح ، ولا بين حمر البنود
وحمر الخدود » .

ويقول في وصف نساء مدينة رندة « يلبس نساؤها الموق (الخف) ،
على الأمد المرموق ، ويسفرن عن الخد المشقوق ، وينعشن قلب
المشوق ، بالطيب المنشوق » (٩) .

ويتضح من خلال هذه النصوص وأمثالها أن تحرر المرأة في
الأندلس وخاصة في العصور المتأخرة ، كان أكثر من بقية العالم
الإسلامي ، وذلك بحكم تأثير الجوارح مع المسيحيين بعد سقوط قواعد
المسلمين في أيديهم . وبحكم إرغام الأسباب لهم على الفتنر ، وممارسة
العادات والتقاليد المسيحية ، ففتنر منهم من تنصر .
وبالإضافة إلى ذلك فقد احتفل في الأندلس بعيدى النيروز
والمهرجان (١٠) .

(٩) د. أحمد العبادي : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب
والأندلس ص ٩٦ ، ١٠٠ .

(١٠) النيروز : من أعياد الفرس القديمة ، وهو بداية السنة عندهم
في فصل الربيع ، ويذكر البيروني أن أول من احتفل به الملك
جهشيد الفارسي ، حيث يقال : إنه لما فقد خاتمه ذهب عنه
ملكه ، ثم لارد إليه بعد أربعين يوما عاد إليه الملك ، فقال
الفرس مهنتين (نوروز آمد) أي اليوم الجديد ، فسمى بذلك (الأثار
= (م ٢٠ - المجتمع الأندلسي)

الباقية عن القرون الخالية ص ٢١٧) . وقد أبطل المسلمون الاحتفال
بهذين العيدين بمد فتح بلاد فارس ، ثم عاد الاحتفال بهما شيئاً
فشيئاً ، حتى أصبحت من الأعياد الرسمية فى العصر العباسى .
وفى صدر الإسلام لم يكن للأعياد الفارسية شأن عند المسلمين .
فيروى أن بعض الدهاقين من الفرس احتفوا فى خلافة علي
رضى الله عنه بهذا العيد ، وبعثوا إليه بهدية من الطوى على
عادتهم ، فسألهم عن سبب ذلك فقالوا : إنه يوم نوروز قال : نوروزنا
كل يوم . (تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٣٦) .

أما عيد المهرجان : فقد كان الفرس يحتفلون به فى آخر العام
ويسمونه (رز مهر) أى محبة الروح ، وكان من أكبر أعيادهم ،
وكانوا يتخذونه دليلاً على نهاية العام فى فصل الشتاء ، كما
يتخذون النيروز دليلاً على بدايته فى فصل الربيع .

وقد نسبوا إلى سلمان الفارسى أنه قال : كنا على عهد الفرس
نقول : إن الله أخرج لعباده زينة من الياقوت فى النيروز ، ومن
الزبرجد فى المهرجان ، ففضلها على غيرها كفضل الياقوت
والزبرجد على سائر الجواهر . وهم بذلك يحاولون أن يجعلوا
له أصلاً ، وهو قول يظهر فيه الوضع جليلاً .

وقد زعموا أن تعظيمهم لهذا اليوم يرجع إلى انتصار ملكهم
أفريدون على أزدهاك (الضحاك) بفضل نزول الملائكة لمساعدته ،
وكانوا يتهادون فيه مثل النيروز ويقدم فيه الملوك إلى الجند
كسوة الخريف والشتاء . (انظر : الآثار الباقية ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ،
التاج فى أخلاق الملوك ص ١٥٥ ، د . طه ندا : فصول من
تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١١٦) .

ومما يدل على ذلك ما ذكره القزى : من أن عبد الرحمن الأوسط لما قدم زرياب إلى الأندلس بالغ في إكرامه ، وقرر له راتباً شهرياً ألفاً لكل من عيدي الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدي النيروز . ألف لكل من عيدي الفطر والأضحى ، وخمسمائة لكل من عيدي النيروز والمهرجان ، عدا الشعير والقمح والضياع والبساتين التي وهبها له وقدرت بتربيع ألف دينار (١١) .

ويصف عبد الرحمن بن عثمان الأصم وهو من شعراء عصر الناصر يوم المهرجان بقوله :

أرى المهرجان قد استبشرا

قدادة بكى المزن واستعبرا

وسريت الأرض أفـوافها

وجلت السندس الأخضرأ

وهز الرياح صنابيرها

فضوعت المسك والعنبرا

تهادى به الناس الطائفهم

وسامى المقل به المكثرا (١٢)

وهذا يدل على أن الناس كانوا يتهادون فيه ، ويتنافسون في ذلك . ومن قول أبي جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد في وصف يوم المهرجان :

(١١) نوح الطيب ج ١ ص ١٦١ ، د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام

ج ٢ ص ٤١٧ .

(١٢) جذوة المقتبس ص ٢٧٦ .

يا حسن يوم المهرجان وطيبه
يوم كما تهوى اغر محجل
سرح لحاظك حيث نثنت فإنه
فى كل موقع لحظة فتاهل (١٣)

والى جانب الأعياد فقد كان هناك فى الأندلس ما يمكن أن نطلق عليه اسم أجازة رسمية ، فقد كان يوم الأحد من كل أسبوع بمثابة عطلة للموظفين . فقد ذكر ابن حبان (٤٦٩ هـ) فى ترجمته لقومس ابن أنتيان كاتب الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وكان نصرانيا فأسلم فى آخر حياته « أنه كان أول من سنن لكتاب السلطان وأهل الخدمة تعطيل الخدمة فى يوم واحد من الأسبوع والتخلف عن حضور قصره ، وكان أول من دعا لى ذلك لتنسكه فيه ، فتبعه جميع الكتاب طلبا للراحة والنظر فى أمورهم ، فانتهبوا ذلك ومضوا إلى اليوم عليه » (١٤) .

ويشير ابن سماك العاملى الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى إلى ذلك فى كتابه (الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار الماثورة) حيث يقول عن المنصور بن أبى عامر « أصبح المنصور صبيحة أحد وكان يوم راحة أهل الخدمة الذين أعفوا فيه من الخدمة فى مطر وابل » (١٥) .

ويبدو أن هذا اليوم كان عادة مسيحية انتقلت بعد ذلك إلى

(١٣) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ١٦٧ - ١٦٨ .

(١٤) المقترن ص ١٣٨ وحاشية رقم ٢٦٨ تحقيق د. محمود مكى بيروت

سنة ١٩٧٣ م .

(١٥) انظر نفح الطيب ج ١ ص ٤١٧ ، المختار من عالم الفكر ص ١٤٠ .

الأندلسيين كما نراه اليوم حيث يتخذ الكثيرون وخاصة في مصر من يوم الأحد يوم عطلة لهم .

وهذا يدل على أن التقليد الذي سنة (قومس بن أنتينان) في اتخاذ يوم الأحد عطلة رسمية للكتاب وأهل الخدبة قد ظل معمولاً به في عصر المنصور وحتى أيام ابن حيان الذي توفي سنة ٤٦٩ هـ ، ويبدو أنه ظل معمولاً به بعد ذلك .

ولقد جرت عادة الأندلسيين على الاحتفال بأعيادهم ومواسمهم وحفلاتهم بوسائل شتى مثل الغناء والموسيقى والرقص ، وألعاب الفروسية وسباق الخيل ، فضلاً عن الاحتفالات الدينية التي تقام في المساجد والأربطة والزوايا ، وكذلك القصور والبيوت حيث يتلى القرآن الكريم ، وتلقى القصائد الشعرية المناسبة ، إلى جانب الأناشيد والموشحات الدينية ، وحفلات الذكر التي قد يصاحبها العزف على بعض الآلات مثل الشبابة البراعة ، والضرب على الدفوف ، وتوزع فيها الأطعمة . وهذه الاحتفالات في مجموعها تتشابه في مظهرها العام مع الاحتفالات في المشرق إلا أنها تختلف في بعض التفاصيل التي تتفق مع البيئة المحلية (١٦) .

* * *

(١٦) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ - ١٤٣ .

الحفلات

وإلى جانب الاحتفال بالأعياد والمواسم فقد وجدت هناك الحفلات المتنوعة مثل حفلات الزواج وال ميلاد والختان وغيرها . ولم تمدنا المصادر إلا بإشارات بسيطة لا نستطيع من خلالها أن نجلى هذا الموضوع أو نوفيه حقه . وكل ما ورد مجرد جمل أو سطور معدودة لا تشبع نهما .

ففى حفلات الزواج مثلا : لم تشر المصادر التى رجعنا إليها — بالرغم من كثرتها — إلا إلى زواج المنصور بن أبى عامر من أسماء بنت غالب الناصرى صاحب مدينة سالم فى عهد المستنصر حيث يقول المقرئ « وكان أعظم عرس بالأندلس » (١) . ومن هذه العبارة يتضح لنا مبلغ الترف والبهخ الذى كان فى هذا العرس بالرغم من عدم ورود تفاصيل عنه . وفى حفلات الختان ، عثرنا على إشارتين بسيطتين . حيث ذكر ابن عذارى أنه فى سنة ٣٢٠هـ صنع الناصر صنيعا كبيرا بمناسبة فتح طليطلة ، ووافق ذلك تطهيره لبعض أولاده (٢) .

وذكر المقرئ : أن المنصور بن أبى عامر قد احتفل بختان ولده عبد الرحمن شنجول (٣) . ولا شك أنه كان يقوم بذلك (المزين) أو المطهر، وقد يجلب فى الاحتفال بعض المغنين وأصحاب اللعب والفكاهة . وتقدم

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، بنيت هذه المدينة فى الثفر الأوسط سنة ٢٣٥هـ فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان يشرف على بنائها غالب الناصرى ، ونزلها الكثير من المسلمين (البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٤) .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٨ .

فيه الهدايا لوالد الطفل ، وتقام فيه الولائم ، وتوزع الأطعمة ابتهاجا بهذه المناسبة .

وفي حفلات الميلاد : روى أن الحكم المستنصر لم يرزق بأولاد ذكور قبل تقاده الخلافة ، وكاد أن يبأس من ذلك حتى رزق سنة ٣٥٤ هـ بولد من جاريته أصبح البشكنسية فسر بذلك سرورا عظيما ، وأقام احتفالا كبيرا حضره كبار رجال الدولة يهتنون ويقرون القصائد الشعرية . ومن ذلك قول جعفر المصحفي الحاجب :

أطلع البدر من هجابه

وأطرد السيف من قرابه

وهجانا وارث المصالي

أشيت السلك في نصابه

بشرنا سيده البرايا

بنعمة الله في تقابه

لو كنت أعطى البشير نفسي

لم أفطن حقا لما أتى به (٤)

وسائل اللهو والتسليّة

لا شك في أن الحياة المترفة التي عاشها الكثيرون في الأندلس ، وخاصة في الطبقات العليا ، قد افتقرت بها فراغ كبير كان لابد من شغفه . فمنهم من شغفه بالعمل الجاد والعلم النافع والعبادة ، ومنهم من شغفه بالأوان مختلفة من ضروب اللهو والتسليّة واللعب . وقد كان الغناء والموسيقى على رأس هذه الوسائل حيث شغف به معظم الأندلسيين كما قديما ، وكانت له مجالسه التي تعقد في القصور والمنى والمنزهات ، ويتجمع فيها الكثيرون لسماع المثنيين والغنيات .

(٤) د. خالد الصوفي : تاريخ العرب في إسبانيا ص ١٧ .

كما كان الصيد والقنص من هذه الوسائل أيضا ، وقد كان كثير من الأمويين يخرجون في رحلات للصيد ، ومنهم عبد الرحمن الداخل الذى كان كلفا به في أوقات فراغه . فقد ذكر ابن الأبار نقلا عن أبى الفرج الجياني صاحب كتاب (الحدائق) : أنه أتاه في بعض غزواته أت ممن كان يعرف كلفه بالصيد فأخبره أن هناك مجموعة من الغرائيق (٥) واففة في جانب من معسكره وحشه على الخروج لصيدها فرفض قائلا :

دعنى وصيد وقع الغرائق

فإن همتى في اصطيد المارق

في نفق إن كان أو في حائق

إذا التظت أوانح الضوائق

كان لفاعى ظل بند ضائق

غنيت عن روض وقصر شاهق (٦)

ومنهم أيضا الحكم بن هشام الملقب بالريضى الذى كان شغوفنا بالصيد واللهو والقنص أيضا . وكان هذا من الأسباب التى اتخذها الفقهاء لإثارة الناس ضده وإشعالهم ثورة الريض (٧) .

وكذلك ابنه عبد الرحمن الأوسط الذى يقول عنه ابن حبان : « وكان

(٥) الغرائيق : جمع غرنوق وهو طائر مائى أسود أو أبيض ، وثقيل الكركى ، وثقيل يشبهه .

(٦) الحلة السيراء ج ١ ص ٤١ والنواع والمفحة ما يتلفع به من رداء أو قناع أو غيره .

(٧) ابن الأثير : الكامل ج ٦ ص ٢٩٨ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٧٣ .

يخرج للصيد ، ويقعد للأنيس مع جواريه ، ويستمتع للأغاني «(٨) .
وقد ذكر الرازي أن عبد الرحمن الأوسط خرج مرة لصيد الغرائيق ،
التي كان مولعا بها فأبعد ، وكان ذلك في فصل الشتاء ، ومعه ابن المشير
الشاعر فقال :

ليت شعري أم حديد خائفنا

أم نهتنا من صخرة صماء

كل عام في الصيف نحن غزاة

والغرائيق غزونا في الشتاء

إذ نرى الأرض والجليد عليها

واقع مثل شقة بيضاء (٩)

ويذكر ليفي بروفنسال : أنه كان يخرج في رحلات مع حاشيته
للصيد بالصقور ، وخاصة في سهل الوادي الكبير الذي تطل عليه
قرطبة ، وأنه كان يحب صيد الغرائيق ، ويجب ملاحظة طائر الكركي بصفة
خاصة لأنه كان أكثر الطرائد طلبا (١٠) .

كما كانت هناك رحلات صيد للأمير عبد الله بن محمد في جهة
عدوة النهر الأعظم بقرطبة (١١) .

وهذا يدل على مبلغ حب الأمراء للصيد ، وحرصهم عليه في رحلات
منتظمة .

وإلى جانب رحلات الصيد فقد كانت هناك رحلات للنزهة

(٨) المقتبس ص ٢٢٤ تحقيق د. مكي .

(٩) ابن سعيد المغربي : المغرب في حلي المغرب ج ١ ص ١٢٥ .

(١٠) الحضارة العربية في أسبانيا ص ٦٣ .

(١١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٦ .

يخرج فيها الأمراء ومعهم بعض أهليهم مع الحاشية . ومن أمثلة ذلك ما يذكره ابن حيان : من أن الأمير عبد الرحمن الأوسط طُلبت منه بعض كرائمه النزهة على مقتضى العادة ، فأمر حاجبه عيسى بن شهيد بالنظر فيما تحتاج إليه هذه النزهة على أتم رسومها ، والتعجيل بذلك لتتحرك في صبيحة اليوم التالي ، وطُلب من الراحدة أن تأتيه من خزائنة الكسوة برداء يوسفى من الموشى ليصنع منه عريف الخياطين بالقصر ثوبا يلبسه في هذه النزهة ، ولكنه لم يقدر له ذلك حيث توفى بعد صلاة المغرب ، فصار كفناله (١٢) .

ويذكر أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط خرج إلى الرصافة يوما للنزهة ومعه هاشم بن عبد العزيز الوزير ، فكان بها صدر نهاره على لذته ، فلما حل الظلام انصرف إلى القصر وبه اختلاط ، فقال له هاشم : يا ابن الخلائف ما أطيب الدنيا لولا الموت فقال له : يا ابن اللخفاء لحنيت في كلامك ، وهل ملكنا هذا الملك الذى نحن فيه إلا بالموت ، فلو لا الموت ما ملكناه أبدا (١٣) .

كما كانت هناك ألعاب للرياضة والفروسية مثل اللعب بالصولجان وسباق الخيل فقد ذكر ابن عذارى : أن الحكم الرضى كان يلعب بالصولجان في القصر ، فجاهه الخبر بأن جابر بن لبيد محاصر لمدينة جيان ، وكان أحد الخارجين عليه (١٤) .

ويذكر ابن عذارى أيضا : أنه في سنة ٣٤٧هـ فى عهد الناصر خرج القائد أحمد بن يعلى صاحب الشرطة غازيا بالأسطول إلى المغرب لقتال

(١٢) المقتبس ص ١٦١ - ١٦٣ .

(١٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١١١ .

(١٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٨١ .

الفاطميين ، وكان خروجاً فخماً ، فخرج الكثيرون من أهل قرطبة رجالاتاً ونساء وأطفالاً لمشاهدة العسكر وهم يهرون من الرض ، وأخذ العوام والغوغاء يتقاذفون بالحجارة محاكين صفى القتال ، فدخل بينهم قوم من الطنجيين من جند السلطان وحرشوهم ، فحمى الرطيس والناس يشاهدون ذلك ، فتغلب فريق على الآخر ، فمال الطنجيون على المنهزمين ، فنهبهم ومن حولهم من المتفرجين ، وسلبوا النساء ثيابهم ، فأخذن يتوارين فى الحقول حياءً وخجلاً حتى يحين وقت التفرق (١٥) .

وهذا شبيهه بما يحدث فى عصرنا من تجمع الكثيرين لمشاهدة مرور مركب من المواكب الرسمية ، أو عرض عسكري أو رياضى ، وما قد يحدث نتيجة للتزاحم والاختلاط من مثالب وأحداث .

كما يبدو أنه وجدت فى الأندلس لعبة الشطرنج وإن كنا لم نعتز على أمثلة لها فى العصر الأموى إلا أنه قد وجدت مخطوطة لالفونسو الحكيم (١٦) . فيها رسم للعبة شطرنج معقدة . ومن المعروف أن العرب قد اقتبسوا الفرد والشطرنج عن الفرس ،

والله اعلم بالصواب .

(١٥) البيان المخرّب ج ٢ ص ٢٢٢ .

(١٦) هو ألفونسو العاشر ابن فرناندو الثالث ملك قشتالة تولى الحكم فى مايو سنة ١٢٥٢م ولقب بالحكيم أو العسالم لشغفه بالمعلوم والآداب ، له المدونة الكبرى فى تاريخ أسبانيا أو تاريخ أسبانيا العام وقد اعتهد فيه على مصادر عربية كثيرة . وكانت له صلات بكثير من علماء الأندلس وتلقى منهم الكثير . (انظر عنان : نهاية الأندلس ص ١٠٤ ، ص ١٦٩) ، (د . لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ص ١٦٩) .

وأدخلوا عليها إضافات وتحسينات ، ثم انتقلت هاتان اللعبتان إلى أوروبا واحتفظت ببعض الأسماء العربية (١٧) . وإذا كان الشطرنج قد عرف في المشرق فلا شك وأن يكون قد انتقل إلى الأندلس أيضا ، كما عرف في أوروبا .

أما عن مصارعة الثيران : فالواقع أن العصر الأموي لم يشهد هذه الرياضة العنيفة حيث لم ترد إلينا نصوص تفيد ذلك ، وأول إشارة وردت إليها تعود إلى عصر الموحدين ، حيث ذكر أن الخليفة أبو يعقوب يوسف كان يروض الأبقار ، وأن حياته انتهت بطعنة من قرن بقرة في صدره فقتل سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، ثم وردت إشارات كثيرة بعد ذلك من لسان الدين ابن الخطيب مؤرخ غرناطة وابن زمرك شاعر الحمراء في القرن الثامن تعطينا معلومات مفيدة عن هذه الرياضة (١٨) .

كما كان هناك ما يشبه حدائق الحيوان في عصرنا . حيث يروى أن الخليفة الناصر عندما بنى مدينة الزهراء اتخذ فيها محلات للوحوش فسيحة الفناء متباعدة السياج ، ومسارح للطيور مظلة بالشباك (١٩) . وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك أماكن يقصدها أرباب اللهو والفسوق . حيث يذكر ابن عذارى أن الحكم الربضي أمر بهدم فندق كان بالربض ، وكان متقبلة من أهل الإضرار والفسق ، ونستطيع أن نستشف منه أن هذا الفندق كان مكانا يجتمع فيه أهل اللهو والفساد لممارسة متعهم الدنيوية . ويصف ابن عذارى هشام بن عبد الجبار فيقول إنه أظهر من الخلاعة

(١٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(١٨) انظر المختار من عالم الفكر ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(١٩) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٠ .

والمجون ما لم يظهره أحد قبله ، واستعمل له من الخمر مائة خابية ،
ومائة بوق للزهر ، ومائة عود للضرب ، وكان له غلام صقلبي يتعشقه
عند ابن الزيات العطار ، ويعث إلى نساء كان يصاحبهن منهن جارية تسمى
بيستان كانت لأبي القاسم المصرى الخيالى ، وامرأة أبى المشرح وتسمى
واجسد ، فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله أمر لا يظهر إلا من أهل
الدعارة المنتهكين فيها . ولم يزل طول مدته مشتتاً بالفسق مظهراً للخلاعة ،
لا يفيق من سكر ، ولا يرعوى عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهي حتى قال
بعضهم فيه :

أمير الناس سخنة كل عين

بييت الليل بسين مخنثين

يجثم ذا وياتم ضد هذا

ويسكر كال يوم سكرتين

لقد وأوا خالفتهم سفيتها

ضعيف العقل شينا غير زين

وقد هجاه كثير من الشعراء . يقول ابن عذارى « وقيل فيه كثير
من هذا يطول الكتاب به » (٢٠) .

ومن الواضح أن مجالس اللهو والشراب كانت من الظواهر الموجودة
فى المجتمع الأندلسى وخاصة فى وادى إشبيلية ، فيشير الشقندى فى
رسالته فى تفضيل الأندلس على المغرب إلى أن هذا الوادى لا يخلو
من مسرة ، وأن جميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكورة ، لانه
عن ذلك ولا منتقد ، ما لم يؤد السكر إلى شر وعريضة (٢١) .

(٢٠) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٧ ، ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢١) المثرى : نفع الطيب ج ٤ ص ١٩٩ .

ويذكر القرى : أن أهل الأندلس كان لهم فى الترف والنعيم والمجون
ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهامد (٢٢) .

والحقيقة أن المجتمع الأندلسى قد اتسم بالحدة والتطرف فى نظريته
للأشياء . فقد وجدت بيتات كلها علم وزهد وتقوى ، كما وجدت إني جانبيها
بيتات أخرى مالت إلى التحرر واللغو والترف والمجون ، وعاشت حياة
صاخبة لاهية . وانساق الكثيرون مع هذا التيار المميت الذى نعتهم .

ونحن إذا قرأنا ما نظمته الشعراء الأندلسيون من شعر الخمر والغزل
لخيل إلينا أن المجتمع الأندلسى لم يعرف غير ذلك ، ونرى المقابل إذا قرأنا
ما نظموه فى شعر الزهد والتصوف وما ألفه العلماء من مؤلفات نقلنا
إن هذا المجتمع كان كله مجتمع زهد وتقوى وصلاح وعلم .

ولكن هذا المجتمع جمع بين هذين الجانبين شأن أى مجتمع آخر
مع الاختلاف النسبى بين مجتمع وآخر فى ناحية من النواحي .

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

والله اعلم بالصواب

(٢٢) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٠ .

المرأة ودورها

لعبت المرأة في المجتمع الأندلسي دورا لا بأس به ، وبرزت بعض النساء في مجالات شتى سياسية واجتماعية وثقافية ودينية .

وتدل الكثير من الشواهد على أن المرأة في الأندلس كانت تتمتع بقدر من حرية الحركة ، والمشاركة في الحياة العامة أكثر من قرينتها في المشرق (١) .

وقد كانت نساء الأندلس على وجه العموم أشبه شيء بنساء المشرق من ناحية التعليم والحجاب ، فمن ناحية التعليم كان أكثرهن أميات ، ومن ناحية الحجاب فقد غلب على الحرائر منهن ، أما الإماء والمسراري فكان يسفرن عن وجوههن غالبا ، ولذلك يذكر أن ولادة بنت المستكفي لما جالست الرجال ، وشاركتهم في الشعر والأدب قوبل ذلك منها بشيء من الاستهجان والاستغراب (٢) .

ولم تمدنا المصادر بالكثير عن المرأة في المجتمع الأندلسي وخاصة الحرائر ، وسنحاول من خلال الأخبار القليلة التي عثرنا عليها أن نتبين كيف كان وضع المرأة في هذا المجتمع .

لقد كثرت الجوارى في المجتمع الأندلسي نتيجة لكثرة الحروب والمعارك التي خاضها المسلمون ضد الممالك المسيحية في أسبانيا وبلاد الفرنجة ، وكذلك عن طريق تجار الرقيق الذين كانوا يأتون بهم من أماكن شتى في أوروبا وغيرها . يقول المراكشي عن المنصور بن أبي عامر : « وملا الأندلس غنائم وسبييا من بنات الروم وأولادهم ونسائهم

(١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٤٦ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٣٠ .

... الخ « (٣) . ويذكر ابن الأبار أنه فى إحدى غزواته لمملكة جليقية سنة ٣٧١ هـ عاد بأربعة آلاف سبية (٤) .

وامتلات بيوت المسلمين فى الأندلس بالأسبانيات وغيرهن ، حيث تزوجهن الكثير من العرب والبربر ، وكان لبعضهم تأثير كبير على أزواجهن وأولادهن من النسل المولد من ناحية العادات والتقاليد واللغة وغير ذلك .

كما كان لبعض الجوارى وأمهات الأولاد تأثير ونفوذ على بعض الأمراء والخلفاء والكبراء . ويشير ابن حزم فى بداية الفصل الأول من كتابه (طوق الحمامة) إلى جانب من الحياة العاطفية لأمراء الأندلس وخلفائها فيقول « وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير منهم بأندلسنا ، عبد الرحمن بن معاوية لدعجاء ، وعبد الرحمن بن الحكم وشغفه بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف معلوم ، والحكم المستنصر وافتتانه بصبح أم هاشم (هشام) المؤيد بالله وامتناعه عن التعرض للولد من غيرها ... وأما كبار رجالهم ، ودعائم دولتهم فأكثر من أن يحصوا . وأحدث ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفر عبد الملك بن أبى عامر بواجد بنت رجل من الجنائين (البستانيين) حتى حمه حبها أن يتزوجها ... الخ « (٥) .

ومن الأمثلة التى وردت ما ذكر من أن الحكم الرضى كان شغوفاً بخمس جوار عنده قد اختصن لنفسه ، وملكهن أمره ، فذهب يوماً

(٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤ .

(٤) الحلة السيرة ج ١ ص ٢١٦ .

(٥) طوق الحمامة ص ١٩ - ٢٠ .

للدخول عليهن فأعرض عنه وكان لا يصبر عنهن فقال :

قصب من البان ماست فوق كثران

اعرضن عني وقد أزمعن هجراني

ناشدتهن بحقى فاعذرن على

الهجران حتى خلا منهن هيماني

ملكنى ملك من ذلت عزيزته

للحب ذل أسير موثق عاني

من لى بمفتصات الروح من بدنى

غصبتنى فى الهوى عزى وسلطانى

ولما عدن عليه بالوصال قال :

نلت كل الوصال بعد العباد

فكأنى ملكت كل العباد

وتناهى السرور إذ نلت ما لم

يفن فيهن تكائف الأجناد (٦)

ويذكر أن من شعره فيهن قوله :

ظل من فرط حبه مملوكا

واقعد كان قبل ذاك يدعى مليكا

إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلما

وبعادا يدنى حماها وشيكا

تركته جأذر القصر صبا

مستهما على الصميد تريكا

يجعل الخد مائلا فوق ترب

وهو لا يرتضى الحرير أريكا

(٦) الحلة السيرة ج ١ ص ٥٧ .

(م ٢١ - المجتمع الأندلسى)

هكذا يحسن التذلل للحبر

إذا كان فى الهوى مملوكا (٧)

ومن أمثلة ذلك أيضا (طروب) جارية الأمير عبد الرحمن الأوسط وأم والده عبد الله التى وصلت إلى درجة كبيرة من النفوذ والسلطان ، نظرا لشغفه بها . بحيث ذكر أنها كانت تبرم الأمور مع نصر الخصى ، ولم يكن الأمير يرفض لها طلبا . ويقال إنها دبرت مؤامرة مع هذا الخصى لقتل عبد الرحمن حتى تصير الإمارة من بعده إلى ولدها عبد الله بدلا من محمد الذى كان من جارية أخرى تدعى بهير (٨) . وبالرغم من انكشاف هذه المؤامرة ، ومعرفة الأمير بما كانت تضره له إلا أنه لم يعاقبها وظل على حبه لها (٩) .

ويذكر أنه بلغ من حبه لها أنها هجرته يوما ولزمت حجرتها فأراد

(٧) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠ ، ويذكر ابن الأبار هذه الأبيات بشيء من الاختلاف فى بعض الألفاظ ويقول : وله فى النسب ثم يذكرها ولا مانع من أن يكون النسب فيهن . (انظر الحلة السيرة ج ١ ص ٤٩) .

(٨) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٦٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٣ .

(٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٣٠ . ويشك د. حسين مؤنس فى هذه المؤامرة مستدلا على ذلك بأن الأمير لم يغضب على طروب ولم يعاقبها . ونقول إنه لا غرابة فى وقوع هذه المؤامرة فأمثالها كثير فى عصور التاريخ المختلفة . والسبب فى عفوه عنها هو حبه الشديد لها كما ذكرنا ، وعين الرضى عن كل عيب كيلة كما قال الشاعر . (انظر الحلة السيرة ج ١ ص ١١٤ هامش ١) .

ان يرضاهما بعد ان تمنعت عليه فأمر بسد باب حجرتها ببدر الدراهم
من الخارج . ولما رضيت فتحت الباب فتساقطت البدر داخل الحجره
فأخذت في جمعها ثم أقبلت عليه وأكبت على رجله تقبلها (١٠) .

كما يروى انه اعطاها عقدا قيمته عشرة آلاف دينار ، ولما استعظم
بعض وزرائه ذلك قال : ويحك إن لابس العقد أنفاس خطرا ، وأرفع
تقدرا ، واكرم جوهرها ... الخ « (١١) .
ويذكر أن له فيها شعر يقول فيه :

فقدت الهوى مذ فقدت الحبيبيا

فما أقطع الليل إلا نحيبا

وإما بدت لى شمس النهار طالفة ذكرتني طروبا

فيا طول شوقى إلى وجهها

ويا كبدا أورتتها ندوبا

ويا أحسن الخلق فى مقتلتي

وأوفرهم من فؤادى نصيبيا

لئن حال دونك بعد المزار من بعد أن كنت منى قريبا

لقد أورت الشوق جسمى الضنى

وأضرم فى القلب منى لهيبيا

(١٠) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٨ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٩٢ .
ويذكر ابن عذارى أن مقدار هذه الدراهم كان عشرين ألف
درهم .

(١١) ابن الأبار : الحلة للسيرة ج ١ ص ١١٦ وقد ذكر المقرئ انه أعطاها
حلييا قيمته مائة ألف دينار (نفع الطيب ج ١ ص ١٦٣) .

عدائى عنك مزارا لعدا

وقودى إليهم لها ما أهيها (١٢)

وذكر ابن سعيد المغربى أنه فى إحدى غزواته جاءه طيفها فى المنام فاشتاقت إليها ، فاستخلف على الجيش قائدا ، ورجع إلى قرطبة لقيائها (١٣) .

ولكننا نعتقد أن أمثال هذه الروايات فيها شىء من المبالغة فلا يمكن أن تصل الأمور به إلى هذه الدرجة - مهما بلغ حبه لها - بحيث يترك جيشه ويعود إليها لمجرد أنه رأى طيفها فى المنام .

صحيح أن عبد الرحمن كان كثير الأولاد ، حيث بلغ عدد أولاده مائة كما يقال - خمسون من الذكور وخمسون من الإناث - (١٤) ، ووصفه الكثيرون بأنه كان مولعا بالنساء شديد الميل لهن ، ولكن بالغ البعض فى ذلك مبالغة شديدة لا تتفق ومقابه كحاكم أو أمير مسلم .

(١٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ١١٤ - ١١٥ وقد أورد ابن عذارى هذه الأبيات ابتداء من البيت الأخير وبعده الثمانية أبيات الأخرى التى ذكرها ابن الأبار ولم نذكرها خشية الإطالة وقال ابن عذارى : إن عبد الرحمن قالها عندما خرج لغزو مملكة جليقية سنة ٢٣٥هـ ، ولكنه أخطأ فقال عبد الرحمن بن الشهر وصحتها ابن الحكم وربما كان هذا خطأ مطبعيا (البيان المغرب ج ٢ ص ٨٥ - ٨٦) .

(١٣) المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٧ .

(١٤) انظر : ابن حبان : المتببس ص ١٤٩ تحقيق د. مكى ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٥١ - ٥٢ ، نفع الطيب : ج ١ ص ٢٢٤ . ابن سعيد : المغرب ج ١ ص ٤٧ . وقد ذكر ابن سعيد أنه كان لا يتخذ منهن ثيبا البتة .

بومثال ذلك ما ذكره المقرئ من انه بلغ من حبه للنساء أن وقع على جارية في شهر رمضان كان يحبها ، فجمع الفقهاء وسألهم عن كفارة ذلك فقال له يحيى الليثي كبير الفقهاء : تكفر بصيام شهرين متتابعين ، فسكت بقية الفقهاء ولم يقولوا شيئا حتى انصرفوا ، فسأل بعضهم يحيى لماذا لم تفتنه بمذهب مالك في التخيير ؟ قال : لو فتحنا هذا الباب له سهل عليه أن يطاء كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور لئلا يعود (١٥) .

فلا يمكن لحاكم مسلم أن يفطر عمدا في نهار رمضان من أجل جارية هي ملك يمين له في أي وقت من الأوقات في غير نهار رمضان .
ومن المبالغات أيضا قول بعض المستشرقين « إن عبد الرحمن ملك عليه امره طوال حياته أربعة : فقيه ومغن وجارية وعبد » (١٦) .

ويذكر أنه كان لعبد الرحمن جوار أخريات منهن : (الشفاء) التي اعتقها وتزوجها ، وكانت جميلة تقيّة عاقلة خرجت معه في إحدى غزواته فهرضت فأعادها إلى قرطبة ، فماتت في الطريق ودفنت في قرية مجاورة لطليطلة . وجارية أخرى تدعى (مدثرة) اعتقها وتزوجها كذلك (١٧) .

وجارية ثالثة تسمى (فخر) وهي التي ابلغته بخبر المؤامرة التي دبرت ضده بعد أن أخبرها الحراني الطبيب الذي كلفه نصر بوضع

(١٥) نفع الطبيب ج ١ ص ٣٥٨ .

(١٦) لين بول : قصة العرب في اسبانيا ص ٧٦ ، يقصد بالفقيه يحيى الليثي كبير الفقهاء ، وبالغنى زرياب ، وبالجازية طروب ، وبالعبد نصر الخصى .

(١٧) نفع الطبيب ج ١ ص ١٦٣ .

السم في شرابه . بالإضافة إلى جواريه المغنيات (فضل وعلم
وقلم) (١٨) .

ويروى انه كان للخليفة عبد الرحمن الناصر جارية تسمى الزهراء .
كان شغوفاً بها ، وبلغ من شدة حبه لها أن بنى لها مدينة سماها
باسمها عندما طلبت منه ذلك . فقد ذكر الكثير من المؤرخين أن الناصر
ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا فأمر بأن يفتدى به أسرى المسلمين لدى
الإفرنج ، فلم يوجد أسرى فشكر الله ، وقالت له جاريتته الزهراء :
اشتيت لو بنيت لى به مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى فبنائها
تحت جبل العروس شمال قرطبة (١٩) .

وهذه أيضا من مبالغات المؤرخين الشبيهة بالقصص الخيالية ،
والمواقع أن الناصر كان شغوفاً بالبناء فرأى أن يؤسس مدينة جديدة تليق
به ويدولته بعد أن تلقب بالآتاب الخليفة . يقول ابن خلدون : « وما
استفحل ملك الناصر صرف همه إلى تشييد القصور والمباني » (٢٠) .
ومما يدل على حبه للبناء لتخليد ذكراه تلك الأبيات التي تنسب إليه :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبأسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا وكم
ملك محتله حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاضم قدره
أضحى يدل على عظيم الشأن

(١٨) الحلة السيرة ج ١ ص ١١٤ هامش ١ ، البيان المفرب ج ٢

ص ٩٣ ، د. الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٤٤ .

(١٩) انظر المقرئ ج ١ ص ٢٤٥ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢٠) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

كما كانت للناصر جارية تدعى مهرجان أو مرجانة استولدها ابنه الحكم ، واطلق عليها لقب (السيدة الكبرى) . ذكر أنها أرادت أن تبهج الناصر يوما ، فاشتريت زرزورا وعلمته أبياتا من الشعر حتى إذا جلس الناصر للفصد ذات يوم فى بهو المجلس الكبير المشرف على مدينة الزهراء ، وبدأ الطبيب فى العمل أطل الزرزور وصعد على إناء من ذهب وأخذ يردد : **أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنين**

إنما تفصد عرقا فيه محيا العالينا

فسر الناصر بذلك واستظرفه ، وسأل عنه فذكر أن أم ولده هى التى فعلت ذلك ، فوهب لها ما يزيد على ثلاثين ألف دينار (٢١) .

كما كان لصبيح البشكنسية (٢٢) حظية الخليفة المستنصر ، وأم ولده هشام نفوذ كبير فى حياة زوجها وبعد مماته عندما ولى ابنها الخلافة وهو غلام صغير فى العاشرة من عمره سنة ٣٦٦ هـ ، وكان الحكم قد تقدمت به السن دون أن يرزق بولد قبل الخلافة — يذكر أنه وصل إلى السابعة والأربعين أو الثامنة والأربعين — وبعد تقلده الخلافة بأربع سنوات رزق بهشام من حظيته صبح فسر بذلك سرورا عظيما وجعلها أم ولده وسبت مكانتها عنده (٢٣) .

(٢١) العبر ج ٤ ص ١٣٧ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٣ .

(٢٢) كان اسمها بالأسبانية أورورا ، ويعنى صبح بالعربية ، وكان الحكم يناديها بحعفر تدليلا لها (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ص ٣٥) .

(٢٣) يذكر البعض أن الحكم كان قد رزق بولد سماه عبد الرحمن سنة ٣٥١ هـ ولكنه توفى طفلا صغيرا . (انظر ابن الأبار : الحسنة السيرة ج ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، هامش ١) .

وقد اتخذت من محمد بن أبى عامر الذى لقب بالمنصور كاتباً لها ووكيلاً للنظر فى أموالها وضياعها ، واستطاع بما لديه من المؤهلات أن ينال إعجابها بسحر حديثه وهداياه ، حتى أن الحكم كان يقول لخواصه « إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهم به » (٢٤) . وخاصة بعد أن ولى دار السكة فكان ينفق ببذخ على حساب خزانة الدولة للوصول لأهدافه . فيروى أنه صاغ لها تمثالاً من الفضة على هيئة قصر أنفق فيه مالا كثيراً ، حتى أخذ الناس يتحدثون بشأنه زمناً طويلاً . وقد أعجبت به صبيح أيما إعجاب ولما تحدثت الساعة إلى الحكم بذلك ، لم يجد ابن أبى عامر سبيلاً إلا رد قيمته ، فاقترضاها من صديقه الوزير ابن حدير حتى ترتفع عنه الشبهة (٢٥) .

وبالرغم من ذلك فإن الشبهات أخذت تثور ، واتسع المجال للأقاويل عن العلاقة بين المنصور وبين صبيح ، حتى قيل إنه كانت تربطها به صلة عاطفية ، وأن ذلك كان وراء ما يلفه من نفوذ ومكانة (٢٦) .

وأياً ما كانت صحة ذلك ، فقد استطاع المنصور أن يصل إلى مرتبة الحجابة - بمثابة رئاسة الوزارة - بعد أن تخلص من منافسيه بوسائل عديدة ، وسيطر على الخليفة الصغير وحجر عليه ، واستبد بالأمور فى الدولة حتى استطاع أن يؤسس ما اصطلح عليه البعض باسم الدولة العامرية التى كانت بمثابة دولة داخل الدولة الأموية (٢٧) .

ويذكر أن الحكم كان شديد الكلف بصبح ، فعندما أخرج فى غزوته

(٢٤) ابن بسام : الذخيرة القسم الرابع ج ١ ص ٤٢ - ٤٣ .

(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٣ .

(٢٦) د. خالد الصوفى : عصر المنصور الأندلسى ص ١٩ وبعدها .

(٢٧) د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٤ وبعدها .

المعروفة (بشنت اشنتين) سنة ٣٥٢هـ اكثر من التعلق به والحزن لفراقه فقال مستعبرا :

عجبت وقد ودعتها كيف لم اهن
وكيف انثنت عند الفراق يدي معي

فيا مقلتي العبرى عليها اسكبي دما

ويا كبدى الحرى عليها تقطعى (٢٨)

وكما تمتعت زوجات الخلفاء بشيء من النفوذ فقد كان لبعض زوجات الطبقات الاخرى نفوذ ايضا مثل (تكفات البربرية) زوجة محمد بن زياد اللخمي قاضى الجماعة بقرطبة فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكانت كما يقول ابن حيان « ذات دالة عليه على ما تفعله الزوجات الحظيات » (٢٩) .

وقد كان الكثيرون يتنافسون فى اقتناء الجوارى منافسة شديدة ووصلت إلى حد الغيرة والقتل . فقد ذكر ابن الأبار : ان مروان بن محمد ابن مروان بن عبد الرحمن الناصر كان يهوى جارية رباها أبوه معه وذكرها له ، ثم استأثر بها دونه ، فاشتدت غيرته لذلك ، وانتهز فرصة خلو أبيه معها فقتله ، فاعتقل وسجن فى عهد المنصور بن أبى عامر ست عشرة سنة ، ثم أطلق سراحه فسمى (بالظليق) ، وكان أدبيا شاعرا مكثرا تشببه ابن حزم بابن المعتز من بنى العباس فى ملاحه شعره وحسن تشبيهه (٣٠) .

(٢٨) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(٢٩) المتببس ص ٢١٠ تحقيق د. محمود مكي ، وقد ذكرها الخشنى : كنان

بدون تاء فى البداية انظر (قضاة قرطبة ص ١٠٦) .

(٣٠) الحلة السيرة ج ١ ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

وإلى جانب الدور الذى لعبته المرأة فى الحياة السياسية فقد لعبت دورا مهما كذلك فى الحياة الاجتماعية وخاصة الجوارى المغنيات اللاتى كان لهن أثر كبير فى مجال الغناء والموسيقى ، والملابس والأزياء والزينة ، وغير ذلك . كما كان للأسبانيات دور كبير فى إدخال الكثير من العادات والتقاليد إلى بيوت المسلمين الذين تزوجوهن . كما شاركت بعض النساء مشاركة ايجابية عن طريق إنشاء بعض المؤسسات الدينية كالمساجد وغيرها مثل عجب جارية الخليفة الحكم الربضى التى أقامت مسجدا نسب لها فى غربى قرطبة ، وأقامت مقبرة عرفت باسمها أيضا ، ومثل جاريتها متعة التى أقامت مسجدا أيضا على نفقتها نسب إليها (٣١) . ومثل طروب جارية عبد الرحمن التى ينسب إليها إقامة مسجد بالربض الغربى فى قرطبة (٣٢) .

كما شاركت بعض النساء أيضا فى مجال الحركة العلمية . فيذكر المراكشى أنه كان فى الربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة لنسخ الإصحاف بالخط الكوفى (٣٣) . وكان هناك بعض النساء اللاتى تعلمن وتفقهن فى الدين ودرس الأدب .

وكان كثير من الخاصة يعينون مؤدبات لبناتهم . فيذكر خوليان ريبيرا :
المستشرق الأسباني : أنه كان لجنى حزم — وهم غير أسرة ابن حزم
الفقيه الأشهر — مدرسة من أشهر مدارس قرطبة — يقصد مكتبا — يدرس

-
- (٣١) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٢٢٧ .
(٣٢) طوق الحمامة ص ١٩ هامش ١ ، ليفى بروفنسال : الحضارة الغربية ص ٧٣ .
(٣٣) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤٨ ، التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦١ .

فيها الأب للصبيان والابن للفتيان والبنت للفتيات وذلك في القرن الثالث
تقريباً (٣٤) .

كما كانت بعض النساء ترحل للتعلم خارج الأندلس مثل راضية مولاة
عبد الرحمن الناصر التي أعتتها ابنه الحكم ، وتزوجها لبيب الفتى الصقلبي
وحجا معها ولقيا جماعة من العلماء أخذوا عنهم ، ونسخا مجموعة من الكتب
وقد توفيت في حدود سنة ٤٨٣هـ (٣٥) .

ومن النساء اللاتي برزن في مجال الأدب الشاعرة حسانة التميمية
بنت أبي الحسن الشاعر وكانت من أهل البيرة ، وقد تأدبت على أبيها
ولما توفى ذهبت إلى الحكم الرضوي ومدحته بأبيات منها :

إني إليك أبا المعاصي موجهة

أبا الحسين سقته الواكف الديم

قد كنت ارتع في نعماء عاكفة

فاليوم آوى إلى نعمك يا حكم

أنت الإمام الذي انقاد الأنام له

وملكته مقاليد النهي الأمم

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته — وكان يقترض الشعر —
وأمر بإجراء راتب عليها ، وكتب إلى عامله على البيرة ، فجهزها بجهاز
حسن (٣٦) .

(٣٤) التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٦١ .

(٣٥) ابن بشكوال : الصلة ترجمة ١٣٥٤ طبعة الدار المصرية للتأليف
والترجمة ، التربية الإسلامية ص ١٦٢ .

(٣٦) انظر نوح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ص ٤٨٨ ، د. أحمد
هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٠٦ — ١٠٧ . وانظر عن شاعرات
الأندلس د. المشكعة : الأدب الأندلسي ص ١١٩ . وبعدها .

ومن اللاتى برزن فى مجال الادب كذلك الشاعرة حفصة بنت حمدون
الحجارية وكان من شواعر الأندلس فى المائة الرابعة ، من وادى الحجارة
ومن شعرها فى الغزل :

لى حبيب لا ينثنى بعتاب
وإذا ما تركته زاد تيهها
قال لى هل رأيت لى من شبيهه
قلت أيضا وهى ترى لى شبيها (٣٧)

ومن النساء اللاتى اشتهرن بالعلم والزهد أيضا : البهاء بنت
الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وكانت من خيرات نساء بنى أمية ، وقد اشتهرت
بالزهد والتبتل والعبادة ، ويذكر أنها كانت تكتب المصاحف وتحبسها
على المساجد ، وينسب إليها مسجد باسمها من مساجد الرصافة وقد
توفيت سنة ٣٠٥هـ (٣٨) .

وكذلك عابدة المدينة جارية ابن دحون الوليد بن حبيب الروائى ،
وكانت جارية سوداء أهديت إليه عندما حج ، وقد اشتهرت برواية
الحديث عن الإمام مالك وغيره حتى قيل : إنها كانت تسند عشرة آلاف
حديث . أى تحفظها بسننها - وقد أعجب بها الوليد ، وقدم بها إلى
الأندلس ، فتزوجها وأستولدها ابنه بشر (٣٩) . الذى عرف بالحبيبي
وأصبح من المشهورين بقرطبة ، وكانت له ابنة تسمى عبدة اشتهرت
بالرواية عنه أيضا (٤٠) .

وليس من شك فى أن إتاحة الفرصة للمرأة الأندلسية فى مجال
العلم والثقافة قد صقل من شخصيتها ، ووسع من مداركها وآفاق
تفكيرها ، وجعلها تحتل مكانة مرموقة فى مجتمعها .

-
- (٣٧) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ترجمة ٣٥٧ .
(٣٨) ابن حيان : المقتبس ص ٢٦٣ تحقيق د. محمود مكى ، ابن عذارى :
البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .
(٣٩) المقتبس ص ٢٢٨ .
(٤٠) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

الحالة الاقتصادية

الحالة الاقتصادية

موقع الأندلس ومناخها :

وصف كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة بلاد الأندلس بأوصاف كثيرة من نواحي شتى . فقد ذكر الرازي - وهو أحد مؤرخي الأندلس المتقدمين (ت ٣٤٤ هـ) - « أن الأندلس تقع في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التي هي ربع المعمور الدنيا . فهي موسطة البلدان ، كريمة البتعة بطبع الخلقة ، طيبة التربة ، مخصبة الشاعة ، منبسجة العيون الثراء ، متنجرة الأنهار الغزار ، قظيلة الهوام ذوات السموم ، معتدلة الهواء أكثر الأزمان ، لا تزيد قيطها زيادة منكرة تضر بالأبدان ، وكذا سائر فصولها في أعم سنيتها تأتي على قدر من الاعتدال ، وتوسط الحال » (١) .

وأنها على شكل مثلث يعتمد على ثلاثة أركان الأول عند قادس ، والثاني ما بين أربونة وبرديل شرقا ، والثالث ما بين الشمال والغرب من إقليم جليقية (٢) .

وقال عنها ابن حوقل الرحالة الشيعي الذي زارها في القرن الرابع الهجري : « وأما جزيرة الأندلس فجزيرة كبيرة طولها دون الشهر في عرض نيف وعشرين مرحلة ، تغلب عليها المياه الجارية ، والشجر والثمر ، والرخص والبسعة في الأحوال ، من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر ، إلى أسباب التهلك الفاشية فيها ، ولما هي به من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته ، يملك ذلك منهم مهنيهم وأرباب صنائعهم لقلة

(١) المقري : نفع الطيب ج ١ ص ٧٠ .

(٢) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

مؤنوتهم وصلح معاشهم وبلادهم» (٣) .

وقال ابو عبيد البكرى (ت ٤٨٧ هـ) — الذى يعتبر من اوائل الجغرافيين الذين اُنجبتههم بلاد الاندلس — : « الاندلس شامية فى طبيها وهوائها ، يمانية فى اعتدالها واستوائها ، هندية فى عطرها وذكائها ، أهوازية فى عظيم جبايتها ، صينية فى جواهر معادنها ، عدنية فى منافع سواحلها » (٤) .

وقال لسان الدين بن الخطيب : « خص الله بلاد الاندلس من الريح وغدق السقيا ، ولذاذة الاموات ، وفراهة الحيوان ، ودرور الفواكه ، وكثرة المياه ، وتبحر العمران ، وجودة اللباس ، وشرف الأنبية ، وكثرة السلاح ، وصحة الهواء ، وابيضاض الوان الإنسان ، ونبل الازهان وفنون الصنائع ، وشهامة الطباع ، ونفوذ الإدراك ، واحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الاقطار » (٥) .

وذكر أبو بكر بن عبد الحكم المعروف بابن النظام : أن الاندلس عند علماء أهله اندلسان : فالاندلس الشرقى ما صبت أوديته إلى البحر الرومى (البحر المتوسط) ما بين مرسيه إلى سرقسطة ، والاندلس الغربى ما صبت أوديته إلى البحر الكبير المعروف بالبحر المحيط (المحيط الأطلسى) .

ويضيف البعض إلى هذا التقسيم تسما ثالثا هو وسط الاندلس الذى يضم من المدن قرطبة وطليطلة وجيان والمربة ومالقة وغرناطة .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٩٨ .

(٤) نفسه ج ١ ص ٦٣ .

(٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٦٤ .

أما شرق الأندلس فتقع فيه من المدن الكبرى مرسية وبلنسية
ودانية ومرقسطة ، وأما غرب الأندلس فتقع فيه أشبيلية وماردة وأشبونة
(لشبونة) (٦) .

البيئة الطبيعية :

الأندلس عبارة عن شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من
أوروبا ، تحيط بها المياه من كل جوانبها ما عدا الجانب الشمالي الشرقي
حيث تفصلها جبال البرتات - أي المنافذ - (البيرينية - البرانس)
عن فرنسا .

ويبلغ طولها نحو ألف ومائة ميل ، وعرضها نحو ستمائة ميل .
وتتألف من هضبة كبرى تسمى (مسينا) تشغل جزءا كبيرا من مساحتها ،
ومجموعة من السلاسل الجبلية التي تطوقها ، ومن أشهرها في الجنوب
جبال (سيرامورينا) أي سلسلة الجبال الحمراء ، ومن أهم جبال هذه
السلسلة جبل قرطبة المعروف عند المؤرخين العرب باسم (جبل
العروس) (٧) . وتفصل هذه الجبال بين الهضبة الكبرى والسهل
الجنوبي الكبير المنبسط حتى أقصى الجنوب . وترتفع في السهل الجنوبي
سلسلة جبال أخرى تسمى (سيرانيفادا) أي سلسلة الجبال الثلجية ،
وتمتد في شرق الهضبة الكبرى سلسلة جبال أخرى هي الجبال الأيبيرية ،
وتفصل هذه السلسلة بين الهضبة وبين السهل الشرقي المنبسط حتى

(٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ .

(٧) الإدريسي : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق
ص ٢٠٨ ، الحبيرى : صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب
الروض المعطار ص ٥٣ ، المقرئ : نفع الطيب من غصن الأندلس
الطيب ج ٢ ص ٦٥ .

(م ٢٢ - المجتمع الأندلسي)

ساحل البحر المتوسط . وفي شمال الهضبة تمتد جبال أخرى هي جبال (كافتا برسيا) أو القنطارية كما تعرف في المصادر العربية . وتلي هذه الجبال من الشمال بعض الأقاليم السهلية الضيقة ، ثم تنحدر الهضبة ناحية الغرب حتى تنتهي إلى السهل الغربي الكبير .

وتجرى في الأندلس عدة أنهار أهمها نهر الوادي الكبير - الذي لا يزال معروفا بهذا الاسم في أسبانيا حتى اليوم مع شيء من التحريف حيث يسميه الأسبان : (جواد الكبير Guad al Quivir) ويروى أراضي السهل الجنوبي ونهر بقرطبة وإشبيلية ويصب غربا في المحيط الأطلسي ، ونهر التاجة ويسميه الأسبان التاخة ، ويمر بوسط الهضبة الكبرى ، وعليه تقع مدينة طليطلة ، ونهر دويرة في الشمال منها ويطلق عليه الأسبان اسم دور ، وينحدر نحو الغرب ويصب في المحيط الأطلسي .

وهناك أنهار أخرى تصب في البحر المتوسط ، ومنها نهر إيرة الذي تقع عليه مدينة سرقسطة ، ونهر ثغر الذي يسميه الأسبان - خوكر - وعليه تقع جزيرة ثغر التي كانت مصدر إلهام للكثيرين من الشعراء .

ونهر سجورا أو شقورة الذي يخترق مدينة مرسية ، ويروى قسما كبيرا من أراضي شرق الأندلس . وهناك أنهار أخرى صغيرة ، وعيون وآبار كثيرة اعتمدت عليها الزراعة إلى جانب مياه الأمطار والثلوج التي تعتمد عليها الزراعة أساسا في منطقة الهضبة الوسطى (٨) .

(٨) انظر : د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٣٥ وبعدها ،

د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٦ - ١٠ .

د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة ص ١٥ - ١٦ .

دائرة معارف الشعب (٦١) ص ٣ - ٤ .

وهكذا نرى أن طبيعة الأندلس ليست واحدة ، وإنما هي مكونة من سهول وهضاب وجبال وأودية ، ففيها المناطق الخصبة ، والمناطق الجبلية القاحلة ، وليس كما صورها الكثير من الشعراء على أنها جنة . ليس فيها لا السهول الخضراء ، والحقول الخصبة ، والحدائق الغناء . ونظرا لأن المسلمين قد نزلوا بالمناطق الخصبة وأقاموا فيها وتركوا المناطق الشمالية الجبلية التي تقع ضمن الهضبة الكبرى ، وأصبحت هي مركز المقاومة الإسبانية المسيحية ضد المسلمين لاسترداد البلاد شيئا فشيئا . فقد تصور الكثيرون أن الأندلس عبارة عن جنان وارفة ومياه غزيرة وبساتين مثمرة كما يقول الشاعر الأندلسي ابن خناجة الهواري (٤٥٠ - ٥٣٣ هـ) الذي عاش في عهد المرابطين : ولقب بالجنان لكثرة وصفه للرياض والبساتين :

إن للجنة بالأندلس

مجلى حسن وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب

ودجى ليلتها من لعس

وإذا ما هبت الريح صبا

صحت واشمقى إلى أندلس (٩)

وقوله :

يا اهل أندلس الله دركم

ماء زرع واثسجار وانهار

ما جنة الخلد إلا في دياركم

واو خيرت هذه كنت أختار

لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سعرا

فأيس تدخل بعد الجنة النار (١٠)

ومثل الشاعر الذى يقول :

حبذا أندلس من بلد

لم تزل تنتج لى كل سرور

طائر شاد وظل وارف

ومياه سائحات وقصور (١١)

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة والمناخ من إقليم لآخر نظرا لاتساعها الكبير ، وقد أدى هذا الاختلاف إلى التنوع فى حاصلاتها الزراعية .

الزراعة :

كان المسلمون عند فتحهم لبلاد من البلاد صلحا يتركون الأرض بأيدي أهلها فى مقابل أداء الخراج عنها ، وذلك حتى يتفرغوا لمواصلة فتوحاتهم لنشر الإسلام ، أما إذا فتحوها عنوة وعدل القائد أو الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ووقفها على مصالح المسلمين ، فيؤخذ عنها الخراج أيضا .

أما إذا قسمت الأرض بين المحاربين المسلمين ، فإنها تعتبر أرضا

(١٠) المقري : نفع الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

(١١) د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى ص ٢٤ .

دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٨ .

عشرية ، ولا يوضع عليها الخراج (١٢) . وعندما فتح المسلمون الأندلس
تضوا على النظام الذى كان سائدا فى عصر القوط حيث كانت الأراضى
فى يد عدد قليل من الأشراف والنبلاء ورجال الكنيسة ، بينما كان سائر
السكان من المزارعين يمثابة الأقتنان الذين يعملون فى هذه الأراضى
لصالح تلك الفئات القليلة .

فأخذ الفاتحون فى تجزئة الملكيات الكبيرة إلى ملكيات صغيرة ، وزعت
على الفاتحين إلى جانب سكان البلاد الآخرين الذين أصبح لهم حصرية
التمتع فى هذه الأرض . وكان ذلك عملا مهما فى تحقيق فكرة التضامن
الاجتماعى بين السكان .

وأصبحت هذه الملكيات الصغيرة ركنا أساسيا فى دعم الفهضة
الزراعية بالأندلس . وكان ملاك الأراضى من المسلمين والمسيحيين واليهود
وغيرهم يؤدون بالتساوى ضريبة الخراج . وكان هذا أيضا من العوامل
التي ساعدت على تقدم النشاط الزراعى . ومنذ ولاية السمع بن مالك
الخولانى ١٠١هـ أصبح مالك الأرض والمزارع شبه شريكين فيها ، وكذلك
أصبح العرب شركاء للكثير من الأسبان بعد توزيع الأراضى بين عرب
الشام والبلديين فى ولاية أبى الخطار اليمنى سنة ١٢٥هـ على أثر توزيع
الشاميين على كور الأندلس إلى جانب البلديين (١٣) .

وقد استطاع المسلمون فى الأندلس أن يوفقوا بين بيئتهم القديمة
وبين البيئة الجديدة التى استقروا فيها ، ولم يكن تقدمهم فى مجال

(١٢) انظر : الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ ، د . حسن

ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧٣ — ٤٧٤ .

(١٣) انظر : ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٦١ — ٦٢ ، د . منى

حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٧ .

الزراعة بأقل من تقدمهم فى مجال الحرب والجهاد ، ونجحوا فى تحويل أجزاء كبيرة من الأراضى المقفرة بالاندلس إلى أراض صالحة للزراعة (١٤) .
كما أدخلوا محاصيل جديدة من المشرق مثل النخيل والرمان الذى أدخلت زراعته من الشام — وخاصة من رمان الرصافة المنسوبة إلى هشام ابن عبد الملك — فى عهد عبد الرحمن الداخل واستطاع سفر بن عبيد الكلاعى وكان من جند الأردن ، تهجين نوع منه ينسب إليه فسمى بالرمان السفرى . ويصف ابن حيان هذا النوع بأنه (الموصوف بالفضيلة المقدم على أجناس الرمان بعذوبة الطعم وغزارة المَاء وحسن الصورة ، وكذلك النارنج الذى لازال يعرف فى الأسبانية بنفس الاسم Nakangi (١٥) .

والقطن الذى انتقلت زراعته إلى الأندلس فى القرن الثالث الهجرى ، واشتهرت عدة بلاد بزراعته وعلى رأسها إشبيلية ، وكذلك التفاح الذى تكثر زراعته فى جبال سيرانيفادا ، والبطيخ السندي الذى لازال يعرف فى الأسبانية باسم سانديا Sandia (١٦) .

كما أدخلت زراعة تصب السكر حيث يفهم من كتابات بعض المؤرخين الأندلسيين مثل الرازى وعريب بن سعد القرطبى أنه كان ينتج بكميات كبيرة بالاندلس فى القرن الرابع الهجرى ، وكان من أهم مراكز زراعته البيرة ، ومالقة ، وإشبيلية (١٧) .

(١٤) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٨ .

(١٥) عبد الحميد الشرقاوى : الحياة الاقتصادية فى الأندلس فى القسرن الرابع الهجرى ص ٦٠ .

(١٦) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٢١٧ ، د. السيد سالم : قرطبة

حاضرة الخلافة ص ٥٠ ، محمد دياب : تاريخ العرب فى اسبانيا ج ١

ص ٦٨ — ٦٩ .

(١٧) تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٣ ، ٣٨٤ .

وكذلك الأرز الذي أدخلت زراعته في شرق الأندلس وخاصة في منطقة بلنسية التي تعتبر اليوم هي المستودع الرئيسى للأرز في أسبانيا ، وتشتهر بنوع من الطعام يقوم عليه ويسمى (بانليا Paella) .

ويلاحظ أن كلمة أرز قد انتقلت إلى اللغة الأسبانية بنفس اللفظ وArroz وكذلك أدخلت بعض الخضروات التي لازالت تحتفظ بأسمائها العربية أيضا كالباذنجان والخرشوف والزيتون والزعفران ، والسلق وغير ذلك (١٨) .

وقد كانت أكثر حاصلات البلاد مما تجود زراعته في حوض البحر المتوسط مثل القمح والشعير والقطن والكتان والأرز والبقول والمواالح والكروم والزيتون والموز والتين والخوخ وغيرها . يقول الرازى مؤرخ الأندلس : « وفواكهها تتصل طول الزمان فلا تكاد تعدم » (١٩) .

هذا إلى جانب الفجبات الكثيرة المنتشرة في أنحاء البلاد مثل أشجار اليوط والسنديان والصنوبر وغيرها (٢٠) .

وكان مما ساعد على تقدم الزراعة بالأندلس في العصر الأموي الاهتمام بشؤون الري مثل إنشاء الترغ والجسور ، وشق القنوات ، وإقامة القناطر إلى غير ذلك .

(١٨) الحيمري : الروض المعطار ص ٢١ — ٢٤ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ١٣٠ ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

(١٩) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢٨٣ .

(٢١) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ ، د. مني حسن .

محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٩ .

وهناك ظاهرة طبيعية أحسن المسلمون استفادتها في الأندلس في مجال الزراعة ، وهي كثرة تساقط المياه من المرتفعات الجبلية فكانوا يوسعون القيعان حتى تصبح أحواضا فسيحة تمتلئ بالمياه ، وترفع منها بالثواعير (السواقي) لتستخدم في الري . ولا تزال إحدى هذه القيعان (الأحواض) قائمة حتى اليوم في جنوب بلنسية بأسبانيا (٢٢) .

ومما يدل على إبداع المسلمين في مجال الري (محكمة المياه) التي كانت تعقد ن الأهالي لتنظيم توزيع المياه على الفلاحين ، وهي محكمة أهلية لا دخل للحكومة بها ، وكان حكمها نافذا على الجميع ، وما زال هذا التقليد معمولا به في بلنسية حتى اليوم حيث تعقد المحكمة كل يوم خميس عند الظهر في نفس المكان القديم الذي كانت تعقد فيه بجوار مسجد المدينة الذي تحول بعد الاستيلاء عليها من الإسبان إلى كنيسة . ويلاحظ في هذا الصدد أن أسماء كثير من أدوات الري والزراعة قد دخلت في اللغة الأسبانية ولازالت إلى اليوم مثل الناعورة Noria والساقية Acequia (٢٣) . كما كانوا يستخدمون الدواليب ومنها نوع كانوا يسمونه (الخطارة) (٢٤) .

وقد وضع الأمويون تقويما للزراعة عرف (بالتقويم القرطبي) أصبح

(٢٠) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٧٠ .

(٢٢) د. حسين مؤنس : رحلة الأندلس ص ٢٧٥ ط ١ مطابع كوستا توماس القاهرة سنة ١٩٦٤م .

(٢٣) د. سعيد عاشور وآخران : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٧٧ .

(٢٤) انظر : الخشنى : قضاة قرطبة ص ٧٦ .

ذليلا تحدد على أساسه مواعيد زراعة المحاصيل المختلفة ، وأخذة عنهم .
غيرهم من الأمم (٢٥) .

كما عرف الأندلسيون (نظام القتب والتذييل) لإعداد الأرض
للزراعة ، واستخدموا الثيران فى حرث الأرض ، وكانوا يسمون المحصول
باسم (الرقع) ، ويسمون المرعى باسم (المجر) (٢٦) .

وقد وجد هناك نظام إقطاع عسكري حيث يعطى جنود الجيش
أراضى تقطع لهم ليزرعوها بأنفسهم أو عن طريق غيرهم ، ويتعيشون
منها . وظل هذا النظام — كما يبدو — معمولاً به حتى جاء المنصور
ابن أبى عامر فاستبدله بنظام الأرزاق والرواتب فى الجيش ، وقد أفاد
هذا النظام الجديد فى القضاء على العصبية القبلية والجنسية بين فرق
الجيش المختلفة من عرب وبربر وصقالبة ، وظل الحال على ذلك حتى جاء
المرابطون فأعادوا نظام الإقطاع العسكري من جديد فى القرن الخامس .

ويفصل ذلك الطرطوشى فيقول : « وسمعت بعض شيوخ الأندلس
من الأجناد وغيرهم يقولون : ما زال أهل الإسلام ظاهرين على عدوهم ،
وأمر العدو فى ضعف وانتقاص لما كانت الأرض مقطعة فى أيدي الأجناد ،
فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين ، ويربونهم كما يربى التاجر تجارته .
وكانت الأرض عامرة ، والأموال وافرة ، والأجناد متوافرين ، والكراع
والسلاح فوق ما يحتاج إليه ، إلى أن كان الأمر فى آخر أيام ابن أبى عامر ،
فرد عطايا الجند مشاهرة بتبض الأموال ، وقدم على الأرض جباة يجبوونها
فأكلوا الرعايا ، واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم ، فتهاربت الرعايا ،
وضعفوا عن العمارة ، فثابت الجبايات المرتفعة إلى السلطان ، وضعت

(٢٥) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٠٨ .
(٢٦) انظر : الخشنى : قضاة قرطبة ص ٩٣ ، المراكشى : المعجب
ص ٢١ .

الاجناد وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى أخذ الكثير منها ، ولم يزل أمر المسلمين فى نقص وأمر العدو فى ظهور إلى أن دخلها المتلثمون (المرابطون) فردوا الإقطاعات كما كان فى الزمان القديم «(٢٧) .

وقد اشتهرت الأندلس بكثرة رياضها وبساتينها وجنانها العامة التى كانت متاحة للجميع يتمتعون بها ، ولذلك فقد تميز الأندلسيون بنزعة جمالية ، ويميل كبير لحب النبات والورود والأزهار وزراعة الأشجار . ونلمس ذلك بوضوح فى البيوت والدور ، فضلاً عن العيائر والقصور ، بل حتى فى أمنيعة المساجد . ودليل ذلك أن مذهب الأوزاعى الذى اعتنقوه قبل مذهب مالك كان يبيع غرس الأشجار فى صحن المسجد ، ورغم تحولهم إلى مذهب مالك فى الأعم الأغلب الذى لا يجيز ذلك ، إلا أنهم ظلوا فى هذه المسألة على مذهبهم السابق . ويتضح ذلك من قول أبى الحسن النباهى « ومن المسائل التى خالف فيها أهل الأندلس قديما مذهب مالك بن أنس ، هى أنهم أجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها وهو مذهب الليث بن سعد ، وأجازوا غرس الأشجار فى المساجد وهو مذهب الأوزاعى »(٢٨) .

ولازالت هذه العادة موجودة فى إسبانيا إلى اليوم حيث توجد اشجار الليمون والبرتقال فى صحن جامع قرطبة ، وفى بعض الكنائس ايضا(٢٩) .

(٢٧) سراج الملوك ص ٢٩٩ .

(٢٨) المرتبة العليا فبين يستحق القضاء والفتيا ص ١٤٩ . نشر ليقى

بروفنسال القاهرة سنة ١٩٤٨م .

(٢٩) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٩٩ .

الصناعة :

أما عن الصناعة بالاندلس فقد كان للمسلمين أيضا أثر كبير في نهضتها وترقيتها وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل منها :

- ١ — استغلال المسلمين لثروات البلاد الطبيعية ، وبذلهم جهودا كبيرة في هذا المجال (٣٠) .
- ٢ — روح التسامح التي أبداهها المسلمون تجاه أهل الحرف والصنائع .
- ٣ — تشجيع المسلمين للصناعة والابتكار فيها لصناعة ما تحتاج إليه البلاد .

ويرى ابن خلدون : أن رسوخ الصناعات في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة ، وطول أمدها ، ويتخذ من الأندلس مثلا فيقول « كالحال في الأندلس لهذا العهد . فإننا نجد فيها الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها ، كالمباني ، والطبخ ، وأصناف الغناء واللهو من الآلات والأوتار ، وتنضيد الفرش في القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع في البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف . . . وسائر الصنائع التي يدعو إليها الترف وعوائده . . . وما ذلك إلا لما قدمناه من رسوخ الحضارة فيها برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط ، وما بعدها من دولة الطوائف إلى هلم جـرا فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه في قطر إلا ما ينقل عن العراق والشام ومصر أيضا لطول آمد الدول فيها فاستحكمت فيها الصنائع ، وكملت

(٣٠) أشار المقري إلى كثير من هذه الثروات في نفع الطبيب ج ١

جميع اصنافها على الاستجادة والتنميق» (٣١) .

وهكذا احتضن المسلمون حضارة الأسبان وشملوا أهل الصناعة والفنون المختلفة برعايتهم وعنايتهم ، وظل الصناع وأرباب الحرف المختلفة يسيرون في نفس الطريق الذي كانوا يسيرون فيه من قبل مع بعض التغيرات الطفيفة في تكييف منتجاتهم وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد ، ثم ما لبث أكثر هؤلاء أن وجدوا أنفسهم يخالطون المسلمون ، ويشاركونهم ويتعاملون معهم ، فاقبلوا على الثقافة العربية ، ودخل الكثير منهم في الإسلام ، وتحققت بذلك النقطة الحضارية الهائلة في العصر الأموي وخاصة في عصر الخلافة ، وصيغ في ذلك العصر فن إسلامي أندلسي أخذ يندرج في النمو والتطور (٣٢) .

وإذا أردنا أن نتحدث عن بعض المصناعات في الأندلس فإننا نجد منها :

صناعة المنسوجات : التي انتشرت في أنحاء كثيرة من البلاد نظرا لتوافر المواد الخام اللازمة لها من القطن والكتان والحرير والصوف ، وكذلك الأصباغ اللازمة . فقد كان القماش المعروف باسم (بوقلمون) يصنع في مدينة شنترين غربى الأندلس بألوانه المتغيرة (٣٣) . كما كان

(٣١) المقدمة ص ٢٨٢ فصل في أن رسوخ الصنائع في الأمصار إنما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها .

(٣٢) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٧٨ .

(٣٣) قيل : في تفسير كلمة (بوقلمون) أنها اسم للهرباء باليونانية ، وقيل : إنها اسم دابة بحرية لها وبر كانت تعيش في المحيط الأطلسي غرب الأندلس ، وكانت تحتك بحجارة الشاطئ ، فيقع منها وبر في لين الحرير وأون الذهب ، فيجمع وينسج في مدينة شنترين ثيابا تتلون بعدة ألوان (المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٤٠ ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣١) .

يصنع فى الأندلس أيضا النسيج الحريرى المعروف باسم (العتابى)
الذى انتقلت صناعته من العراق إلى الأندلس (٣٤) .

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى الأندلس نظرا لكثرة
اشجار التوت . حيث يشير المؤرخ الأندلسى عريب بن سعد القرطبى
(ت ٣٦٩ هـ) إلى قيام النساء بتربية دود القز ، ورعاية بيضه ، وانتقاء
شرائقه من شهر فبراير حتى يفقس فى شهر مارس من كل سنة (٣٥) .

وكان من أهم مراكز هذه الصناعة قرطبة والمرية التى يقدر القرى
عدد الأنوال فيها فى عصره (ت ١٠١٤ هـ) بنحو خمسة آلاف وثمانمائة
نول (٣٦) .

كما اشتهرت مرسية بصناعة الحلل من الحرير والديباج . ويذكر
ابن سعيد المغربى عن الحضرمى قوله « وكما يتجهز الفارس من تلمسان ،
تتجهز العروس من مرسية » (٣٧) .

وحينما زار الرحالة ابن حوقل الأندلس فى القرن الرابع الهجرى
اشاد بأندسجة الديباج الأندلسية ، وبالسروج الحريرية ، وذكر أنها فاقت
فى صنعها أى مكان فى العالم ، وأنها تزيد فى كمياتها على ما ينتج فى بلاد
العراق (٣٨) .

كما اشتهرت صناعة المنسوجات القطنية وخاصة فى مدينة إشبيلية

(٣٤) سُمى بذلك نسبة إلى محلة العتابية فى غرب بغداد وهى موطن
صناعته الأسمى .

(٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٦ .

(٣٦) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

(٣٧) المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٣٨) صورة الأرض ج ١ ص ١١٤ .

التي كان يزرع فيها القطن ، وكان يصنع بها نوع من الأقمشة يقي من الأمطار . كما وجدت أيضا صناعة المنسوجات الكتانية البديعة ، وكانت هناك أنواع منها لا يفرق بينها وبين الكاغد الجيد الصقل في الرقة والبياض ، وكان من أهم مراكز صناعتها سرقسطة ولاردة وباجة (٣٩) .

كما وجدت صناعة الصوف وخاصة في سرقسطة وجنجاله ، ولاتزال إسبانيا حتى اليوم تشتهر بصناعة الأغذية (البطاطين) والسجاد ، ولعل الصوف الإسباني المعروف باسم (مارينو) ينسب إلى قبائل بني مرين الزناتيين الذين حكموا المغرب وجنوب الأندلس في القرنين السابع والثامن الهجريين ، وكانت لهم مراعي كثيرة لتربية الأغنام أشار إليها لسان الدين ابن الخطيب في كتابه (نفاضة الجراب في غلالة الاغتراب) .

أما صناعة السجاد والبسط فكان من أهم مراكزها مرسية وبسطة وتنتالة في شرق الأندلس ، ولعل كلمة (الفوميرا) الإسبانية التي تعنى سجادة قد جاءت من الكلمة العربية (الخيرة) أي الحصيرة أو من الحمرة لأن اللون الأحمر كان هو الغالب عليها (٤٠) .

وقد حظيت المنسوجات الأندلسية بشهرة كبيرة في أوروبا وحرص الكثير من الملوك والأجراء والأغنياء فيها على اقتنائها ، ولاتزال هناك نماذج في بعض المتاحف الأوربية تشهد بمدى براعة الأندلسيين في هذه الصناعة مثل متحف فيجو بقطانونيا في إسبانيا ، ومتحف الأكاديمية الملكية بباريس ، ومتحف الفن في بروكسل ، وكاتدرائية أوتون بفرنسا (٤١) .

(٣٩) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٤٠) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٤١) المرجع السابق ص ٣٣٧ .

وقد كانت هناك دور خاصة لصناعة الملابس المختلفة للأبراء والخلفاء ورجال الدولة والجنود تسمى دور الكسوة أو دور الطراز ، ويذكر أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل كان أول من اتخذ من الأمويين دار للطراز بالأندلس . وفى ذلك يقول ابن الخطيب « وفى أيامه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الأفاق » (٤٢) .

يقول ابن خلدون عن الطراز « من ابهة المالك والسلطان ، ومذاهب الدول أن ترسم أسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج أو الإبريسم ، تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب إحكاما وسدى بخيط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك ، ووضعها فى صناعة نسجهم ، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصدا للتفويه بلباسها من السلطان فمن دونه ، أو التفويه بمن يختصه السلطان بملبوسه ، إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته ... الخ » (٤٣) .

صناعة السفن والأخشاب :

كما اشتهرت الأندلس بصناعة السفن وساعد على ذلك كثرة الغابات المنتشرة بها . وقد كانت صناعة السفن والمراكب من الصناعات القديمة الموجودة قبل فتح الأندلس ، وقد اعتمد المسلمون على دور الصناعة التى كانت منتشرة فى عدة أماكن مثل طرطوشة وطركونة ودانية وبجاية

(٤٢) أعمال الأعلام ص ٢٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٠ هامش ١ .

(٤٣) المقدمة ص ١٨٦ - ١٨٧ .

وإشبيلية والجزيرة الخضراء ، ولما قدم عبد الرحمن الداخل اتخذ سنة ١٤٤هـ دورا لصناعة السفن فى المرية وقرطاجنة إلى جانب المراكز السابقة وذلك لتوفر المواد اللازمة لهذه الصناعة من الأخشاب بالإضافة إلى توفر معدن الحديد الذى تحتاج إليه وخاصة فى شلطيش (٤٤) .

وقد ازدهر فن النحت على الخشب ووجدت أمثلة رائعة للتحف المصنوعة منه مثل منبر المسجد الجامع بقرطبة ، ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ومنبر جامع اشبيلية ومقصورته . وقد مر ذكر شىء من ذلك بالتفصيل عند الحديث عن بناء المساجد وتعميرها (٤٥) .

كما تمثل فن النحت الأندلسى أروع تمثيل فى صناعة العلب الخشبية المطعمة بالعاج التى كانت تتخذ لحنظ قنينات العطر والمسك والعنبر والحلى ، وخاصة لزوجات الخلفاء والأمراء وجواريهم .

وقد ازدهرت هذه الصناعة بصفة خاصة فى عهد الخليفة الحكم المستنصر وكانت هناك دار للصناعة بقرطبة أسست على ما يبدو فى عهد أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مدينة الزهراء . ثم ما لبثت دور الصناعة أن أخذت تنتشر فى أماكن أخرى . ومن أروع الأمثلة علبة صنعت بأمر الحكم لزوجته صبح بيد درى الفتى الصقلبى سنة ٣٥٣هـ ، وصندوقان آخران صنعا فيها أيضا لها سنة ٣٥٥هـ .

ويبدو أن هذه الصناعة قد توقفت أو أصابها الذبول بعد وفاة الحكم إلى أن كانت أيام عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر حاجب الخليفة هشام المؤيد الذى أحيها من جديد ، ومن أمثلة ذلك صندوق له غطاء على شكل هرم ناتص صنع لعبد الملك سنة ٣٩٥هـ على

(٤٤) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٤٩ .

د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٩ .

(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٠ .

يبد نجير بن محمد الفتى العامري ، وشاركه في صناعته صانعان آخران من الصقالبة وهما عبيدة وخير .

وزخارفه تتألف من جامات مفصصة تتضمن مناظر من حياة البلاط الاموي ، وأخرى تمثل مناظر صنيذ ومبارزات . ومن الأمثلة المتبقية صندوق من العاج صنع بمدينة تونكة في طليطلة — وهو محفوظ في متحف برغش — عليه رسوم تمثل مناظر صنيذ وحيوانات تتصارع ، موزعة في ثلاثة صفوف أفقية وعلى أعلى الصندوق نقش بالخط الكوفي نصه « . . . باقية لصاحبه أطال الله بقاءه مما عمل بمدينة تونكة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله » (٤٦) .

صناعة الزجاج :

ومن الصناعات التي ازدهرت في الأندلس صناعة الزجاج التي اشتهرت بها مالقة والمرية ، وخاصة صناعة الأكواب والكنؤوس التي تعلق في الثريات التي توضع في المساجد والقصور (٤٧) .

ونعتقد بأن هذه الصناعة قد أخذت تتقدم منذ عهد عبد الرحمن الأوسط وخاصة بعد دخول زرياب إلى الأندلس ، وتفضيله استخدام الأكواب الزجاجية الصافية في تقديم الماء والشراب ، بدلا من أكواب الذهب والفضة والمعادن الأخرى (٤٨) .

صناعة الأسلحة :

كما تقدمت صناعة الأسلحة في الأندلس ، وانتجت بكميات كبيرة ، وساعد على ذلك كثرة الحروب التي خاضها المسلمون ضد أعدائهم ،

(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٤٧) د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٠٩ .

(٤٨) انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٢٧ .
(م ٢٣ — المجتمع الأندلسي)

وكذلك التي خاضوها ضد بعضهم البعض ، هذا بالإضافة إلى الأسلحة المستوردة . وقد وجدت أنواع شتى من الأسلحة وعلى رأسها السيوف والرماح والدروع والخوذات وغيرها . وقد ذكر ابن سعيد المغربي أن من آلات الحرب في الأندلس : « التروس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر » وقال : إن السيوف البرذليات — نسبة إلى مدينة برديل وهي بوردو الحالية بفرنسا — مشهورة بالجودة ، والفولاذ الذى بأشبيلية إليه النهاية « (٤٩) .

وكان الفولاذ الأندلسى مشهورا بجودته ، ومن أهم مراكز صناعته طليطلة وإشبيلية ومرسية والمرية وكانت تصنع منه أنواع كثيرة من الأسلحة .

صناعة السكر :

ومن الصناعات التي وجدت في الأندلس أيضا صناعة السكر الذى كان يستخرج من القصب ، حيث كان إنتاجه وفيرا ، وخاصة في القرن الرابع الهجرى ، كما أشار إلى ذلك الرازى وعريب بن سعد . وكان من أهم مراكز إنتاجه وتصنيعه البيرة ومالقة والمنكب وجليانة وإشبيلية .

وقد استمر إنتاج السكر وفيرا في الأندلس حتى سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م لدرجة أن الإسبان سمحوا لعدد من المدجنين (المسلمين المعاهدين) المستغلين بزراعته بالبقاء ، ولكن كثيرا منهم رفض ذلك وغادر أسبانيا مما ترتب عليه تضائل إنتاجه (٥٠) .

(٤٩) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٤ .

(٥٠) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٥ .

صناعة الورق :

ومن الصناعات التي اشتهرت في الأندلس أيضا صناعة الورق ومن المرجح أن تكون هذه الصناعة قد وجدت في العصر الأموي ، وخاصة بعد تقدم الحركة العملية وانتقلت إليها من المشرق حيث يذكر الإدريسي في كلامه عن مدينة شاطبة : (انه يعمل بمدينة شاطبة بالأندلس من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ، وأنه يعم المشرق والمغرب) (٥١) .

وكذلك اشتهرت بالنسبة وطرطوشة بصنعه أيضا ، ويبدو من المخطوطات المحفوظة في المكتبات الإسبانية أن الورق كان يصنع من الياف القطن والكتان ونبات الشهدانج (٥٢) .

ويعزى إلى المسلمين أنهم كانوا أول من أدخل الورق إلى أوروبا عن طريق الأندلس ، وكانوا يستخدمون الرق قبل ذلك ، ولعل شاطبة كانت أول مكان في قارة أوروبا يصنع فيه الورق (٥٣) .

وكان الورق الشاطبي مشهورا في العالم الإسلامي كله ، وبلغ من جودته أن بعض الكتاب كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه ، واشتهر إلى جانب جودته برخص ثمنه . وقد عرف الأندلسيون إلى جانب الكاغد نوعا آخر من الورق المتين السميك الشبيه بالقماش وهو الرق المعروف بالبارشمان ، وكان مطلوبا في أوروبا وخاصة لكتابة الأناجيل والوثائق الكنسية . وقد قلده الإيطاليون بعد ذلك .

(٥١) الإدريسي : نزهة المشتاق ص ١٩٢ .

(٥٢) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٤٨ .

(٥٣) عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ٢٦٦ هامش ٢ ، ويظهر أن الصين كانت أول من عرف صناعة الورق بنحو قرن قبل الميلاد .

وإلى جانب صناعة الورق فقد تقدمت صناعة أدوات الكتابة وما يتصل بها من حبر وأقلام وشمع للأختام وغير ذلك . وقد برع الأندلسيون فى صناعة الأحبار من البيئبة وعرفوا المعدنى والنباتى والمطبوخ وغير المطبوخ ، والبسيط والمركب منها ، وعرفوا أقلام الغاب وكانوا يسمونها : (الأنبوب) ، بل عرفوا أقلام الحبر ، وتفننوا فى صناعة المحابر من الزجاج والبلور والرخام .

وكانوا يزخرفونها ويكتبون اسم صاحبها عليها بواسطة الحفر مع بعض أبيات بن الشعر ، ومنها محابر على هيئة الخنجر فى قرابه توضع فى حزام الثوب مع الأتلام (٥٤) .

صناعة التماثيل والتحف المعدنية :

كما اشتهرت فى الأندلس صناعة التماثيل المعدنية ، وتشير كتب التاريخ الأندلسى إلى تلك التماثيل التى كانت تزين قصور الزهراء . فيذكر المقرئ : أن الخليفة الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل على صورة إنسان والذى جلب من القسطنطينية فى المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس وجعل عليه اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالى مما عمل بدار الصناعة بقرطبة على صورة أسد وبجانبيه غزال وتمساح وفى المقابل صورة ثعبان وعقاب وفيل ، وفى الجنبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر . . . كل ذلك من ذهب مرصع بالجواهر النفيس ويخرج الماء من أفواهها « (٥٥) .

وقد عثر فى الحفائر التى أجريت بمدينة الزهراء على تمثال لوعل أو غزال من البرنز فقد قرنيه وهو محفوظ فى متحف قرطبة للآثار ، ولعله هو الغزال الذى اشار إليه المقرئ عند ذكره لهذه التماثيل الذهبية

(٥٤) د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٣٤ .

(٥٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

الحمراء ، وبلغ ارتفاعه نحو أربعين سنتيمتراً ويزدان جسده بزخارف محزوزة من دوائر أو حلقات متصلة بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر . وكان الماء يجرى إلى فيه عن طريق أنبوبة تمتد من وسط قاعدته وتصعد إلى رقبته (٥٦) .

وكذلك ازدهرت صناعة الثريات البرونزية . وقد ذكر المؤرخون أن جامع قرطبة كان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاتون (النحاس الأصفر) عدد كتوسها سبعة آلاف وأربعمائة وخمس وعشرون كأسا ، وقيل : عشرة آلاف وثمانمائة وخمسة كتوس ، منها أربع ثريات كبار معلقة في البلاط الأوسط . وأكبرها الثريا الضخمة المعلقة في قبة المحراب وكانت تحمل ألفا وعشرين كأسا .

كما كان جامع البيرة يحتوى على عدد كبير من هذه الثريات التي احترقت عندما اشتعلت النيران في هذا المسجد في أثناء الفتنة البربرية في بداية القرن الخامس الهجرى . وقد عثر في الحفائر التي أجريت بأرض هذا الجامع على ست ثريات أكبرها على شكل طبق مستدير مخرم في شكل هندسى بديع ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكتوس التي تضاء بالزيت . وهذا المحيط مزود بحلقات صغيرة تعلق فيها السلاسل (٥٧) .

وكذلك ازدهرت صناعة التحف المصنوعة من الفضة والبرنز ، وقد وصلت إلينا تحفة فضية من عصر الخلافة ، وهى صندوق كاتدرائية خيرونة ، الذى يبدو أن القطلانيين سلبوه من قرطبة من بين ما سلبوه بعد تخريبها في القرن الحادى عشر الميلادى . وهذا الصندوق عليه نقش كتابى يدل على أنه صنع بأمر الخليفة الحكم المستنصر لابنه هشام المؤيد ،

(٥٦) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٥٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٦ .

على يدى جؤذر ، وتصح « بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكيم أمير المؤمنين المستنصر بالله . . . مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين . تم عمله على يد جؤذر فتاه » .

وهذا الصندوق مصنوع من الخشب ، ومغطى بصفائح من الفضة المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة ، وقاعدته مستطيلة يبلغ طولها ٣٩ سم ، وعرضها ٢٣ سم ويحتفظ بمفصلتين دائريتين وقفل ومقبض رائع الزخرفة (٥٨) .

كما عثر على مهراس كبير (هاون) من البرنز محفوظ بمتحف فيلانونيا ، وهو مزود بحلقتين وتتواءم مثلثة على شكل مناقير طيور تدور بيده ، وتزينه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ، ونقش كتابى مطبوس لا تظهر منه إلا كلمة (لصاحبه) . ويمكن إرجاعه إلى عصر الخلافة .

كما تحتفظ كنيسة سان سلفادور بإشبيلية بضبتي باب من البرنز المذهب موضوعتين على أحد أبوابها ، ولعلهما كانتا معلقتين فى باب المسجد الذى كان قائما فى موضعها ، وتتألف كل منهما من حلقة سداسية الشكل سعتها ٤ اسم معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثن الأضلاع جوانبه مقعرة . وتكسو الجميع توريقات جميلة ، وتشبه هاتان الضبتان حلقتين من اللاطون ذكرهما المقرى عند حديثه عن أحد أبواب قصر قرطبة حيث قال : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أنبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة انسان فتح فمه » (٥٩) .

(٥٨) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٥٩) نفس المرجع ص ١٨٧ .

التجارة :

ازدهر النشاط التجارى فى الأندلس بعد الفتح ، حيث أصبحت البلاد عامرة بالسكان ، وتقدمت الزراعة ونهضت الصناعة ، وغدت الأموال كثيرة فى ايدى الناس . ويذكر بعض الباحثين أن عدد السكان فى عصر الرومان كان يتراوح بين ثلاثين أو أربعين مليوناً ، ولكن ليس لدينا وثائق تاريخية أو إحصاءات رسمية تؤكد ذلك ، ولم نقف على عددهم بعد الفتح . وإن ذكر أن دار السكة بقرطبة كان يضرب فيها كل عام ثلاثة آلاف ألف درهم وأربعمائة ألف دينار ، وهذا المبلغ الذى كان يسك لا يتناسب مع الثلاثين أو أربعين مليوناً ولذلك نعتقد بأن فى هذا العدد شىء من المبالغة فى التقدير .

ودليل ذلك أن البعض قد قدر عدد سكان أسبانيا سنة ١٧٦٨م بنحو تسعة ملايين ومائة وستين ألفاً ، وفى أوائل القرن الثامن عشر بنحو عشرة ملايين ، وفى منتصف القرن التاسع عشر بنحو اثنين وعشرين مليوناً وثلاثمائة وثلاثين ألفاً (٦٠) .

وعلى فرض أن المسلمين الذين غادروا أسبانيا بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م كانوا نحو خمسة ملايين على أكثر تقدير (٦١) . وأن من بقى منهم وتنصر كان نصف هذا العدد أو حتى مثله — وهذا غير معقول — فإن تقدير عدد سكان الأندلس بنحو ثلاثين أو أربعين مليوناً فى عصر الرومان يظل تقديراً مبالغاً فيه إلى حد كبير .

(٦٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٩ — ٢٠ .

(٦١) انظر : د. أحمد شلبي : التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨١ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٢ ، عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين ص ٤٠٢ ، عادل بشتاوى : الأندلسيون المواركة ص ١٩٠ .

وقد قدر بعض الباحثين الأسباب (المهندس المعماري توريس بلناس)؛ عدد سكان قرطبة في عصر الخلافة بما يقرب من مائة ألف (٦٢) وهذا رقم متواضع بالنسبة لسكان العاصمة الأندلسية .

وعى أية حال فقد راجت التجارة الداخلية والخارجية في الأندلس ، وكان موقع الأندلس على البحر المتوسط ، وسيطرة المسلمين على حوضه الغربي أثر كبير في نشاط التجارة عن طريق الموانئ الأندلسية المتعددة التي تصدر منها العديد من المنتجات الزراعية والصناعية ، مثل ميناء إشبيلية الذي كان يعد أعظم موانئ الأندلس النهرية لتصدير الحاصلات الزراعية والمنتجات المعدنية والصناعية إلى أوروبا كالكطن والزيتون والأرز والفضة والنحاس والحديد والمنسوجات والسكر وغير ذلك .

وكان هناك طريق برى من طرق التجارة الخارجية يبتدىء من شرق المسانيا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها إلى الأندلس عن طريق نهر الرون وممر قطلونية ، ثم يستمر من الأندلس إلى طنجة عن طريق جبل طارق إلى بلاد المغرب ، ثم مصر ثم بلاد الشام والعراق وفارس والهند والصين (٦٣) . وقد ذكر ابن حوقل أن من أهم المنتجات التي كانت تصدر من الأندلس : الملابس المطرزة التي تعمل في الأندلس وتحمل إلى مصر وخراسان وغيرها ، والأصواف والأصباغ والحريير واللبود الفاخرة ، والأردية الكتانية التي تصنع في بجاية ، والورق الأبيض السميك من مدينة شاطبة ، والتين الجاف من مالقة ، والخزف المذهب الذي اشتهرت به أيضا ، والكبريت الأحمر من مرسية والأسلحة من طليطلة (٦٤) . كما كان يأتي عن هذا الطريق

-
- (٦٢) د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ص ١٧٦ .
(٦٣) د. منى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٣١٠ .
(٦٤) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٥١٢ ، د. سعيد عاشور وآخرون : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٦٥ .

الرتيق الأبيض من أوروبا ، وكان للتجار اليهود في ألمانيا وفرنسا والأندلس دور كبير في تجارته .

وقد كانت التجارة بين الأندلس وبلاد الفرنجة مزدهرة وخاصة في أوقات السلم وكانت هناك ثلاثة طرق : أولها : الطريق البري الذي يمر عبر جبال البرانس عن طريق عدة ممرات من أهمها : ممر باب الشزري (الرونسفال) وكانت القوافل التجارية تعبر هذه الممرات أو الأبواب إلى موانئ جنوب فرنسا وخاصة بروفانس ، وسبتمانيا ، ومارسيليا ، وناربون التي كانت من أهم المراكز التجارية في بلاد الفرنجة .

وثاني هذه الطرق : الطريق البحري عبر ساحل أسبانيا الغربي المطل على بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ، وهذا الطريق لم يسلك إلا منذ عهد عبد الرحمن الأوسط بعد القضاء على خطر النورمان ، وكانت غاراتهم على هذا الساحل الغربي تشكل خطرا كبيرا .

وأما الطريق الثالث : فيمر عبر الساحل الشرقي للأندلس المطل على البحر الرومي (المتوسط) ثم تنقل البضائع عن طريق الممرات عبر جبال البرانس ، أو عن طريق الموانئ الجنوبية لفرنسا .

كما نشطت التجارة بين الأندلس وإيطاليا ، وكانت الجزائر الشرقية مثل ميورقة ، ومنورقة ، عرضة لهجمات القراصنة البحريين الذين كانوا يتعرضون للسفن التي تسمير محملة بالسلع والبضائع . وقد حملت هذه القنارات أهالي هذه الجزر على طلب الحماية من شارلمان ملك الفرنجة الذي طلب من أمراء الأندلس عقد معاهدة بحرية للاشتراك في تأمين هذه السفن من هجوم هؤلاء واستمرت ثلاث سنوات (٦٥) .

وقد كان لأهل الشام دور كبير في تجارة البحر المتوسط حيث كانت لهم جاليات في كثير من الموانئ المطلة على هذا البحر ، كما كان

لليونان واليهود دور فى هذه التجارة أيضا . وكانت هناك جماعات من التجار المغاربة الذين يعملون فى نقل التجارة من إفريقيا إلى الأندلس وبلاد غالة (فرنسا) . وتسميهم بعض المصادر (تجار من وراء البحر) (٦٦) .

هذا بالإضافة إلى التجار الأندلسيين الذين قاموا ولا شك بدور كبير فى هذه التجارة أيضا ، يقول ج . ب ترند « وقد ظلت أسبانيا المسيحية مدة خمسة قرون محصورة فى دائرة الإسلام الاقتصادية . ، فكانت التجارة احتكرا فى أيدي المسلمين واليهود ، وظلت الممالك المسيحية فى اسبانيا لا تستعمل إلا النقود العربية والفرنسية طوال أربعة قرون تقريبا » (٦٧) .

وقد أخذت العلاقات التجارية تنمو نموًا ملحوظًا بين الأندلس وبلدان شتى ، ونشطت حركة التبادل التجارى بينها ، وكانت السفن والمراكب التجارية فى موانئ الأندلس المتعددة كإشبيلية ومالقة ودانية وبلنسية والمرية تعمل بين كثير من مدن البحر المتوسط ، وتحمل المنتجات الأندلسية المختلفة من الأقمشة والسجاد والخزف والجلود والأسلحة والورق والتوابل وزيت الزيتون وغيرها .

وكانت هذه العلاقات متواصلة مع مصر بخاصة ، وبدأت تأخذ منذ القرن الخامس شكلًا قويا ونشطًا ، ونجد فى النقوش التى عثر عليها ما يؤكد ذلك ، فقد عثر فى مدينة المرية على شاهد قبر يحمل اسم تاجر من مدينة الاسكندرية وافته المنية فى هذه المدينة التى كانت

(٦٦) لويس أرشيبالد : القوى البحرية فى البحر المتوسط ص ١٢٠ ،
د . حسين مؤنس : المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ٥٠ .
(٦٧) تراث الإسلام ج ١ ص ٥ ، ٦ لجنة الجامعيين لنشر العلم سنة ١٩٨٣م القاهرة .

تشتهر بصناعة المنسوجات سنة ٥١٩هـ/١١٣٥م (٦٨) .

وقد كان من عوامل نشاط التجارة في الأندلس إنشاء دار لسك العملة أو النقود في عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث يذكر أنه ضرب الدراهم باسمه لأول مرة منذ دخول المسلمين الأندلس ، وكان أهل الأندلس يستخدمون قبل ذلك النقود الرومانية والقوطية ، وعلى رأسها الصولدي الروماني Solida (٦٩) .

(٦٨) ليفي بروفنسال : الحضارة العربية في أسبانيا ص ٧٦ - ٧٧ ، د. متى حسن محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٢٩ - ٢٣٠ . (٦٩) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٢٩ ، قرطبة حاضرة الخلافة ص ٥٦ . ويذكر أن موسى بن نصير ضرب بعد دخوله طليطلة عملة ذهبية وأخرى برونزية في دار السكة القوطية بها لصرف رواتب الجند ، وكانت هذه العملات تحمل نقوشا لاتينية على غرار العملات السابقة على الفتح في أسبانيا والمغرب ، وإلى جانبها كتابات عربية أيضا . وقد سك الدينار على أساس الدينار الروماني القديم ، وكان وزنه نحو أربع جرامات ، وتدور حول محيط وجهه عبارة (ضرب في أسبانيا سنة ٩٣هـ) باللاتينية ، وتتوسط ظهره نجمة من ثمانية رعوس ، وتدور حول محيط ظهره عبارة معناها (الله أحد ، والله عالم ، والله ليس له كنوا) ، وهناك دنانير عليها نقوش كتابية تجمع بين العربية واللاتينية ووجه هذه الدنانير تقرأ في وسطها عبارة (محمد رسول الله) ، وفي محيطها (بسم الله ضرب هذا الدينار بالأندلس سنة) ، أما ظهرها فعليه كتابة لاتينية تدور حول محيطه . كما كانت هناك عملات ذهبية صغيرة هي النصف دينار (١٩٨ جرام) ، والثالث دينار (٣٠ جرام) وتتميز بأن

كما كان من عوامل نشاط التجارة في الأندلس أيضا الاهتمام بإنشاء المؤسسات ذات الصبغة الاقتصادية التي ارتبطت بالنشاط التجاري . وتتمثل في الخانات والوكالات والفنادق والقياسر . وكان التجار القادمون إلى الأندلس يجدون في هذه الأماكن مخازن لبضائعهم ، وحظائر لدوابهم ، ومقرا لنزولهم .

ولا شك أن الأندلس قد شهدت في العصر الأموي الكثير من هذه المؤسسات ، وإن كانت المصادر التاريخية والأثرية لم تمدنا بالكثير عنها ، وإن أمدتنا بشيء عنها في عصور تالية . ودليل ذلك ما يذكره الإدريسي من أنه كان بالمرية وحدها في النصف الأول من القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) ما يقرب من تسعمائة وسبعين فندقا (٧٠) ، ويبدو أنها كانت فنادق صغيرة تتألف من طابق واحد أو طابقين على الأكثر .

* * *

أوجهها تحمل في وسطها صورة تمثل كرة قائمة على عمود فوق خطين ثم كتابات لاتينية على الوجهين . (د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٩٩ هامش ٤) .
وفي عهد عبد الرحمن الداخل سكنت عملة باسمه لم تكن تختلف عن عملة الأمويين في الشمام من حيث الشكل والوزن والنقش ، وقد انتشرت دور سك العملة بعد ذلك حتى بلغت أربع عشرة (د. منى محمود : المسلمون في الأندلس ص ٢٣٣) .

(٧٠) انظر دائرة معارف الشعب ص ١٤٣ — ١٤٦ . تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣٠٠ .

(موارد الدولة ونظامها لمالى)

لا شك فى ان للحالة الاقتصادية تأثيرها البالغ فى الحياة الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات . فمن قواعد الاجتماع وال عمران المقررة أنه إذا كثرت الأموال فى أيدي الناس فإنهم يتوسعون فى الإنفاق ، وينعمون بالعيش بصفة عامة .

وقد كثرت الأموال فى الأندلس فى العصر الأموى نتيجة لتنوع مصادر الدخل المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة وثروات طبيعية ، بالإضافة إلى الموارد الأخرى من خراج وجزية وعشور وزكاة وغنائم .

وبالرغم من كثرة المعارك والحروب التى خاضها الأمويون ضد أعدائهم ومناوئهم فى الداخل والخارج ، وبالرغم من الصراعات التى دارت بين المسلمين وبعضهم واستهلكت جزءا كبيرا من مصادر الدخل . إلا أنه بقى الشيء الكثير الذى أدى إلى تعدد مظاهر البذخ والترف فى شتى مناحى الحياة الاجتماعية لدى الكثيرين وخاصة من أفراد الطبقة الخاصة كما أوضحنا ذلك فى الفصل الرابع عند الحديث عن مظاهر الحياة الاجتماعية .

لقد كان الأمويون بعد تأسيس دولتهم فى الأندلس يريدون إثبات وجودهم ، ومنافسة خصومهم من العباسيين والفاطميين ، وإظهار قوتهم وعظمتهم أمام أعدائهم من المسيحيين . فأضفوا كثيرا من مظاهر الأبهة والعظمة على دولتهم وخاصة عاصمتهم قرطبة . وساعدهم على ذلك كثرة الموارد والثروات المختلفة ، وإذا كنا قد تحدثنا عن الزراعة والصناعة والتجارة فإننا نتحدث الآن بإيجاز عن أهم موارد بيت المال :

١ - الخراج : وهو مقدار معين من المال أو المحصول يفرض على الأرض التى فتحها المسلمون عنوة إذا عدل عن تقسيبها على المحاربين ،

وتركت بأيدي أصحابها بعد تعويض المحاربين عنها أو استرضائهم ، كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأرض السواد ، كما يؤخذ على الأرض التى صولح عليها أهلها وتركت لهم لقاء خراج معلوم (١) .

ويبدو أنه كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج وهى : نظام المحاسبة وتكون نقدا أو نوعا أو الاثنين معا ، ونظام المقاسمة : وتؤخذ من المحصول . ونظام المقاطعة (الإقطاع أو الالتزام) ويكون ذلك بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والمتقبلين (٢) .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣١ . وكانت هناك أنواع من الأرض لا يفرض عليها الخراج ، وإنما يفرض عليها العشر وتسمى الأرض العشرية وهى : الأرض التى أسلم عليها أهلها بدون حرب فيدفعون عنها ضريبة العشر زكاة ولا يوضع عليها الخراج . والأرض التى ملكها المسلمون عنوة ، وقسمت بين الفاتحين غنيمة فيدفعون العشر من غاتها .

(٢) د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ .

ويرجع نظام الالتزام أو الإقطاع إلى عهد الرسول ﷺ حيث أقطع أناسا من مزينة أو جهينة أرضا بقصد تعميرها فلم يعمرها ، فجاء آخرون وعمرها واختصموا إلى عمر بن الخطاب ، فجعها للفريق الذى عمرها وقال « من كانت له أرض ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فمعمرها قوم آخرون فهم أحق بها » (تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٧٦) .

وقد ذكر الماوردى الإقطاع فقال إنه ضربان : إقطاع استقلال وإقطاع تملك ، والأول ينقسم إلى موات وعامر ، والثانى : ما يتعين مالكه ولا نظر للسلطان فيه إلا بتلك الأرض فى حق لبيت المال إذا كانت فى دار الإسلام ، فإن كانت فى دار الحرب ولم يثبت للمسلمين عليها يد فإنه يجوز أن يقطعها الإمام للمقطع لئتملكها (الأحكام السلطانية ص ١٨١ - ١٨٢) .

ونظرا لأهمية الخراج كمورد من موارد الدولة فقد اهتم الأمويون بشؤون الري والزراعة ، من حفر الترع والقنوات وإصلاح القناطر والجسور ، وغير ذلك . ومثال ذلك قنطرة قرطبة التي تهدمت فى عهد عبد الرحمن الداخل بسبب السيول فقام ابنه هشام بتجديدها ، وأنفق فى ذلك أموالا عظيمة وكان يشرف على البناء ، ويعطى الأجرة للعمال بنفسه (٣) .

كما اهتموا باستصلاح كثير من الأراضى المتفترقة وتحويلها إلى أراض خصبة صالحة للزراعة (٤) .

ومن هنا فقد كثرت حصيلة الخراج وخاصة فى غير سنوات الجذب وقلة المطر . ولم ترد إلينا قوائم تبين مقدار الخراج فى الأندلس حيث تشير معظم المصادر إلى الدخل بلفظ (الجباية) فى كثير من المواطن (٥) . إلا ما ورد عن الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الأوسط حيث ذكر المقرئ : أن الخراج كان قبله ٣٠٠ ألف دينار مائة ألف للجيش ومائة للنفقة فى النواذب ومائة ألف ذخيرة ووفر (احتياطى) فأنفق الوافر حين اضطربت عليه نواحي الأندلس بالثائرين وقتل الخراخا (٦) ، ويبدو أن المراد بالخراج هنا ليس ضريبة الأرض وإنما الجباية أيضا .

٢ - الجزية : وهى مبلغ من المال يدفعه أهل الذمة بنص القرآن الكريم (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) . وهى تسقط بالإسلام

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٥٨ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٨ .

(٤) د. منى حسن محمود : المسلمون فى الأندلس ص ٢٠٨ .

(٥) انظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٥ ،

ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٦) انظر : نفع الطيب ج ١ ص ١٦٤ .

بخلاف الخراج . ولفظها مشتق من الجزاء على اعتبار أن أهل الذمة يدفعونها في مقابل ما يمنحون من الاستقرار في المجتمع المسلم والتمتع بما فيه من مرافق وفي مقابل الأمن والحماية لهم ، وتعتبر في مقابل الزكاة التي تفرض على المسلمين حتى يتكافأ الفريقان وهما رعية لدولة واحدة .

وهي ليست ديناً يؤخذ من ورثة الذمى بعد موته ، وليست ضريبة على الرعوس كما يشيع خصوم الإسلام ، لأنها لا تجب إلا على الرجال الأحرار العقلاء القادرين على الكسب فلا تؤخذ من الفقراء والمساكين ، أو المعاجزين عن العمل ، أو العميان أو المقعدين ، أو المجانين ، أو ذوى المعاهات ، أو الرهبان إلا إذا كانوا أغنياء (٧) .

وهي كما يقول الماوردي : في مقابل استقرارهم في دار الإسلام ، ويأتزم لهم في مقابلها بحقين : أولهما : الكف عنهم ، والثاني : الحماية لهم ، ليكونوا بالكف آمنين ، وبالحماية محروسين (٨) .

(٧) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨١ - ٤٨٢ . وتسمى أحياناً باسم الجوالي وتعنى هذه الكلمة في الأصل جاليات أهل الذمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب من شبه الجزيرة العربية فلزمهم هذا الاسم . ثم أصبح يطلق على الجزية التي يؤدونها أيضاً (دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٢ .

وقد فسّر الدكتور حسن إبراهيم الجوالي بأنها : اختيار الأحسن من كل شيء سواء أكان من الممتلكات أو من الأشياء ، أو أنها ربما كانت وظيفة العامل في الزكاة (تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٧٨ هامش ٢) . ولم يذكر مصدر ذلك التفسير ، والتفسير الأول هو الأقرب للصحة والقبول .

(٨) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ١٣٧ ، د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٢ .

وكان مقدار الجزية كما ذهب أبو حنيفة متفاوتا ، حيث قسمها إلى ثلاثة أقسام : ثمانية وأربعين درهما للأغنياء ، وأربعة وعشرين لتوسطى الحال ، واثنى عشر درهما للفقراء الذين يتكسبون ، أما الإمام مالك فقد تركها لتقدير الإمام . بينما ذهب الإمام الشافعي إلى أن الحد الأدنى لها اثنا عشر درهما وما بعد ذلك يترك لتقدير الإمام . وقد نهى الشرع عن جبايتها بطرق عنيفة ، وأوصى بالرفق والإنصاف في جبايتها . وتتضى القاعدة الفقهية : بأن لا يضرب أحد من أهل الذمة في استيائها ، ولا يقام في الشمس ، ولا يجعل عليه شيء من المكراه ، وإذا امتنع عند دفعها فإنه يجبس حتى يؤديها بدون إيذاء (٩) .

ونص كتاب الصلح الذي أعطاه عبد العزيز بن موسى بن نصير لتدمير بن عبدوش سنة ٩٤ هـ بوضع لنا شيئا من ذلك فقد جاء فيه « أن عليه وعلى أصحابه دينارا كل سنة وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسطى عسل ، وقسطى زيت وعلى العبد نصف ذلك » (١٠) .

٣ - الزكاة (الصدقة) : وهي ما يؤخذ من اغنياء المسلمين ويرد على فقرائهم كما قال تعالى لرسوله « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها » .

وتنقسم إلى عدة أنواع : زكاة الأموال (التتدين) ، وزكاة السوائم وزكاة الزروع والثمار ، وزكاة عروض التجارة ، وزكاة المعدن والركاز . وقد تكفلت كتب الفقه بتفصيل ذلك .

(٩) د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٨٣ .

(١٠) الحميرى : وصف جزيرة الأندلس من كتاب الروض المعطار ص ٦٣ ،

الضبي : بغية المتتمس ص ٢٢٩ .

(م ٢٤ - المجتمع الأندلسي)

٤ - **الموارث الحشرية** : وهى مال من يموت وليس له وارث فيرد إلى بيت المال (١١) .

٥ - **الغنى والغنيمية** : والغنى هو ما وصل إلى المسلمين من أعدائهم بدون قتال ، بخلاف الغنيمية التى تطلق على كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم بالقتال . من الأسرى والنسبى والأموال والأرضين .

وكان يعطى منها للمحاربين نصيبهم ، ويرد الباقى إلى بيت المال حسب ما وضحت كتب الفقه ونظرا لكثرة الغزوات والحروب التى خاضها

(١١) د. سعيد عاشور وآخرون : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٢ .

(١٢) كان الرسول (ﷺ) يقسم الغنى خمسة أقسام متساوية عملا بقوله تعالى « وما آفأ الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وبعد وفاته رد نصيبه إلى بيت المال ، وكانت الأقسام الباقية تقسم بين الجند حتى دون عمر الدواوين وقدر لهم أرزاقهم .

وأما الغنائم : فالأسرى يقسمون رجالا ونساء بين الجند حتى يسلموا أو يفتدوا أنفسهم . وأما الأموال المنقولة كالنقود والحيوانات والأسلاب فتقسم حسبها يرى الإمام . وأما الأرض فالشافعى يرى تقسيمها على المحاربين كما فعل أبو بكر ، ومالك يرى وقفها كما فعل عمر ، وأبو حنيفة يرى أن الإمام بالخيار بين قسمتها أو وقفها . (انظر : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٥) . ولما اختلف الصحابة فى تقسيم غنائم بدر بين القرآن الكريم طريقة قسمتها فقال : « واعلموا أنها غنمتم من شىء ... الخ » الآية .

فكان للإمام مع من ذكر فى الآية الخمس والأربعة أخماس الأخرى للفتاحين ، (الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٢٥ - ١٢٧) .

المسلمون في الأندلس في هذا العصر ضد الممالك المسيحية في شمال إسبانيا مثل قشتالة وليون ونافار وجليقية وقطالونية وضد الفاطميين في بلاد المغرب ، وضد بلاد الفرنجة (غالة أو فرنسا) . فقد كثرت الغنائم وخاصة في عهد الخليفة الناصر وفي عهد المنصور بن أبي عامر الذي قام بنيف وخمسين غزوة موفقة نحو الشمال لم يهزم في أي منها وعاد منها بغنائم كثيرة (١٣) .

ويدخل في ذلك أيضا ما كان يفرض على بعض ملوك هذه البلاد في بعض الأحيان - عقب هزيمتهم - من تقديم الجزية للمسلمين .

٦ - العثسور : وهي الأموال التي كانت تجبى من التجار الأجانب الذين يقدمون بتجارتهم ، فكانوا يدفعون عشر قيمتها مثل الضرائب الجمركية التي تقدر على الواردات في العصر الحاضر (١٤) .

(١٣) انظر عن هذه الغزوات بالتفصيل . د. خالد الصوفى : تاريخ العرب في إسبانيا (عصر المنصور الأندلسى ٨ ص ١١٣ وبعدها (١٤) يرجع نظام العثسور إلى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري أثناء ولايته على البصرة أن تجارا من المسلمين يأتون أرض الحرب ، فيأخذون منهم العشر ، فكتب إليه قائلا : « خذ منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين درهما من كل أربعين درهما ، ولا تأخذ منهم فيما دون المسائتين شيئا ، فإذا بلغت مائتين ففيها خمسة دراهم » .

وقد أفتى الإمام الشافعى بأن للإمام أن يزيد على العشر أو ينقص منه إلى النصف إذا رأى في ذلك مصلحة ، وأن لا يؤخذ العشر إلا مرة واحدة من كل قادم بالتجارة حتى ولو تكرر قدومه

ولا شك أن هذا المورد كان يمثل دخلا كبيرا للأندلس في العصر الأموي حيث كثرت التجارات بين الأندلس وغيرها من البلدان في أوروبا والمشرق . وإن كانت المصادر لم توضح لنا شيئا من ذلك .

٧ - المكوس : وهي الضرائب التي نشأت نتيجة لحاجة الدولة إليها لزيادة مواردها ، وخاصة في أوقات القحط والأزمات والشدائد ، وفي أوقات الحروب وقد شملت هذه المكوس أغلب السلع التي كانت تباع بالأسواق ، وكذلك البضائع الواردة من الخارج - وهو شبيه بما تفرضه الكثير من الدول الآن لحماية منتجاتها المحلية - ومن الطريف أن المآصر وهي السلاسل الحديدية التي كانت تشد في البحر عند مداخل الموانئ لحمايتها من غارات السفن المعادية صارت تستخدم بعد ذلك لفرض جمع المكوس من السفن القادمة قبل دخولها الميناء ، ثم أصبحت تطلق على الضريبة نفسها (١٥) .

ولا شك أن هذه المكوس قد أصبحت تمثل موردا خصبا للدولة ، ولكنها كانت تسبب إرهاقا وعتقا للكثيرين ، ولهذا كثرت الشكايات منها خاصة وأن جبايتها أخذت تتسم بشيء من العنف وسوء المعاملة والتقدير . ومثال ذلك ما حدث في عهد الحكم الرضي حين وضع عشر الأطنمة في كل سنة على أهل الأندلس من غير حرص فكهروا ذلك كما يقول ابن الأثير (١٦) . وترك الحريرة لربيع قومي النصارى لفرض الضرائب

(=)

في السنة الواحدة (د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، د . سعيد عاشور وآخران : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٢) .

(١٥) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٤ .

(١٦) الكمل في التاريخ ج ٦ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

والمغارم وجبايتها هو وأتباعه من الصقالبة بطرق عنيفة (١٧) .
وكان تلك نسيبا من أسباب قيامهم بالثورة المعروفة بثورة الربيض .
ويذكر ابن حبان أن الخليفة الحكم المستنصر قد أسقط عن أهل
الأندلس سدس جميع مغرم الحثد الأزف حلول أدائه وأنفذ بذلك كتابا
إلى جميع الأقطار (١٨) .
ويذكر أن الرحالة الأندلسي ابن خبير عندما قدم إلى مصر في العصر
الأيوبي فلما كان من أسوء المعاملة للتجار والحجاج القادمين والخارجين ومن
تسوية الإجراءات في الموانئ ، غير أن مصر وحدها لم تكن كذلك ، فقد
كانت الأندلس أيضا تعاني من هذه المكوس خاصة وأنها أصبحت
تعطى التزاما ، وكان ملتزموها من غير المسلمين أحيانا ، فكانوا يشتطون
في المعاملة وعرف هذا النظام باسم (القبالة) وعرف الملتزم
بالمكوس باسم (المتقبل) . وقد انتقل هذا الاسم إلى اللغة الأسبانية
بلفظه ومعناه Cabala (١٩) .

٨ - الأقباس (الأوقاف) : وقد مثلت مصدرا غير مباشر من مصادر
الدولة أيضا ، حيث كانت تسد جزءا من نفقاتها على المؤسسات العامة ،
حيث يحبس أصحاب هذه الأوقاف ريعها على جهات البر والإحسان ،

(١٧) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ص ١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ
المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٢٣ ، د. حسين مؤنس :
شيوخ العصر في الأندلس ص ٢١ .
(١٨) المتقبس في أخبار بلد الأندلس ص ٢٠٨ تحقيق د. عبد الرحمن
الحجى ، خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٩ -
٢٠ . ويبدو أن مغرم الحثد نوع من الضرائب التي كانت تفرض
للاستعداد للحملات الحربية .
(١٩) دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٢١٢ .

وبناء وصيانة المؤسسات الدينية والعلمية ، كالمساجد والمكاتب والخوانق والبيمارستانات ، ورعاية طلاب العلم والمرضى والمعوزين وغير ذلك (٢٠) .

ومثال ذلك وقف الخليفة الحكم المستنصر الذى أشار إليه ابن حيان فقال : « وفى صدر جمادى الأولى (٣٦٤ هـ) أنفذ الخليفة تحببى حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين الذين كان قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقرطبة وأشهد القاضى محمد بن اسحاق فى هذا التحببى يوم الجمعة لسبع خلون منه ، فعظمت به المنفعة ، وجلت المنقبة ، وورث الله به القرآن أمة لم يكن أبأؤهم يعرضونهم لورائته » (٢١) . وقد بلغ من كثرة الأعباس أن كان لها موظف خاص يديرها يسمى صاحب الأعباس . كما يتضح من النص التالى الذى أورده ابن عذارى فى حوادث سنة ٣٥٣ هـ حيث يقول عن زيادة المستنصر فى مسجد قرطبة الجامع « فأمر المستنصر بالله بتوسعته والزيادة فيه ، فأتى القاضى منذر بن سعيد (قاضى القضاة) إلى المسجد الجامع ومعه صاحب الأعباس والفقهاء والعدول بما اجتمع قبله من أموال الحبوس فنظروا فى الزيادة فيه » (٢٢) .

وهناك ضريبة أخرى فرضت فى الأندلس بعد العصر الأموى فى عهد المرابطين أطلق عليها اسم التعتیب . على يد على بن يوسف ابن تاشفين سنة ٥٠٩ هـ / ١١٢٥ م وكان الفرض منها ترميم الحصون والقلاع والأسوار حول المدن الرئيسية ، وكانت تفرض على أهل هذه المدن لحمايتهم من غارات الأعداء . ويبدو أن هذه الضريبة

(٢٠) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ٣١٦ .

(٢١) المقتبس ص ٢٠٧ تحقيق د. عبد الرحمن الحجى . خوليان ربيرا :

التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٩ ترجمة د. الطاهر مكي .

(٢٢) البيان المغرب : ج ٢ ص ٣٥٢ .

استمرت حتى أواخر الحكم الإسلامي بالأندلس . وقد أجازها فقهاء الأندلس لأن المصلحة تقتضى ذلك . يقول الحميرى « وكان خراج السور فى بعض مواضع الأندلس فى ذلك الوقت على أهل الموضع ، وقد أجاز ذلك الفقيه أبو إسحاق الشافى معتددا على قيام المصلحة التى إن لم يتم بها الناس فيعطون ضاعت عليهم » (٢٣) .

هذه الموارد المتعددة كانت تمثل دخلا كبيرا للدولة ، ومن حصيلتها كانت تقوم بالاتفاق فى الأوجه المختلفة مثل : أرزاق الجند والموظفين ، وإنشاء المشروعات العامة ، مثل حفر الترغ والقنوات وإنشاء القناطر والجسور ، وبناء المساجد ، ونفقات الحملات العسكرية ، وشراء الأسلحة والمعدات الحربية ، وترتيب العسس والدرايين لحراسة الأسواق والطرق والدروب وغير ذلك .

ويروى ابن سعيد المغربى (أنه كان للأندلس دروب تطلق ليلا ، وتحرس بواسطة رجال الشرطة المسجون (بالدرايين) ، وأن كل واحد كان معه سلاح وكنب وسراج) . ولا تزال عادة غلق الأبواب متبعة فى بعض مناطق إسبانيا إلى اليوم منذ الساعة العاشرة ليلا بواسطة رجال الشرطة (درايين) يركمون باسم (سيرنيوس) . وكان من يريد الخروج أو الدخول إلى منزله ليلا ينادى الحارس بواسطة التصفيق (٢٤) .

ومما يدل على تزايد هذه الموارد من عهد إلى عهد أن الجبالية فى عهد الحكم بن هشام الملقب بالريضى كانت مائة وعشرة آلاف وعشرين دينارا ، ومن القمح أربعة آلاف وستمائة مدى ، ومن الشعير سبعة

(٢٣) : الروض المعطار ص ٢٢٣ ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٣ .

(٢٤) : دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ٣١٥ .

آلاف وستمائة وسبعة وأربعون مدياً (٢٥) .

وبلغت في عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط الف الف دينار في السنة (٢٦) . وارتفعت في عهد عبد الرحمن الناصر إلى خمسة آلاف وأربعمائة وثمانين ألف دينار من الكور والقري ، ومن الأسواق والمستخلص (الجمارك) سبعمائة الف وخمسة وستين ألف دينار ، بخلاف أخماس الغنائم العظيمة التي لا يحصيها ديوان (٢٧) . ويذكر المقرئ نقلاً عن ابن خلدون : أن الناصر خلف في بيوت المال خمسة آلاف الف ولا ندري هل هذا الرقم بالدينار أم الدرهم ؟ ويغلب على الظن أنه بالدرهم لأنه إذا كان بالدينار تجاوز الملايين وفي هذا كثير من المبالغة (٢٨) ، وأنه كان ينقسم الجباية ثلاثة أقسام : ثلث للجند وثلث للبناء وثلث مدخر . وقد ذكر ابن حوقل أن الناصر استطاع أن يدخر حتى سنة ٣٤٠ هـ نحو ٢٠ مليون دينار ، وأنه لم يكن في زمانه سلطان استطاع توفير هذا المبلغ الضخم إلا أبا تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحسن بن عبد الله الحمداني (٣٥٨ هـ - ٣٦٩ هـ) (٢٩) .

وذكر بعض الباحثين المعاصرين أن الدخل السنوي عن طريق الضرائب والمكوس في عهده بلغ ٢٠ مليون دينار (٣٠) ، ونقل من بروفنسال أنها

(٢٥) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٦٤ .

(٢٦) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٢ .

(٢٧) نفع الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، ص ٢٤٥ ، ص ٢٦٦ ، ابن عذارى

البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣١ .

(٢٨) د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٢٩) المسالك والممالك ص ٧٧ ، تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٢٩٠ .

(٣٠) أحمد أمين : ظهور الإسلام ج ٣ ص ٦ .

بلغت فيها بعد ٤٠ مليون . ومهما كانت صحة هذه الأرقام ، فإن من الواضح أن موارد الدولة قد زادت زيادة كبيرة في عصر الخلافة ، وخاصة في عهد الناصر وولده المستنصر .

وتدل هدية الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد للناصر سنة ٣٤٧ هـ على مدى ما وصلت إليه الدولة الأموية في الأندلس من الضخامة واتساع الأحوال كما ذكر ابن خلدون ، الذي قال : إنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلا ، وقد أعجب بها الناصر أيضا إعجاب وكافا الوزير بزيادة راتبه إلى ٨٠ ألف دينار أندلسية ، وبلغ معروفه إليه ألف دينار ، وسماه ذا الوزارتين ، وكان أول من تسمى بذلك في الأندلس (٣١) .

وكذلك هدية جعفر الصقلبي الحاجب للخليفة المستنصر يوم ولايته وكانت عبارة عن « مائة مملوك من الإفرنج على خيول صامتة كاملو الشبكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس ، والقلائس الهندية ، وثلاثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة خوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية وخمسون بيضة من بيضات الفرنجة يسمونها الطشطانة ، وثلاثمائة حربة إفرنجية ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن فضة مذهب ، وعشرون قرنا مذهب من قرون الجاموس » (٣٢) .

وقد ذكر البعض أن النظام المالي في الأندلس كان يدور حول أمور ثلاثة هي : الخزانة العامة ، وإدارة بيت المال ، وإدارة خاصة الأمير أو الخليفة .

أما الخزانة : فكان يشرف عليها أحد كبار الموظفين ويسمى خازن المال ومقرها القصر ، وفيها تودع الأموال التي تجسبى من الكور

(٣١) انظر تفصيلها في نفع الطيب ج ١ ص ١٦٦ - ١٦٨ ، محمد دياب :

تاريخ العرب في أسبانيا ج ١ ص ٣٣٨ - ٣٤٠ .

(٣٢) نفع الطيب ج ١ ص ١٧٨ .

والقرى (٣٣) . ومن أهمها أموال الشركات التي يموت عنها أصحابها بدون وارث (الموارث الحشرية) . والضرائب المفروضة على الأسواق ، والرسوم الجبركية على السفن والخراج والجزية والاعشار (٣٤) .

وأما بيت المال : فكان يقتصر على ما يرد من الأوقاف ، ومقره بجامع قرطبة ويقوم بحفظ المنشآت الدينية ، ودفع رواتب موظفي المساجد وتوزيع الصدقات في أماكن خاصة ، ويقوم بالإشراف عليها قاضي القضاة ومن ينوب عنه تحت إشراف الخليفة ، وهو يشبه من هذه الناحية وزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية .

وأما موارد الخليفة الخاصة فكان يشرف عليها موظف يعرف بصاحب الدية ويكلف بالإشراف على أراضي الأمير أو الخليفة من ناحية زراعتها من قبل المزارعين الذين يأخذون جزءا من محصولها في مقابل ذلك (٣٥) .



(٣٣) الكور جمع كورة وتعنى المقاطعة أو الولاية ولا يعرف أصل هذه الكلمة ويرى البعض أنها يمكن أن تكون محرفة عن قرية ، أو مشتقة من الكلمة اللاتينية (خورة) بمعنى الأرض أو الريف ، أو من اللفظ اللاتيني كوربا بمعنى الحى (انظر دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٦٣ هامش ١) .

(٣٤) تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .

(٣٥) حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

الفصل السادس

الحالة العلمية والثقافية

.

L

L

L

الحالة العلمية والثقافية

يظهر أن نشأة العلوم في المجتمعات الإسلامية المختلفة كانت متقاربة أو متشابهة حيث بدأت بذرة صغيرة ، ثم ما لبثت بفضل الرعاية والعناية والاهتمام أن نمت وازدهرت وأثمرت . هذا ما حدث في المشرق ، وهو بعينه أو شبيها به ما حدث للعلم والثقافة في المغرب والأندلس .

فقد جاء الإسلام فمهّد الأرض ، ووضع بذور العلوم الدينية والعربية ، ومضى زمن أخذت تتطور فيه هذه العلوم ، ثم كان الاتصال بالأمم الأخرى ذات الحضارة والعلم والثقافة ، فانتسب المسلمون من علومها ، وترجموا بعض كتبها إلى العربية ، وصححوا فيها ، وأضافوا إليها ، حتى أخرجوا بعد ذلك نتاجا عظيما من العلم والثقافة .

وعندما فتح المسلمون الأندلس كانت هناك في البداية حروب صرفت العقول عن الاهتمام بالعلم والثقافة إلا قليلا ، وكانت هناك خلافات بين المسلمين الفاتحين بسبب العصبية القبلية والجنسية ، وبسبب التنافس على الرئاسة والسلطان إلى غير ذلك . حتى إذا بدأت الأمور في الهدوء والاستقرار وخاصة بعد عصر الولاة - الذي كان عصر فتن ومنازعات وحروب وثورات في معظمه - وأخذت الدولة الأموية ترسي قواعدها على يد عبد الرحمن الداخل ، بدأت الحركة العلمية المنظمة في الظهور والنمو (١) .

(١) لا ينبغي أن يفهم من هذا أن عصر الولاة كان خلوا من أي اهتمام بالعلم والثقافة ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين مثل أ. محمد عبد الله عنان (دولة الإسلام في الأندلس ج ٢ ص ٦٩١) وغيره

ونستطيع ان نقول : إنه كانت هناك عدة زوايد لتغذية هذه الحركة ومنها :

١ - قدوم نفر من الصحابة والتابعين مع الجيوش الفاتحة للأندلس ، وفى عصر الولاة والعصور التالية ، وكان كثير منهم على حظ من العلم والمعرفة ، وخاصة فى أمور الدين . وكان هؤلاء هم أوائل المؤسسين للحركة العلمية بواسطة الحلقات التى كانوا يعتقدونها فى المساجد وغيرها (٢) .

وإنما شهد هذا العصر شيئا من ذلك ، وخاصة فى فترات الاستقرار أثناء حكم بعض الولاة ، ولكنها كانت بمثابة محاولات فردية ، ولم تأخذ شكلا جماعيا منظما مثل الذى حدث بعد ذلك فى العصر الأموى وهذا امر طبيعى . لأن الحركة العلمية فى كل عصر وحين تحتاج إلى الهدوء والاستقرار ، والدعم والاهتمام .

(٢) تذكر بعض المصادر واحدا من صفار الصحابة ذهب إلى إفريقية ، ثم دخل الأندلس مع موسى بن نصير ويدعى المنذر أو المنيزر الأسلمى ، وأنه حدث بحديث عن رسول الله ذكره ابن الأثير والمقرئ وهو (من قال إذا أصبح رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديننا ، وبمحمد ﷺ نبيا ، فأنا الزعيم لأخذن بيده حتى أدخله الجنة) . (أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٢ ص ٤١٧ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٧٩ ، ج ٣ ص ٦) .

وقد اختلف المؤرخون فى جملة من دخل الأندلس من التابعين ، لكن من المؤكد أنهم كثيرون (انظر د . عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ١٥٥ - ١٥٦) . وقد وضع ابن بشكوال كتابا بعنوان (التنبية والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين) أشار

٢ - قدوم كثير من العلماء والادباء من المشرق إلى الأندلس إما بأنفسهم ، أو بدعوة من بعض الأمراء والخلفاء ، مثل أبي علي القالى صاحب الأملى ، وصاعد البغدادى وغيرهما ممن نشروا كثيرا من علوم اللغة والأدب ، وتعلمذ على أيديهم الكثير من اهل الأندلس ، الذين برع منهم بعد ذلك من برع مثل ابن عبد ربه وغيره ولذلك قال الصاحب ابن عباد عن كتاب العقيد الفريد « هذه بضاعتنا ردت إلينا » لأنه رأى فيه كثيرا من علوم المشرق التى عرفها.(٣) .

٣ - رحيل كثير من الأندلسيين إلى المشرق لتعلمذ على علمائه ، ثم العودة إلى الأندلس لنشر العلم مثل زياد بن عبد الرحمن الملقب (بشبطين) الذى ينسب إليه أنه كان أول من أدخل موطأ الإمام مالك إلى الأندلس بعد تعلمذه عليه ، ويحيى بن يحيى الليثى المصودى الذى رحل إلى المدينة أيضا وتعلمذ على الإمام مالك ، ثم رحل إلى مصر فآخذ عن الميث بن سعد ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم المعتقى إمام المالكية فى مصر ، ومثل عبد الملك بن حبيب السلمى ، والغازى بن قيس وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت كتب التراجم الأندلسية بذكرهم .

وقد بلغ من إقبال الأندلسيين على الارتحال فى طلب العلم ، ان الشخص عندهم كان يعاب بأنه لم يرحل إلى المشرق(٤) .

إليه المقرئ ولكنه لم يصلنا (انظر : نفع الطيب ج ٣ ص ١٠ ، ص ٦٠ - ٦١ ، التكملة لكتاب الصلاة ج ١ ص ٢٨٢ ، ج ٢ ص ٧٠٤) .

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣ .

(٤) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٤ ، انظر فى الراحلين من الأندلس إلى المشرق فى طلب العلم نفع الطيب ج ١ ص ٣٦٦ وبعدها .

٤ - جمع الكتب وإنشاء المكتبات : والكتب ولا شك من أهم روافد الحركة العلمية - إن لم تكن أهمها - فى كل عصر ، ولذا فقد حرص الكثير من الأمراء والخلفاء والكبراء فى الأندلس على جلب الكتب ، وتأسيس المكتبات ، ومن أشهرهم فى ذلك الخليفة الحكيم المستنصر ، الذى أسس مكتبة عظيمة حوت نحو ٤٠٠ ألف مجلد فى علوم شتى . وأخذ الكثيرون فى اقتناء الكتب ، وإنشاء المكتبات فى شتى أنحاء الأندلس سواء فى قرطبة أو غيرها ، للعلم ، أو للتباهى بها (٥) .

(٥) يقول ابن سعيد عن قرطبة « وهى أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وأهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب ، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة ، حتى أن الرئيس منهم الذى لا تكون عنده معرفة يحتفل فى أن تكون فى بيته خزانة كتب وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب ، والكتاب الفلانى ليس عند أحد غيره ، والكتاب الذى هو بخط فلان قد حصله وظفر به » .

ويذكر قصة تدل على ذلك بين الرحالة الحضرمى وبين رجل أندلسى تبدو عليه أمارات الفنى والرياسة ، حيث أقام الحضرمى مرة بقرطبة يريد كتاباً حتى عثر عليه ، ففرح به أشد الفرح ، وأخذ فى شرائه ، وكلما ذكر ثمناً زاد هذا الرجل عليه حتى بلغ حداً لا يستطيعه . فاعتقد أنه فقيه فقال له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض فى هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده ، فقال له : لست بفقيه ولا أدرى ما فيه ، ولكنى أتمت خزانة كتب ، واحتفلت بها لأتجمل بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأته حسن الخط ، جيد التجليد استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه » (انظر المقرئ : نفع الطبيب ج ١ ص ٤٦٢ - ٤٦٣) .

وذكر البعض أن مكتبات الأندلس العامة بلغت سبعين مكتبة (٦) .
٥ - كثرة مراكز العلم والثقافة : كالمساجد ، والمكاتب ، والقصور ،
والدور وغيرها . مما كان له أثر كبير في نهضة الحركة العلمية (٧) .

٦ - تقدير الأمويين للعلم والعلماء حبا في العلم من ناحية
ورغبة في منافسة العباسيين والفاطميين من ناحية أخرى (٨) . ولذلك
فقد تروبوها الكثيرين منهم - وخاصة الفقهاء - ولوهم المناصب الرسمية
في الدولة ، كالغنيا والقضاء وغير ذلك (٩) .

وحتى لو بدا في هذه الرواية طابع المبالغة أو التكلف ، أو أنها
قلبت في مجال إظهار محاسن المدن على بعضها ، فإن فيها شيء من
الدلالة على مدى حب الأندلسيين لجمع الكتب واقتنائها فهي ثروة
على أية حال ، وهي مظهر من مظاهر الترف والوجاهة ، ونوع من
الهواية ، كما نراه عند الكثيرين من الأغنياء والوجهاء في عصرنا
اليوم . (انظر : المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ٢١٥ ، ظهر الإسلام
ج ٣ ص ٢٣ - ٢٧ ، خوليان ربيرا ، التربية الإسلامية في الأندلس
ص ١٩٠ وبعدها ، ليفي بروفنسال : حضارة العرب في أسبانيا
ص ٦١) .

(٦) د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسي ص ٣١٧ .
(٧) انظر : خوليان ربيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٤٥
وبعدها .
(٨) انظر : د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي (الفصل الرابع عن
مكانة العلماء وجمال أقدارهم) ص ٩٧ وبعدها .
(٩) انظر في ذلك ما ذكره المقرئ من أنه كان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف

(م ٢٥ - المجتمع الأندلسي)

ونتيجة لهذه العوامل وغيرها ، فقد بدأت الحركة العلمية بالاندلس فى النمو والازدهار ، وأخذت المؤلفات تتوالى ، والمعرفة تشيع ، والثقافة تنتشر ، حتى ازدهر العلم وعم ، وقد اقتضى ذلك ازدهار صناعة الورق ، وما يتصل بها من أدوات النسخ والكتابة .

لقد كانت الفترة التى أعقبت فتح الأندلس ، والتى تسمى عصر الولاة (٩٢ - ١٣٨ هـ) فترة تسودها القلاقل والاضطرابات ، ومع ذلك - ونظرا لحرص المسلمين على العلم والثقافة - فقد شهدت هذه الفترة قدرا من الثقافة كان بمثابة خيوط الفجر الأولى التى تؤذن بعد ذلك بمشرق الشمس ، وذلك على يد من جاء من الصحابة والتابعين . كما شهدت أيضا قدرا متواضعا من الأدب كان بمثابة البذور الأولى للأدب الأندلسى فيما بعد (١٠) .

ثم جاءت فترة تأسيس الإمارة الأموية ، والتى كانت بمثابة فترة علاج للكثير من الأدواء التى سبقتها ، وقد خطت الأندلس فى هذه الفترة أولى خطواتها نحو الحركة العلمية المنظمة ، وساعد على ذلك عدة عوامل منها :

١ - وفود كثير من الأمويين وانصارهم إلى الأندلس ، ولا شك أنه كان منهم كثيرون على حظ وافر من العلم والمعرفة .

=

قرية فى كل واحدة منها مسجد وفقه مقلص - المقلص غطاء للرأس - تكون له الفتيا ، لا يجعل إلا من حفظ الموطأ ، أو عشرة آلاف حديث ، وحفظ المدونة . وكان هؤلاء الفقهاء المقلصون يأتون للصلاة مع الخليفة فى يوم الجمعة بقرطبة ، ويطلبونه بأحوال بلادهم . (نفع الطيب ج ١ ص ٢١٣) .

(١٠) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ٥٤ - ٥٥ .

٢ - عودة أول فوج من الأندلسيين الذين درسوا بالشرق ، وكانوا بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج البلاد ، ثم يعودون للقيام بدورهم في نشر العلم والمعرفة . ومنهم : الغازي بن قيس الذي تتلمذ على الإمام مالك ثم عاد في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، فأكرمه وعرض عليه القضاء فأبى وأخذ في نشر عظمه (١١) . وغيره ممن مثلوا الجيل الأول للثقافة الأندلسية . مثل عبد الملك بن حبيب ، ويحيى الليثي ، وزباد ابن عبد الرحمن وغيرهم .

٣ - إنشاء المساجد - وعلى رأسها مسجد قرطبة الجامع - والتي كانت بمثابة النواة الحقيقية للحركة العلمية في الأندلس ، شأنها في ذلك شأن البلدان الإسلامية الأخرى . وفي هذه الفترة أيضا بدأ ظهور السمات الأولى المميزة للأدب الأندلسي ، والتي أخذت تتضح فيما بعد لتعطيه صورته الواضحة المتميزة (١٢) .

٤ - جلب كثير من الكتب والمؤلفات من المشرق إلى الأندلس ، سواء على يد الأندلسيين أو المشاركة الذين قدموا إلى الأندلس .

والتد شهودت هذه الفترة ، وخاصة في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) - دفعة كبيرة للحركة العلمية ، ووثبة عظيمة للثقافة والفن ، حيث شهد عصره الكثير من الهدوء والاستقرار ، واليسر والرخاء ، حتى سميت أيامه (بالعروس) (١٣) . فقد كان

(١١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ ، ابن الفرضي :

تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٠١٥) .

(١٢) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٧٤ - ٧٧ .

(١٣) العبر ج ٤ ص ١٣٠ ، نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٥ ، د. مصطفى

الشكعة : الأدب الأندلسي ص ١٠١ ، د. السيد سالم : تاريخ

المسلمين وآثارهم ص ٢٢٨ .

هذا الأمير أديبا مثقفا ، وشاعرا مطبوعا ذا همة عالية ، مغرما بالفنون والعلوم ، حريصا على اقتناء الكتب ، وجابها من الأمصار . فقد ارسل عباس بن ناصح الشاعر إلى المشرق من أجل شراء الكتب النافعة ف جاء بكتاب السند هند وغيره . (١٤) ، وكان بذلك يعتبر أول من عنى بجمع الكتب وتأسيس المكتبات من الأمويين ، وكان ذلك نواة لمكتبة قرطبة التي عمرت في عهد الحكم المستنصر .

كما كان ابنه عبد الله — رغم تقلب الأحوال السياسية في عهده — محبا للعلم مشاركا فيه . قال عنه ابن حيان « كان متصرفا في فنون من العلم ، متحققا منها ، عالما بلسان العرب ، بصيرا بلغاتها وأيامها ، حافظا للغريب والأخبار » (١٥) .

وقد أدت هذه الوثبة إلى ظهور كثير من العلماء في علوم شتى إسلامية وعربية ، وظهور الطلائع الأولى في العلوم العقلية والطبيعية . ويعود عباس بن فرناس من مظاهر هذه الوثبة العلمية في هذه الفترة ، ويعتبر من مفاخر الفكر الأندلسي بل والعالمي أيضا ، حيث نسبت إليه عدة اكتشافات واختراعات منها القيام بمحاولة الطيران في الفضاء ، ومنها استنباط صناعة الزجاج من الحجارة ، ومنها اختراع آلة لمعرفة الوقت (١٦) .

ثم جاء عصر الخلافة فنهضت الحركة العلمية والثقافية في الأندلس نهضة شاملة ، وازدهرت ازدهارا عظيما ، كان من مظاهره وضوح الشخصية العلمية والثقافية للأندلس ، واستقلالها إلى حد كبير .

-
- (١٤) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ .
(١٥) المقتبس ص ٣٢ . نشر ملثور أنطونية باريس سنة ١٩٣٧ م .
(١٦) انظر د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٦١ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ .

ولا شك أن ظروف التوحد والاستقرار ، والأمن والرخاء ، والتحصن والرقى الذى تحقق فى هذه الفترة على يد عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر كان له دخل كبير فى ذلك ، هذا بالإضافة إلى التشجيع الكبير للعلماء ، وجلب الكثير من الكتب والمؤلفات (١٧) .

وإذا كان الفضل يعود لعبد الرحمن الناصر فى إعادة الأمن والاستقرار ، والقضاء على الفتن والفتائل التى سادت فى أواخر عهد الإمارة ، فإن الفضل يعود لابنه المستنصر فى ازدهار الحركة العلمية بصورة كبيرة ، حتى يمكن أن نطلق عليه اللقب الذى أطلق على الخليفة المأمون العباسى وهو (الخليفة العالم) .

فقد كان مولفًا بالكتب حتى قبل جلوسه على عرش الخلافة فى الأندلس ، حريصًا على جلبها ، ودفع الأثمان الفالية فيها ، حتى بلغت كما ذكر نحو ٤٠٠ ألف مجلد (١٨) . ومن أروع الأمثلة على ذلك : أنه أرسل إلى أبى الفرج الأصفهانى ألف دينار ذهبًا حتى يرسل إليه نسخة من كتابه الأغانى ، فبعثها إليه قبل أن يظهر فى بغداد (١٩) .

وقد كانت هذه المكتبة كما ذكر تحتوى على أربعة وأربعين فهرس أو سجل ، كل فهرس يقع فى خمسين ورقة ، وكانت هذه المدارس تكتفى بذكر أسماء الكتب ومصنفها فقط ، كما كان فى هذه المكتبة عدد كبير من الباحثين والنساح والقومة والمندوبين الذين يقومون بشراء الكتب من الأمصار المختلفة ، هذا بالإضافة إلى من يعمل بالتجويد والزخرفة ،

-
- (١٧) د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ - ١٢٨ .
(١٨) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠١ ، المغرب : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٦ .
(١٩) القرى : نفع الطيب ج ١ ص ١٥٠ .

- والتعليق على الكتب وتصحيحها ومقابلة نسخها ، وغير ذلك (٢٠) .
- وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الحكم يشجع العلماء على التأليف ، ويجزل لهم العطاء ، بل ويقترح عليهم بعض الميادين أو الموضوعات التي يؤلفون فيها ، ويشاركهم في وضع مناهجها . فيذكر أنه اقترح على الخشنى تأليف كتابه (قضاة قرطبة) وهو يشير إلى ذلك في صدر هذا الكتاب ، كما اقترح على الزبيدي تأليف كتابه (طبقات اللغويين والنحويين) .
- وقد أشار إلى ذلك أيضا (٢١) .
- كما اقترح على ابن الصفار تأليف كتاب في أشعار بنى أمية بالمشرق ، وطلب من أبي الفرج الأصفهاني تأليف كتاب في أنساب بنى أمية فألفه له ، وأنفذ معه قصيدة يمدحه فيها وقومه ، فجاد عليه بصلة جزيلة (٢٢) .
- وقد كان الحكم شغوفنا بقراءة الكتب ، والتعليق عليها . ولا عجب في ذلك فقد كان كما يقول المقرئ : « غزير العلم واسع الاطلاع ، ذا معرفة بالأخبار والأنساب ، حتى لقد اعتبر العلماء تعليقاته من أجل ما يكتب » (٢٣) .

-
- (٢٠) الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠٣ وقد ذكرتها بعض المصادر عشرين ورقة . د. حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٨١ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٤ .
- (٢١) أنظر قضاة قرطبة ص ١٠ ، طبقات اللغويين والنحويين ص ٩ - ١٠ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٠ .
- (٢٢) جذوة المقتبس ترجمة ٥٣٣ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٥ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٩١ ، خوليان ربيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٩٧ - ١٩٨ .
- (٢٣) نفع الطيب ج ١ ص ٣١٨ .

ويقول ابن حيان : « وكان له وراقون بأقطار البلاد ، ينتخبون
له غرائب التواليف . وكان مع هذا كثير التهم بكتبه ، والتصحيح لها ،
والطالعة لفوائدها . وقلما تجد كتابا فى خزائنه إلا وله فيه قراءة
ونظر عن أى فن كان من فنون العلم ، يقرؤه ويكتب فيه بخطه . . .
وكان موثوقا به مأمونا ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين
وإئمتهم ، ينقلون من خطه ويحاضرون به » (٢٤) .

كما قرب الحكيم العلماء واغدق عليهم ، واهتم بإنشاء المكاتب
لطلاب العلم ، ووقف عليها الأوقاف . فيذكر أنه أقام فى ساحة المسجد
الجامع بقرطبة وحوله بعد الزيادة التى اضافها إليه ثلاثة مكاتب لتعليم
أولاد الضعفاء والمساكين ، وأقام كذلك أربعة وعشرين مكتبا فى أرباض
قرطبة ونى ذلك يقول الشاعر ابن شخيص :

وساحة المسجد الأعلى مكللة

مكاتبها اللتى فى نواحيها

أو مكنت سور القرآن من كالم

نادتك يا خير نالها وواعيها (٢٥)

كما حبس حوانيت السراجين بسوق قرطبة على المعلمين بهذه
المكاتب ، وأشهد على ذلك القاضى محمد بن اسحاق ، وجعل للعلماء جانباً
من دار الملك يجلسون فيه للتأليف والنسخ والترجمة والمقارنة (٢٦) .
ومن الغريب بعد هذا كله أن نجد البعض ينتقد الخليفة الحكيم

(٢٤) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢٦) جذوة المقتبس ص ٤٧ ، خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية فى

الأندلس ص ١٩ .

على انشغاله بالحركة العلمية معللا ذلك بأنه انصرف عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي . ومنهم د . حسين مؤنس الذى وافق على ذلك قائلا « وهناك وجه للحق فى هذا الحكم ، فلو أن المستنصر أكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به لما وجد ابن أبى عامر سبيلا إلى السلطان » (٢٧) . ولكننا لا نوافق هؤلاء على ذلك فالحاكم العالم المثقف أفضل ألف مرة ومرة من الجاهل المستبد ، فهل كان مطلوبيا من الحكم أن يظل جاهلا ، ولا يشتغل بالعلم ، أو يثقف نفسه ؟ ، والعلم والثقافة بلا شك يوسعان من مدارك الحاكم ليستطيع حكم الدولة حكما سديدا ، لقد كان المأمون العباسى رغم اشتغاله بالعلم والثقافة ذا حنكة ومقدرة فى كثير من النواحي السياسية والإدارية . والعجيب أن د . مؤنس عاد بعد ذلك ليقول عن سياسة المستنصر « وكل ذلك لم يشغل الحكم عن النظر السديد فى أمور ملكه » . وذكر أيضا : أن ملوك النصارى حاولوا انتهاز فرصة انشغاله بالعلوم ، فأغاروا على أطراف الدولة ، فنهض الحكم لغزوهم ابتداء من سنة ٣٥٢هـ ، وتوغل فى أراضيهم ، واستولى على قلاع كثيرة ، وأرغم الكثير منهم على التسليم بسيادة قرطبة فأخذوا فى إيفاد سفاراتهم لعقد المعاهدات معه (٢٨) . ومن هنا نرى : أن اهتمام الحكم بالحركة العلمية ، وانشغاله بالعلم لم يصرفه عن النظر فى أمور دولته ، بل إن ذلك زاد من خبراته وتجاربه فى حكمها . وأن الظروف هى التى ساعدت ابن أبى عامر على الوصول إلى النفوذ والسلطان لتقريبه من السيدة صبيح زوجة الحكم ، وتولييه الحجابة على ابنها هشام المؤيد وهو فى سن العاشرة ، وقد كان طموحا منذ البداية للوصول فاستغل فى ذلك كل فرصة ممكنة ، واتخذ

(٢٧) معالم تاريخ المغرب فى الأندلس ص ٣٣٣ .

(٢٨) نفس المرجع ص ٣٣٥ .

بوسائل عديدة غير مشروعة في سبيل الوصول إلى هدفه (٢٩) .
وفي فترة الحجابة اهتم المنصور بن ابي عامر أيضا بالحركة العلمية وخاصة العلوم الدينية والأدبية ، بالرغم من تلك الثورة التي اعلنها على العلوم العقلية وخاصة المنطق والفلسفة ، حيث أحرق ما في خزائن الحكم منها ، وطرح بعضها في آبار القصر ، وأهال عليه التراب والحجارة . ويقال : إنه ما فعل ذلك إلا تقربا إلى الفقهاء المالكية والعمامة لتثبيت سلطانه — حيث كانوا ينظرون إلى المشتغلين بهذه العلوم على أنهم زنادقة — وأنه كان في قرارة نفسه يميل إليها ، ويطالع عليها (٣٠) .

وقد كان المنصور يميل إلى الكتب الأدبية ، وخاصة كتب الأسفار ، مثل كتاب حسان بن أبي عبدة (ربيعة وعقيل) ، الذي وصفه ابن حزم بأنه من أملح ما ألف في هذا المعنى (٣١) .

والكتب ذات الطنابع التخصصي مثل كتاب (الهججف بن غدقان ابن يثربى مع الخنوت بن مخزومة بن نوفل) ، وكتاب (الجواس بن شعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء) . وقد ألفها له صاعد اللغوى بعد هجرته من بغداد سنة ٣٨٠هـ واتصاله به ، كما ألف له أيضا كتاب (النصوص) على غرار كتاب النوادر لأبى علي القالى . وقيل إن المنصور كان شغوفًا

(٢٩) انظر : د. خالد الصوفى : العرب في اسبانيا (عصر المنصور الأندلسى) ص ٤٢ وبغدها .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ الأهم ص ٦٦ ، ربيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ٣٧ ، د. خالد الصوفى : المرجع السابق ص ٢٥٦ .

(٣٠) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٨٤ ، د. خالد الصوفى : تاريخ العرب في اسبانيا ص ٢٥٧ .

بكتاب الجواس إلى درجة أنه رتب من يقرؤه له كل ليلة (٣٢) .

ويذكر ابن حيان : أن المنصور اثناب صاعدا على كتاب الفصوص
بخمسة آلاف دينار ، وأنه امره أن يسمعه الناس في مسجد مدينة الزاهرة
التي بناها (٣٣) .

وقد كان للمنصور مجلس في قصره يجتمع فيه العلماء والأدباء
والشعراء ، وكان يشاركونهم أحيانا في مناقشاتهم ، ويدلى فيها بدلوه ،
ولا غرو فقد كان أديبا شاعرا ومن شعره :

رميت بنفسى هول كل كريمة
وخاطرت والحر الكريم مخاطر
وما صاحبي إلا جنان مشيع
واسمر خطى وأبيض باتر
وإني لزجاء الجيوش إلى الوغى
أسود تلاقبها أسود خوادر (٣٤)

(٣٢) جذوة المقتبس ترجمة ٥٠٩ ص ٢٤٠ ، معجم الأدباء ج ١١ :
ص ٢٨٤ - ٢٨٥ ، بغية الملتبس ترجمة (٨٥٢) ص ٣١٩ -
٣٢٠ .

(٣٣) ابن بشكوال : الصلة ص ٢٢٣ . وهناك روايات أخرى تذكر : أن
المنصور اغتاض مرة من كثرة أكاذيب صاعد - وقد اتهم بالكذب -
فأمر بإخراجه من مجلسه ، وقذف هذا الكتاب في النهر . وفي
ذلك يقول أحد الشعراء متهكما :

قد غاص في النهر كتاب الفصوص

وهكذا كل ثقيل يفوص

وقد بلغ من اهتمامه بالأدب والشعر أن أنشأ ديوانا خاصا سمي
(ديوان الندماء) ، مهمته ترتيب الشعراء فى طبقات ، وبذل العطاء لهم
على أقدارهم فى الشعر . وكان على رأسه واحد من كبار الأدباء النقاد
وهو عبد الله بن محمد بن مسلمة . وكان المنصور يصطحب الشعراء معه
فى غزواته ليقولوا الشعر فيها لتحسيس الجند ووصف المعارك ، وذكر أنه
اصطحب مرة فى إحدى الغزوات أربعين شاعرا من كل طبقة (٣٥) .
وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على كثرة الشعراء فى ذلك الوقت .
وإلى جانب اهتمام المنصور بالأدب والشعر ، فإنه لم يفتل العلوم
الدينية واللغوية فقد ذكر أنه كلف ابن المكوى الإشبيلي ، وأبا مروان
المعيطى الفقيه بجمع أقوال الإمام مالك فى كتاب على نحو كتاب (الباهر)
الذى جمع فيه ابن الحداد المصرى أقوال الإمام الشافعى فأخرجنا له
هذا الكتاب على أكمل صورة (٣٦) ..

كما أنه اتخذ محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوى قريبا للتدقيق
والضبط فى مكتبته ، وقد استعان بذلك فى تأليف كتاب عن تاريخ بنى عامر
قدمه للمنصور (٣٧) ..

فرد عليه صاعدا قائلا :

عاد إلى معدنه إنما توجد فى قعر البحار النصوص

وروايات تذكر : أن علماء قرطبة أغرقوا هذا الكتاب ، ورموه
فى نهر قرطبة لكثرة ما فيه من أكاذيب . (انظر نفتح الطيب ج ١)
ص ٧٦ - ٧٨) .

(٣٤) ابن بشكوال : الصلة ص ٧٣ ، د . خالد الصوفى : مرجع سابق
ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٣٥) د . خالد الصوفى : المرجع نفسه ص ٢٥٦ ..

(٣٦) جذوة المقتبس ص ١٣٢ .

(٣٧) التكملة ص ٣٨٤ ..

كل هذا وغيره مما جعل الحميدى يصفه بقوله « كان للمنصور همة رفيعة فى العلوم » (٣٨) .

لقد نشطت الحركة العلمية نشاطا منقطع النظير فى الأندلس ، وازدهرت فى عصر بنى أمية - وخاصة فى العاصمة قرطبة التى نائست حواضر العالم الإسلامى والأوروبى آنذاك - ولم تكن وقتها على عنصر دون آخر ، بل شاركت فيها شتى عناصر المجتمع من عرب وبربر وموالى ومولدين ومستعربين ، كما شاركت فيها المرأة أيضا ، فكان هناك الشاعرات والكاتبات والناسخات للمصاحف ، والمعلمات فى المكاتب للفتيات وغير ذلك (٣٩) .

وقد أشاد الكثير من المؤرخين بذلك حيث قال المقرئ : (إن قرطبة أعظم علما ، وأكثر فضلا بالنظر إلى غيرها من الممالك ، لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة بها) (٤٠) ، ووصفها بعض الأوربيين بأنها جوهرة العالم (٤١) . وعنها قال الشاعر الأندلسى مفتخرا :

باربع فاقت الأمصار قرطبة

منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثننان والزهراء نائثة

والعلم أعظم شىء وهو رابعها (٤٢)

(٣٨) جذوة المقتبس ص ١٣٣ ترجمة ٢٣١ .

(٣٩) انظر فى ذلك : باب النساء فى بغية المنتهى ص ٤٤٣ وبعدها ،

جذوة المقتبس ص ٤١٢ وبعدها ، ريبيرا : التربية الإسلامية فى

الأندلس ص ١٦١ ، ٢٠٤ ، المعجب ص ٢٤٨ .

(٤٠) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

(٤١) ليفى بروفيسال : حضارة العرب فى أسبانيا ص ١١٤ ،

د. عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص ٣١٤ .

(٤٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٥٦ .

التعليم عند الأندلسيين :

وكان من مظاهر الحركة العلمية وازدهارها ، تيسير التعليم في الأندلس في ذلك العصر ، فقد أصبح علما يشمل الجنسين ، وكثرت أماكنه ومؤسساته ، وكثرت رحلات الطلاب إلى خارج الأندلس لطلب العلم ، وغدت اللغة العربية هي لغة العلم والثقافة بصورة رئيسية ، وتعلمها الكثير من الأسبان المسيحيين ، ولذلك سموا (بالمستعربين) .
ويذكر أن هشام بن عبد الرحمن الداخل هو الذي جعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد أهل الذمة ومؤسساتهم ، وكان لهذا أثره العميق في انتشارها وفي اعتناق الكثيرين للإسلام (٤٣) .

وقد قامت المساجد بدور هام في التعليم عند الأندلسيين والأمثلة كثيرة على ذلك في كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

كما قامت المكاتب بدور هام أيضا في الناحية التعليمية . فكان الطلاب يتلقون فيها مبادئ العلوم إلى جانب حفظ القرآن الكريم ، وقد كثرت هذه المكاتب في عهد الخليفة المستنصر . ويمكن القول بأنها أصبحت مكاتب رسمية تابعة للدولة بعد أن كان المؤدبون يتخذونها في بيوتهم . وفي ذلك يقول ابن عذارى : « ومن مستحسنات أفعاله ، وطيبات أعماله ، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن في مكاتب حول المسجد الجامع ، وبكل ريبض من أرباض قرطبة ، وأجرى عليه الأرزاق ، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم ، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا منها حول المسجد الجامع ثلاثة ، وباقياها

(٤٣) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ج ١ ص ٢٢٩ ، د. الحجى :

التاريخ الأندلسي ص ٢٧٨ .

فى كل ريبض من أرباض المدينة « (٤٤) .

ونستطيع القول بأن هذه المكاتب قد قامت بدور المدارس فى البداية ، حتى قامت المدارس بعد ذلك فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة (٤٥) . ويشير ابن سعيد المغربى فى القرن السابع الهجرى إلى أنه لم تكن هناك مدارس فى الأندلس تعين على طلب العلم كما كان الحال فى المشرق ، وإنما كان طلاب العلم يقرأون جميع العلوم فى المساجد بأجرة (٤٦) . وفى هذا رد على كثير من الباحثين الذين يتجاوزون عيذكرون أنه كانت هناك مدارس فى الأندلس فى العصر الأموى ويطلقون على الكتاتيب أو المكاتب هذا اللفظ (٤٧) ، ومعلوم أن المدارس لم تظهر فى العالم الإسلامى كمؤسسات تعليمية تسمى بهذا الاسم إلا فى القرن الخامس الهجرى على يد نظام الملك عندما أنشأ المدرسة النظامية ببغداد سنة ٤٥٧هـ . ولم تظهر المدارس بالأندلس بهذا المسمى إلا فى عصر دولة بنى الأحمر فى غرناطة (٦٣٥هـ - ٨٩٧هـ) (٤٨) .

وقد قام المؤدبون بدور كبير فى التعليم حيث أدبوا أبناء الصاغة والخاصة ، وكان منهم كثير من العلماء مثل الغازى بن قيس ، الذى كان يؤدب فى قرطبة عند دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وأبو الفهر عبد الواحد بن سلام المعروف بالأحدب (ت ٢٠٩هـ) ، وكان عالما بالبحر

(٤٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٤٥) انظر دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ .

(٤٦) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(٤٧) انظر خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الأندلس ص ١٣ --

١٤ ، ص ٢٠ .

(٤٨) انظر : دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٤ ، ابن الأحمر : تاريخ

فرائد الجمان ص ٥٠ .

واللغة ، وأحمد بن نعيم وكان مؤدبا بجيان وطيطة ، وجابر بن غيث
الذي اشتهر بشدته على الطلاب فقل من تأدب عنده (٤٩) .

ومحمد بن حزم - وهو غير ابن حزم الفقيه المشهور - الذي
كان يساعده ابنه وابنته في تعليم الصبيان والبناات في مكتبة قرطبة .

وسعيد بن سلمون بن سيد أبيه ، وكان من أهل قرطبة له كتاب
يؤدب فيه ، وكان صالحا قرأ عليه كثير من الناس القرآن (٥٠) .

ومن مؤدبي أبناء الأمراء والخاصة : هشام بن الوليد الغافقي مؤدب
الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وأبو محمد عبد الله بن بكر بن سابق الكلاعي ،
وكان عالما بالنحو واللغة ، مبرزا في الشعر ، أدب أبناء الأمير
عبد الرحمن الأوسط ، وابن أرقم مؤدب عبد الرحمن الناصر (٥١) .

وعثمان بن نصر بن عبد الله القرطبي (ت ٣٢٥ هـ) مؤدب الحكم
المستنصر (٥٢) . ووليد بن عيسى بن حارث ويعرف بالطنجي (الطنجي)
ت ٣٥٢ هـ ، وكان بصيرا بالشعر ، حسن الاستنباط لمعانيه ، جيد النظر
فيه ، شرح شعر أبي تمام ، ومسلم بن الوليد ، فأخذ الناس عنه ذلك .
« كان مؤدبا بعيد الاسم في التأديب ، يتنافس فيه المأوك » كما قال
ابن الفرضي (٥٣) .

(٤٩) انظر طبقات الزبيدي ص ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ .
(٥٠) انظر تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ٥٢٦ ، ربيرا : المجمع
السابق ص ٢٠٢ .

(٥١) انظر طبقات الزبيدي ص ٢٩٣ - ٢٩٩ ، المتببس في أخبار بلد
الأندلس ص ٣٥١ - ٣٥٢ ، ابن سعيد المغربي : المغرب في حلى
المغرب ج ١ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٨٩٨ .

وحسين بن وليد بن نصر القرطبي (٣٩٠ هـ) وهو من تلاميذ ابن القوطية وكان عالما بالعربية متقدما فيها ، وكان مؤدبا لابناء المنصور ابن ابي عامر (٥٤) .

ومحمد بن خطاب الأزدي وكان يختلف إليه في علم العربية كثيرون من اولاد الخاصة والكبراء (٥٥) ، وغير هؤلاء كثيرون ممن ذكرتهم كتب التراجم والطبقات الأندلسية .

وقد اتخذ بعض هؤلاء المؤدبين أو المعلمين من التعليم حرفة يتكسبون بها ، وكان الواحد منهم يتقاضى جمالا أو مكافأة كلما بلغ أحد تلاميذه مرحلة الإتيقان والحذق ولذلك عرفت هذه المكافأة باسم (الحذقة) (٥٦) .

أما مؤدبو اولاد الأمراء والخانساء والخاصة ، فقد ارتقوا إلى مكانة عالية ، حيث كان معظمهم من مشاهير العلماء ، وأغدق عليهم الكثير والكثير (٥٧) .

ويذكر الزبيدي طبيعة التحصيل الملقى عند هؤلاء المؤدبين فيقول : « ولم يكن عند مؤدبي العربية ، ولا عند غيرهم ممن عني بالنحو كبير علم . . . وذلك أن المؤدبين إنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها ، وتقريب المعاني لهم في ذلك ، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية ، وغوامضها ، والاعتلال

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة رقم ١٥١٢ .

(٥٤) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٣٥٦ .

(٥٥) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٥٤ .

(٥٦) انظر : طبقات الزبيدي ص ٢٧٨ .

(٥٧) انظر عن مرتبات المعلمين (التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٢١

وبعدها) .

لمثالها ، ثم كانوا لا ينظرون في إمالة ولا إدغام ، ولا تصريف ولا إنية ،
ولا يجيبون في شيء منها » (٥٨) .
فهو يتهم مؤدبي العربية والنحو بقلة التحصيل العلمي ، غير أن
هذا الحكم العام يأتي جائراً ومجحفاً في حق الكثير من المؤدبين الذين
وصلوا إلى مراتب عليا في العلم ، وكان منهم كثيرون لهم منزلة كبيرة في
نفوس الناس . ومن يتصفح كتب التراجم والطبقات الأندلسية ومنها طبقات
الزبيدي نفسه يجد الكثير من الأمثلة على ذلك مثل أبي جرش الذي ضرب
به المثل في الفصاحة ، وأبي بكر الكنانى ، وأبى عبد الله محمد بن عبد الله ،
وصالح بن معانى ، والرشاشى وغيرهم (٥٩) .

وقد ذكر ابن خلدون بعض مبادئ التعليم عند الأندلسيين فقال :
« إنهم يجعلون القرآن أصلان التعليم ، ولكنهم لا يقفون عند ذلك كما
يفعل سائر أهل المغرب ، وإنما يخلطون في تعليمهم رواية الشعر والترسل ،
والأخذ بقواعد العربية وحفظها ، وتجويد الخط إلى أن يخرج الولد من
عمر البلوغ إلى الثببية ، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر
والبصر بهما ، وبرز في الخط والكتابة ، وتعلق بأذيال العلم على الجملة » .
ويمتدح هذا المنهج التعليمى فيقول : « فأفادهم الفنن في التعليم ، وكثرة
رواية الشعر والترسل ، ومدارسة العربية من أول العمر ، حصول
ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربى » (٦٠) .

(٥٨) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٥٩) الصدر السابق : ص ٢٨١ - ٢٨٤ ، ص ٢٩٣ - ٢٩٩ ،

د . إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٤ .

(٦٠) المقدمة ص ٣٩٧ - ٣٩٨ المطبعة البهية د.ت .

(م ٢٦ - المجتمع الأندلسى)

وقد ذكر ابن خلدون أيضا : أن القاضي أبا بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) قد ذهب إلى طريقة غريبة في التعليم حيث قدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم ، ثم ينتقل إلى الحساب ، ثم إلى درس القرآن ، فإنه يتيسر عليه حتى يستطيع فهم ما يقرأ . وأنه انتقد أهل البلاد الذين يأخذون الصبي بحفظ القرآن في أول أمره فيقرأ ولا يفهم ، ونهى عن أن يخلط في التعليم عثمان إلا إذا كان المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط . وعلق ابن خلدون على ذلك بقوله « وهذا لعمرى مذهب حسن إلا أن العوائد لا تساعد عليه » (٦١) .

ويبدو أن هذا المنهج لم يطبق نظرا لصعوبته من ناحية ولأن حفظ الصبي القرآن في الصغر أجدى وأنفع ، وجرت العادة بذلك من ناحية أخرى .

ويشير ابن العربي إلى المنهج الذي سار عليه الأندلسيون في تعليم أولادهم فيقول : « فصار الصبي عندهم إذا عقل فإن سلخوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله ، فإذا حذقه نقلوه إلى الأدب ، فإذا نهض منه حفظوه الموطأ فإذا لقنه نقلوه إلى المدونة . ثم ينقلونه إلى وثائق ابن العطار ثم يختصون له بأحكام ابن سهل » (٦٢) .

ويبدو أن الأستاذ أحمد أمين قد فهم من قول ابن خلدون ، وذكره

(٦١) المقدمة ص ٣٩٨ .

(٦٢) خير بيان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٧٦ . والمدونة : هي مجموعة رسائل من فقه الإمام مالك جمعها تلميذه أسد ابن الفرات النيسابوري ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . (د . حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام ج ٢ ص ٣٣٣) .

(٦٣) انظر : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ - ٩ .

طريقة ابن العربي في التعليم أن هذا المنهج الذي رآه ابن العربي قد طبق ، ولذا قال : « وقد ذكر ابن خلدون وابن العربي أن الأندلسيين طريقة في التعليم تختلف عن طريقة أهل المشرق . فهم في المشرق يحفظون القرآن للصبى قبل أن يستطيع فهمه ، ثم يعلمونه اللغة العربية . وعيب هذه الطريقة أن الحافظ للقرآن من غير معرفة معانيه عرضة للفهم الخاطئ الذي يبقى في ذهنه على مر الأيام ، أما في الأندلس فيعلمون اللغة العربية أولا ثم يحفظون القرآن بعد القدرة على الفهم ، وعيب هذه الطريقة أن بعض المتعلمين قد يتخلفون عن حفظ القرآن أو تعلم العربية ، ثم ينقطعون عن التعليم ، ولذلك نصح بعضهم بأن يحفظ الطفل القرآن أولا ولو من غير فهم ثم يتعلم العربية ، ثم يعود إلى القرآن ثانية وقد استطاع الفهم » (٦٣) .

غير أن قول ابن خلدون (إنهم يجعلون القرآن أصلا في التعليم) ، وقول ابن العربي (فصار الصبى عندهم إذا عقل فإن سلخوا به أمثل طريقة لهم علموه كتاب الله) يفيدان غير ما قال به الأستاذ أحمد أمين ، والواقع أن الأندلسيين مثل المشاركة ساروا على تعليم ابنائهم القرآن الكريم أولا لأن هذا هو الأصل ، وهو الأجدى في الحفظ ، وأن المنهج الذي وضعه ابن العربي لم يطبق لصعوبته من ناحية ، ولأن العوائد لا تساعد على تطبيقه من ناحية أخرى كما قال ابن خلدون .

الإجازات العلمية :

وكما أن الإجازات العلمية كانت معروفة في المشرق ، فقد انتقلت إلى الأندلس أيضا بانتقال الكثير من العلماء المشاركة . وأصبح منح الأستاذ الإجازة لطلابه أمرا شائعا ، بعد تثبيذهم على يديه . وكانت تسجل في وثيقة من الرق أو الكاغد (الورق) ، أو في

الكتب التي درسها الطالب بخط الأستاذ نفسه (٦٤) . ومن أمثلة هذه الإجازات ما ذكره ابن الفرضى من أن يوسف بن محمد بن سليمان الهمداني الشذوني الذي رحل إلى المشرق عشر سنوات وسمع من الكثيرين أجاز له جميع ما رواه وتوفى سنة ٣٨٣هـ (٦٥) .

ولم تكن هذه الإجازات مقصورة على الرجال فقط بل نالتها بعض النساء أيضا . فقد ذكر الضبي : أن أبا عمرو الداني المقرئ (عثمان ابن سعيد) المعروف بابن الصيرفي (ت ٤٤٤ هـ) كان يقرئ بالمرية ، وقرأت عليه امرأة تدمي (ربحانة) ، وكانت تقعد خلف ستر فتقرأ ، ويشير إليها بقضيب في يده إلى الوقت ، وأنها أكلت السبع عليه ، وقرأت عليه خلاف السبع روايات ، وطالبته بالإجازة فكتب لها إجازتها بعد توقف (٦٦) .

وقد وضع أبو العباس العمري وليد بن بكر بن مخلد (٣٩٢ هـ) - وكان من أهل سرقسطة ، ورحل إلى المشرق ، ولقى الكثير من العلماء في بلاد عديدة - كتابا في تجوز الإجازة سماه (كتاب الوجازة) . وهو في هذا الكتاب يحتج على بعض الإجازات العلمية ، ويرى أنها غير موثوق بها ، وأن الزيف قد شابها (٦٧) . وهذا دليل على قيام البعض بتزييف الإجازات العلمية ، للتصدي للإقراء والتدريس طمعا في المكانة والمنصب ، والحصول على المكاسب المادية .

(٦٤) ربيرا : التربية الإسلامية في الأندلس ص ١٤٨ .

(٦٥) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٦٣٦ ج ٢ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

(٦٦) الضبي : بغية المتنبس ترجمة ١١٨٦ .

(٦٧) الضبي : بغية المتنبس ترجمة ١٤١١ .

وقد ذكره خوليان ربيرا باسم (الوجازة في صحة القول بالإجازة) . ولم يشر إلى المصدر الذي أتى منه بذلك (التربية الإسلامية ص ١٤٩)

أهم العلوم وأشهر العلماء

أولا : العلوم الدينية والعربية

اهتم الأندلسيون بالعلوم الدينية اهتماما كبيرا ، وقد بدأت بذرة هذه العلوم بانتقال بعض الصحابة والتابعين إلى الأندلس مع الفتح . (٧) وكان هؤلاء إلى جانب كونهم جنودا فاتحين ، حملة علم ومعرفة ومثلوا اللبنة الأولى في العلوم الدينية والعربية ، ثم جاءت بعدهم طبقة ثانية حملوا معهم علما جديدا وكان معظم هؤلاء من الذين رحلوا إلى المشرق وتعلموا على يد علمائه ، ثم جاءت طبقة ثالثة خلت بالعلم خطوات جديدة من حيث التنظيم والتأليف . ومن أشهر هذه العلوم :

١ - علم التفسير : كان القرآن ولا يزال المصدر الأساسي ، والمنهل العذب للكثير من العلوم ، وعلى رأسها علم التفسير ، ومن العلوم أن المفسرين قد اتجهوا في تفسير القرآن اتجاهين :

(أ) التفسير بالمأثور : وهو ما أثر عن النبي ﷺ وصحابته من

أقوال في تفسير بعض آيات القرآن الكريم .

(ب) التفسير بالرأى : وهو ما يعتمد فيه على العقل إلى جانب

المنقل ، وربما أكثر (١) .

ومن مشاهير المفسرين في عصر بني أمية بالأندلس بقى بن مخلد (ت ٢٧٣ ، ٢٧٦ هـ) الذي ألف تفسيرا للقرآن الكريم اطلع عليه

(١) من أشهر المفسرين بالمأثور في الأندلس والذين وصلنا كتبهم

ابن عطية أبو محمد بن عبد الحق (ت ٥٤٦ هـ) ، ومن أشهر

المفسرين بالرأى أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الشهير بالإمام

القرطبي (٦٧١ هـ) صاحب الجامع لأحكام القرآن المشهور بتفسير

القرطبي .

أبن حزم وقال عنه « أقطع قطعا لا أستثنى فيه أنه لم يؤلف في مثله ،
لا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره » (٢) .

وكذلك ابن محامس عثمان بن محمد (ت ٣٠٦هـ) المكنى بأبى سعيد ،
وكان من أهل استجة . قال عنه ابن الفرضى : (كان حافظا للتفسير ،
عالما بأخبار الدهور ، وله في ذلك كتاب نقل أكثره على ظهر قلب) (٣) .
وقد اشتهر بالزهد والعزوف عن الدنيا . يروى أنه كتب على باب داره
(يا عثمان لا تطمع) (٤) .

وكذلك سعدان بن سعيد بن خمير المكنى بأبى سعيد وهو من أهل
قرظبة ، كان إماما للمسجد الجامع بها ، وقرأ الناس عليه كتاب التفسير
النسوب إلى ابن عباس من رواية الكلبى (٥) .

٢ — علم الحديث : ازدهر علم الحديث بالاندلس ، واشتغل به
كثيرون . يقول ابن سعيد « ورواية الحديث عندهم رفيعة » (٦) .

ويذكر ابن الفرضى : أن صعصعة بن سلام الشامي (ت ١٩٢هـ)
تلميذ الإمام الأوزاعي كان أول من أدخل الحديث إلى الاندلس (٧) .
كما يذكر أن الغازي بن قيس (ت ١٩٩هـ) كان أول من أدخل الموطأ

(٢) الحميدى : جذوة المقتبس ص ١٧٧ ترجمة ٣٣١ ، الضبى : بغية
اللمس ص ٢٤٥ ترجمة ٥٨٤ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٩٠١ .

(٤) انظر جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٥ ، بغية اللمس ترجمة ١١٩٤ وقد
ورد اسمه فيهما عثمان بن محامس .

(٥) ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٥٤٥ .

(٦) المقرئ : نفع الطبيب ج ٢ ص ١٠٣ .

(٧) تاريخ علماء الاندلس ترجمة ٦١٠ .

تلقى زعماءه تعبيراً عن رفاة زعماء بني حنيفة .
إلى الأندلس قبل زياد بن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) ت ٢٠٤ هـ ،
وقيل إنه كان يحفظه (٨) .

غير أننا نجد فيها ومحدثاً مشهوراً دخل الأندلس منذ سنة
١٢٣ هـ ، واستقر في مالقة ، ثم انتقل منها إلى إشبيلية وهو معاوية
ابن صالح الحضرمي الحمصي ، وعندما قدم عبد الرحمن الداخل إلى
الأندلس عهد إليه بعدة أمور منها : أنه وجهه بكتاب إلى اخته أم الأصبع ،
وكان عبد الرحمن قد تركها في الشام ، ثم ولاة القضاء . ويعتبر هو
مدخل علم الحديث إلى الأندلس على حد قول يحيى بن يحيى الميثي ،
وقد أفرغ له ابن الأبار كتاباً خاصاً سماه (المدخل الصالح في حديث
معاوية بن صالح) وقد توفي سنة ١٥٨ هـ (٩) .

وهو يعتبر بذلك من أوائل المحدثين بالأندلس إن لم يكن أولهم ، قبل
صعصعة والغازي بن قيس . ويعتبر بقي ابن مخاض أيضاً من أشهر علماء
الحديث إلى جانب التفسير والفقهاء . وكان قد أدخل مسند ابن أبي شيبة
كاملاً ، وأخذ يدرسه في قرطبة ، فأثار ذلك فقهاء المالكية ، وصنف
في الحديث كتاباً رتبته على أسماء الصحابة ، روى فيه عن ألف وثلاثمائة
صحابي وثيف ، كما رتبته على أبواب الفقه المختلفة أيضاً . فهو مصنف
ومسند معا ، أو كتاب فقه وكتاب حديث ، قال عنه ابن حزم : « وما
أعلم هذه الرتبة لأحد مثله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه ، واحتفاله فيه

(٨) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠١٥ ، ٤٥٨ ، جذوة المقتبس
ترجمة ٢٤٨ .

(٩) انظر : المقتبس ص ٣١٤ - ٣١٥ ، تضاة قرطبة ص ٣٠ ، ٤٢ ،
تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٤٥ .

بالحديث وجودة شيوخه . فإنه روى عن مائتى رجل وأربعة وثمانين رجلا
ليس فيهم عشرة ضعفاء ، وسائر أعلامهم مشاهير (١٠) .

ثم تلاه تلميذه ابن وضاح ، فصارت الأندلس دار حديث وإسناد ،
وكان الغالب عليها قبل ذلك حفظ رأى مالك وأصحابه (١١) .

ومن علماء الحديث أيضا : قاسم بن ثابت (ت ٣٠٢ هـ) الذى عنى
بجمع الحديث والفقہ ، وألف فى غريب الحديث كتابا سماه (الدلائل)
أثنى عليه الكثيرون ، ومنهم أبو على القالى الذى قال عنه « لم يؤلف
بالأندلس كتاب أكمل من كتاب قاسم فى شرح الحديث » (١٢) .

وكذلك أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيرى ويعرف بابن عمير
ت ٣١٢ هـ وكان عالما بالحديث حافظا له ، بصيرا بعلمه ، إماما فيه ،
وكانت الرحلة إليه فى وقته (١٣) .

ومنهم أيضا قاسم بن أصبغ (ت ٣٤٠ هـ) الذى رحل إلى القيروان
ومصر والعراق ثم عاد إلى الأندلس وقد تبحر فى الحديث والرجال ،
والف كتابا طويلا ، ثم اختصره وسماه (المجتنى) ، وقدمه للحكم
المستنصر ، وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثا
فى سبعة أجزاء ، وصنفه على أبواب الفقه ، وكان له الفضل فى نشر
العلم بالأندلس على هذه الطريقة ، وله مصنف آخر فى بيان صحيح
الحديث وغريبه (١٤) .

-
- (١٠) بغية الملتبس ترجمة ٥٨٤ ص ٢٤٥ .
 - (١١) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٨٣ .
 - (١٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٠٦٢ . يذكر أنه مات قبل إكماله
فأكمله أبوه بعد وفاته .
 - (١٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٦ .
 - (١٤) انظر ترجمة فى تاريخ علماء الأندلس رقم ١٠٧٠ ، ظهر الإسلام
ج ٣ ص ٥٠ .

٣ - علم القراءات : نما علم القراءات فى الأندلس شيئا فشيئا ، حتى وصل إلى الذروة على يد الإمام الشاطبى ، صاحب الرسالة المشهورة (حرز الأمانى) المعروفة باسم الشاطبية نسبة إليه ، والتي عمت شهرتها الأفاق ، ولا تزال مرجعا للكثيرين من المشتغلين بالقراءات إلى اليوم (١٥) .

وكانت قراءة نافع هى القراءة المشهورة بالأندلس يقول المقدسى (وأما فى الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع) (١٦) ويقول ابن سعيد (وقراءة القرآن عندهم بالسبع) (١٧) .

ومن الذين اشتغلوا بعلم القراءات فى الأندلس فى العصر الاموى سليمان بن مسرور ، وكان من أهل طابيطلة ، غلب عليه العلم بالقراءات وكان فيها إماما ، وكان حسن الصوت بالقرآن ، رحل حاجا قبل التسعين من عمره ، ثم استوطن مصر وتوفى بها (١٨) . ويحيى بن مجاهد بن عوانة الفزارى القرطبى (ت ٣٦١ هـ) ، وقد عنى بالقراءات والتفسير ، وكان عابدا زاهدا (١٩) . ومنهم أحمد بن محمد بن عبد الله المقرئ الطلمنكى ، وهو محدث منسوب إلى بلده ، وكان إماما فى القراءات مذكورا ، وثقة فى

(١٥) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٣ ، د. أحمد شلبى :

موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٥ .

(١٦) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ٢٣٦ ، أحمد أمين : ظهر

الإسلام ج ٣ ص ١٣ .

(١٧) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(١٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٥٥٣ .

(١٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٩٥ .

الروابع مشهورا ، توفى سنة ٤٢٨هـ (٢٠) .

ومن أشهر من عرف بالقراءات فى الأندلس قبل الإمام الشاطبى :
أبو عمر الدانى (عثمان بن سعيد المقرئ) وكان قد رحل إلى المشرق
قبل الأربعمئة ، وطلب علم القراءات ، وقرأ وسمع الكثير ، ثم عاد
إلى الأندلس فتصدر بالقراءات وألف فيها عدة مؤلفات بلغت المائة ،
ونظمها فى أرجوزة مشهورة . وكان إمام وقته فى الإقراء ، وقد توفى
فى دانية سنة ٤٤٤هـ (٢١) .

علم الفقه :

يقول ابن سعيد عن الفقه فى الأندلس : « والأفقه رونق ووجاهة
ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك ، وخواصهم يعلمون من سائر المذاهب
ما يتباحثون به ، وسمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إنهم كانوا يسمون
الأمير العظيم عندهم بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوى واللغوى
الفقيه لأنها عندهم من أرفع السمات » (٢٢) . ومن هذا تتضح مكانة
الفقه والفقهاء بالأندلس .

وقد كان أهل الأندلس منذ الفتح وحتى عصر هشام بن عبد الرحمن
الداخل على مذهب الإمام الأوزاعى (٢٣) ، وقد سار على هذا المذهب

(٢٠) بغية المتتمس ترجمة ٣٤٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٨٧ .

(٢١) بغية المتتمس ترجمة ١١٨٥ ، جذوة المقتبس ترجمة ٧٠٢ .

(٢٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

(٢٣) هو أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحيى الأوزاعى نسبة إلى

الأوزاع وهم بطن من حمير ، أو نسبة لقريبة سميت بذلك تقع خارج

باب الفراديس من دمشق . ولد فى بعلبك سنة ٨٨ ، ٩٣ هـ ، ثم

عدد من العلماء ومن أشهرهم تلميذه وناسر مذهبه أبو عبد الله صعصعة ابن سلام الشامي ت ١٩٢ هـ ، الذي كانت الفتيا دائرة عليه في عهد عبد الرحمن الداخل ، وصدرا من عهد ابنه هشام . وانتفع بعلمه كثيرون مثل عبد الملك بن حبيب السلمي ت ٢٣٨ هـ ، وعثمان بن أيوب (ت ٢٤٦ هـ) ، وابن زريق الملقب (بزونان) الذي تولى الفتيا في عهد هشام وكان يذهب مذهب الأوزاعي (٢٤) .

ثم بدأ مذهب مالك في الانتشار في عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل . ويذكر أن الفضل في ذلك يعود إلى زياد بن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) ت ٢٠٤ هـ ، الذي يقال : إنه أول من أدخل فقه الإمام مالك إلى الأندلس (٢٥) .

ومن الفقهاء الذين برعوا في الفقه أيضا عيسى بن دينار الغافقي (ت ٢١٢ هـ) قال عنه محمد بن عبد الملك (كان عيسى بن دينار عالما متيننا مفتقا ، وهو الذي علم المسائل أهل مصرنا وفتقها ، وكان أفقه من يحيى بن يحيى على جلالة قدر يحيى وعظمه) .

وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول « فقيه الأندلس عيسى ابن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعائلها يحيى بن يحيى » .

رحل إلى دمشق واليمن والحجاز والعراق للتعلم ، ثم عاد فاستقر في بيروت حتى توفي بها سنة ١٥٧ هـ ودفن بقرية قريبة منها تسمى (جنتوس) ، وكان كثير المناقب ، عرف بالزهد والورع وطول الصمت وكان رأسا في العلم والعمل (وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٢٧ ، العبر في خبر من غير ج ١ ص ٢٢٧) .

(٢٤) انظر تاريخ علماء الأندلس تراجم رقم ٦١٠ ، ٨١٦ ، ٨٩٩ ، ٨١٥ .

(٢٥) نفع الطيب ج ١ ص ٣٤٤ ، (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٧٥١) .

وقال عنه ابن الفرضي « كان إماما في الفقه على مذهب مالك بن انس ، وعلى طريقة عاتية بن الزهد والعبادة ، ويقال إنه صلى الصبح أربعين سنة بوضوء العتمة ، وكان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث » (٢٦) .

ومنهم : محمد بن عمر بن لبابة (ت ٣١٤ هـ) وكان إماما في الفقه مقدما على أهل زمانه في حفظ الرأي ، والبصر بالفتيا ، يذكر أنه درس كتب الرأي ستين سنة ، وانفرد بالفتيا في عهد الناصر (٢٧) .

ومنهم أيضا لبابة محمد بن يحيى بن عمر (ت ٣٣٠ هـ) وكان حافظا للفقه على مذهب الإمام مالك ، عالما بعقد الشروط ، بصيرا بعلمها ، ولى قضاء البيرة في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وله في الفقه كتب مؤلفة . منها كتاب المنتخب الذي قال عنه ابن حزم « وما رأيت لسالكي كتابا أنبل منه في جميع روايات المذهب . الخ » (٢٨) .

كما كان منهم يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤ هـ) — زعيم الفقهاء في ثورة الربض — والذي لقب بعاتل الأندلس وقد أصبحت له الفتيا بالأندلس بعد عيسى بن دينار ، وغدت له مكانة عظيمة ونفوذ كبير خاصة في عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان أحمد بن خالد يقول : لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر ، وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى ، وسمع منه مشايخ

(٢٦) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١١٤٤) .

(٢٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١١٨٩ ج ٢ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢٨) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٢٣١ ج ٢ ص ٥١ ، بغية المتتمس

ترجمة (٣١١) .

الاندلس فى وقتيه (٢٩) .

وكذلك يحيى بن معمر الالهائى ، وكان ورعا فاضلا ، اشتهر بالفقه والفرائض ، وولاه عبد الرحمن الأوسط قضاء الجماعة بقرطبة ، فكان عند حسن ظنه ، وكان إذا اختلف مع فقهاء قرطبة فى حكم من الاحكام ، كتب إلى فقهاء مصر من المالكية يسترشد برأيهم ، فكان فقهاء قرطبة ينفرون منه لذلك ويذموه ، وعلى رأسهم يحيى الليثى الذى ظل به حتى عزل من القضاء (٣٠) .

وكذلك كان عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ) من الفقهاء المشهورين . وله فى الفقه كتاب (الواضحة) لم يؤلف مثله كما قيل ، وكان يعد عالم الاندلس كما قال ابن لبابة (٣١) .

وكذلك ابن مرتبيل عبد الله بن محمد بن خالد (ت ٢٥٦ هـ) الذى اعتبره ابن الفريزى رأس المالكية بالاندلس والقائم بها والذاب عنها فى عصره (٣٢) .

وفى عهد الحكم بن هشام الملقب بالريضى (١٨٠ - ٢٠٦ هـ) غدا

(٢٩) نفس المرجع ترجمة ١٥٥٦ ج ٢ ص ١٧٩ - ١٨٠ ، يقال إنه سمي بعائل الاندلس لأنه لما رحل إلى المدينة ليتعلم من الإمام مالك جلس إليه ذات يوم فذكر أن هناك فيلا عظيما فخرج الكتبيون لرؤيته فقال له الامام مالك : لماذا لا تخرج لترى الفيل ، فقال : إنما جئت لأتعلم منك (نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٨) .

(٣٠) ابن حيان : المقتبس ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٣١) المرجع السابق ترجمة ٨١٦ ج ١ ص ٢٦٩ - ٢٧١ ، المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٣٢) نفس المرجع ترجمة ٦٣٧ ج ١ ص ٢١٣ .

للمذهب المالكي المكانة الاولى في الأندلس ، وأصبح المذهب الرسمي ،
وتقلص مذهب الأوزاعي ، وبدأ في الاندثار ، ولم يبق منه إلا مسألة إباحة
زراعة الأشجار في ساحة المساجد .

ومن أعلام المالكية في فترة الخلافة عبد الله بن أبي دليم الذي صنف
كتاب (الطبقات فيمن روى عن مالك من الأنصار) (٣٣) ، ويحيى
ابن عبد الله بن يحيى الليثي (٣٤) . وهناك الكثير من فقهاء المالكية ممن
ترجمت لهم كتب الطبقات ومن أشهرها كتاب القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ)
المسمى (ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك) .
وإلى جانب فقهاء المذهب المالكي فقد وجد فقهاء على المذاهب
الأخرى ، ولكنهم كانوا قلة بالنسبة للمالكية ، مثل المذهب الشافعي . ومن
علمائه ابن أبي بردة البغدادي « الذي كان من أعلم الناس بمذهب الشافعي ،
وأحسنهم قِيامًا به ، ولم يصل إلى الأندلس أفهم منه بهذا المذهب »
كما قال ابن الفرضي (٣٥) .

وقاسم بن محمد بن سيار البياني وكان محدثًا فقيها على هذا
المذهب ، وله مؤلفات في الرد على مخالفيه ومنها كتاب (الإيضاح في
الرد على المقلدين) (٣٦) .

وكذلك عثمان بن أبي سعيد الكناني (٣٧) ، وأسلم بن عبد العزيز

(٣٣) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٧٠٧) .

(٣٤) المصدر السابق ترجمة (١٥٩٧) .

(٣٥) نفس المصدر ترجمة (١٤٠٣) .

(٣٦) الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة (٧٦٤) .

(٣٧) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٨٩٢) .

ابن هاشم (٣٨) ، وأحمد بن عبد الوهاب بن يونس (٣٩) ، وغيرهم ممن ورد ذكرهم فى كتب التراجم .

ومن فقهاء المذهب الحنفى : محمد بن عيسى الملقب بالأعشى القرطبى ، الذى كان أول من تأثر من الأندلسيين بفقته أهل العراق كما ذكر ابن الفرضى (٤٠) . وكذلك أحمد بن سليمان القيروانى الذى قدم إلى الأندلس ، وروى عن سحنون بن سعيد ، وكان يذهب مذهب العراقيين كما ذكر ابن الفرضى ، وتوفى ببيجانة سنة ٢٩٦هـ (٤١) .

كما وجد فقهاء على المذهب الظاهرى مثل القاضى منذر بن سعيد البلوطى « الذى غلب عليه التقه بهذا المذهب ، فكان يؤثره ، ويجمع كتبه ، ويحتج لقتالته ، ويأخذ به نفسه وبنيه ، ولكنه كان يقضى بالمذهب المالكى لأنه المذهب المعمول به فى الأندلس » (٤٢) .

ومثل عبد الله بن محمود بن قاسم بن هلال ت ٢٧٢هـ (٤٣) ، والحسن ابن دحية الظاهرى . والفقهاء المشهور ابن حزم الذى حمل لواء هذا المذهب ، وعمل على نشره وإحيائه من جديد بعد أن كاد يندثر (٤٤) .

(٣٨) المصدر السابق ترجمة (٢٨٠) .

(٣٩) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٥٤) .

(٤٠) المصدر السابق ترجمة (٢٠٠) .

(٤١) ابن حبان المتقبس ص ٢٠٨ - ٢٠٩ تحقيق مكى .

(٤٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (١٤٠٤) ، نصح الطيب ج ٦ ص ٣٣٣ .

(٤٣) تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٩٥٥) .

(٤٤) تاريخ المسلمين فى الأندلس ص ٣١١ - ٣١٢ .

فإذا خطونا خطوة أخرى رأينا أن الاختلافات أو الخلافات بين
وقد تحدثت بالتفصيل عن هذه المذاهب فى الفصل الثالث .
الفقهاء فى المشرق تعددت ، وألفت فى ذلك الكتب المتعددة ، حيث
سرى الاختلاف من السياسة إلى العقائد ثم إلى العلوم وبخاصة الفقه .
فوجد الكثير من الفقهاء يتناظرون طويلا فى كثير من المسائل الفقهية .
وقد نشأ عن ذلك علم جديد يسمى بعلم الاختلاف . ويؤثر عن أيوب
السختياني قوله (لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف) (٤٥) .
وقد أدى هذا إلى ظهور فريق من الفقهاء حكموا العقل فى آرائهم ،
وأنسبوا أدلتهم ، وسموا بأهل الرأى لغلبة القياس على فقههم وكان
أكثرهم بالعراق وفى مقابلهم أهل الحديث ، وكان أكثرهم بالحجاز (٤٦) .
وقد اشتد الخلاف بين الفريقين وهو خلاف كان منشؤه فى الأعم
الأغلب البحث والدراسة ، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة ، وليس الهوى
والتعصب ، ومحاولة التغلب على الفريق الآخر ومثال ذلك تلك المناظرة
التي جرت بين أبى حنيفة وهو صاحب الرأى والقياس ، وبين الأوزاعى
وهو من أهل الحديث فى دار الخياطين بمكة حول رفع الأيدي عند
الركوع وعند الرفع منه (٤٧) .

وقد جمع بعض الفقهاء المذاهب المختلفة فى كل مسألة ، وألّفوا فى
اختلاف الرأى كتبا كثيرة مثل الطبرى فى كتابه (اختلاف الفقهاء) (٤٨) .

(٤٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٨ .

(٤٦) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٨٤ .

(٤٧) أبو زهرة : تاريخ الجدل ص ٣٢١ .

(٤٨) نشر المستشرق يوسف شاخنت بعض أجزاء من هذا الكتاب تحت

وقد انتقل ذلك إلى الأندلس فرأينا مثلا ابن رشد الحفيد يؤلف كتابا في اختلاف المذاهب وعللها سماه (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) . وهو يذكر الخلاف في كل مسألة فقهية حدث فيها اختلاف ويرجع ذلك إلى سببه ، ويضع قاعدة عامة في ذلك يطبقها على كل أنواع الخلاف في الفقه تطبيقا بديعا فكان هذا في الواقع خطوة جديدة .

ولما وجدت مذاهب أخرى في الأندلس إلى جانب المذهب المالكي ومن قبله مذهب الأوزاعي كثر الجدل بعد أن كان الأندلسيون منصرفين عنه في البداية ، حتى حكى أن بعضهم كان يتجادل حتى في مجالس العزاء ، وكان لكثرة الجدل بين الفرق والمذاهب في المشرق أثر في ذلك (٤٩) .

عناووم الفففة :

بالرغم من قدوم الكثير من العرب أثناء الفتح وبعده إلى الأندلس ، ومعهم لغتهم وأشعارهم ، وأيامهم وأخبارهم ، وبذرهم البذرة الأولى ، إلا أن ذلك لم يكن علما منظما ، حتى جاء الأمويون فأرادوا بثشاء دولتهم ومنافسة العباسيين والفاطميين الذين كان من أسباب حضارتهم ازدهار الحركة العلمية ، ومن هنا رأيناهم يستدعون كبار العلماء من المشرق للمساهمة في نشر الثقافة العربية ، إلى جانب من قدم بنفسه . ومنهم أبو علي القائل اسماعيل بن القاسم بن عبدون الذي كان أبوه مولى

عنوان (كتاب الجهاد والجزية واحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء لأبي جعفر محمد بن جرير الطبرى) في ليدن سنة ١٩٣٣م .
(انظر : د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٩٤ هامش ٢)

(٤٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٥٢ ، ٦٨ .
(م ٢٧ - المجلد مع الأندلسي)

لعبد الملك بن مروان واستدعاه الخليفة عبد الرحمن الناصر فقدم إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ « فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة والأخبار والأمالى ، وعظمت استفادتهم منه » (٥٠) .

وقد تتلمذ على يديه الكثيرون بالأندلس ، وأملى على طلابه كتابه الشهير (الأمالى) ، وكذلك كتاب (النوادر) . وكان من أشهر تلاميذه الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذى تأدب على يديه ، وكان لذلك أثره الكبير فى حبه للعلم ، وجمعه للكتب . وأسس بذلك أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس .

يقول ابن حزم — وهو من هو — « كتاب نوادر أبى على وهو ذيل الأمالى ، ميار لكتاب الكامل الذى جمعه المبرد . ولئن كان كتاب المبرد أكثر نحوا وخبرا ، فإن كتاب أبى على أكثر لفة وشعرا » (٥١) .

ومن مؤلفاته أيضا : كتاب المدود والمقصور ، وكتاب البارع فى اللغة ، رتبته على حروف المعجم ، وكان نحوا من ثلاثة آلاف ورقة ،

(٥٠) لقب بالقالى نسبة إلى قالى قلا (قاليقلا) . وذكر أنه ولد فى منازجرد (ملازجرد) بديار بكر التى تقع الآن فى تركيا . انظر معجم البلدان ج ٧ ص ١٧) . وقد ذكر الأستاذ أحمد أمين أنه رحل إلى الأندلس سنة ٣٣٠هـ (ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٣ — ٨٤) . بينما ذكر د. أحمد هيكل أنه رحل إليها سنة ٣٤٠هـ (الأدب الأندلسى ص ١٩٢) . والصحيح أنه رحل إليها سنة ٣٣٠هـ كما ذكر ذلك ابن الفرضى (تاريخ علماء الأندلس ترجمة ٢٢٣) . والحميدى (جذوة المقتبس ترجمة ٣٠٣) . ولم يذكر لناد . هيكل المصدر الذى رجع إليه فى ذلك ، ونعتقد أنه ربما يكون خطأ مطبعيا .

(٥١) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨٣ .

وذكر أنه لم يؤلف مثله ، وقد ظل في قرطبة ينشر علمه حتى توفى سنة
٣٥٦هـ (٥٢) .

وقد برز في هذه الفترة أيضا عدد من الأندلسيين الذين تتلمذوا
على يد الثعالبي مثل : أبي بكر الزبيدي الذي اختصر كتاب العين ، والف
كتاب طبقات النحويين واللغويين ، وكتاب لحن العمامة ، وكتاب الأبنية
في النحو ، وكتاب الواضح في العربية . وكان مؤدبا للأمير هشام بن الحكم
المستنصر (٥٣) .

ومن الأندلسيين المولدين الذين اشتهروا بالدراسات اللغوية أيضا
أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المشهور بابن القوطية (ت ٣٦٧هـ)
الذي برع في الفقه والتاريخ أيضا . يقول عنه ابن الفرضي « وكان عالما
بالنحو ، حافظا للغة ، متقدما فيها على أهل عصره ، لا يشق غباره ،
ولا يلحق شأوه ، وله في هذا الفن مؤلفات حسان منها كتاب تصاريح
الأفعال ، وكتاب المقصور والمدود ، وغير ذلك ، وكانت كتب اللغة أكثر
ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه » (٥٤) .

ويقول عنه الحميدى : « كان إماما في العربية ، وله كتاب الأفعال
لم يؤلف مثله » (٥٥) .

ومن الذين برعوا في هذا المجال أيضا : صاعد البغدادي ،
الذي وفد إلى الأندلس أيام المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٠هـ ، فتلقاه

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٦٩ (٢٢٣) ، جذوة المقتبس
ص ١٦٥ (٣٠٣) .

(٥٣) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٨٩ - ٩٠ ترجمة (١٣٥٧) .

(٥٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٦ - ٧٧ ترجمة ١٣١٨ .

(٥٥) جذوة المقتبس ص ٧٦ ترجمة (١١١) .

وأكرمه ، متشبها بالناصر فى تلقيه لأبى على القالى . وكان صاعد عالما باللغة والأدب والأخبار ، سريع البديهة حسن الشعر ، بارع الارتجال ، محبا للتجوز والمزاح حتى اتهم بالكذب . وكان لمحاوراته ومناظراته مع الكثيرين أثر كبير فى تنشيط الحركة اللغوية والأدبية . وله كتاب (الفصوص) الذى أملاه فى مسجد مدينة الزهراء التى بناها المنصور على غرار الأمالى على القالى ، ويذكر أن المنصور كافأه عليه بخمسة آلاف دينار (٥٦) .

الأدب : ما كاد العرب يضعون أقدامهم فى الأندلس ، ويستقرون فيها حتى أخذوا فى نشر لغتهم وأدبهم ، وقد كان للانشغال بالفتح ، وتثبيت أقدام المسلمين فى البلاد أثره فى قلة الأدب شعرا ونثرا فى عصر الولاة (٥٧) . ثم بدأت الأندلس تشهد فى عصر الإمارة (١٣٨ - ٣٠٠ هـ) أولى الخطوات نحو أدب أندلسى له سماته وخصائصه المميزة (٥٨) .

فقد ظهر أول جيل من الأدباء والشعراء الذين اهتموا بالبيئة الأندلسية وأحداثها . ولم يقتصر الاشتغال بالأدب على طوائف الشعب ، بل شارك فيه بعض الولاة والأمراء ، كما لم يعد وقفنا على الوافدين

(٥٦) جذوة المتنبس ص ٢٤٠ ترجمة (٥٠٩) ، بغية الملتبس ص ٣١٩ ترجمة (٨٥٢) ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار العرب ص ١٩ وبعدها .

(٥٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٩٩ - ١٠٠ .
(٥٨) من أهم هذه السمات : التجديد فى الموضوعات فالبيئة الأندلسية غير المشرقية ، والتجويد الفنى سواء من ناحية الشكل أو المضمون ، ووضوح العاطفة وصدقها (الأدب الأندلسى ص ٧٨ وبعدها) .

من المشرق فقط ، كما كان الحال عموماً في عصر الولاة . وبالرغم من أن الشعر الأندلسي في هذه الفترة قد ساعد في اتجاه المدرسة التقليدية في المشرق ، إلا أنه وجدت له سمات أخذت تشكل أولى ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسي .

ومن أهم شعراء هذه الفترة : أبو المخشى عاصم بن زيد العبادي الذي يتصل نسبه بالعباد نصارى الحيرة ، وكان والده من جنود الشام الذين قدموا إلى الأندلس ، ونزل كورة إلبيرة ، فنشأ ابنه في بلدة تسمى (شوف) ونبغ في الشعر حتى صار المع شعراء هذه الفترة . وقد اشتهر بالهجاء المتذع لمخالفه حتى عبر بأصله النصراني ، وقد اختص في أول أمره بالأمير سليمان بن عبد الرحمن الداخل ، وأكثر من مدهحه ، وامتد به العبر حتى عهد عبد الرحمن الأوسط ، وذكر البعض أنه توفي في عهد الحكم الريضى .

قال عنه الرازي مؤرخ الأندلس الأول « كان شاعر الأندلس في حينه ، وهو صاحب المعاني الحسنة ، والنوادر الكثيرة ، والقول المفيزر » . ولم يصلنا من شعره إلا القليل (٥٩) .

ومن يعدون من شعراء هذه الفترة أيضاً الأمير عبد الرحمن الداخل ، وكان شاعراً مجيداً ونائراً بليغاً وله أبيات مشهورة في وصف نخلة وهي :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تذاعت بارض الفرب عن بلد النخل

(٥٩) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ - ٣٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٤ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٩٠ .

فقلت تشبهي في التغرب والنوى

وطول الثنائى عن بنى وعن اهلى

نشأت بارض انت فيها غريسة

فمئلك فى الإقصاء والنتاى مئلى

سقتك غوادى المزن فى المئتاى الذى

يسح ويستمرى السماكين بالوبل (٦٠)

ومن مشاهير شعراء هذه الفترة أيضا : عباس بن ناصح الثقفى ، وكان من أهل الجزيرة الخضراء ورحل مع أبيه إلى مصر والحجاز والعراق ، فنال حظا من العلم فى الفقه والحديث والأدب ، واتصل بالأمير الحكم ابن هشام ومدحه ، فاستقضاه على شذونة والجزيرة (٦١) . ويتسم شعره بنزعة بدوية واضحة ، فيه الكثير من الخشونة وقلة الصقل ، والسذاجة فى الأفكار والصور والخلق فى الألفاظ (٦٢) ، ومما يدل على ذلك أنه أنشد بعض الشعراء بقرطبة قصيدة جاء فيها :

تجاف عن الدنيا فما لعجز ولا عاجز إلا الذى خط بالقلم

فقال له يحيى الفزال وكان لا يزال شاعرا مبتدئا ولكنه مطبوع :
« أيها الشيخ وما يفعل مفعل مع فاعل . فقال له : كيف تقول أنت قال
اقول :

تجاف عن الدنيا فليس بعاجز ولا حازم إلا الذى خط بالقلم

فقال : والله يا بنى لقد طلبها عمك يوما فما وجدها (٦٣) .

(٦٠) ابن الأبار : الحلة السيرة ج ١ ص ٣٧ .

(٦١) انظر ترجمته فى تاريخ علماء الأندلس رقم (٨٨١) .

(٦٢) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٠٥ .

ومن شعره فى الزهد أيضا :

ما خير مدة عيش المرء او جعلت

كمدة الدهر والأيام تفنيها

فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضى

وابتغ نجاتك بالدنيا وما فيها (٦٤)

ومن شاعرات هذه الفترة كذلك (حسانة التميمية) التى تعتبر
أولى شواعر الأندلس الحقيقيات ، وكانت من أهل البيرة ، وقد ورثت
الشعر عن أبيها أبى الحسين . وعندما توفى لجأت إلى الحكم الربضى
قائلة :

إني إليك أبا العاصى موجهة

أبا الحسين سقته الواكف الليم

قد كنت ارتع فى نعماه عاكفة

فاللوم آوى إلى نعماك يا حكم

أنت الإمام الذى انقاد الأنام له

وممكنه مقاليد النهى الأمم

لا شىء أختشى إذا ما كنت لى كنفنا

آوى إليه ولا يعرف لى العدم

لا زلت بالعزة الفعساء مرتديا

حتى نذل إليك العرب والمعجم

فأمر بأجراء رزق شهرى عليها ، وكتب إلى علمه على إلبيرة (جابر
ابن لبيد) أن يجهزها بجهاز حسن ، ولما توفى الحكم لم ينفذ هذا

(٦٣) المقري : نفع الطيب ج ١ ص ١٤٥ .

(٦٤) بغية المتبس ص ٢٧٦ .

العامل ما أمره به ، ونالها منه شيء من الضر فشكت للأمير الجديد.
عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بأبيات شعرية فعزل هذا العامل وأمر
لها بصلة فبعثت إليه بأبيات تشكره فيها ومنها :

قل للإمام أيا خير الورى نسبا

مقابلا بين آباء وأجداد

جودت طبعى ولم ترض الظلامه لى

فهاك فضل ثناء رائح غادى

فإن أقيمت ففى نعماك عاكفة

وإن رحمت فقد زودتنى زادى (٦٥)

وقد حدثت تغيرات كبيرة فى المجتمع الأندلسى من الناحية الاجتماعية
منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، حيث شاع البذخ والترف ، وازدهر فن
الغناء على يد زرياب مما أدى إلى التجديد فى الأدب ، والاهتمام بأغراض
وموضوعات لم تكن شائعة من قبل كاشعار اللهو والمجون والخمر والتغزل
بالمذكر .

ومن أشهر شعراء التجديد (يحيى النزال) الذى أكثر من القول
فى الخمريات مثل قوله :

ولما رأيت الشرب اكنت سهاؤهم

تأبطت زقى واحتسبت غنائى

فلما أتيت الحان ناديت ربه

فهب خفيف الروح نحو ندائى (٦٦)

(٦٥) نوح الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب.

الأندلسى ص ١٢٢ - ١٢٣ .

(٦٦) ابن دحية : المطرب فى اشعار اهل المغرب ص ١٤٨ .

والمطرف بن عبد الرحمن الأوسط الذى يقول :

أفنييت عمري في الشر ب الوجوه الملاح
ولم أضيع أصيلا ولا اطلّاع الصباح
أحبي الليالي سهدا في نشوة ومراح
ولست أسمع ماذا يقول داعى الفلاح (٦٧)

ومثل الشاعر مؤمن الذى يتغزل فى فتى يلقب بابن القط فيقول :

قولا لمنصور أبا نصر بحرمة المضارب والنقر
الا حكمت اليوم لابن الذى لقب بالقط على البدر
لا والذى طامت قريش له بالبيت فى أيامه العشر
كان هاروت نعى طرفه إذا رنا ينفث بالسكر (٦٨)

كما ظهرت أيضا بواكير شعر الطبيعة ، وكثرت أشعار الزهد كرد فعل لهذا التيار الذى بدأ ينتشر فى المجتمع كقول الأمير عبد الله وهى من الأبيات الرائعة :

ولعل المقصود بمنصور (منصور اليهودى) المعنى المشهور فى عهد الحكم بن هشام .

يا من يراوغه الأجل حتام يلهيك الأمل
حتام لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل
أغفلت عن طلب النجا ة ولا نجا لمن غفل
هيهات تشفقك المنى ولما يدوم لك الشغل
فكان يومك لم يكن (وكان نعيك لم يزل) (٦٩)

(٦٧) نفع الطيب ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٦٨) ابن حيان : المقتبس ص ١٣٨ تحقيق ملثور انطونية .

(٦٩) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٢ ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس

كما ظهر في أواخر هذه الفترة (إمارة الأمير عبد الله بن محمد ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) شعر الموشحات حيث كان الغناء الموسيقى قد ازدهر ، وكثر الاختلاط بين العرب والإسبان فنشأت الموشحات استجابة لحاجة فنية من ناحية ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية من ناحية أخرى . وتعتبر الصورة الأدبية المعبرة عن تبلور الشخصية الأندلسية في ميدان الأدب . وهي التي منحت تميزا خاصا عن الشعر المشرقي (٧٠) .

أما في فترة الخلافة فقد نهض الأدب نهضة عظيمة ساعد عليها ما كان من توحيد الأندلس سياسيا بالتضام على الفتن والثورات ، ورتقيها اجتماعيا ، ونهوضها ثقافيا . فبدأ ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر والنثر ، بالإضافة إلى تطوُّر الاتجاهات التقليدية ، ووفرة الانتاج الأدبي وخصوبته ، نظرا لكثرة الأدباء والشعراء ، والتشجيع الذي لقيه الكثيرون منهم . ، وشيوع الأدب شيوعا يكاد يكون عاما بين الأندلسيين . حتى أنه كان في بعض الأحيان يؤدي وظيفة الرسائل أو البطاقات ، وأحيانا يحل محل لغة الجدل والمناظرات (٧١) ، ووصل الأمر ببعضهم إلى أن جعلوه على السنة الطيور . ولعل في قصة زوجة الخليفة عبد الرحمن الناصر ما يدل على ذلك . حيث يروى أنها أحضرت زرزورا وعلمته أبياتا من

(٧٠) عن الموشحات انظر : د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٤٥ - ١٥٤ ، د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي ص ٣٧١ وبعدها ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٧٠ - ٧١ ، د. محمد عناني : الموشحات الأندلسية سلسلة عالم المعرفة رقم ٣١ سنة ١٩٨٠ م الكويت .

(٧١) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٢٣٠ .

الشعر ، وعندما تعمد الناصر في بهو قصره بمدينة الزهراء للفصد ، وبدأ الطبيب في ذلك أطل الزرزور ووقف على إثناء من الذهب كان بالجلس وأخذ يردد :

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنين

إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

فأعجب الناصر بذلك كثيرا ، ولما سأل عن ذلك أخبر بان إحدى زوجاته وهم أم ولده المستنصر ، قد ربت هذا الطائر ، وحفظته هذه الأبيات ليقولها بهذه المناسبة (٧٢) .

وإذا كان البعض يرى في هذه الحكاية شيئا من المبالغة أو الاختراع ، فإنها مع ذلك تذل على مدى شيوع الشعر في هذه الفترة بين الأندلسيين .

وقد صور الشعر الأندلسي في هذه الفترة ثنتي جوانب الحياة الأندلسية ، وشاع بين الأندلسيين شيوعا جعله يتغلغل في حياتهم اليومية حتى أصبح ظاهرة أساسية من ظواهر البيئة (٧٣) .

أما عن شعراء هذه الفترة فهم كثيرون منهم الخلفاء كالناصر والمستنصر ، ومنهم الوزراء كابن جهور وابن شهيد ، ومنهم العلماء كإزبيدي ، ومنهم القضاة كمنذر بن سعيد البلوطي ، ومنهم الأدباء كابن عبد ربه وابن هانيء الأندلسي ، وابن دراج القسطلبي (متنبى المغرب) (٧٤) .

(٧٢) نوح الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

(٧٣) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٢٣٠ . د. مصطفى الشكعة :

الأدب الأندلسي ص ٢٣ .

(٧٤) انظر أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١١٣ . ويعدها ، د. أحمد

هيكل ص ٢٣٢ . ويعدها .

وفى هذه الفترة تطور النثر أيضا فظهر نوع جديد وهو النثر التأليفى الذى يختلف عن النثر الأدبى . وقد تأثر النثر الأدبى فى هذه الفترة بمذهب الجاحظ فى المنهجية ، والعناية بالبداية والموضوع والخاتمة ، وانعكست عليه الفخامة والجزالة فى الألفاظ ، والعبارات الاعتراضية ، والميل للتكرار والتطويل ، والبحث والتعمق فى الجزئيات والتفاصيل كأثر لفخامة الأندلس ، وعظمة حضارتها فى عصر الخلافة (٧٥) .

كما لقيت الكتابة الرسمية عناية كبيرة ، حيث وجدت طائفة من الأدباء المقتردين الذين وصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة والحجابه ، كابن فطيس وابن بدر وابن بسيل وابن جهور وابن أبى عامر وجعفر المصفى وغيرهم (٧٦) .

ولم يقتصر الأمر على الرجال بل كانت هناك كتابات من النساء كحمنة كاتبة الخليفة الناصر (ت ٣٥٨هـ) ولبنى كاتبة الخليفة المستنصر (ت ٣٧٤هـ) (٧٧) .

أما النثر التأليفى خلال فترة الخلافة فمقدم يمثل فى فرعين : التاريخ الأدبى وهو مزيج من التراجم والأخبار والمختارات والحديث عن الشعر والشعراء . ومثال ذلك ما ألفه عثمان بن ربيعة القرطبى بعنوان (طبقات الشعراء بالاندلس) ، وما ألفه محمد بن هشام المروانى بعنوان (أخبار الشعراء بالاندلس) (٧٨) ، وما ألفه أحمد بن فرج الجيائى .

(٧٥) د. أحمد هيكىل : المرجع السابق ص ٢٥٨ .

(٧٦) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ وبمدها .

(٧٧) انظر الضببى : بغية المتتمس ص ٥٤٦ ترجمة رقم ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ .

(٧٨) بالمشا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٨٥ ، د. أحمد هيكىل : الأدب

الأندلسى ص ٢٦٦ .

بمعاون (الحداثى) الذى عارض به كتاب الزهرة لابن داود الاصفهاني ،
وقدمه للحكم المستنصر . وضمنه كثيرا من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى
القرن الرابع الهجرى (٧٩) . (١٠٠) .
ورغم تأثر الكتابة الأندلسية بأسلوب المشاركة فى هذا النوع ،
إلا أنه كانت هناك محاولات من الكتاب الأندلسيين للتفوق عليهم بدائع الروح
القومية ، التى كانت تدعوهم لتأكيد ذاتهم ، وإبراز جهودهم .

أما النوع الثانى : وهو التأليف الأدبى ويعنى به تأليف كتب أدب
بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، والمتمثل فى كل ما يكون به التاديب والتهديب ،
فمن أشهر كتبه كتاب (العقيد الفريد) لابن عبد ربه الذى يجمع أطرافا
كثيرة من التاريخ والأخبار والشعر والنثر والأخلاق والعادات وغير ذلك
مما حواه (٨٠) .

وفى فترة الحجابة ظل الأدب سائرا بقوة الدفع فى الفترة السابقة ،
ولم يحدث فيه تطور عما كان عليه فى فترة الخلافة ، بل أخذت
بعض الأنواع تختفى مثل الشعر العلمى والفلسفى الذى كان قد بدأ فى
الظهور والنمو فى عهد المستنصر ، ثم بدأ فى الاختفاء فى عهد المنصور
من أبى عامر بسبب التضيق على الفلسفة ، ومطاردة المشتغلين بها ،
ونشطت أغراض أخرى كالخبريات وشعر اللهو والمجون ، نتيجة لاستبداد
تيسار الترف ، والإقبال على المتسع الحسية ، بالإضافة إلى شعر المدح
والوصف والاستعطاف ، كنتيجة للحكم الاستبدادى من المنصور .

(٧٩) بغية المتيسر ص ١٥١ ترجمة ٣٣١ ، جذوة المتيسر ص ١٠٤

— ١٠٥ ترجمة ١٧٦ .

(٨٠) د. هيكل : الأدب الأندلسى ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، د. إحسان

عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٦٣ .

ومن مشاهير شعراء هذه الفترة عبد الملك بن شهيد الذي اشتهر
بشعر اللهو . ومن أبياته فيه :

انا شيخ والشيخ يهوى الصبايا
ما بنفس اتيك كل الرزايا
ورسول الإله أسهم فى النىء
لمن لم يخب فيه المطايا (٨١)
وقوله :

ولرب حان قد شهمت بديره
خمر الصبا مزجت بصرف عصيره
فى فتية جعلوا السرور شعارهم
متصاغرين تخشعا لكبيره
والقس مما شاء طول مقامنا
يدعوا بعود حولنا بزبوره
يهدى لنا بالراح كل مصفر
كالخشف جملة التماح خفيره
يتناول الظرفاء فيه وشربهم
لسلافه والأكل من خنزيرة (٨٢)

وكذلك ابن دراج القسطلى الذى اشتهر بمذائحه للمنصور . قال
عنه ابن حيان : « القسطلى سباق فى حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة
محسنى أهل الأندلس أجمعين » .

وقال عنه الحميدى : « وهو معدود فى جملة العلماء ، والمقدمين من

(٨١) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ٢٧٤ .

(٨٢) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

السفراء والمذكورين من البلغاء ، وشعره كثير مجموع يدل على علمه وله
طريقة فى البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته (٨٣) .

وقال عنه ابن حزم : لو قلت إنه لم يكن بصقع الأندلس أشعر
من ابن دراج لم أبعد (٨٤) .

وكذلك الرمادى يوسف بن هارون الكندى الذى اشتهر بوجعة شعره
وكان جريئاً مستهتراً فيه ، وله شعر يدافع فيه عن الخمر حين أراد
الحكم المستنصر أن يقطع أشجار الكروم . وكان فيه ميل إلى التشيع .
قال عنه الفتح خاتان : إنه شاعر مغلط ، انترج له من الصناعة المطلق ،
ومضى له بريقها المؤثلق ، وسأل بها طبعه كالماء المتدفق ، فأجمع
على تفضيله المختلف والمتفق .

وكان شيوخ الأندلس يقولون (فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة)
يعنون إيراً القيس والتمنى والرمادى (٨٥) . وقد كثر شعراء هذه الفترة
لدرجة أنه ذكر أن المنصور صاحب معه فى إحدى غزواته أربعين
شاعراً من طبقات مختلفة (٨٦) .

أما عن النثر فى هذه الفترة : فقد ازدهر النثر الأدبى الخالص حيث
وجد ديوان للكتاب يحررون فيه الرسائل والمنشورات ، ويصفون

(٨٣) انظر عنه : جذوة المقتبس ترجمة ١٨٦ ، بغية المتبس ترجمة
٣٤٢ .

(٨٤) جبهة أنساب العرب ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٨٥) كان يلقب بأبى جنيس وهى كلمة رومانية صارت فى الأسبانية
Cenisa ومعناها رماد فعرف بالرمادى (انظر : أحمد هيكال :
الأدب الأندلسى ص ٣٠٣ ، دائرة معارف الشعب ٦٤ ص ٢٠٠) .

(٨٦) بالفتيا : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٦ ، د. خالد الصوفى : عصر
المنصور الأندلسى ص ٢٥٦ .

المعارك والغزوات التي يقوم بها المنصور . كما برز النثر الوصفي أيضا . وقد تأثر النثر عموما في هذه الفترة بطريقة ابن العميد في الميل إلى الاطناب ، والاعتماد على المحسنات البديعة بكثرة . ومن كتاب هذه الفترة ابو مروان الجزيري ، وابن دراج القسطلي ، والمنصور ابن ابي عامر أيضا .

وفي الفترة التي سبقت سقوط الخلافة والمسماة بالفتنة البربرية تأثر الادب تأثرا واضحا بأحداثها فانتشر أدب التثبي والنفاق والمتفاهة ، أو أدب الفتن والحروب بمعنى أشمل . كما ظهر أدب التأمل والتذكر والمراجعة . وكان الشعر مجال النوع الأول ، والنثر مجال النوع الثاني بصفة عامة . ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر الذي ضاقت أغراضه ، وتل إنتاجه لهجرة الكثيرين من الشعراء من أتون الفتنة فهو ما بين مرح كاذب أو لهو ومجون ، أو بكاء لفقد الأهل والأحباب أو وصف لأشياء تافهة مثل وصف ابي عامر بن شهيد للبرغوث (٨٧) .

وأهم ما يلاحظ على الشعر في هذه الفترة كثرة مزجه بالنثر فالكثير منه لم يكن على شكل قصائد مستقلة ، وإنما كأجزاء من رسائل أو كتب أو رقاع تحرر لغرض ما ، حيث كان الكثير من الأدباء يجمعون بين الشعر والنثر (٨٨) .



(٨٧) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ٢٩٠ - ٣٩٢ .

(٨٨) د. أحمد هيكل : المرجع السابق ص ٣٩٣ .

ثانياً - المعلوم العقلي

الترجمة : لم تصل الترجمة في الأندلس إلى ما وصلت إليه في بغداد في عصر المنصور والرشيد والمأمون كما يبدو ، حيث لم تشر المصادر إلى كثير من الكتب التي ترجمت في الأندلس ، ويبدو أن ذلك راجع إلى أنه كان بالإمكان جلب نسخ من الكتب المترجمة من المشرق إلى الأندلس دون بذل جهد في ترجمتها من جديد . وعلى ذلك فإننا نعتقد أنه قد جلبت كتب كثيرة مترجمة من المشرق وخاصة في عهد الخليفة الحكم المستنصر .

وقد ذكرت لنا المصادر كتابين من الكتب التي تمت ترجمتها في الأندلس وهما : كتاب ديستوريدس (الأدوية المفردة) والمعروف بكتاب الحشائش ، وكان باليونانية (١) ، وكتاب أورسيوس (هروسيوس أو هروشيوس في المصادر العربية) . ويسمى (التواريخ السبعة في الرد على الوثنيين) وهو باللاتينية (٢) .

(١) ديستوريدس : طبيب وعشاب يوناني ، ولد في بلدة عين زربة قرب طرسوس جنوب آسيا الصغرى ، ولهذا سمي في المصادر الأوربية Discorides- Ain zarbio أي (ديستوريدس العين زربي) . وقد عاش في القرن الأول الميلادي ، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية من الأعشاب ، وقد ظل كتابه (الأدوية المفردة) أعظم مرشد لخواص الأعشاب الطبية ، وما زالت له قيمة علمية بالرغم من التقدم الطبي حتى الوقت الحاضر (انظر : عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الأول - القسم الثاني ص ١٠٨ هامش ٢١ مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٣٤) .

(٢) باولوس أورسيوس : راهب ومؤرخ روماني الأصل ، أسباني المولد والنشأة ، عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن

=
(م ٢٨ - المجتبع الأندلسي)

وهذان الكتابان كان قد أرسل بهما الامبراطور البيزنطى قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر مع السفارة التى بعث بها إليه سنة ٣٣٨هـ (٣) .

الخامس الميلادى ، ووضع هذا الكتاب الذى أرخ فيه للعالم القديم منذ بدء الخليفة حتى عصره (٤١٦م) . وهذا الكتاب كما يقول د. حسين مؤنس : ذيل على كتاب (مدينة الله) لأستاذه القديس أوغسطين ، وخاصة الجزء الثالث منه المتعلق بتاريخ العالم القديم . وقد لقى كتاب أورسيوس إقبالا شديدا من معاصريه ، واعتمد عليه الكثيرون من بعد ، ومنهم بعض المؤرخين المسلمين كالرازى وابن خلدون وغيرهما فى التاريخ للأمم التى حكمت اسبانيا قبل الفتح الإسلامى . (عنان : المرجع السابق ص ١٠٨ هامش ٢ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٨) .

(٣) اختلف فى تاريخ هذه السفارة فذكر البعض أنها كانت فى سنة ٣٣٤هـ ، وذكر البعض أنها حدثت سنة ٣٣٦هـ ، وذكر البعض أنها وقعت سنة ٣٣٧هـ ، بينما ذهب الكثيرون إلى أنها كانت سنة ٣٣٨هـ . كما اختلف فى حين أرسلها فذكر البعض أنه قسطنطين ، وذكر البعض أنه ابنه رومانوس الذى تولى بعده ، ولعل مرجع هذا يعود إلى الاختلاف فى تحديد تاريخها ، وإن كان الراجح أنها كانت سنة ٣٣٨هـ فى عهد قسطنطين . وربما كان الامبراطور هو الذى أرسل السفارة وبعث ابنه بالكتابين معها ، وربما يكون الامبراطور قد أرسل السفارة باسمه واسم ابنه الذى كان يعده للحكم بدليل أن الخطاب الذى أرسله للخليفة يبدأ

وكان الكتاب الاول قد ترجم فى بغداد فى عهد الخليفة المتوكل العباس (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) على يد (آصف أو أسطفن بن باسيل) من اليونانية إلى العربية ، وقام بمراجعة الترجمة (حنين بن إسحاق) . وقد وضع إسطفن أسماء عربية للنباتات فى مقابلة الكلمات اليونانية ، غير ان بعض الأسماء ظلت على صورتها اليونانية لعدم معرفته بها ، وهنا جاء دور الأندلس لتكملة ذلك ، فيذكر المؤرخون ان الناصر لما وصلته نسخة من هذا الكتاب كلف طبيبه الخاص (حسداى بن شروط) ، وحيد النباتى ، وعبد الرحمن ابن الهيثم ، وأبو عبد الله الصقلى وكان له إلمام بالعقاقير والنباتات بالنظر فيه وترجمته ، غير أنه لم يكن لديهم إلمام باليونانية فأرسل إلى الإمبراطور يطلب منه إرسال مترجم له ، فأرسل إليه الراهب نيقولا ، الذى كان يجيد اليونانية واللاتينية سنة ٣٤٠ هـ ، ففسر أسماء العقاقير

=

بقوله « من قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم » . (انظر : نفع الطيب ج ١ ص ١٧١ — ١٧٢) ، ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ١٤٢ ، ابن جليل : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ ، عنان : دولة الإسلام فى الأندلس القسم الثانى ص ١٠٧ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ — ٣١٦ ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية فى الأندلس ص ٦٧ ، د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى ص ١٩٩ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣

المجهولة ، وتتلذذ على يديه كثير من المهتمين بدراسة الطب والأعشاب (٤) .
وقد كان لذلك أثره فى إقبال الكثير من الأندلسيين على دراسة
الطب والعقاقير متخذين من هذا الكتاب مصدرا رئيسيا لهم .

وأما الكتاب الثانى فيذكر أنه قام بترجمته للحكم المستنصر قبل
الخلافة ، ويبدو أنه أخذه من والده الناصر — قاضى النصارى بقرطبة
وليده بن حيزون (٥) الذى قام بدور المترجم للملك أردون الرابع ملك
ليون عندما قدم لزيارة المستنصر سنة ٣٥١هـ ، وشاركه فى هذه
الترجمة قاسم بن أصبغ البينانى — نسبة إلى بيانة — المتوفى سنة
٣٤٠هـ (٦) .

(٤) يذكر أن الامبراطور قال للخليفة : إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى
فائدته إلا برجل يحسن اللسان اليونانى ، ويعرف أشخاص تلك
الأدوية ، وأما كتاب هروسيوس فعندك فى بلدك من اللطينيين
(اللاتينيين) من يقرؤه باللسان اللطينى ، وإن كاشفتهم عنه نقلوه
من اللطينى إلى اللسان العربى . (أحمد أمين : ظهر الإسلام
ص ٢٣٤ ، د . إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٧ ،
عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ص ١٠٩) .

(٥) انظر : المترى : نفع الطبيب ج ١ ص ١٨٢ — ١٨٣ ، د . السيد
سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٥ . وقد ذكره
البعض باسم الوليد بن الخيزران المعروف بابن مغيث ، ولعله
خطأ فى الطبع (انظر : د . عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ
العربى ص ٢٤ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٩) .

(٦) الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣١٢ . ويستبعد د . إحسان عباس
أن يكون قاسم قد شارك فى ترجمة هذا الكتاب حيث توفى سنة

وقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هذه الترجمة من أحمد بن محمد الرازي (٣٤٤ هـ) إلى ابن خلدون (٨٠٨ هـ) . ومنهم من نقل من هذا الكتاب ونص على ذلك صراحة (٧) .
وليس ببعيد أن تكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن اليونانية واللاتينية وغيرها إلى العربية في الأندلس ، بالرغم من عدم إشارة المصادر إلى ذلك كثيرا ، حيث نهضت الحركة العلمية ، ووجدت التشجيع الكافي ، وتوافرت كافة الإمكانيات التي تساعد على الترجمة (٨) .

٥٣٤ هـ ، ولكنه استدرك فقال : إلا أن تكون ترجمته كتاب هرويسيس قد تمت قبل مجيء نقولا الراهب . (انظر : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٧ هامش ٢) .

ولا يستبعد أن يكون قاسم قد شارك في ترجمة هذا الكتاب حيث كان متصلا بالمستنصر قبل خلافته ، واختصر له كتاب المسفن لأبي داود ، وسماه (المجتني) سنة ٣٢٤ هـ . وكان يجيد اللغتين اللاتينية (اللطينية) كما يتضح من قول الإمبراطور لعبد الرحمن الناصر . (انظر : المثرى ج ٢ ص ٢٥٤ ، د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٣١٥ هامش ١) . وتوجد نسخة من الترجمة العربية لهذا الكتاب في مكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك . وقد أضيف إليها تكملة لتاريخ القوط حتى دخول طارق بن زياد إسبانيا . وهذه الإضافات في أغلب الظن نقلت عن مؤرخين لاتينيين ، وتقع هذه النسخة تحت رقم H 893712 x . (نشأة تدوين التاريخ العربي ص ٢٤) .

(٧) د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٢٤ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٨)

الفلسفة : يظهر ان نشأة الفلسفة فى الأندلس كانت كنشأتها فى المشرق فقد نشأت فى المشرق من الاشتغال بالطب والتنجيم لعناية الكثير من الخلفاء بهما . وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ليس اعتقادا فيه ، وإنما رغبة فى حب الاستطلاع ، واستشراف المستقبل ، والتطلع إلى معرفة ما سيجرى .

وكذلك كان الشأن فى الأندلس حيث احتاج الأمويين إلى الأطباء وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ، والاشتغال بالطب والنجوم يسلم إلى الفلسفة ، ولذلك نرى أن الفلاسفة الأندلسيين الأوائل كانوا من الأطباء مثل الكرماني ، وأبو جعفر بن حميس ، وحمدين بن أبان ، أو من المنجمين مثل ابن السمين ، ومسلمة بن أحمد الجريطى ، وأبو القاسم الزهراوى وغيرهم (٩) .

وقد ساعد على ظهور الفلسفة ونموها بالأندلس عدة عوامل منها :

- ١ - رحيل بعض الأطباء من المشرق إلى الأندلس مثل اسحاق ابن عمران الذى كان طبيبا مشهورا فى بغداد .
- ٢ - اهتمام بعض الخلفاء الأمويين بالكتب العلمية والفلسفية مثل الحكم المستنصر ، وجلبها إلى الأندلس وترجمتها ، فيذكر ابن أبى أصيبعة أن الكرماني رحل إلى المشرق وجلب معه عند عودته رسائل اخوان الصفا (١٠) .

- ٣ - التبادل الثقافى بين الأندلس وبعض البلاد الأجنبية مثل الدولة البيزنطية مما أدى إلى إهداء بعض الكتب للخلفاء الأمويين وترجمتها .

(٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٣ .

(١٠) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٧ .

وقد أدت هذه العوامل وغيرها إلى وجود مجموعة من المشتغلين بالطب والتنجيم أولا ، وبالفلسفة ثانيا .
والحقيقة أنه رغم ذلك فإن غالبية الأندلسيين لم يتلقوا الفلسفة بالقبول الذى تلقوا به الطب وغيره من العلوم العملية ، حيث كان جل اهتمامهم موجها إلى العلوم الدينية والعربية ، ولذلك لم يكن للفلسفة حظ كبير من الاهتمام فى العصر الأموى ، وكان المشتغلون بها موضع نفور واضطهاد ، ورعى بالكفر والإلحاد والزندقة .
يقول ابن سعيد المغربى « وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء . إلا الفلسفة والتنجيم ، ومن يشتغل بهما يجتهد فى إخفاء ذلك حتى لا يطلق عليه لقب زنديق من العمامة ويقتل ، أو يحرق هو وكتبه » (١١) . كما فعل المنصور بن أبى عامر تقربا إلى العمامة والفقهاء .

وقد أخذ الطب والتنجيم يتطوران إلى فلسفة بعد سنين ، حتى رأينا فلاسفة حقيقيين كان لهم دورهم وأثرهم فى هذا المجال . كابن باجة وابن رشد وابن طفيل وغيرهم .

ويصف ابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) حال الفلسفة فى الأندلس فيقول « إن هذا العلم أندر من الكبريت الأحمر ، لاسيما فى هذا المصقع الذى نحن فيه ، لأنه من الغرابة فى حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر منه بشيء لم يكلم الناس إلا رمزا » (١٢) .
ويظهر أن الاشتغال بالفلسفة فى الأندلس كان على نوعين : نوع

يميل إلى التصوف منه إلى الفلسفة اثبحة . وأتباع هذا النوع قد ساروا على طريقة أفلاطون ، وكان من أوائهم ابن مسرة وابن سعيد ، وهذه

(١١) المقرئ : نفح الطيب ج ١ ص ١٠٢ .

(١٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ص ٢٣٥ .

المدرسة تعتمد على الذوق والكشف والمراقبة أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق والقياس . والنوع الثاني : يعتمد على الفلسفة الصرفة على النحو الذى سار عليه أرسطو . ومن اتباع هذا النوع : أبو بكر بن الصائغ المشهور بابن باجة (ت ٥٤٤ هـ) ، وابن طفيل (ت ٥٨١ هـ) ، وابن رشد (ت ٥٩٤ هـ) (١٣) .

ومن أوائل من نسبوا إلى الفلسفة فى العصر الأموى ابن مسرة محمد ابن عبد الله (ت ٣١٩ هـ) ، وقد اعتنق والده مذهب المعتزلة ، وكان هذا المذهب غير مرغوب فيه بالاندلس ، فاضطر إلى إخفائه ، ولقنه لابنه ، ومعروف أن هذا المذهب يعتمد على العقل كثيرا ، ويتسلح أصحابه بالمنطق والفلسفة .

ولذلك نشأ محمد معتزليا محبا للحكمة والدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاما ، ورحل إلى المشرق سنة ٢٩٨ هـ ، ولقى أهل الجدل وأصحاب الكلام ، ثم عاد فأظهر الورع والتنسك ، وأصبح له تلاميذ يلتقنهم مذهبه الذى يجمع بين التصوف والاعتزال ، واتخذ خلوة له فى جبل قرطبة حتى سمي بالجبلي (١٤) .

وقد أثار ذلك العمامة والفقهاء بعد اكتشاف أمره ، فاشاعوا عنه أنه زنديق مما اضطره إلى مغادرة الأندلس فى آخر عهد الأمير عبد الله ، ثم عاد فى عهد الناصر ، فواصل الدعوة لمذهبه ، وانضم إليه الكثيرون لظهره الورع الزاهد ، وألف كتبا منها كتاب التبصرة وكتاب الحروف لم يصلنا أى منهما . ويذكر أن الخليفة الناصر قد أمر بإحراق كتبه خارج

(١٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٣٥ .

(١٤) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٢٩ ترجمة ١٢٠٤ ، الحميدى : جذوة المتوسر ترجمة ٨٣ .

جامع قرطبة ، لأنها كانت تتضمن إشارات غامضة وعبارات عن منازل المحدثين غير داخضة (١٥) . ويبدو أنه كان يقن تلاميذه نوعا من الاعتزال والفلسفة تحت ستار الزهد والتصوف ، أو يروج لتعاليم مذهبه تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية (١٦) .

ثم بدأت الفلسفة تأخذ مكانها مرة أخرى في عهد الحكم المستنصر في ظل التسامح الذي أشاعه ، واهتمامه بالعلوم على شتى أنواعها ، فعادت مدرسة ابن حنبل من جديد ، وأخذت آراؤه تظهر مرة أخرى ، وتجد طريقها إلى الآخرين .

ومن أشهر من اشتغل بالفلسفة في عهد المستنصر ملحان « الذي كان ذا نظر في حد المنطق ، كثير المطالعة لكتب الفلسفة » (١٧) .

وإدريس بن مقيم « الذي كان بصيرا بحد المنطق ، كثير المطالعة لكتب الأوائل حاذقا بعلم الحساب والتنجيم » (١٨) ، ومحمد بن يحيى الرباحي « الذي طالع كتب أهل الكلام ، ونظر في المنطقيات فأحكمها ، إلا أنه كان لا يتقصد مذهبا من مذاهب المتكلمين ، ولا يقود أصلا من أصولهم ، وإنما كان يقول على ما يهزل إليه في الوقت ، ويؤثره في الحضرة » (١٩) .

(١٥) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ج ١ ص ٣١٢ ، دائرة معارف الشمب ٦٤ ص ١٩٧ .

(١٦) د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٢٦ ، وإحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٥٤ .

(١٧) الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين ص ٣٢٧ .

(١٨) المرجع السابق ص ٣٣٢ .

(١٩) المرجع السابق ص ٣٣٦ .

وممن عرف بدراسة المنطق والفلسفة أيضا فى هذه الفترة
ابن حفصون ، ومحمد بن عبدون الجبلى الذى درس على سليمان المنطقى
ببغداد (٢٠) . ومحمد بن اسماعيل الملقب بالحكيم الذى اهتم بالمنطق
والحساب ايضا (٢١) .

ويبدو ان هؤلاء قد اكتفوا بمجرد الاطلاع والنظر فى كتب الفلسفة ،
حيث لم يؤلفوا كتباً ، على عكس الحال فى علوم الطب والهندسة والفلك
والحساب . غير ان الفلسفة ما لبثت ان انتكست مرة اخرى فى عهد
المنصور بن ابي عامر نتيجة لضغوط الفقهاء والعمامة حيث اضطهد
الفلاسفة ، واحرق كتبهم تقريبا للعمامة وترضية للفقهاء ، رغم ميله
إليها فى الباطن كما ذكر (٢٢) .

وقد لقيت الفلسفة بعد ذلك — وخاصة فى القرن السادس
الهجرى — اهتماما كبيرا فظهر فلاسفة حقيقيون من امثال ابن باجة
وابن طفيل وابن رشد كانت لهم آراؤهم الفلسفية التى أحدثت دوبا فى
العالمين الاسلامى والمسيحى .

فيذكر ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) انه رأى من كتب الفلسفة « رسائل
مجموعة وعيوننا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى دالة على تمكنه من
هذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله المنجى أيضا ويعرف بابن الكتانى

(٢٠) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٦ .

(٢١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ — ٤٣ .

(٢٢) المقري : نفع الطيب ج ١ ص ٢٢١ ، مساعد : طبقات الامم
ص ٦٦ .

د. حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام ج ٣ ص ٣٤٠ ، د. خسالد

الصوفى : المنصور الأندلسى ص ١٩٩ ، ٢٥٦ .

وكان متقدما فى علوم الطب والمنطق (٢٣) .

يقول الضببى عن السرقسطى « له أدب وعلم وتصرف فى حدود المنطق يعرف بالحصار وهو مشهور ذكره أبو محمد على بن أحمد (ابن حزم) « (٢٤) .

وذكر الحميدى أن ابن حزم نقل من شعره فى ذم الناس للمنطق :

ظلموا ذا الكتاب إذ وصفوه

بالذى ليس فيه إذ جهلوه

لو دروا حقه لما أنكروه

أو دروا فضله إذن فضلوه

كذبوا والله لو عرفوه

لنفوا عنه كل ما نحاوه (٢٥)

الطب : كان من مظاهر تقدم الثقافة الأندلسية فى فترة الإمارة ظهور أوائل المشتغلين بالطب فى الأندلس ، مثل أحمد بن إياس القرطبى ، الذى يعد أول من اشتهر بالطب فى الأندلس ، وذلك فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . ونبغ بعده جماعة منهم يحيى بن اسحاق طبيب الأمير عبد الله بن محمد ، والذى أصبح وزيرا للناصر فيما بعد ، وله مؤلفات فى الطب .

ثم أخذ الطب يزدهر فى فترة الخلافة ، واشتهر به كثيرون وخاصة فى عهد الناصر والمستنصر ، مثل سعيد بن عبد ربه الذى كانت

(٢٣) بغية المتتمس ص ٦٧ ترجمة رقم ٨١ .

(٢٤) بغية المتتمس ص ٣١١ ترجمة ٨١٣ .

(٢٥) جذوة المقتبس ص ٢٢٣ ترجمة ٤٧٨ .

له طريقة خاصة فى علاج الحميات . وأحمد بن يونس وأخوه عمر الذين
اشتهرا بالمهارة فى تحضير الأدوية ، وعلاج كثير من الأمراض ، وخاصة
علاج العيون (٢٦) .

وأبو عبد الله محمد بن عبدون العذرى الترتيبى ، الذى رحل إلى مصر
سنة ٣٣٧هـ ، وأشرف على بيهارستان مصر ، والوزير أبو المطرف
عبد الرحمن بن شهيد مصنف كتاب (الأدوية المفردة) الذى يقول عنه
المقرئ : « إنه كان آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع
ما فى كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها ، وكان
لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن ، بل بالأغذية وما يقرب منها . وإذا
اضطر إلى المركب لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه ، وله
غرائب مشهورة فى الإبراء من الأمراض الصعبة ، والعلل المخوفة بأيسر
علاج وأقربه » .

ويقول عنه صاعد « ألف كتابا جليلا لا نظير له ، جمع فيه ما تضمنه
كتاب ديستوربوس وكتاب جالينوس المؤلفين فى الأدوية المفردة ، ورتبه
أحسن ترتيب » (٢٧) .

ومن مشاهير الأطباء فى عهد الخليفة الناصر الطبيب اليهودى حسداى
ابن شبروط الذى اتخذه الناصر طبيبا خاصا له ، وذاعت شهرته حتى أن
شانجة ملك ليون الذى كان بائع بالسمين نظرا لسميته الزائدة — وذكر

(٢٦) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٩ ،
صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ص ٧٨ ، ١٢٤ ، دائرة معارف
الشعب ٦٤ ص ١٩٤ ، د. أحمد هيكال : الأدب الأندلسى ص ١٢٧ .
د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ .

(٢٧) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٥ .

أن ذلك كان من أسباب خلعه نظرا لعدم قدرته على تصريف أمور الإمارة -
قد طالب من الناصر أن يرسل له طبيبا لعلاج من ذلك ، فأرسل إليه
طبيبه حسداى الذى نجح فى تخفيف وزنه (٢٨) .

ومن أشهر الأطباء فى عهد المستنصر الطبيب المشهور وعالم الجراحة
أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى - نسبة إلى مدينة الزهراء التى
الناصر - والذى اتخذه المستنصر طبيبا خاصا ، وألف عدة كتب فى الطب
ترجمت إلى اللاتينية مثل كتاب : Libes-Sepiltoris الذى ترجمه
جيرارد الكريمونى ، وكتابه فى الجراحة الذى ترجمه جيدوى كاوليك إلى
اللاتينية أيضا سنة ١٤٨٩م تحت عنوان Chriur-gtaparua (٢٩) .

ويعتبر الزهراوى من أشهر الجراحين المسلمين - أطباء الجراحة -
وقد ترك مرجعا فى وصف الآلات الجراحية وطرق استخدامها ، وتوضيحا
بالرسوم ، وهو كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) الذى ظل مرجعا
يعول عليه لدراسة الطب فى أوروبا عدة قرون بعد ترجمته إلى
اللاتينية ، ويذكر أنه باشر بعض عمليات التوليد والجراحة النسائية ،
ونصح باستخدام مساعدات من النساء فى ذلك (٣٠) .

(٢٨) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٣٠ ، لبن بول :
قصة العرب فى اسبانيا ص ١٠٩ ، عنان : دولة الإسلام فى
الاندلس ج ٢ ص ١١٤ ، د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب
والاندلس ص ٣٢١ ، د. السيد سالم : قرطبة حاضرة الخلافة
الأموية ص ٧٠ .

(٢٩) انظر ترجمته فى بغية المثلث رقم ٧١٥ ، د. السيد سالم : تاريخ
المسلمين وآثارهم فى الأندلس ص ٣١٢ .

(٣٠) د. سعيد عاشور وآخران : تاريخ الحضارة الإسلامية العربية
ص ١٢٤ - ١٢٥ .

وكذلك الإسقف القرطبي ابن زيد الذي كان مختصا بالخليفة المستنصر
وآلف كتاب (تفضيل الأزمان ومصالح الأبدان) (٣١) .

كما نبغ في الطب أيضا في عهد هشام المؤيد ابن الخليفة
المستنصر الطبيب الأندلسي المشهور ابن جلجل (أبو داود سليمان
ابن حسان) . ت ٣٩٩ هـ ، الذي كان طبيا لهشام المؤيد ، وضع كتابا في
طبقات الأطباء ، وشرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديستوريدس ،
وأوضح ما غمض منها في كتابه (تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب
ديستوريدس) . قال عنه الحميدى : « سليمان بن جلجل مذكور بالطب
والأدب ، له كتاب في أخبار الأطباء بالأندلس » (٣٢) .

وكذلك عبد الرحمن بن الهيثم طبيب المنصور بن أبي عامر . وقد
آلف عدة كتب عن الأدوية المفردة (٣٣) ، وكان عريب بن سعيد القرطبي
المؤرخ (ت ٣٦٩ هـ) طبيا أيضا وله مؤلفات في الطب منها كتاب (خلق
الجنين وتدبير الحبالى والمولود) وهو مخطوط بمكتبة الاسكوريال (٣٤) .

الفلك والنجوم : اهتم القدماء بالنجوم والكواكب وحركاتها ،
وربطوا بين ذلك وبين معرفة المستقبل ، وأطلقوا على ذلك علم التنجيم .
والحقيقة أن التنجيم على هذا الأساس ليس علما ، لأن معرفة المستقبل
وعلم الغيب إنما هو لله عز وجل لا يظهر عليه أحدا إلا من ارتضى من
رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا .

-
- (٣١) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ص ٤٧ .
(٣٢) جذوة المقتبس ترجمة ٤٥٢ ص ٢٢٥ ، دائرة معارف الشعب (٦٤)
ص ١٩٥ . وقد نشر كتابه (طبقات الأطباء) ضمن منشورات
المعهد الفرنسي بالقاهرة بتحقيق الأستاذ فؤاد سيد سنة ١٩٥٥ م .
(٣٣) المختار من عالم المعرفة ص ١٣٦ .
الأدب الأندلسي ص ١٩٤ .
(٣٤) بالنتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، د . هيسكل :

ورغم ذلك فإن بعض حكام المسلمين كانوا يطلبون المنجمين لاستشارتهم والاختذ برأيهم قبل الإقدام على عمل هام كالبناء أو الحرب أو غير ذلك (٣٥) .

وهن أمراء الأندلس الذين اهتموا بالتنجيم هشام بن عبد الرحمن الداخل . فيذكر أنه استدعى المنجم الضبى من بلده بالجزيرة الخضراء ، وكان بارعا فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية كما قيل حتى لتب (بببليوس) لحذقه وإصابته .

ورغم عدم اعتقاد هشام فى التنجيم ، إلا أنه كان يجب أن يسمع ما يقوله الضبى « حيث أن النفس طلعة كما قال » . وقد أخبره هذا المنجم بأنه لن يستمر فى ملكه أكثر من ثمانية أعوام فكان كما قال — وهذا من باب المصادفات فقد كذب المنجمون ولو صدقوا — ويذكر أنه زهد فى الدنيا ولزم أعمال الخير بعد أن أخبره بذلك (٣٦) .

وكذلك كان من المنجمين أحمد بن فارس البصرى ، الذى كان زعيم هذه الصناعة بالأندلس على عهد الحكم بن هشام ، كما ذكر ذلك ابن بسام نقلا عن ابن حبان (٣٧) . ومنهم أيضا عبد الله بن الثمير ابن نمير القرطبى ، منجم عبد الرحمن الأوسط ونديه قبل الإمارة . ذكر أنه بشره بأن الأمر سيصير إليه ، فلما صار إليه قربه وفادمه ، وأجرى عليه رزقا للشعر ورزقا للتنجيم (٣٨) .

وكذلك إدريس ابن متيم الذى كان بصيرا بالمنطق حاذقا بالحساب والتنجيم (٣٩) .

-
- (٣٥) دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١٠ .
(٣٦) انظر : نفع الطيب ج ١ ص ١٢٧ .
(٣٧) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ق ٤ ج ١ ص ٥٩ .
(٣٨) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ١٢٤ .
(٣٩) طبقات الزبيدى : ص ٣٣٢ .

وقد فرّق علماء المسلمين بين التنجيم والفلك فنأدى معظمهم بعدم تأثير الكواكب والنجوم على مستقبل الإنسان ، ونفوا أن يكون لها دخل فى النقص أو السعد . وعلى ذلك فقد وجد من بين علماء الأندلس من رفض التنجيم ، واهتم بالفلك كعلم له قواعده وأصوله ، ومن هؤلاء عباس ابن فرناس الذى يمكن أن تعدّه من أوائل علماء الفلك فى الأندلس إلى جانب اهتماماته واختراعاته الأخرى . فقد ذكر أنه صنع فى بيته قبة تشبه السماء ، وزودها بآلات وأدوات تحدث رعود وبروقا ، وجعل فى أعلاها نجوماً وغيوماً تبدو للناظر وكأنها حقيقية (٤٠) .

وقد كان الأمير عبد الرحمن الأوسط من أوائل الأمويين اهتماماً بجلب الكتب القديمة من المشرق ، ولذلك وجه عباس ابن ناجح الشاعر إلى المشرق لجلبها . ف جاء بكتاب (السند هند) وغيره منها ، ويعتبر أول من أدخلها إلى الأندلس ، وعرف أهلها بها ، ونظر هو فيها (٤١) .

(٤٠) نفع الطيب ج ٣ ص ٢٣٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ .
أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ص ٧٤ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٦ - ١٩٧ ، ومن الغريب أن الفرضى الذى ترجم للكثيرين فى كتابه (تاريخ علماء الأندلس) لم يترجم لعباس بن فرناس رغم شهرته الكبيرة ، وترجم له الضبى فى بغية المتبس والهميدى فى جذوة المقتبس ولم يذكر شيئاً عن ذلك . (انظر تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٩ ، جذوة المتبس ترجمة ٧٣١ ، بغية المتبس ترجمة ١٢٤٧) .

(٤١) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٤٥ ، د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٤٢ . وكتابات السند هند يعتبر من كتب الفلك الهندية ، ويذكر أنه وفد على بلاط الخليفة العباسى المنصور سنة ١٥٦هـ أحد المهود ومعه نسخة من هذا الكتاب ، فأمر الخليفة محمد بن اسحاق الفزارى بترجمته للعربية ، ويقال : إن الخوارزمى استفاد منه ، واعتمده .

ويعتبر مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي القرطبي (٢٩٥ هـ) من أوائل المشتغلين بالفلك والنجوم في الأندلس أيضا ، وكان يعرف (صاحب القبلة) لأنه كان مولعا بالتشريق في قبلته مفتونا بذلك كما قيل (٤٢) .

وقد قال بكروية الأرض ، واختلاف الفصول حسب المناخ ، وقد تعرض بسبب ذلك لهجوم بعض المتلدين ، ومنهم ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد الذي قال فيه :

أبا عبيدة ما السؤال عن خبر
تحكيه إلا سواء والذي سالا
أبيت إلا شذوذا عن جماعتنا
ولم تصب رأى من أرجى أو اعتزلا
كذلك القبلة الأولى بمسألة
وقد أبيت فما تبغى بها بدلا
زعمت بهرام أو بيذخت ترزقنا
لا بل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق في فلك
بهم يحيط وفيهم يقسم الأجيلا
والأرض كوربة حف السماء بها
فوقا وتحنا وصارت نقطة مثلا

عليه في وضع زيجه المشهور بعد ان أدخل عليه تعديلات، وإضافات عدة . (انظر دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ص ١١١) .

(٤٢) انظر ترجمته في تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ رقم

. ١٤٢٠ .

(م ٢٩ - المجتمع الأندلسي)

صيف الجنوب ثناء للشمال بها
قد صار بينهما هذا وذا دولا
فما لكانون فى صنعا وقرطبة
فردا وأيلول يذكى فيها السؤال
هذا الدليل ولا قول عزرت به
من القوانين يجرى القول والعملا
كما استمر ابن موسى فى غوايته
فوعر السهل حتى خلفه الجبلا
أبلغ معاوية المصطفى لقولهما
أنى كفرت بما قالوا وما فعلا (٤٣)

ويقول ابن عبد ربه أيضا فى مهاجمة المشتغلين بالفلك والنجوم :

فأين الزيج والقانون والأركند والكمة
وإين المسند هند البطل والجدول هل ثمة
سوى الإفك على الله تعالى منشر الرمة
إذا كان أخو الغيب
يرى الغيب بما ضمه

إلى أن يطاب الرزق

طلاب العاجز الهمة

وهذى الأرض قد وارت

كنسوزا عدة جمعة

(٤٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧

وإبن موسى هو الأقبشيين أو الأقتشتين ، ومعاوية هو إبن الشيبانيس
المقرشى ويظهر أنهما كانا من أصحاب إبن أبى عبيدة والقائلين
بأقواله .

فلا والله ما لله

خلق يحتوى علمه (٤٤)

كما يعتبر أبو القاسم مسلمة الجريطى (٣٩٨ هـ) من علماء الفلك أيضاً يقول عنه صاعد : إنه أعلم من كان قبله بعلم الأنسلاك ، وحركات النجوم ، وكانت له عناية بأرصاد الكواكب (٤٥) .

الكيمياء : اشتغل بعض علماء الأندلس بعلم الكيمياء ، ومن أوائل المشتغلين به أبو القاسم مسلمة بن أحمد الجريطى (ت ٣٩٨ هـ) الذى يعد شيخ الأندلس فى هذا العلم فى العصر الأموى ، وقد ألف فيه كتابا سماه (رتبة الحكيم) ، وجعله قرينا لكتاب آخر ألفه فى السحر والطمسات وسماه (غاية الحكيم) . ومن كبار تلاميذه فى هذا المجال أبو بكر بن بشرى (٤٦) .

ويمكن أن نعد عباس بن فرناس بت ٨٨٦ م) من الذين نبغوا فى هذا العلم أيضا ، حيث له اتهامات متعددة ، ويذكر أنه كان أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الأحجار وهى صناعة تحتاج إلى معالجات بطرق كيميائية (٤٧) .

-
- (٤٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٩٠ .
(٤٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، وإحسان عباس : المرجع السابق ص ٥٢ .
(٤٦) دائرة معارف الشعب (٦١) ص ١٩٦ .
(٤٧) انظر نفع الطيب ج ٣ ص ٣٧٤ ، المغرب فى حلى المغرب ج ١ ص ٣٣٣ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٣ ، د. أحمد شاذلى : موسوعة التاريخ الإسلامى ج ٤ ص ٨٦ ، د. عبد الرحمن الحجى : الحضارة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٢ .

الرياضيات : يلاحظ ان كثيرا من علماء الأندلس كانوا ينفون فى عدة علوم ولا يقتصرون على علم واحد ، حيث لم يكن التخصص الدقيق معروفا فى ذلك الوقت .

ومن هنا فقد وجدنا كثيرا من الذين اشتغلوا بالنجوم والفلك ينفون فى الرياضيات أو العكس . وكان من أوائل من اشتغل بالرياضيات فى الأندلس ، ولفت الأنظار إليها أبو القاسم مسلمة الجريطى (ت ٣٩٨ هـ) الذى وصفه صاعد بأنه « كان إمام الرياضيين فى وقته » وتخرج على يديه كثير من الطلاب مثل ابن السمح وابن الصفار والزهرائى والكرمانى وغيرهم (٥٠) .

كما كان من أوائل من اشتهروا بالرياضيات أيضا أبو عبيده مسلم ابن أحمد الليثى (ت ٢٩٥ هـ) المعروف بصاحب القبلة ، وكان عالما بالحساب والنجوم وتحركات الكواكب وأحكامها (٥١) .

ويحى بن يحيى القرطبى المعروف بابن السمينه وكان بصيرا بالحساب والنجوم (٥٢) .

كما برع عباس بن فرناس القرن الثانى - الثالث الهجرى (ت ٨٨٦ م) فى علم العدد الهندسة الميكانيكية ، حيث ابتكر الآلة المعروفة بالمقاتة لمعرفة الوقت على غير رسم وهثال . وقام بأول محاولة للطيران فى العالم

(٥٠) د . إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ص ٥٢ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .
(٥١) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٤٢٠ ج ٢ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٥٢) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٥٨٠ ج ٢ ص ١٨٨ .

- الإسلامي ، وكان متعدد المواهب برز في مجالات شتى (٥٣) .
- وكذلك القاسم بن أصبغ بن السمع (ت ٤٢٦ هـ) الذي برع في علم النجوم والهيئة والحساب والهندسة ، وله عدة مؤلفات منها : كتاب (المدخل إلى الهندسة) شرح فيه كتاب إقليدس ، وكتابان في الاسطرلاب ، وكتاب آخر في الهندسة (٥٤) .
- وكذلك أبو الحسن الزهراوى (على بن سليمان) - وهو غير أبو القاسم الزهراوى الطبيب المشهور - وكان عالما بالهندسة والعدد ، وله كتاب في الهندسة بعنوان : (المقابلات عن طريق البرهان) (٥٥) .
- كما اشتهر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني القرطبي (ت ٤٥٨ هـ) بالهندسة أيضا وكان قد رحل إلى المشرق في طلبها ، وخاصة في حران ، ثم عاد إلى الأندلس وصار لا يثق له غبار فيها ، وهو ول من أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس (٥٦) .
- وكذلك ابن الصفار الذي اشتهر بالحساب والهندسة والفلك أيضا ، وله زيج مختصر على مذهب السند هند . كما اشتهر بالرياضيات أيضا في عصر الحكم المستنصر عبد الله بن محمد المعروف بالسرى ، وكان الحكم يجله ويقربه ، وكذلك أبو بكر بن عيسى وكان مقدما في علوم الهندسة والعدد والنجوم ، وكان يجلس للتعليم فيها (٥٧) .

-
- (٥٣) انظر : نفع الطيب ج ٢ ص ٣٢١ وبعدها ، البيان المغرب ج ٢ ج ٢ ص ١٩٦ وبعدها .
- (٥٤) دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .
- (٥٥) الضبى : بغية المتمس ترجمة ١٢٢٠ .
- (٥٦) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٠ ، دائرة معارف الشعب (٦٤) ص ١٩٧ .
- (٥٧) د. أحمد هيكل : تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٢٨ .

ومن الرياضيين المشهورين بالأندلس أيضا محمد بن الفرغ الرشاشى الذى عرف بالذراع نظرا لانه ابتكر وحدة قياسية للمسافات هى الذراع الذى نسب إليه فأصبح يعرف بالذراع الرشاشى ، وكان أهل الأندلس يقيسون به . وبلغ طوله ضعف الذراع المأمونى الذى كان معروفا فى المشرق (١٧١سم) ويذكر أن الإدريسى والبكرى قد استخدماه فى قياس بعض المعالم الأثرية التى تحدثا عنها كمنارة الإسكندرية ، وجامع قرطبة وغيرهما (٥٨) .

التاريخ : لم يكن ظهور علم التاريخ فى الأندلس منفصلا عن جذوره التى نشأ فيها وتطور عنها فى المشرق ، وقد تأثرت الأندلس بمؤثرات علمية وفنية كثيرة وفقدت من المشرق ، ومنها تدوين التاريخ ، الذى تأثر فى بدايته بمدرسة مصر التاريخية بصفة خاصة ، كما تأثر بمؤثرات لاتينية وبخاصة كتاب هرويسيس فى التاريخ الذى تمت ترجمته ، واستفاد منه الكثير من المؤرخين الأندلسيين (٩٥) .

وقد اهتم الأندلسيون بتاريخ بلادهم ، وتعصبوا له مما يدل على ظهور الروح القومية الأندلسية ، فنجد ابن حزم يضع رسالة فى فضل علماء الأندلس ، ويعيب على أهلها تقصيرهم فى تخليد أخبار علمائهم مع كثرتهم ، وفى مآثرهم وفضائلهم ، ووفور أدبائهم ، وجلالة ملوكهم .

-
- (٥٨) ابن حيان : المقتبس ص ٣٢٥ - ٣٢٦ تحقيق د. محمود مكى .
وقد ذكره ابن الفرضى باسم محمد بن الفرغ الذراع المعروف بالرشاشى من أهل قرطبة ، وهو الذى ينسب إليه الذراع .
ونعتقد انه قد حدث خطأ فى الطبع والأصح ما ذكره ابن حيان .
(انظر : تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ١٤ ترجمة ١٣٣) .
(٥٩) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٧ .

كما وضع الشقندى - نسبة إلى شقندة وهى ربض من أرباض قرطبة - رسالة أخرى تعصب فيها للأندلسيين على طول الخط فقال : إن الإجماع حصل على فضل الأندلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والأدباء والشعراء ما اشتهر فى الأناق إلى أن ذهبوا وذهبت آثارهم ، ودرسوا ودرست آثارهم (٦٠) ، ثم امتد هذا التعصب ليشمل المدن والأقاليم الأندلسية حيث تعصب أهل كل مدينة لها ، وألفوا فى فضائلها . ويمتبر عبد الملك بن حبيب السلمى (ت ٢٣٨ هـ) - الذى لقب بعالم الأندلس - أول مؤرخ أندلسى يتعرض لتاريخ بلاده ، وهو من أوضح الأمثلة على تآثر الأندلس بالتأثيرات المشرقية فى تدوين التاريخ . فقد رحل إلى المشرق ، ودرس الحديث والفقہ على مذهب الإمام مالك ، واكتسبه ذلك توسعا وفيها فى دراسة التاريخ وقد وصفه ابن الفرضى بأنه (كان نصوبيا عروضا شاعرا ، حافظا للأخبار والأنساب والأشعار ، طويل اللسان ، متصرفا فى فنون العلم) . وذكر أن له مؤلفات فى الفقه والتواريخ والآداب كثيرة حسان (٦١) .

وقد ألف ابن حبيب فى التاريخ العام كتابا شسببها بكتاب الطبرى ، بداه بالحديث عن نشأة الخلق ، وتاريخ الأنبياء والرسل . وهذا القسم ملىء بالأساطير عن فتح الأندلس وسير ولاتها وأمراتها إلى عصره ، ولكنه خلط فى هذا القسم أيضا بين الأحداث التاريخية والأساطير ، مثل حديثه عن رؤيا طارق بن زياد التى رآها فى منامه وكانت سببا فى الفتح كما ذكر ، وحديثه عن طلسم لذريق ، ومائدة سليمان عليه السلام التى عثر

(٦٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٨ - ١٠ .

(٦١) انظر : تاريخ علماء الأندلس ترجمة (٨١٦) ج ١ ص ٢٦٦ -

عليها في الأندلس ، وكنوز قصر طليطلة التي عثر عليها المسلمون وغير ذلك .

ويبدو أن بعض تلاميذه قد أضاف إلى هذا الكتاب حيث نجد فيه أخبارا عن عصر الأمير عبد الله بن محمد إلى سنة ٢٧٤هـ ، رغم أن ابن حبيب توفي قبل إهارته سنة ٢٣٨هـ (٦٢) .

وقد أخذ ابن حبيب معظم الأخبار والروايات عن شيوخه من المصريين مثل الليث بن سعيد ، وعبد الله بن وهب كما ذكر ذلك بنفسه ، ولذلك نجده يتبع منهج المحدثين من حيث سند الخبر أو الرواية ، وإن كان هذا لم يمنع من تسلل الكثير من الحكايات الخيالية والأساطير إلى كتابه . ومع ذلك فإن كتاب ابن حبيب هذا يعد أول محاولة أندلسية

(٦٢) لا يزال هذا الكتاب مخطوطا في مكتبة البودليانا في أكسفورد

تحت رقم ١٢٧ . ويذكر بعض من اطلع عليه أنه ليس بذي قيمة علمية كبيرة ، نظرا لكثرة الاساطير فيه . وإن كان هذا لا يقلل من قدر ابن حبيب الذي كان أول رائدا في هذا المجال ، والريادة غالبا لا تتسم بالدقة الشديدة ، وتحتاج إلى التصحيح والإضافة . (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٨ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٤٩ ، ٢٣٥ ، د . أحمد هيكل : الأدب الأندلسي ص ١٢٦ .

وقد قام د . محمود مكي بدراسة وافية لهذا الكتاب ، ونشر الجزء الخاص بالأندلس منه بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمطرد سنة ١٩٥٧م ، وذكر أن هذه النسخة هي مختصر لكتاب ابن حبيب الاصلى ، وأن الذي قام بوضعها بعض تلاميذه وخاصة ابن أبي الرقاع (انظر نشأة تدوين التاريخ العربي ص ١٠) .

لكتابية تاريخ الأندلس . يرغم ما حفل به من أساطير ، وما شابه من قصور
يؤلف في بعض النواحي (٦٤) .
ويعتبر (معارك بن مروان) وهو حفيد موسى بن نصير (القرن
الثالث الهجري) من المؤرخين الأندلسيين الأوائل الذين حاولوا التدوين
في تاريخ الأندلس . حيث يشير الحميدى إلى انه ألف كتابا في فتح
الأندلس تناول فيه أخبار جده موسى (٦٤) .

ويرى د. محمود مكي ان القسم الذي يدور حول حياة موسى
ابن نصير في كتاب (الإمامة والسياسة) المنسوب لابن قتيبة مأخوذ عن
كتاب معارك ، وهذا الكتاب فيه أيضا الكثير من الاساطير والروايات
الخيالية (٦٥) .

ثم جاء بعد ذلك (عبد الله بن الحكيم ت ٣٤١ هـ) والذي
يعتبر بداية لمرحلة جديدة في التدوين التاريخي تخلت عن الاساطير ،
وركزت على موضوعات أندلسية . فقد ألف كتابا في الانساب بعنوان
(انساب الداخلين إلى الأندلس من العرب وغيرهم) أهده للخليفة
الناصر سنة ٣٣٠ هـ . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصلنا منه إلا شذرات
نقلها بعض المؤرخين اللاحقين .

وظهر في القرن الرابع الهجري مؤرخون اهتموا بالتراجم والطبقات ،

(٦٣) د. عبد الواحد ذنون : نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس
ص ٩ - ١٠ .

(٦٤) جذوة المقتبس ترجمة (موسى بن نصير) رقم ٧٩٣ ص ٢٣٨ .
(٦٥) قام د. محمود مكي بدراسة هذا الكتاب ونشر الجزء المتعلق
بالأندلس في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد العدد
الخامس سنة ١٩٥٧م (نشأة تدوين التاريخ العربي ص ١١) .

ويعد محمد بن حارث الخنسي (ت ٣٦١ هـ) من أبرزهم في هذا المجال ، وقد كانت له اهتمامات متعددة كالحديث والفقه واللغة والتاريخ . وقد صنف بتشجيع من الخليفة الحكيم العديد من الكتب في هذا المجال مثل كتاب (أخبار القضاة بالاندلس) وكتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) (٦٦) .

وكذلك ابن الغرضي أبو الوليد بن عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي (ت ٤٠٣ هـ) صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) الذي يعتبر من أشهر كتب التراجم الأندلسية .

ثم جاءت أسرة برز منها الكثير من المؤرخين الذين حاولوا وضع أسس لعلم التاريخ في الأندلس وهي أسرة الرازي ، ومن أبرز أفرادها أحمد بن محمد بن موسى الرازي (ت ٣٤٤ هـ) الذي كان مؤرخاً وجغرافياً ، ولقب (بالتاريخي) لكثرة مؤلفاته في مجال التاريخ ، وله كتاب (أخبار ملوك الأندلس) وكتاب (الاستيعاب في أنساب مشاهير الأندلس) ويقع في خمس مجلدات كبيرة . وكتاب آخر في مسالك الأندلس ومراسيها

(٦٦) نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ١٣ - ١٤ . وقد نشر الكتاب الأول في مدريد لأول مرة سنة ١٩١٤م بواسطة المستشرق الأسباني خوليان ريبيرا مع ترجمة إسبانية ، كما نشر في مصر بعناية عزت العطار سنة ١٩٥٤م ، ثم نشر بعنوان (قضاة قرطبة) في القاهرة سنة ١٩٦٦م وهي الطبعة التي اعتمد عليها الباحث . أما الكتاب الثاني فيوجد في مكتبة القصر الملكي بالرباط كتاب بعنوان (طبقات المحدثين بالاندلس) تحت رقم (٦٩١٦) يعتقد بأنه هو هذا الكتاب (انظر : نشأة تدوين التاريخ العربي ص ١٣ - ١٤) .

قصة راجع قديماً قبيحة لصحة منفتحاً بها ليعلم من ما قبلها
وأهيات أعيان مدنها وأخبارها ، وكتاب عن كبار الموالى
المسومة هنيئة بلعباً لها نعيها عبد هو بعداً رنفاً رنلطاناً رسوقفاً
الأندلسيين (٦٧) .

(٧٧) . (٧٧) .

ثم جاء بعده ابنه عيسى فأكمل ما بدأه ، وقد ألف كتاباً فى تاريخ
الأندلس لل خليفة المستنصر ، كما ألف كتابين آخرين للمتصور بن أبى عامر
أحدهما عن الوزارة والوزراء بالأندلس . والثانى عن الحجاب بالأندلس ،
كما أخذ فى إكمال كتاب أبيه عن أخبار ملوك الأندلس (٦٨) .

وقد تركت أسرة الرازى أثراً كبيراً فى مجال التدوين التاريخى .
فقد كان أحمد بن محمد أول من أدخل قاعدة التقديم للتاريخ بالجغرافيا
فى الأندلس ، وأخذها عنه معظم من جاء بعده من المؤرخين .

ثم جاء ابن القوطية (ت ٣٦٧ هـ) الذى برع فى علوم اللغة ، كما
برع فى التاريخ أيضاً « وكان حافظاً لأخبار الأندلس يملئها عن ظهر
قلب » كما ذكر ابن الفرضى (٦٩) .

ويعتبر كتابه الذى وصلنا وهو (تاريخ افتتاح الأندلس) أهم ما بقى
من مؤلفاته . ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى نهاية إمارة عبد الله
ابن محمد (٢٩٩ هـ) .

ويبدو أنه أملاه على بعض تلاميذه ، وقد أورد فى هذا الكتاب
أخبار كثيرة عن القوط الذين ينتسب إليهم ، يظهر من خلالها ميله إلى
أصله القوطى حيث يخالف فيها الكثير من المؤرخين ، كما أنه يأتى بحوادث

(٦٧) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ج ١ ص ٤٢ ترجمة ١٣٧ ،
الحميدى : جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ص ١٠٤ ، د. أحمد هيكل :
الأدب الأندلسى ص ١٩٢ .

(٦٨) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ٣٧ .

(٦٩) تاريخ علماء الأندلس ج ٢ ص ٧٦ ترجمة (١٣١٨) .

أسبانية لم يكن يعرفها العرب وتتضمن قصصا شعبية إسبانية مثل قصة القومس أرتباس الذى أعجب به عبد الرحمن أيما إعجاب وعينه قومسا لاهل ملته (٧٠) .

ورغم ذلك فإن هذا الكتاب يعتبر من المحاولات الرائدة فى مجال التدوين التاريخى فى الأندلس نظرا لما تميز به من ذكر لخصائص تتعلق بطبيعة وتكوين المجتمع الأندلسى ، وانتساب المؤلف لهذا المجتمع ، ومحاولته رسم صورة للأحداث التى مرت عليه منذ الفتح وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى (٧١) .

ويعتبر عريب بن سعد القرطبى (٢٦٩ - ٢٧٠ هـ) من مشاهير المؤرخين فى الأندلس أيضا ، وهو من أصل أسباني أسلم أباه ، وكان والده يعمل كاتباً لدى الخليفة الحكم المستنصر ، ثم عمل هو أيضا لديه ، وقد اختصر عريب تاريخ الطبرى وزاد عليه أخبار المغرب والأندلس ويسمى (صلة تاريخ الطبرى) (٧٢) . وقد حاول فيه تصحيح بعض المفاهيم التى كانت شائعة عن أحداث الفتح مثل قصة مائدة سليمان فتراه يقول عنها : « وأصاب طارق مائدة مظلومة بالدر والياقوت والزبرجد ، وهى التى يزعم الناس أنها مائدة سليمان بن داود عليها السلام ، ولم تكن كذلك . غير أن أهل الحسبة من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة أوصوا للكنايس بمال تصنع منه كراسى توضع عليها مصاحف الإنجيل فى الأعياد فكانت تشك المائدة مما يتفوق فيه

(٧٠) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ ، المختار من عالم الفكر ص ١٠٧ .

(٧١) نشأة تدوين التاريخ العربى ص ١٦ - ١٨ .

(٧٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

المالوك» (٧٣) .

وهذا التفسير الفريد يدل على معرفة عريب بعبادات الأسبان قبل الفتح ، ولذلك فقد علق المؤرخ المغربي ابن الشباط (٦٨١ هـ) على ذلك قائلا « واعلم أن هذا القول من عريب غريب ، لم يذكره فيما علمت غيره ، وإنما ذكروا كلهم أنها مائدة سليمان بن داود » (٧٤) .

ومن المؤرخين الأندلسيين أيضا ابن أبي الفياض (٤٥٩ هـ) ، وله كتاب يسمى العبر لم يبق منه إلا قطعة صغيرة وصلتنا ، إلى جانب نصوص منه نقلها بعض المؤرخين المتأخرين في مؤلفاتهم (٧٥) .

ومنهم أيضا : أحمد بن عمر العذرى (٤٧٨ هـ) ، وكان له اهتمام بالجغرافيا إلى جانب التاريخ ، وله كتاب (افتضاض أبقار أوائل الأخبار) ، وكتاب (أعلام النبوة) ، وكتاب (ترصيع الأخبار ، وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك) وهو كتاب جغرافى تاريخى . لم يبق منه إلا قطعة صغيرة معظم أخبارها عن الأندلس (٧٦) .

(٧٣) المختار من عالم الفكر ص ١٠٩ .

(٧٤) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصف لابن الشباط ص ١٤٩ نسان جديدان تحقيق د. أحمد العبادى : مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد سنة ١٩٧١ م .

(٧٥) نشر د. عبد الواحد ذنون هذه القطعة المتبقية من كتاب ابن أبي الفياض بعنوان (نص أندلسى جديد من تاريخ ابن أبي الفياض) بمجلة المجمع العلمى المرقى الجزء الأول - المجلد الرابع والثلاثين سنة ١٩٨٣ م .

(٧٦) نشر د. عبد العزيز الأهوانى القطعة المتبقية من الكتاب الأخير

وكان العذرى من أوائل المؤرخين الأندلسيين الذين ذكروا نص
المعاهدة التي عقدها عبد العزيز بن موسى بن نصير مع تدمير حاكم شرق
الأندلس (٧٧) .

ثم يأتي عمدة مؤرخى الأندلس ابن حيان (٤٦٩ هـ) وكان من كتاب
المنصور بن أبى عامر ، وقد ضاعت معظم كتبه ولم يتبق منها إلا أجزاء
من كتابيه الكبيرين المقتبس ، والمتين . أما المقتبس فيقع فى عشرة أجزاء ،
وتتضمن تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى زمن المؤلف (٧٨) .

وأما كتابه المتين فقليل إنه يقع فى ستين جزءا ، ولكنه للأسف

فى مدريد سنة ١٩٦٥ م بعنوان (نصوص عن الأندلس من كتاب
ترصيع الأخبار وتنويع الآثار) .
(٧٧) نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس ص ٥٥ .

(٧٨) وصلت إلينا قطع متفرقة من كتاب المقتبس نشر بعضها ، منها
قطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الله نشرها ملثور أنطونيه فى
باريس سنة ١٩٣٧ م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الأمير عبد الرحمن
الأوسط وابنه محمد نشرها د . محمود مكى فى القاهرة سنة ١٩٧١ م ،
وبيروت سنة ١٩٧٣ م . وقطعة تتضمن بعض أخبار الحكم المستنصر
نشرها د . عبد الرحمن الحجى فى بيروت سنة ١٩٦٥ م ، كما نشر
ليفى بروفنسال قطعة من الجزء الثانى فى مجلة (الأندلس)
الاسبانية المجلد الخامس عشر ، العدد الأول سنة ١٩٠٥ م .
ويوجد الجزء الخامس مخطوطا فى المكتبة الملكية بالرباط
برقم ٨٧ .

لم يصلنا منه شيء إلا فقرات نقلها منه بعض المؤرخين اللاحقين كابن
بسام فى الذخيرة .

وقد اشتهر ابن حيان بالصراحة البالغة ، والنقد الشديد ، وذكر
المحاسن والمساوىء دون تحرج حتى بالنسبة للأمراء والكبراء . فرغم أنه
كان من كتاب المنصور إلا أنه لم يتحرج من نقد بعض أفراد أسرته ولو من
بعيد . ونراه يظهر أسفه على زوال الدولة الأموية .

وقد ذكر عن نفسه أنه أولع بالتاريخ من صغره ، وشغف به شبا ،
فأعد له عدته . ويقال إنه كان يؤلف كتبه لنفسه وولده إلا أنه غير رأيه
فنشره فى الناس . وإن كنا نرى فى هذا مبالغة شديدة (٧٩) .

وقد لخص كتاب المقتبس ابو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى
(٤٨٨ هـ) فى كتابه المسمى (جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس) وهو
الوحيد الذى وصلنا من كتب الحميدى التى وصل عددها إلى تسعة
عشر (٨٠) .

ثم تتابع المؤرخون الأندلسيون بعسد ذلك كابن بشكوال وابن الأبار
وابن بسام وغيرهم . ويلاحظ على التاريخ فى الأندلس سواء كان تاريخا
علما ، أو تراجم رجال أنه قد تأثر بعلم الحديث ومنهجه فى المشرق .
ويرجع ذلك إلى أن أكثر المؤرخين فى الأندلس محدثين وفتهاء أشعبه
ما يكونون بالطبرى ، وكان منهجهم منهجا يسوده فى القالب فتته الإمام

(٧٩) احمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٧٥ وبعدها .

(٨٠) طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٩٥٣م بتحقيق محمد بن تاويت
الطنجى ، ثم أعيد طبعه فى الدار المصرية للتأليف والنشر سنة
١٩٦٦ (انظر مقدمة هذه الطبعة) .

مالك وما يبنى عليه من حديث وتفسير ، فكان ذلك يسلمهم من ترجمة رجال الفقه والتفسير والحديث إلى ترجمة رجال العلم والأدب ، كما أن التاريخ في الأندلس اتصل بالأدب أكثر من المشرق أيضا . حيث كان أكثر المؤرخين أدباء كذلك ، وكانت عواطفهم نحو بلدهم أقوى وخاصة بعد تساقط البلاد الأندلسية في يد الأسبان واحدة بعد الأخرى ، فكلما سقطت بلدة رثاها الأدباء ، وتحدث عنها المؤرخون . ولذلك كانت هذه الناحية في الأندلس أشد وأقوى (٨١) .

الجغرافية : أما عن الجغرافية فإنها لم تفرق عن التاريخ في الأندلس بوجه خاص ، حيث لا نكاد نجد مؤرخا أندلسيا إلا وكان جغرافيا في نفس الوقت ، أو بدأ تاريخه بمقدمة جغرافية وكما اشتهر الأندلسيون بولعهم الشديد بعلم التاريخ وخاصة تاريخ بلادهم إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول ابن سعيد المغربي (٨٢) ، فقد اشتهروا أيضا بولعهم الشديد بالرحلة والتنقل والأسفار ، وكان الواحد منهم يعاب بأنه لم يرتحل إلى المشرق لطلب العلم . ولهذا ظهر من بينهم نخبة من الرحالة الذين زاروا بلادا كثيرة ، وسجلوا مشاهداتهم في وصفها من نواحي شتى ، فحفلت مؤلفاتهم بمادة جغرافية كبيرة .

وبطبيعة الحال فقد احتل وصف وطنهم الأندلس مكانا بارزا في مؤلفاتهم ، فتحدثوا بالتفصيل عن خططها ومسالكها ومدنها وكورها ، وأنهارها وجبالها ، وتقسيماتها الإدارية وغير ذلك . كما اهتموا بضبط

(٨١) انظر : أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٥ .

(٨٢) د. حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس .

ص ٩٥ - ٩٦ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٣ .

الاسماء الاعجمية ، ومحاولة الرجوع إلى أصولها اللاتينية أو الاغريقية ، وابتكروا طريقة لطيفة في هذا المجال لإظهار مخاسن كل مدينة عن طريق إقامة مناظرات على أنسنة المدن الأندلسية المختلفة تفخر كل منها بنفسها ، وتظهر أوصافها ومزاياها التي لا توجد في غيرها (٨٣) .

وقد جمع الكثير من المؤرخين الأندلسيين معلومات جغرافية في كتبهم ، وخاصة عن الأندلس ومنهم ابن حيان ، كما ألف بعضهم كتباً في الجغرافيا أيضا إلى جانب التاريخ ، مثل أحمد بن موسى الرازي (٣٤٤ هـ) الذي ألف كتابا في مسالك الأندلس ومراسيها ، وأمهات مدنها ، ويدور معظمه حول صفة الأندلس ، ويعتبر مقدمة جغرافية لكتابه الكبير في التاريخ عن أخبار ملوك الأندلس (٨٤) .

ومحمد بن يوسف اللقب بالتاريخي الوراق ، الذي ألف للحكم المستنصر كتابا ضخما في مسالك إفريقية وممالكها ، كما ألف في أخبار ملوكها وحروبهم ، وفي أخبار تيهرت ، ووهران وتونس وسجلهاسة ونكور وغيرها (٨٥) .

وأحمد بن عمر العذري (٤٧٨ هـ) الذي جمع في كتابه (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى جميع الممالك معلومات جغرافية كثيرة (٨٦) .

(٨٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٨٤) تاريخ علماء الأندلس ترجمة ١٣٧ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٧٥ ، نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٣٣ - ٣٦ .

(٨٥) بغية الملتبس ترجمة ٣٠٤ ص ١٤١ ، جذوة المقتبس ترجمة ١٦٠ ص ٩٧ .

(٨٦) نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس ص ٥٥ - ٥٧ .

(م ٣٠ - الملتبس مع الأندلس)

ولا شك أن الجغرافيين الأندلسيين قد استفادوا من الكتب القديمة التي وضعت في تاريخ الأندلس وجغرافيتها مثل كتاب هرويسيس ، وكتاب القديس ايزيدورو الباجي والمسمى (اصول الكلمات) ، ونقلوا منها مثل المؤرخين كالرازي والعمري والبكري وغيرهم ، وهذا لا يقلل مطلقا من قيمة العمل الذي قاموا به ، بل يدل على تسامحهم وأمانتهم العلمية واتساع أفقهم وحرصهم على الاستفادة من تراث الآخرين (٨٧) .

أما أول الجغرافيين الأندلسيين الحقيقيين وأقدمهم فهو البكري عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب (٤٣٢ — ٤٨٧ هـ) ، الذي ألف معجما جغرافيا في أسماء البلاد والأماكن لازال بين أيدينا وهو (معجم ما استعجم) ، وله أيضا كتاب (المسالك والممالك) الذي وصلت إلينا قطع منه ، وضم فيه نفسا من التاريخ إلى جانب الجغرافيا ، وتعرض فيه لجغرافية إفريقية ومصر والأندلس والعراق وبلاد وراء النهر .

وفي الأجزاء الباقية من هذا الكتاب تتجلى بوضوح دقة البكري في ذكر الأسماء ونطقها وتفسير بعض أصولها مثل قوله عن طليطلة : « واسم طليطلة باللاتيني تولاطو Tolatom ومعناها فرح ساكنها لخصانتها » ، وقد ثبت أن في مشتقات هذه الكلمة اللاتينية ما يدل على معنى حافة الجبل وهو ما يتفق مع وضعها الجغرافي ، وقوله عن

(٨٧) بالنسبة : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣١١ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ .

(٨٨) عبد الله يوسف الغنيم : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي القسم الأول الكويت سنة ١٩٧٤ ، مصطفى الشهابي : الجغرافيون العرب ص ٥٣ ، أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٠ .
دراسات في الحضارة الإسلامية ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

إشبيلية « وأريت لبعض المؤرخين أن مدينة إشبيلية تسمى (إشبالي Hispalis) ومعناه المدينة المنسطة . وقوله فى وصف مدينة ماردة « وقد أحدق بالمدينة سور عرضه اثنا عشر ذراعا ، وارتفاعه ثمانية عشر ذراعا ، وعلى بابها كتابة ترجمتها بالأعجمية براءة لأهل إيلياء » (٨٩) .

وحسب البكرى فخرا ما توصل إليه من حقائق جغرافية سبق بها زمانه مثل قوله « وايقانس البحر المحيط (الأقيانوس أو المحيط الأطلنطى) لا يدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا ، والشمس إذا غابت فى أقصى الصين طلعت فى الجزائر (الخالدات) — وهى التى تعرف اليوم بجزر كنارياس أو الكناريا — وبالعقد » .

وقد علق د. حسين مؤنس على هذه العبارة بقوله « وهذه — لا زيادة — هى الفكرة التى جعلت من كولبس من هو فى تاريخ البشر ، وكأنما أخذ أبو عبيد البكرى بيده وقاده إلى ما وقع إليه من كشف عظيم ، وليس من قبيل المصادفة البحتة أن يكون البكرى من أبناء ولبة وهى على أميال قليلة من الربطة Larabida وفيها الدير الذى لجأ كولبس إلى أحباره لييسروا له مقابلة فرديناند وإيزابيلا ، ولا هو من قبيل المصادفة أن يكون أبو عبيد قد كتب هذه السطور فى إشبيليته البلد الذى عاش فيه كولومبوس زمانا ، وتعلم من أهله وعلمائه وبحارته الشىء الكثير ، بل إنه لا تبدو لنا مصادفة أن يكون خروج مراكب كولومبوس إلى العالم الجديد من ميناء (سان لوكار) أقرب بلد إلى ولبة والمسافة

(٨٩) د. أحمد العبادى : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن

الشباط ص ١٣٩ مدريد سنة ١٩٧١ م .

بينهما بضعة كيلو مترات « (٩٠) .

وفى هذا التعليق ما يكفى للدلالة على مدى تأثير البيئة المحلية الأندلسية فى خلق شخصيات جغرافية فذة كالبرى وغيره من الأندلسيين الذين حاولوا قبل كولومبس كشف غياهب بحر الظلمات أو البحر الأخضر أو الأقيانس (المحيط الأطلسى) الذى تطل عليه الأندلس .

فيحدثنا البرى : عن خشخاش بن سعيد بن أسود الذى خاطر مع جماعة من الشبان ، فركبوا البحر وغابوا فيه مدة ، ثم عادوا بغنائم كثيرة وأخبار مشهورة . وقد ظهر اسم خشخاش ووالده ضمن قادة الأسطول الأندلسى الذى تصدى لغارات النورمان فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ — ٢٣٨ هـ) .

وهذا يذكرنا بمحاولة أخرى قام بها فتية من أهل اشبونة (لشبونة) فى القرن الرابع الهجرى أطلق عليهم الفتية المفرورين أو المفررين أو المغربيين وكانوا ثمانية ، حيث توغلوا فى المحيط الأطلسى حتى وصلوا إلى جزر أخرى غير (جزر الأزور) القريبة من ساحل المغرب) . ويذكر أنهم ساروا فيه أحد عشر يوما ، ثم اتجهوا جنوبا حتى وصلوا فى اليوم الثالث والعشرين إلى جزيرة سموها (بجزيرة الغنم) تتميز بكثرة أغنامها ، وبوجود رجال فيها ثقر الوجوه شعورهم . سبطة (٩١) .

(٩٠) الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ص ٩٧ ، مجلة المختار من عالم الفكر ص ١١٤ — ١١٥ .
(٩١) البرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقيا والمغرب ص ٦١ — ٨١ ، الحميرى : الروض المعطار ص ١٦ ، ٢٨ ، المختار من عالم الفكر ص ١١٥ .

ثم جاء بعد ذلك الشريف الإدريسي أشهر الجغرافيين الأندلسيين قبل المسلمين (٤٩٢ - ٥٦٠ هـ) الذى تلقى تعليمه فى قرطبة ولذلك عرف بالقرطبي ، واتصل بالملك روجر الثانى ملك صقلية - فعرف بالصقلى أيضا - ولف بتشجيع منه كتابه الشهير (نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والاقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق) والذى يعرف بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق وملاه بالخرائط اللازمة التى تزيد عن أربعين خريطة ، وبلغ من إعجاب الأوربيين به أن ترجموه إلى اللاتينية فى وقت مبكر ، وكان من أوائل القائلين بكروية الأرض ، ورسم مصورات تتفق مع ذلك ، وقسم العالم إلى سبعين جزءا رسم لكل جزء مصورا (٩٢) . ويذكر انه عندما طلب منه روجر الثانى وضع خريطة للأرض ، طلب منه أن يصنع له كرة كبيرة من الفضة ليرسم عليها معالم الأرض ، ولذلك فإنه يعد باعتراف علماء الغرب أول من وضع أصول الرسم على سطح كروى مما كان له أثر فى تحديد معالم الكرة الأرضية تحديدا

٩٢) د. السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم ص ٣١٨ هامش ١ ، د. سعيد عاشور وآخران : دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية ص ٨٠ ، ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

ذكر ابن خلدون فى مقدمته ما يدل على أنه كان على علم بمحاولات البرتغاليين السير فى البحر المحيط بمحاذاة سواحل إفريقية فيقول : « وفى بحر الظلمات من جهة غربية الجزائر الخالدات التى منها بدأ بطليموس بأخذ أطوال البلاد ... وهى فى البحر المحيط جزر متكررة أكبرها وأشهرها ثلاث ويقال إنها معمورة ، وقد بلغنا أن سفائن الإفرنج مرت بها فى أواسط هذه المائة (المائة الثالثة) وقاتلوهم ففتحوا منهم وسبوا ، وباعوا بعض أسرارهم بسواحل المغرب الأقصى (المقدمة ص ٤٩) -

واقعيًا سليما (٩٣) :
الرحلات : وهما يتصل بالجغرافيا أكبر اتصال الرحلات ، وكما كان في المشرق رحالة كثيرون فكذا كان في الأندلس رحالة كثيرون . جابوا الكثير من الأقطار والبلدان ووصفوها وصفا دقيقا .

ومن الملاحظ أن من كتابة الرحلات كتابة علمية قد بدأ في الأندلس فرأينا نخبة من الرحالة الأندلسيين الذين وصلتنا كتبهم — وإن كان ذلك بعد العصر الأيوبي — يصفون لنا الكثير من مشاهداتهم في البلاد التي زاروها من نواحي شتى جغرافية واقتصادية وسياسية واجتماعية وعمرانية ... الخ ، كابن بطوطة وابن جبير وابن العربي وأبو حامد الفرناطى وغيرهم .

ومن أوائل الرحالة الأندلسيين الذين قدموا لنا وصفا لبلاد الروس التاجر اليهودى الأندلسى ابراهيم بن يعقوب الطرطوشى ، ويبدو أنه أسلم وتسمى باسم ابراهيم بن أحمد ، ودخل في خدمة الخليفة الحكم المستنصر ، وكان من تجار الرقيق الأبيض الذى كان يجلب من ألمانيا وشرق أوروبا من الصقالبة والروس .

وقد قدم ابراهيم وصفا لرحلته إلى الخليفة المستنصر أودعه مكتبته ، وعنه نقل ابن عذارى المراكشى ، كما نقل عنه البكرى في كتابه المسالك والممالك معلومات جغرافية تعتبر من أقدم وأدق ما لدينا عن وسط أوروبا وشرقها خلال القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .
فقد زار ابراهيم بن يعقوب بلاد الملك أوتو الأكبر امبراطور الدولة التبتونية ، ووصف بلاده وما فيها وسفا ممتعا ، كما زار شرق أوروبا

(٩٣) مجموعة من المؤلفين : دراسات في الحضارة الإسلامية ج ١

وجاء عنها بأبناء ذات قيمة علمية كبيرة اهتم بها علماء الالمان والروس
عناية كبيرة . وقد أيد الباحثون المحدثون ما ذكره ابراهيم من أنه لقي
الامبراطور سنة ١٩٧٢م (٣٦٢ - ٣٦٣ هـ) .

ومع ان النقول التي أخذت من وصفه قد حُرقت إلا ان المحققين
والدارسين استطاعوا أن يقوموا ويخرجوا منها بمعلومات مفيدة وقيمة
ساعدت كثيرا في دراسة جغرافية هذه البلاد (٩٤) .

* * *

(٩٤) د . سعيد عاشور وآخرون : دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية
العربية ص ٧٨ - ٧٩ ، أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٣
ص ٢٩٠ - ٢٩١ .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر القديمة

- ١ — ابن الأبار : الحلة السرياء ، تحقيق د. حسين مؤنس ، سلسلة نخائر العرب رقم (٥٨) ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥ م .
- ٢ — ابن الأثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ، المكتبة الإسلامية طهران ١٣٠٢ هـ .
- ٣ — ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، دار صادر بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- ٤ — ابن الأحرر (الأمير اسماعيل بن يوسف بن محمد ٨٠٧ هـ) : نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان ، دراسة وتحقيق د. محمد رضوان الداية ، المكتبة الأندلسية رقم (١٨) ، الطبعة الأولى ، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٧ م .
- ٥ — ابن الخطيب (لسان الدين) : أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر إلى ذلك من شجول الكلام ، نشر ليفى بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٤ ، بيروت سنة ١٩٥٦ م .
- ٦ — ابن الزبير : صلة الصلة ، تراجم لعلماء الأندلس فى القرن الثالث عشر الميلادى نشر ليفى بروفنسال — الرباط ١٩٣٨ م .
- ٧ — ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، سلسلة تراثنا ، المكتبة الأندلسية (٢) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ م .
- ٨ — ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشر خوليان ربيرا مدريد سنة ١٩٢٦ م ، وتحقيق عبد الله أنيس الطباع بيروت ١٩٥٨ م .
- ٩ — ابن بسام الأشتريشى : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، طبع

لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٤٥م ، وطبع
دار الثقافة بيروت سنة ١٩٥٩م .

١٠ - ابن بشكوال : كتاب الصلة في أصحاب القاضى أبى عبد الله
الصدفى نشر فرنسيسكو كوديرة مدريد سنة ١٨٨٣م ، وطبع
القاهرة سنة ١٩٥٥م .

١١ - ابن جابل : طبقات الأطباء ، تحقيق فؤاد سيد مطبوعات المعهد
العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٥٥م .

١٢ - ابن حزم الأندلسى : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ،
القاهرة سنة ١٣١٧هـ .

١٣ - ابن حزم الأندلسى : جهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام
هارون ، سلسلة ذخائر العرب (١٢) الطبعة الرابعة ، دار المعارف
بمصر سنة ١٩٧٧م .

١٤ - ابن حزم الأندلسى : رسائل ابن حزم ، تحقيق د. إحسان
عباس ، بيروت سنة ١٩٥٩م .

١٥ - ابن حزم الأندلسى : طوق الحمامة فى الإلفة والآلاف ، تحقيق
د. الطاهر مكى - الطبعة الخامسة - دار المعارف بمصر ١٩٩٣م .

١٦ - ابن حوقل النصيبى : صورة الأرض ، طبعة لندن سنة ١٩٢٨م .
وطبعة دار الحياة بيروت د.ت .

١٧ - ابن حيان : المقتبس فى أخبار بلد الأندلس ، قطعة من تحقيق ملثور
أنطونية ، باريس سنة ١٩٣٧م ، وقطعة من تحقيق د. عبد الرحمن
الحجى بيروت سنة ١٩٦٥ ، وقطعة من تحقيق د. محمود مكى ،
طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (٢١) القاهرة ١٩٧١م
ونشر دار الكتاب العربى بيروت ١٩٧٣م .

- ١٨ - ابن خاقان (الفتح) : مطمح الأنفس ومسرح التانيس فى ملح اهل
الاندلس قسطنطينية ، الجزائر ، ١٣٠٢ هـ ، ط القاهرة سنة ١٩٥٤م
- ١٩ - ابن خلدون : المقدمة ، المطبعة البهية بنصر د.ت ، الاميرية ١٣٢٠ هـ
- ★ - ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ .
- ٢٠ - ابن دحية الكلبى : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق
ابراهيم الإبيارى وأخيران ، الاميرية سنة ١٩٥٤م ، وتحقيق
د. مصطفى عبد الكريم ، الخرطوم ١٩٥٤م .
- ٢١ - ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د. شوقى
ضرف طبيا دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٤م .
- ٢٢ - ابن عبدون : كتاب آداب الحسبة ، نشر ليفى بروفنسال ، باريس
سنة ١٩٤٧م .
- ٢٣ - ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ،
دوزى ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م .
- ٢٤ - ابن غالب الأندلسى : كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، نشر
د. لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة
سنة ١٩٥٩م .
- ٢٥ - أبو عبيدة الخزرجى : بين الإسلام والمسيحية - تحقيق د. محمد
شامة مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٩م .
- ٢٦ - الإدريسى (الشريف) : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق نشر
دوزى ، ودى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م .
- ٢٧ - البكرى (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) : المغرب فى ذكر بلاد
إفريقية والمغرب نشر دى بلان ، الجزائر سنة ١٩٤٩م .

- ٢٨ - البغدادي (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق ، ط ٢ بيروت ١٩٧٩ م .
- ٢٩ - الحميدى : جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٣) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٣٠ - الحميدى : الزوض المعطار فى خبر الأقطار ، ط لجنة التأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٣٧ م ، وتحقيق د. إحسان عباس بيروت سنة ١٩٧٥ م .
- ٣١ - الخشنى : قضاة قرطبة - سلسلة تراثنا - المكتبة الأندلسية (١) الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٣٢ - الزبيدى : طبقات النحويين والمفويين - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة سنة ١٩٥٤ م .
- ٣٣ - الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق د. محمد بدران القاهرة سنة ١٩٥١ م .
- ٣٤ - الضبى : بغية المتتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، سلسلة تراثنا المكتبة الأندلسية (٦) - دار الكاتب العربى القاهرة ١٩٦٧ م .
- ٣٥ - الطرطوشى : الحوادث والبدع - تحقيق محمد الطالبي - تونس سنة ١٩٥٩ م .
- ٣٦ - المراكشى (عبد الواحد بن على التيمى) : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٤ هـ ، ونشر محمد سعيد العريان ومحمد العلمى القاهرة سنة ١٩٤٩ م .
- ٣٧ - المقدسى البشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ط ٢ مطبعة بريل ، لندن سنة ١٩٠٦ م - مكتبة المثنى ببغداد .

٣٨. - المقرئ : نفع الطيب فى غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، المطبعة الأزهرية بمصر سنة ١٣٠٢ هـ .
٣٩. - النباهى (ابو الحسن بن عبد الله) : تاريخ قضاة الاندلس المسمى (المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا) ، نشر ليلى بروفنسال ، دار الكتاب العربى القاهرة سنة ١٩٤٨ م .
٤٠. - مؤلف مجهول : اخبار مجموعة فى فتح الاندلس وذكر امرائها ، مجريط سنة ١٨٦٧ م ، مكتبة المثنى ببغداد .
٤١. - ياقوت الحموى : معجم الادباء طبعة د. أحمد رفاعى مطبوعات دار المأمون للطباعة القاهرة د.ت .
٤٢. - ياقوت الحموى : معجم البلدان بيروت سنة ١٩٦٠ م .

ثانيا : المراجع

- ١ — د. ابراهيم أحمد العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، ط ٢ الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة د.ت .
- ٢ — د. ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى اسبانيا ، ط ٢ دار النهضة العربية بيروت سنة ١٩٨٠ م .
- ٣ — د. ابراهيم على طرخان : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٤ — أبو صالح الأئنى : الفن الإسلامى (أصوله — فلسفته — مذهب) دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩ م .
- ٥ — د. إحسان النص : العصبية القبلية واثرها فى الشعر الأموى ، منشورات دار اليقظة بيروت د.ت .
- ٦ — د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى (عصر سيادة قرطبة) ط ١ دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٠ م .
- ٧ — أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ج ٣ ط ٤ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٦ م
- ٨ — أحمد أمين : فجر الإسلام ، ط ١٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٨ م .
- ٩ — د. أحمد الشعراوى : الأمويون أمراء الأندلس الأول . دار النهضة العربية القاهرة ١٩٦٩ م .
- ١٠ — د. أحمد الشعراوى : دراسات فى تاريخ اسبانيا فى العصور الوسطى ، ط دار النهضة العربية القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ١١ — د. أحمد العبادى : المجمل فى تاريخ الأندلس ، سلسلة المكتبة التاريخية (١) القاهرة سنة ١٩٥٨ م .
- ١٢ — د. أحمد العبادى وآخر : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، بيروت سنة ١٩٦٩ م .

- ★ - د. أحمد العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية سنة ١٩٦٨ م .
- ١٣ - د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ج ٣ ط ٤ سنة ١٩٧٠ ، ج ٤ ط ٦ سنة ١٩٨٢ م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .
- ١٤ - د. أحمد هيكل : الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، ط ٣ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧ م .
- ١٥ - آدم متر : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريده . ط ٣ مطبعة لجنة التأليف ١٩٥٧ م .
- ١٦ - البير حبيب : الحركة اللغوية فى الأندلس من الفتح العربى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧ م .
- ١٧ - د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة ، دار المعارف لبنان سنة ١٩٦٢ م .
- ١٨ - د. السيد عبد العزيز سالم : قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، ج ١ نشر مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر بالإسكندرية سنة ١٩٨٤ م .
- ١٩ - د. الطاهر أحمد مكى : دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ، ط ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣ م .
- ٢٠ - د. الطاهر أحمد مكى : دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، ط ٢ مكتبة وهبة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

- ٢١ - ألفرد جيوم وآخرون : تراث الإسلام ، ج ١ لجنة النشر للجامعيين ،
مكتبة الآداب ومطبعتها ، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٢٢ - بارتولد : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، الطبعة
الخامسة دار المعارف بمصر د.ت .
- ٢٣ - بنيامين فارنجتون : مدينة الإغريق والرومان ، ترجمة أمين نكلا ،
القاهرة سنة ١٩٤٨م .
- ٢٤ - توماس ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم
وآخرين مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠م .
- ٢٥ - جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية ، ط ١ دار
المعارف بمصر سنة ١٩٦٠م .
- ٢٦ - جنثالث بالنسيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة د. حسين مؤنس ،
القاهرة سنة ١٩٥٥م .
- ٢٧ - د. جوده هلال وآخر : قرطبة في التاريخ الإسلامي ، المكتبة
الثقافية (٧٢) ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة
والنشر ، القاهرة نوفمبر سنة ١٩٦٢م .
- ٢٨ - د. حامد زيان غانم : تاريخ الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها
على أوروبا ، دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٧م .
- ٢٩ - د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي والديني
والثقافي والاجتماعي ، ج ١ ط ٩ سنة ١٩٧٩م ، ج ٢ ط ١٠ سنة
١٩٨٣م ، ج ٣ ط ١١ سنة ١٩٦٣م مكتبة النهضة المصرية القاهرة .
- ٣٠ - د. حسن على حسن : الحياة الدينية في المغرب (القرن الثالث
المهجري) ، دار النور للطباعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .

- ٣١ - د. حسين مؤنس : شيوخ العصر فى الاندلس - المكتبة الثقافية (١٤٦) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة سنة ١٩٦٥ م .
- ٣٢ - د. حسين مؤنس : فجر الاندلس . القاهرة سنة ١٩٥٩ م .
- ٣٣ - د. حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس ط ١ ، دار مطابع المستقبل القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- ٣٤ - د. خالد الصوفى : تاريخ العرب فى اسبانيا (عصر المنصور الاندلسى) دار الكاتب العربى د.ت .
- ٣٥ - خوليان ربيرا : التربية الإسلامية فى الاندلس ، أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية ، ترجمة د. الطاهر مكى ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤ م .
- ٣٦ - ديلاس اوليرى : الفكر العربى ومكانته فى التاريخ . ترجمة د. تمام حسان المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦١ م .
- ٣٧ - رينهارت دوزى : تاريخ مسلمى اسبانيا ج ١ (الحروب الاهلية) ، ترجمة د. حسن حبشى دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣ م .
- ٣٨ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : اوربا فى العصور الوسطى ج ١ ، الانجلو المصرية سنة ١٩٧٨ م .
- ٣٩ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : بحوث فى تاريخ الإسلام وحضارته ، نشر عالم الكتب القاهرة سنة ١٩٨٧ م .
- ٤٠ - د. سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة الإسلام ، ط ٢ مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة سنة ١٩٨٨ م .
- ٤١ - د. سعيد عبد الفتاح وآخرون : دراسات فى تاريخ الحضارة

- الإسلامية العربية ، ط ٢ دار السلاسل الكويت سنة ١٤٠٦هـ /
١٩٨٦م .
- ٤٢ — سيد عبد الله حسين : الأجوبة الخفيفة فى مذهب الإمام أبى حنيفة
ط ١ نشر المكتبة المحمودية التجارية بمصر د.ت .
- ٤٣ — شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب فى أوربا وجزر البحر
المتوسط ، مطبعة الحلبي القاهرة سنة ١٩٣٣م .
- ٤٤ — صلاح الدين رسلان : الأخلاق والسياسة عند ابن حزم ، نشر
مكتبة نهضة الشرق — جامعة القاهرة سنة ١٩٨٥م .
- ٤٥ — صمويل ستيرن : الموشح الأندلسى ، ترجمة د. عبد الحميد
شيحة ، ط ١ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .
- ٤٦ — د. طه الحاجرى : ابن حزم صور أندلسية ، دار الفكر العربى ،
مطبعة الاعتماد بالقاهرة د.ت .
- ٤٧ — طاهر أحمد الزاوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا — طرابلس .
- ٤٨ — طاهر أحمد الزاوى : ترتيب قاموس المحيط . دار الفكر ببيروت د.ت .
- ٤٩ — عادل سعيد بشتاوى : الأندلسيون المواركة ، ط ١ مطابع
انترناسيونال برس القاهرة سنة ١٩٨٣م .
- ٥٠ — د. عبد الرحمن على الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى
حتى سقوط غرناطة ، ط ١ مصورة ، دار الاعتصام بالقاهرة
١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٥١ — د. عبد الشافى عبد اللطيف : العالم الإسلامى فى العصر الأموى ،
ط ١ دار الوفاء للطباعة القاهرة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ٥٢ — د. عبد العزيز الأهوانى : الزجل فى الأندلس ، القاهرة سنة
١٩٥٧م .

- ٥٤ - د. عبد العزيز عتيق : الأدب العربي فى الأندلس ، النهضة العربية
بيروت سنة ١٩٧٦ م .
- ٥٤ - د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسى للدولة العربية ، ج ٢ .
الأنجلو المصرية سنة ١٩٧٩ م .
- ٥٥ - د. عبد الواحد ذنون طه : نشأة تدوين التاريخ العربى فى
الأندلس ، ط ١ سلسلة الموسوعة التاريخية المصرية - دار
الثقافة العامة ، بغداد سنة ١٩٨٨ م .
- ٥٦ - د. على حسنى الخربوطلى : العرب والحضارة ، مكتبة الأنجلو
المصرية القاهرة سنة ١٩٦٦ م .
- ٥٧ - فرناندو دى لاجرانخا : مقامات ورسائل أندلسية (نصوص
ودراسات) ، ترجمة د. عبد الحليم عبد اللطيف ، ط ٢ دار الثقافة
العربية بالقاهرة د.ت .
- ٥٨ - د. فوزى عيسى : الهجاء فى الأدب الأندلسى ، دار المعارف
بمصر د.ت .
- ٥٩ - فون شك : الفن العربى فى أسبانيا وصقلية ، ترجمة د. الطاهر
مكى دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٥ م .
- ٦٠ - د. لطفى عبد البديع : الإسلام فى أسبانيا ، سلسلة المكتبة
التاريخية (٢) ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة سنة ١٩٦٩ م .
- ٦١ - لويس أرشيبالد : القوى العربية والتجارية فى حوض البحر
المتوسط . ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٥٩ م .
- ٦٢ - لويس معلوف : المنجد فى اللغة والإعلام . دار المشرق بيروت
١٩٨٦ م .
- ٦٣ - ليفى بروفنسال : أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة د. محمد
عبد الهادى شعيرة ، الأهرية بالقاهرة سنة ١٩٥١ م .

- ٦٤ - ليفى بروفنسال : الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة د. السيد سالم ، د. لطفى عبد البديع ، محمد حلمى القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٦٥ - ليفى بروفنسال : الحضارة العربية فى أسبانيا ، ترجمة د. الطاهر مكي ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧ م .
- ٦٦ - لين بول وآخرون : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢ م .
- ٦٧ - لين بول : قصة العرب فى أسبانيا ، ترجمة على الجارم ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩ م .
- ٦٨ - مجموعة مؤلفين : دراسات فى الحضارة الإسلامية ، ثلاثة مجلدات صدرت بمناسبة القرن الخامس عشر الهجرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥ م .
- ٦٩ - د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ، المكتبة الثقافية (٢٣٧) الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- ٧٠ - محمد دياب : تاريخ العرب فى أسبانيا ، ج ١ القاهرة ١٩١٤ م .
- ٧١ - د. محمد زكريا عنانى : الموشحات الأندلسية ، سلسلة عالم المعرفة (٣١) الكويت يوليو سنة ١٩٨٠ م .
- ٧٢ - محمد عبد الغنى حسن : علم التاريخ عند العرب ، مؤسسة المطبوعات الحديثة القاهرة د.ت .
- ٧٣ - محمد عبد الله عذان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية سلطنة غرناطة ، العصر الأول (القسم الأول) ط ١ مطبعة لجنة التأليف القاهرة ١٣٦٢هـ/١٩٤٣ م ، العصر الأول (القسم الثانى - عصر الفتنة) ط ١ مطبعة مصر ١٣٧١هـ/١٩٥٢ م .

- ٧٤ - محمد على الصابونى : زوائج البيان فى تفسير آيات الاحكام ،
ط ٢ منشورات مكتبة الغزالي بدمشق ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .
- ٧٥ - د. محمد كامل حسين : نظرية المثل والمثول ، دار الفكر العربى
القاهرة سنة ١٩٤٨م .
- ٧٦ - د. محمد شتا زيتون : المسلمون فى المغرب والاندلس ج ١ ،
الطبعة الاولى دار الوفاء للطباعة بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .
- ٧٧ - د. محمد عبد القادر الخطيب : دراسات فى تاريخ الحضارة
الإسلامية ، ط ١ مطبعة الحسين الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٠م .
- ٧٨ - د. محمود على حياية : ابن حزم ومنهجه فى دراسة الأديان ،
ط ١ دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٣م .
- ٧٩ - د. مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسى (موضوعاته وفنونه)
ط ٤ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٩م .
- ٨٠ - مصطفى الشهابى : الجغرافيون العرب ، سلسلة إقرا (٢٣٠)
فبراير سنة ١٩٦٢م دار المعارف بمصر .
- ٨١ - د. منى منير محمود : المسلمون فى الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة
(٩٢ هـ - ٢٠٦ هـ) ، دار الفكر العربى القاهرة سنة ١٩٨٦م .
- ٨٢ - د. محمد حى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق
والغرب أواخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب
سنة ١٩٧٣م .

... ثالثا : الدوريات

- ١ - دائرة معارف الشعب : كتاب الشعب (٦١) ، (٦٤) مطابع الشعب القاهرة سنة ١٩٥٩م .
- ٢ - مجلة البحوث الإسلامية عدد ١٧ . السعودية سنة ١٩٨٤م .
- ٣ - مجلة المجلة ، عدد ٢ فبراير سنة ١٩٥٧م القاهرة .
- ٤ - مجلة المختار من عالم الفكر - (١) دراسات إسلامية ، الكويت سنة ١٩٨٤م .
- ٥ - مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٠) عدد (٢) سبتمبر سنة ١٩٧٩م الكويت .
- ٦ - مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٢) عدد (١) (حضارة الأندلس) سنة ١٩٨١م الكويت .
- ٧ - مجلة عالم الفكر ، مجلد (١٥) عدد (٣) (كتابات في الحضارة) سنة ١٩٨٤م الكويت .
- ٨ - مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الثاني ١٩٥٤م .
- ٩ - مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد الخامس ١٩٥٧م .
- ١٠ - مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، سنة ١٩٥٦م .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧ — ٣	المقدمة
٦٦ — ٨	الفصل الأول : (عناصر السكان فى الأندلس)
١٣ — ٨	تمهيد:
٢٠ — ١٤	أولا : العنصر العربى
٢٩ — ٢١	ثانيا : العنصر البربرى
٣٣ — ٣٠	ثالثا : الموالى
٤٠ — ٣٤	رابعا : العنصر الأسبائى
٤٥ — ٤١	خامسا : عنصر المولدين
٥٠ — ٤٦	سادسا : اليهود
٦٠ — ٥١	سابعاً : الصقلية
٦٦ — ٦١	ثامنا : النورمان (الفايكنج)
١٣٤ — ٦٧	الفصل الثانى : (العلاقات بين عناصر السكان)
٧٨ — ٦٩	أولا : الاختلاط بين الأجناس
٨٥ — ٧٩	ثانيا : الامتزاج بين الثقافات
١٢٥ — ٨٦	ثالثا : النزاع بين عناصر السكان
	النزاع بين العرب وبعضهم — النزاع بين العرب والبربر — الفتن بين العرب والمولدين — ثورة ابن حنصون
١٣٤ — ١٢٦	رابعا : العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة
٢٠٠ — ١٣٥	الفصل الثالث : (الحالة الدينية)

الصفحة	الموضوع
١٦٥ - ١٣٧	أولاً : المذاهب الفقهية المذهب المالكي - المذهب الشافعي - المذهب الحنفي - المذهب الظاهري
٢٠٠ - ١٦٦	ثانياً : المذاهب الدينية (الكلايمية) مذهب الشيعة - مذهب المعتزلة - مذهب الخوارج - التصوف
٣٣٣ - ٢٠١	الفصل الرابع : (مظاهر الحياة الاجتماعية)
٢٦٤ - ٢٠٣	أولاً : العمارة (الدينية والمدنية)
٢٨٧ - ٢٦٦	ثانياً : مجالس الموسيقى والغناء
٢٩١ - ٢٨٨	ثالثاً : الطعام والشراب
٣٠١ - ٢٩٢	رابعاً : الملابس والأزياء والزينة
٣١١ - ٣٠٢	خامساً : الأعياد والمواسم والحفلات
٣١٨ - ٣١١	سادساً : وسائل اللهو والتسلية
٣٣٣ - ٣١٩	سابعاً : المرأة ودورها
٣٧٩ - ٣٣٣	الفصل الخامس : (الحالة الاقتصادية)
٣٣٧ - ٣٣٥	أولاً : موقع الأندلس ومناخها
٣٤٠ - ٣٣٧	ثانياً : البيئة الطبيعية للأندلس
٣٤٦ - ٣٤٠	ثالثاً : الزراعة
٣٥٨ - ٣٤٧	رابعاً : الصناعة
٣٦٤ - ٣٥٩	خامساً : التجارة
٣٧٩ - ٣٦٥	سادساً : موارد الدولة ونظامها المالي
٤٧١ - ٣٨٠	الفصل السادس : (الحالة العلمية والثقافية)

الصفحة	الموضوع
٣٩٦ — ٣٨٢	أولاً : روافد الحركة العلمية وعوامل نشاطها ...
٤٠٣ — ٣٩٧	ثانياً : التعليم عند الأندلسيين ...
٤٠٥ — ٤٠٣	ثالثاً : الإجازات العلمية ...
٤٧١ — ٤٠٥	رابعاً : أهم العلوم وأشهر العلماء ...
٤٣٢ — ٤٠٥	١ — العلوم الدينية والعربية ...
٤٧١ — ٤٣٣	٢ — العلوم العقلية ...
٤٨٧ — ٤٧٣	قائمة المصادر والمراجع ...
٤٨٩ — ٤٨٨	فهرس الموضوعات ...

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية

رقم ١/٩١٩٤/٢٥٤٧

تحريراً فى ١/٢٥/١٢٩٤

مطبعة الحسين الإسلامية

٢٥ حارة المدرسة - خلف الجامع الأزهر

تليفون ٥١٠٦٧٢٤

